نَظمُ القُرْآنِ وَ الكِتاب

The Composition of the Qur'an and the Book

الأستاذ يوسف درة الحداد

Professor Youssef Durrah al - Haddad

الكِتاب الثاني : مُعْجِزة القرآن

(القسم الأول : ص ١ ــ ٢٩٧)

Book Two : The Miracle of the Qur'an
(The First Part: pp 1- 297)

www.muhammadanism.org
November 7, 2011
Fonts: Arabic Transparent & Andalus

دُروسٌ قُرآنيّة

٣

نَظمُ القُرآنِ وَالكِتَابِ

* إعجاز القُرآن
** مُعْجزة القُرآن

منشورات المكتبة البُولسِّة
جونية

نظم القرآن و الكتاب

الكِتاب الثاني: معجزة القرآن

* « **إنّ نبوّة النبي ﷺ معجزتها القرآن** »
(الباقلاني: إعجاز القرآن ٤)

* « **فالقرآن وحده معجزة محمد** »
(شيخ الأزهر مصطفى المراغى)

* **والواقع التاريخي المشهود والمشهور هو إختلافهم في وجه الإعجاز**
و « ما لا يمكن الوقوف عليه، لا يتصور التحدّي به »
(السيوطي: الإتقان ٢:١١٧)

الأستاذ يُوسف دُرّة الحَدّاد

* « قلْ : لئن اجتمعت الإنس و الجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون **بمثله**، و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا »
(الإسراء ٨٨)

* « و شهد شاهد من بني إسرائيل على **مثله** »
(الأحقاف ١٠)

* « ومنه آيات محكمات، هنّ أم الكتاب، وأخر متشابهات ... و ما يعلم تأويله إلاَّ الله. و الراسخون في العلم يقولون: منا به »
(آل عمران ٧)

* « وما منعنا أن نرسِل بالآيات، إلا أن كذب بها الأولون »
(الإسراء ٥٩)

فهرس

تمهيد: المعجزة دليل النبوّة الأوحد ٣١

أولاً: ضرورة المعجزة لصحة النبوّة، بحسب الكتاب ٣١
ثانياً: ضرورة المعجزة لصحة النبوّة، بحسب علم الكلام ٣٤
ثالثاً: ما بين الإِعجاز و المعجزة ٣٧

القسم الأوّل

المعجزة الحقيقية

هل يشهد القرآن لمحمد بمعجزة ؟

تقديم: أنواع المعجزة الحقيقية ٤٣

الفصل الأول: المعجزة الحسية، و هي المعجزة حصراً ٤٥

توطئة: « موقف القرآن السلبي » من كل معجزة له ٤٥
بحث أوّل: الواقع القرآني ينفى المعجزة عن محمد ٤٨
بحث ثانٍ: المعجزات في الحديث و السيرة ٨٣

أولاً: موقف الأقدمين ٨٣
ثانياً: موقف المعاصرين الصادقين ٨٧
ثالثاً: موقف بعض المعاصرين الرجعين ٩٤
بحث ثالث: قالوا ذكر القرآن لمحمّد معجزات ٩٥
أولاً: « أسطورة شق الصدر » ٩٥
ثانياً: الإسراء و المعراج ٩٧
ثالثاً: معجزة الغار ١٠٤
رابعاً: معجزة « الرمى » في بدر ١٠٥
خامساً: معجزة انشقاق القمر ١٠٩
بحث رابع: « التأييدات الربانية » للنصر في الحرب ١١١
أولاً: نصر الله في مواطن كثيرة ١١٢
ثانياً: فلسفة القرآن في الجهاد و النصر و الفتح ١١٧
بحث خامس: « الآيات البيّنات » التى يذكرها القرآن ١٢١
بحث سادس: موقف القرآن السلبي من المعجزة و فلسفته عند أهل عصرنا ١٢٧
أولاً: من تاريخ فلسفة أهل العصر في النبوّة و المعجزة ١٢٧
ثانياً: فلسفة أهل العصر في النبوّة و المعجزة ١٥٣
خاتمة الفصل: ليس للقرآن و النبي من معجزة حسية ١٦٨

الفصل الثاني: المعجزة الغيبية، و هي النبؤة حصرا أى علم الغيب ١٧١

توطئة: النبؤة الغيبية معجزة إلهيّة ١٧١

بحث أول: هل إنباء المستقبل في القرآن نبؤة من علم الغيب ؟ ١٧٢
أولاً: نبؤة ظهور الإسلام على الدين كله ١٧٤
ثانياً: إستخلاف المسلمين في الأرض ١٧٤
ثالثاً: النبؤة بنصر بدر ١٧٦
رابعاً: النبؤة بفتح مكّة ١٧٧
خامساً: الوعيد بهلاك كفار مكّة ١٧٨
سادساً: دعوة المسلمين إلى قتال الفرس و الروم ١٧٩
سابعاً: تهديد المتخلفين عن غزوة تبوك ١٧٩
ثامناً: قصة الروم ١٨٠
بحث ثان: هل في القصص القرآني نبؤة من علم الغيب ؟ ١٨٢
أولاً: قصص القرآن كان متداولاً بين العرب قبل القرآن ١٨٣
ثانياً: اتّصال العرب بأهل الكتاب ١٨٣
ثالثاً: اتّصال محمد نفسه بأهل الكتاب ١٨٤
رابعاً: تداول الكتاب و الإنجيل معرَّبين بين العرب قبل القرآن ١٨٥
خامساً: القرآن ((تفصيل الكتاب)) ١٨٥
سادساً: سيرة محمّد تدل على سعة علمه و اطّلاعه ١٨٦
خاتمة: محمد ((لا يعلم الغيب))فهو نبي بلا نبؤة غيبية ١٨٨

الفصل الثالث: المعجزة الشخصيّة ١٨٩

توطئة عامة: نواحى الإعجاز في الرجل و النبي و الرسول ١٨٩

الجزء الأوّل: الإعجاز في السيرة

توطئة: العبقرية و « البشرية » في النبي العربي ١٩١

بحث أول: سيرة محمد الشخصية ١٩٣
أولاً: حب السيطرة و التمتع بطيبات الحياة فطرة في الانسان خضع لها محمد ١٩٤
ثانياً : أزمات محمد النفسية ١٩٨
ثالثاً : الذنب و الاستغفار ٢٠٤
بحث ثانٍ : سيرة محمد البيتية ٢٠٨
أولاً : استباحة شريعة القرآن الزواجية ٢٠٨
ثانياً : في المشاكل التى نشأت عن استباحة الشريعة القرآنية ٢١٤
ثالثاً : المآسي الناجمة عن تعدد زوجات النبي ٢١٨
بحث ثالث : سيرة محمد النبوية ٢٢٣
أولاً : حياة محمد قبل النبوّة : « وجدك ضالا فهدى » ٢٢٤
ثانياً : حياة محمد النبوية : الازمات الإيمانية العشر ٢٢٦
بحث رابع : سيرة محمد الجهادية ٢٣٧
أولاً : شريعة الجهاد و الحق ٢٣٧
ثانياً : صدى شريعة الجهاد في نفوس المسلمين ٢٤١

ثالثاً : استباحة الحرمات بسبب شريعة الجهاد ٢٤٢
رابعاً : الاغتيالات السياسية ، نتيجة شريعة الجهاد ٢٤٥
خامساً : الشبهات على شريعة الجهاد في القرآن ٢٤٩
خاتمة : ليس إعجاز محمد في السيرة معجزة الهية ٢٥٨

الجزء الثاني : الإعجاز في النبوّة

توطئة : صفة نبوّة محمد و كيفيتها ٢٦١
بحث أوّل : معنى « نبؤة » محمد بحسب القرآن ٢٦٢
بحث ثان : صفات « النبي » محمد في القرآن ٢٦٥
أولاً : صفات عامة ٢٦٥
ثانياً : صفاتٌ ثلاث تصف النبي العربي ٢٦٦
بحث ثالث : نبؤة محمد هداية و اقتداء ٢٧٢
بحث رابع : هل القرآن العربي « أسلوب جديد » في النبوّة و المعجزة ٢٧٦
بحث خامس : كيفية الوحي القرآني - « برحاء الوحي » ٢٨٠
خاتمة : « برحاء الوحي » ليست من الإعجاز في النبوّة ٢٨٤

الجزء الثالث : الإعجاز في الرسالة

توطئة : ما بين الرسول و الرسالة ٢٨٥
بحث أوّل : الرسالة ما بين الفشل و النجاح ٢٨٦
بحث ثان : فرض القتال في الدين ٢٨٩

بحث ثالث : تحويل الدين بالجهاد إلى دولة و نظام دنيا ٢٩٢
بحث رابع : تحويل الدين إلى سياسة ٢٩٣
بحث خامس : الجهاد أسلوب غريب في الدعوة لدين الله ٢٩٤
خاتمة : معجزة « الحديد » هي الإعجاز في الرسالة ٢٩٦

الفصل الرابع : المعجزة الذاتية ٢٩٩

توطئة عامة : نواحى الإعجاز في التنزيل و التأليف و التدوين ٢٩٩

الجزء الأول : الإعجاز في التنزيل

توطئة : الإعجاز الأوّل يكون في التنزيل ٣٠٠
بحث أول : التنزيل في لغة القرآن ٣٠٢
بحث ثان : التنزيل و مسألة خلق القرآن ٣٠٣
بحث ثالث : تنزيل القرآن بالمعنى أم بالحرف ٣٠٥
بحث رابع : نزول القرآن على سبعة أحرف ٣٠٦
أولاً : حديث الأحرف السبعة و التنزيل ٣٠٧
ثانياً : حديث الأحرف السبعة و التاريخ ٣٠٩
بحث خامس : ميزات التنزيل القرآني ٣١٢

أولاً : بحسب القرآن ٣١٢
ثانياً : بحسب الحديث ٣١٨
بحث سادس : عرضات القرآن السنوية على جبريل لتنقيح القرآن ٣٢٢
بحث سابع : قصة الناسخ و المنسوخ ، و الإعجاز في التنزيل ٣٢٦
أولاً : قصة النسخ و غرائبها و شبهاتها ٣٢٧
ثانياً : النسخ ميزة القرآن وحده ٣٣٠
ثالثاً : حجة من قال لا نسخ في القرآن واهية متهافتة ٣٣٣
بحث ثامن : طريقة الوحي القرآني أدنى طرق الوحي ٣٣٥
أولاً : وحى بالواسطة ٣٣٦
ثانياً : التنزيل القرآني بوسط ووسيط ٣٣٨
ثالثاً : تعدد الوسائط في الوحي القرآني ٣٣٩
رابعاً : تعارض نزول القرآن جملة و مفرقا ٣٤٠
خامساً : نزول القرآن بحسب الحاجة ٣٤٢
سادسا : هل التنزيل القرآني وحي ليلي ؟ ٣٤٣
بحث تاسع : القرآن ما بين التنزيل و التفصيل ٣٤٤
أولاً : التنزيل القرآني و مصادره ٣٤٥
ثانياً : العربي هو ((تفصيل الكتاب للعرب)) ٣٥١
بحث عاشر : التنزيل ما بين القرآن و الإنجيل ٣٥٧

خاتمة : شبهات عشر على الإعجاز في التنزيل ٣٦١

الجزء الثاني : الإعجاز في التأليف

توطئة : حسن التأليف ناحية من الإعجاز البياني ٣٦٢
بحث أول : تأليف القرآن في تنزيله ٣٦٣
أولاً : تنزيله آيات ٣٦٣
ثانياً : تعليمه آيات ٣٦٣
بحث ثان : ترتيب الآيات في السورة ٣٦٤
أولاً : الواقع التاريخي ٣٦٤
ثانياً : الواقع القرآني ٣٦٦
بحث ثالث : ترتيب السورة في المصحف العثمانى ٣٧١
أولاً : الاجماع بأنه من الصحابة ٣٧١
ثانياً : شهادة التاريخ و الواقع القرآني ٣٧٢
ثالثاً : النتائج الحاسمة لهذا الواقع القرآني في المصحف العثمانى ٣٧٣
بحث رابع : « في مناسبة الآيات و السور » (الإتقان ٢: ١٠٨) ٣٧٣
أولاً : « علم المناسبة » ٣٧٣
ثانياً : علم المناسبة ينقضه تاريخ التنزيل و تاريخ الجمع ٣٧٥
بحث خامس : من الإقحامات النافرة في الآيات و الكلمات ٣٧٦
بحث سادس : ما بين الوحدة الموضوعية و الوحدة الفنية في السور ٣٧٩

أولاً : مثال في السور الأولى ٣٨٠
ثانياً : مثال في التأليف سورة (البقرة) ٣٨١
ثالثاً : مثال التأليف في سورة (المائدة) ٣٨٢

خاتمة : الاختلاف الواقع في الجمع والنظم والموضوع ٣٨٥

الفصل الخامس : المعجزة الظرفية ٣٨٧

توطئة عامّة : هل في ظروف الدعوة القرآنية من معجزة ؟ ٣٨٧

الجزء الأوّل : الإعجاز القرآني من حيث البيئة

توطئة : الإعجاز من حيث الزمان والمكان معجزة ٣٨٩
بحث أوّل : هل من معجزة في اختيار الجزيرة العربية للقرآن ؟ ٣٩٢
بحث ثانٍ : هل من معجزة في اختيار لسان العرب للقرآن ؟ ٣٩٤
بحث ثالث : هل من معجزة في توقيت الرسالة القرآنية ؟ ٣٩٦
بحث رابع : اصطفاء محمّد للدعوة القرآنية فضل من الله أم معجزة شخصية ؟ ٤٠١
خاتمة : معجزات ليس النبي ولا القرآن بحاجة إليها ٤٠٥

الجزء الثاني : الإعجاز في شمول الدعوة القرآنية و كمالها

توطئة : الشمول والكمال في الدعوة القرآنية ٤٠٦
بحث أوّل : الشمول في التصحيح والتتميم ٤٠٧
بحث ثانٍ : الشمول في موضوع الدين ٤٠٩

أولاً : الشمول في توحيد شئون الدنيا و الآخرة ٤١٠
ثانياً : الشمول في الجمع بين الجسد و الروح في الدين ٤١١
ثالثاً : الشمول في جعل الإسلام ديناً ودولة معاً ٤١٤
بحث ثالث : الكمال في تحرير الدين من كل سلطة في الدين ٤١٦
بحث رابع : الدعوة القرآنية قومية أم عالمية ؟ ٤١٩
أوّلاً : تصاريح القرآن في قومية دعوته ـ سبع مجموعات ٤١٩
ثانياً : سبعة مبادىء قرآنية تجعل القرآن دعوة قوميّة ٤٢٣
ثالثاً : آيات متشابهات في عمومية الدعوة و عالميتها ٤٢٧
رابعاً : في دلائل التاريخ الخاص و العام ٤٣١
خاتمة : القول الفصل في تصاريح القرآن ٤٣٤

الجزء الثالث : معجزة حفظ القرآن

توطئة : إعجاز القرآن في نظمه قائم على معجزة ((حفظه)) في حرفة ٤٣٥
بحث أوّل : معنى آية ((الحفظ)) ٤٣٦
بحث ثان : أدوات حفظ القرآن قبل جمعه ليست مأمونة ٤٣٩
بحث ثالث : الرخص النبوية الأربع لقراءَة القرآن قبل جمعه ٤٤١
أولاً : قراءَة القرآن بالمعنى ، من دون الحرف ، قبل جمعه ٤٤٢
ثانياً : اباحة القراءَات المختلفة للنص الواحد ٤٤٣
ثالثاً : الرخصة في قراءَة القرآن بجميع لغات العرب ٤٤٤

رابعاً : بعد نزول القرآن على سبعة أحرف ، إباحة القراءَات بها ٤٤٥
بحث رابع : « في معرفة حفاظه و رواته » ٤٤٨
بحث خامس : من تاريخ جمع القرآن و تدوينه ٤٥٠
أولاً : المحاولات الفردية لجمع القرآن ٤٥٠
ثانياً : المحاولات الرسمية لجمع القرآن ٤٥٤
بحث سادس : « القرآن المصفّى » ٤٦٣
خاتمة : هل في ذلك الواقع التاريخي من معجزة في « حفظ » القرآن ؟ ٤٦٥
الفصل السادس :المعجزة الموضوعية ٤٦٧
توطئة عامّة : المعجزة الحقيقية تكون في المعنى قبل الحرف ٤٦٧

الجزء الأوّل : الإعجاز في الهدى و العقيدة

توطئة : سرّ الإعجاز في النظم أم في الهدى ؟ ٤٦٩
بحث أوّل : القرآن يتحدى المشركين بهدى الكتاب ٤٧٠
أوّلاً : القرآن يحصر التحدّي بالهدى و بالمشركين ٤٧٠
ثانياً : ظهور الإسلام « على الدين كله » هو ظهور « للاسلام » من قبله ٤٧١
ثالثاً : جدال القرآن كان بالكتاب المنير ٤٧٢
رابعاً : الكتاب من قبله « هدى للمتقين » من العرب ٤٧٢
خامساً : هدى القرآن من هدى الكتاب ٤٧٢

سادساً : هدى القرآن من هدى ((المسلمين)) من قبله ٤٧٣
سابعاً : القرآن يشهد للاسلام بشهادة أهله ((الراسخين في العلم)) ٤٧٣
بحث ثان : الكتاب ((إمام)) القرآن في الهدى ٤٧٤
أولاً : ليس في هدى القرآن على الكتاب سوى اللسان العربي ٤٧٤
ثانياً : صحّة الهدى في القرآن مبينة على إمامة الكتاب له ٤٧٥
ثالثاً : محمد يؤمر أن يقتدى في القرآن بهدى الكتاب و أهله ٤٧٦
رابعاً: ما القرآن سوى تعليم العرب ((الكتاب والحكمة)) أى التوراة والإنجيل ٤٧٦
خامساً : القرآن يشرع للعرب دين ((موسى و عيسى)) ديناً واحداً ٤٧٧
سادساً : ((عباد الرحمان)) هم ((إمام المتقين)) من العرب ٤٧٨
سابعاً : ((ما لم ينزل من القرآن على أحد قبل النبي)) ٤٧٨
بحث ثالث : من ظواهر تحدّى القرآن بالهدى ٤٧٩
أوّلاً : التحدّي بالقرآن يلازمه ردْع النبي عن الشرك ٤٧٩
ثانياً : التحدّي بالقرآن و الركون شيئا قليلا إلى المشركين ٤٨٠
ثالثاً : التحدّي بالقرآن و هداه ، و الشك في تنزيله ٤٨٠
رابعاً : التحدّي بالقرآن و محنة المِرْية منه ٤٨١
خامساً : التحدّي بالقرآن و تحذير النبي من مخالطة المشركين ٤٨١
سادساً : التحدّي بهدى القرآن ، و تحذير النبي من الظلال ٤٨٢
سابعاً : التحدّي بهدى القرآن ، و الأمر المتواصل للإخلاص في الدين ٤٨٣
ثامناً : التحدّي بالقرآن و هداه ، و الأمر المتواتر بالاستقامة على الهدى ٤٨٣
تاسعاً : التحدّي بالقرآن و النهي عن اتباع أهواء المشركين ٤٨٤

عاشرا : التحدّي بالقرآن و الاستعاذة قبل قراءَته من الشيطان ٤٨٤
حادى عشر : التحدّي بالقرآن و هداه ، و الإثبات و المحو في مبناه ٤٨٥
بحث رابع : هل من إعجاز في الدعوة إلى التوحيد بمكّة ؟ ٤٨٦
أولاً : هل من إعجاز في حال « النبي الأمّي » ٤٨٦
ثانياً : هل من إعجاز في ظروف البيئة ؟ ٤٨٦
ثالثاً : هل من إعجاز في الدعوة للتوحيد نفسه ؟ ٤٨٧
رابعاً : القرآن نفسه يشهد بأن توحيده من توحيد الكتاب ٤٨٨
بحث خامس : هل من إعجاز في العقيدة الإلهية في القرآن ؟ ٤٨٩
أوّلاً : التوحيد القرآني تنزيه عن الشرك ، لكنه غارق في التشبيه و المتشابه ٤٨٩
ثانياً : حرف التوحيد واحد في التوراة و الإنجيل و القرآن ٤٩٠
ثالثاً : إنّ التوحيد في القرآن هو دين موسى و عيسى ٤٩١
رابعاً : إسلام القرآن هو اسلام من قبله اسماً و معنى ٤٩١
بحث سادس : الإعجاز في الشريعة ٤٩٢
بحث سابع : الإعجاز في الدين ٤٩٣
بحث ثامن : الإعجاز في الإسلام ٤٩٤
خاتمة : القرآن في الهدى و العقيدة تابع لا متبوع ٤٩٦

الجزء الثاني : الإعجاز في الشريعة

توطئة : وجه جديد من إعجاز القرآن : الإعجاز في الشريعة ٤٩٧
بحث أوّل : الشريعة القرآنية « مدينة »: لا تحدى فيها بإعجازها ٤٩٨
بحث ثان : أحكام الشريعة المحكمة قليلة ، فليست دليلا على إعجاز القرآن كله ٥٠٠

بحث ثالث : تشريع بحسب الحاجة ، و لا ينزل مبتدِئاً ٥٠٢
بحث رابع : التشريع القرآني دستور أم قانون ؟ ٥٠٤
بحث خامس : مصادر التشريع الإسلامي ٥٠٦
بحث سادس : ((أكثر الأحكام الإسلامية من النوع الاجتهادى)) ٥٠٨
بحث سابع : تشريع يعتريه التبديل و المحو و الاسقاط و النسخ ٥١٠
بحث ثامن : تشريع يشوبه متشابه و يعوزه تفسير ٥١١
بحث تاسع : من ميزات التشريع القرآني ٥١٢
بحث عاشر : التشريع القرآني هداية إلى التشريع الكتابي ٥١٨
خاتمة : الشبهات التشريعية و دلائل الإعجاز ٥٢٠

الجزء الثالث : الإعجاز في العلم

توطئة : تعبير ((العلم)) في لغة القرآن و اصطلاحه ٥٢١
بحث أوّل : القرآن كتاب دين ، لا كتاب علم ((الكونيات)) ٥٢٢
أوّلاً : التطرف قديماً و حديثا ٥٢٣
ثانياً : الاعتدال قديماً و حديثا ٥٢٤
بحث ثان : ((العلم)) و ((أولو العلم)) في اصطلاح القرآن ٥٢٦
بحث ثالث : ((الكونيّات)) القرآنية من متشابه القرآن ٥٣٠
بحث رابع : ((العلم)) الوحيد في القرآن هو ((علم الكتاب)) ٥٣١

خاتمة : « و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الإسراء ٨٥) ٥٣٣

الجزء الرابع : الإعجاز في التاريخ ــ القصص القرآني

توطئة : خطورة موضوع القصص القرآني و هدفه ٥٣٤
بحث أول : موضوع القصص القرآني و هدفه ٥٣٥
أوّلاً: هدفه تثبيت النبي و ذكرى العرب ٥٣٥
ثانياً : موضوع القصص القرآني محدود و مكرّر ٥٣٦
ثالثاً : القرآن بين الدين و الفنّ ٥٣٨
بحث ثان : هل القصص القرآني للتاريخ أم للتمثيل ؟ ٥٣٩
أولاً : واقع مزدوج ٥٣٩
ثانياً : الشبهات الناجمة عن هذا الواقع المزدوج ٥٤٠
بحث ثالث : القصص القرآني من متشابه القرآن ٥٤٣
خاتمة : قصصه تصديق و تفصيل ٥٤٦

القسم الثاني

إعجاز القرآن

هل يعتبر القرآن إعجازه معجزة له ؟

تمهيد : الإعجاز بديل المعجزة ، أى المعجزة اللغوية ٥٤٩

الفصل الأوّل : أسس اعتبار الإعجاز معجزة ٥٥٣

توطئة : أسس اعتبار الإعجاز معجزة غير متينة ٥٥٣

بحث أول : « أميّة »محمد و هي الأساس الأوّل للإعجاز ٥٥٤
أوّلاً : اصطلاح « الأمي »في القرآن ٥٥٥
ثانياً : شهادة القرآن بثقافة محمّد ٥٥٧
ثالثاً : شهادة التاريخ بشهادة محمّد الواسعة ٥٦٤
بحث ثان : القرآن كلام الله ، فهو معجز في ذاته ٥٧٤
أولاً : كلام الله في القرآن ٥٧٤
ثانياً : البيّنة على كلام الله بالمعجزة لا بالإعجاز ٥٧٥
ثالثاً : كلام الله و الإعجاز ٥٧٦
رابعاً : الجدل في أزليّة القرآن ٥٧٨
بحث ثالث : وجه الإعجاز في القرآن ٥٨٠
أوّلاً : الإعجاز لغز و سر ٥٨٠
ثانياً : اختلاف دائم على وجه الإعجاز ٥٨١
ثالثاً : الإعجاز في نظم القرآن ٥٨٤
خاتمة : لا يقوم اعتبار الإعجاز معجزة على أساس صحيح ٥٨٦

الفصل الثاني : حقيقة شهادة القرآن لإعجازه ٥٨٧

توطئة : واقع التحدّي بالإعجاز و حقيقته ٥٨٧
بحث أول : ظواهر التحدّي القرآني بالإعجاز ٥٨٨
الظاهرة الأولى : مدّة التحدّي بإعجاز القرآن ٥٨٨
الظاهرة الثانية : التحدّي بالإعجاز دليل على التحدّي بالمعجزة ٥٨٩
الظاهرة الثالثة : ميزات التحدّي بالإعجاز تحصر معناه و مداه ٥٨٩

الظاهرة الرابعة : التشخيص للتحدّي بالقرآن مغاير للواقع القرآني ٥٩١
الظاهرة الخامسة : دلالة الإعجاز لدى العرب ٥٩٢
الظاهرة السادسة : السيف أصدق إنباءً من الكتب ٥٩٣
بحث ثان : الإعجاز في الواقع القرآني ٥٩٤
بحث ثالث : القرآن ينسخ التحدّي بإعجازه ٦٠٢
أوّلاً : نسخ القرآن تحدّيه بالإعجاز في الهدى و الاخكام ٦٠٢
ثانياً : نسخ القرآن تحدّيه بالإعجاز في البيان و التبين ٦٠٣
بحث رابع : شبهات على الإعجاز من الواقع القرآني ٦٠٥
أوّلاً : شهادة القرآن لإعجازه متعارضة ٦٠٥
ثانياً : شهادة القرآن لإعجازه منسوخة ٦٠٦
ثالثاً : صفات التبديل و المحو و الإسقاط و النسيان تنقض الإعجاز ٦٠٨
رابعاً : إلقاء الشيطان أو الناس في القرآن ٦١٧
خامساً : التنزيل بالمعنى يمنع من جعل إعجازه البياني معجزة له ٦٢٠
سادساً : خلق القرآن ، في حرفه ، شبهة على إعجازه و معجزته ٦٢٥
سابعاً : شهادة القرآن بإعجازه محصورة بالعرب و لغتهم ٦٢٧
ثامناً : القرآن تابع لكتاب ((الإمام))و التابع لا يكون معجزاً ٦٢٩
تاسعاً : تبعيّة القرآن للكتاب ٦٣٠
عاشراً : إعجاز القرآن هو في الهدى لا في البيان ٦٣٠
خاتمة ٦٣٤

الفصل الثالث : إعجاز القرآن في فصاحة لغته ٦٣٧

توطئة : هل القرآن ((معجزة لغوية)) ؟ ٦٣٧
بحث أوّل : التحدّي بالإعجاز في اللغة و البيان ، لا أصل له في القرآن ٦٣٨
أوّلاً : آيات التحدّي بحسب تاريخ النزول ٦٣٩
ثانياً : استفتاح التحدّي بالقرآن كان بهداه ٦٤٠
ثالثاً : ختام التحدّي بالقرآن كان بهداه ٦٤٠
رابعاً : صفة ((الآيات البيّنات)) يطلقها على التوراة و الإنجيل و القرآن ٦٤٠
خامساً : جوابهم على التحدّي : إنه أساطير الأولين ٦٤١
سادساً : صفة القرآن بين الحق و السحر ٦٤١
سابعاً: الاستشهاد المتواصل بالكتاب ٦٤١
ثامناً : ماذا يهم الله و رسوله ؟ ٦٤٢
تاسعاً : الإعجاز اللغوى لم يقل به السلف الصالح ٦٤٢
عاشراً : قول التاريخ ٦٤٣
بحث ثانٍ : الإعجاز في أسماء القرآن ٦٤٣
أوّلاً : اسم ((القرآن)) فيه خمسة أقوال ٦٤٣
ثانياً : اسم ((الكتاب)) ٦٤٧
ثالثاً : اسم ((الذكر)) ٦٤٨
رابعاً : اسم ((الفرقان)) ٦٤٩
خامساً : اسم ((الحكمة)) ٦٥٠
خاتمة : أسماء القرآن مقتبسة ، فلا إعجاز فيها ٦٥٤
بحث ثالث : الإعجاز ما بين واقع القرآن و التاريخ ٦٥٥

أولاً : المشكل القرآني ٦٥٥
ثانياً : المشكل التاريخي ٦٥٦
ثالثاً : المشكل القائم المستعصي على الحل ٦٥٩
بحث رابع : هل عرف « النبي الأمّي » و أهل مكّة لغات أجنبية ؟ ٦٦٠
أولاً : شهادة القرآن ٦٦٠
ثانياً: شهادة الحديث ٦٦١
ثانياً : اللغات المختلفة في المصحف العثمانى نفسه ٦٦٢
بحث خامس : غريب القرآن (الإتقان ١ : ١١٥ ـ ١٣٤) ٦٦٣
بحث سادس : « الوجوه و النظائر » (الإتقان ١ : ١٤٢ ـ ١٤٤) ٦٦٦
أوّلاً : وجوه القرآن ٦٦٧
ثانياً : النظائر في القرآن ٦٦٨
بحث سابع : « الأفراد » في ألفاظ القرآن (الإتقان ١ : ١٤٤) ٦٧٠
بحث ثامن : في فواصل الآي (الإتقان ٢ : ٩٦ ـ ١٠٥) ٦٧٥
بحث تاسع : « فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز » (الإتقان ١ : ١٣٤) ٦٨٠
أوّلاً : الاختلاف في تعيين اللغات العربية التى نزل بها القرآن ٦٨٠
ثانياً : « فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز » ٦٨٢
ثالثاً : نتائج هذا الواقع القرآني ٦٨٨
بحث عاشر : « فيما وقع فيه بغير لغة العرب » (الإتقان ١ : ١٣٦) ٦٩٠
أولاً : جدول الكلمات الأعجمية في القرآن ٦٩٠
ثانياً : تقييم هذا الواقع القرآني ٦٩٣

ثالثاً : النتائج القائمة على هذا الواقع ٦٩٤
خاتمة : القول « بمعجزة لغوية » في القرآن إنما هو مغالاة ٦٩٦

الفصل الرابع : إِعجاز القرآن في بيان معانيه ٦٩٧

توطئة : واقع القرآن في البيان ٦٩٧
بحث أوّل : « في معرفة إعرابه » (الإتقان ١ : ١٨٠) ٦٩٩
أوّلاً : تشابه النظم و المعنى ٦٩٩
ثانياً : التعارض بين ظاهر اللفظ و معناه ٧٠٠
ثالثاً : تشابه الإعراب و المعنى ٧٠٠
رابعاً : من موجب التشابه في إعرابه الحذف و البتر ٧٠١
بحث ثان : « في الضمائر » (الإتقان ١ : ١٨٧) ٧٠٢
بحث ثالث : « في التذكير و التأنيث » (الإتقان ١ : ١٩٠) ٧٠٤
بحث رابع : « في التعريف و التنكير » (الإتقان ١ : ١٩١) ٧٠٥
بحث خامس : « في الإفراد و الجمع » (الإتقان ٢ : ١٩٣) ٧٠٧
بحث سادس : « في السؤال و الجواب » (الإتقان ١ : ١٩٧) ٧٠٨
بحث سابع : « في الخطاب بالاسم ، و الخطاب بالفعل » (الإتقان ١ : ١٩٩) ٧١٠
بحث ثامن : « في العطف » (الإتقان ٣٠٠) ٧١٠
بحث تاسع : « في مقدَّمه و مؤخره » (الإتقان ٢ : ١٣) ٧١٢
بحث عاشر : « في عامّه و خاصّه » (الإتقان ٢ : ١٦) ٧١٥
بحث حادى عشر : « في مجمله و مبيّنه » (الإتقان ٢ : ١٨) ٧١٨
بحث ثانى عشر « في منطوقه و مفهومه » (الإتقان ٢ : ١٣) ٧٢٢

بحث ثالث عشر : « في مطلقه و مقيّده » (الإتقان ٢ : ٣١) ٧٢٤
بحث رابع عشر : « في أقسام القرآن » (الإتقان ٢ : ١٢٣) ٧٢٦

الفصل الخامس : إعجاز القرآن في بلاغة خطابه ٧٢٩

توطئة : البلاغة القرآنية ٧٢٩
بحث أوّل : حديث الأحرف السبعة شبهة أولى على البلاغة القرآنية ٧٣٠
بحث ثانٍ : البلاغ القرآني : « إنَّ الدين عند الله الإسلام » ٧٣٢
أوّلاً : مقالة العقاد في إعجاز البلاغ القرآني ٧٣٢
ثانياً : البلاغ القرآني هو تبليغ العرب الإسلام « النصراني » ٧٣٣
بحث ثالث : التوحيد القرآني ما بين التشبيه و التنزيل ٧٣٦
أوّلاً : الإجماع على أنّ آيات الصفات الالهية من المتشابه في القرآن ٧٣٦
ثانياً : صورة الله في القرآن ٧٣٦
ثالثاً : اختلافهم ما بين الظاهر و التأويل ٧٣٩
بحث رابع : متشابه القرآن ٧٤٠
أوّلاً : شهادة القرآن المتعارضة في إعجاز بيانه ٧٤١
ثانياً : التعريف بالمتشابه ٧٤٢
ثالثاً : هل يمكن الاطلاع على « متشابه القرآن » ؟ ٧٤٢
رابعاً : تعيين المحكم و المتشابه ٧٤٦
خامساً : واقع المتشابه في القرآن ٧٤٧
سادساً : ما الحكمة في تنزيل كتاب أكثره متشابه ؟ ٧٤٨
سابعاً : فصل الخطاب في متشابه القرآن ٧٤٩

بحث خامس : الناسخ و المنسوخ شبهة خامسة على البلاغة القرآنية ٧٥١
ظاهرة أولى : « النسخ مما خص الله به هذه الأمة » ٧٥١
ظاهرة ثانية : من النسخ في معناه العام ٧٥٢
ظاهرة ثالثة : نسخ آية بآية يعنى التعارض في التنزيل ٧٥٣
ظاهرة رابعة : من معانى النسخ المختلفة ٧٥٣
ظاهرة خامسة : الإسقاط أو الرفع من التلاوة ٧٥٤
ظاهرة سادسة : النسخ على أقسام ٧٥٥
ظاهرة سابعة : النسخ على أضرب ٧٥٦
ظاهرة ثامنة : النسخ على كيفيات غريبة ٧٥٨
ظاهرة تاسعة : النسخ على مراحل ٧٦٠
ظاهرة عاشرة : كثرة المنسوخ في تشريع القرآن ٧٦٢
ظاهرة حادية عشرة : اجتماع الناسخ و المنسوخ في صورة واحدة ٧٦٣
ظاهرة ثانية عشرة : علّة المنسوخ ٧٦٣
ظاهرة ثالثة عشرة : نسخ القرآن بالسّنة أو بالاجماع ٧٦٤
بحث سادس : التكرار شبهة سادسة على البلاغة القرآنية ٧٦٧
أوّلاً : اللازمة المرددة في بعض السور « حكمة بالغة » ٧٦٧
ثانياً : « في الآيات المتشابهات » (الإتقان ٢ : ١١٤ ـ ١١٦) ٧٦٨
ثالثاً : التكرار في التعليم الواحد ٧٧١
رابعاً : التكرار في القصص القرآني ٧٧٤
خاتمة : الإِعجاز في البلاغة ليس معجزة إلهية ٧٧٩

الفصل السادس : الإِعجاز في جدليّة القرآن ٧٨٠

توطئة : « في مشكله و موهم الاختلاف و التناقض » ٧٨٠
بحث أول : في ذات الله و صفاته ٧٨١
أوّلاً : في حجج الصفاتية القائلين بإثبات الصفات و الجهة لله ٧٨١
ثانياً : في حجج الجهمية (المعتزلة) القائلين بنفى الصفات والجهة المعينة ٧٨٥
بحث ثانٍ : في أعمال الله ـ القضاء و القدر ٧٨٦
أوّلاً : في حجج الجبرية (من أهل السّنة) ٧٨٦
ثانياً : في حجج القدرية (من المعتزلة) ٧٨٨
بحث ثالث : الهداية و الضلالة من الله أم من العبد ؟ ٧٨٩
أوّلاً : في حجج الجبرية (من أهل السّنة) : إثباتهما لله ٧٨٩
ثانياً : في حجج القدرية (من المعتزلة) ٧٩١
بحث رابع : الإثم و المعصية من الله أم من العبد ؟ ٧٩٣
أوّلاً : في حجج الجبرية (من أهل السّنة) ٧٩٣
ثانياً : في حجج القدرية (من المعتزلة) ٧٩٣
بحث خامس : في الكتابة و الكسب ٧٩٤
أوّلاً : في حجج الجبرية (من أهل السّنة) ٧٩٤
ثانياً : في حجج القدرية (من المعتزلة) ٧٩٥
بحث سادس : فعل العبد في الخالق أم في المخلوق ٧٩٦
أولاً : في حجج الجبرية (من أهل السنة) ٧٩٦
ثانياً : في حجج القدرية (من المعتزلة) ٧٩٦

بحث سابع : مرتكب الكبيرة مسلم أم غير مسلم ؟ ٧٩٧
أوّلاً : في حجج المرجئة القائلين بأنه مؤمن مسلم ٧٩٧
ثانياً : في حجج الوعيدية بأنّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن و لا مسلم ٧٩٧
بحث ثامن : في الإيمان ٧٩٨
بحث تاسع : ما بين الإيمان و الإسلام ٨٠٠
بحث عاشر : الاختلاف في بعض الآيات (الإتقان ٢ : ٢٧ ـ ٣١) ٨٠١
أوّلاً : الآيات المختلفة التى يذكرها السيوطي ٨٠١
ثانياً : حكمة « موهم الاختلاف و التناقض » في القرآن (الإتقان ٢ : ٣٠) ٨٠٦
خاتمة : تعليم القرآن بحق نفسه ٨٠٩
أوّلاً : القرآن محكم أم متشابه ؟ ٨٠٩
ثانياً : القرآن كلام الله نفسه أم العبارة عن كلام الله ؟ ٨٠٩
ثالثاً : القرآن قديم أم مخلوق ؟ ٨١١

الفصل السابع : إعجاز القرآن في أسلوب نظمه ٨١٤

توطئة : من شروط الإعجاز في نظم القرآن خرق العادة ٨١٤
بحث أوّل : النظم عند الأنبياء ٨١٦
أوّلاً : في توحيد الله القدير ٨١٦
ثانياً : في المسيح الموعود (٥٢ : ١٣ ـ ٥٣ : ١٢) ٨١٧
بحث ثان : النظم في الزبور ٨١٨
أوّلاً : المزمور التسعون : عناية الله بعبده ٨١٩
ثانياً : المزمور ١٠٣ ـ نشيد الحمد على الخلْق ٨١٩

بحث ثالث : النظم في الإنجيل ٨٢١
بحث رابع : النظم في القرآن ٨٢٤
أوّلاً : السورة الأولى : العلق ٨٢٥
ثانياً : السورة الثالثة : المزمّل ٨٢٥
ثالثاً : من سورة ((مريم)) ٨٢٦
رابعاً : من سورة ((البقرة)) ٨٢٧
خامساً : من سورة ((المائدة)) ٨٣٠
خاتمة : نظم القرآن من نظم الكتاب ٨٣٢

الفصل الثامن : أيصحّ الإعجاز معجزة ؟ ٨٣٣

توطئة : ما بين الإعجاز و المعجزة ٨٣٣
بحث أوّل : وجه الإعجاز مجهول ، فلا يصح التحدّي به كمعجزة ٨٣٤
بحث ثانٍ : التحدّي بالنظم و البيان بدعة على القرآن ٨٣٦
بحث ثالث : الإعجاز البياني للخاصة ، و الدين للعامّة ٨٣٨
بحث رابع : الإعجاز في البيان برهان متشابه مشبوه ٨٤٠
بحث خامس : التحدّي بالإعجاز في البيان قلب للموازين في الدين ٨٤٢
بحث سادس : نظرية فريد وجدي : لا يتحدّى القرآن بإعجاز لفظه ٨٤٤
بحث سابع : الدلالة ما بين الإعجاز و المعجزة ٨٤٦
فصل الخطاب : الإعجاز بالحرف أم الإعجاز بالهدى ؟ ٨٤٩
القول الفصل في الإعجاز القرآني كله ٨٥٣

ملحق : الإعجاز و المعجزة عند المسيح بشهادة الإنجيل و القرآن ٨٥٥

توطئة : الإعجاز عند المسيح بالأحوال و الأعمال و الأقوال ٨٥٥
بحث أوّل : المسيح في الإنجيل ٨٥٦
أولاً : الإعجاز المطلق في الشخصية بسلطانه ٨٥٦
ثانياً : الإعجاز المطلق في السيرة و الرسالة ، بالكلمة و المعجزة ٨٥٨
بحث ثان : المسيح في القرآن ٨٦٤
أوّلاً : إعجاز المسيح في شخصيته ، بحسب القرآن ٨٦٤
ثانياً : إعجاز المسيح في سيرته ، بحسب القرآن ٨٧٧
ثالثاً : إعجاز المسيح في رسالته ، بحسب القرآن ٨٧٧
١ ـ الإعجاز في التنزيل بالإنجيل ٨٧٧
٢ ـ الإعجاز في البلاغ ٨٧٨
٣ ـ الإعجاز في التبليغ ٨٨١
٤ ـ إعجاز الإنجيل في البيان و التبيين ٨٨٤
٥ ـ الإعجاز في الرسالة و الرسول معا ٨٨٦
خاتمة : النبوّة و الكتاب ، في نظر القرآن ٨٨٨

تمهيد

المعجزة دليل النبوّة الأوحد

ما هي المعجزة ؟

المعجزة ، في اللغة ، هي « ما أَعجز به الخصم عند التحدّي » .

و المعجزة ، في اصطلاح علم الكلام « أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّي ، سالم عن المعارضة » . هذا هو التعريف الذي تعارف عليه علماء الكلام ، كما أورده السيوطي في (الإتقان في علوم القرآن ٢ : ١١٦) . فأركان المعجزة ثلاثة .

نرى ضرورة المعجزة و صحة النبوّة في الكتاب ، أى التوراة و الإنجيل و القرآن ، ثم في علم الكلام ، و نقارن ما بين المعجزة و الإِعجاز .

أولاً : ضرورة المعجزة لصحة النبوّة ، بحسب الكتاب

في التوراة و الإنجيل و القرآن ، إن المعجزة ، على أنواعها ، دليل النبوّة الأوحد ، **فلا تصح النبوّة بدون معجزة .** هذا مبدأ إلهي مقرر ، متواتر بالاجماع عند الأنبياء و المرسلين، حتى سماه القرآن : « سُنّة الأولين » (الكهف ٥٥) و « السلطان المبين » (غافر ٢٣) الذي يؤتيه الله رسله برهانا إلهيا على صحة رسالتهم ، و صدق نبوءتهم و دعوتهم .

١ ـ في التوراة

فمنذ التوراة ، جعل الله نفسُه المعجزة دليل النبوّة . لمّا تجلى الله لموسى في سيناء ليرسله إلى بني إسرائيل و إلى فرعون و ملئِهِ ، ثبت له و للناس رسالته بمعجزة العصا و معجزة اليد البرصاء (الخروج ٣ ـ ٤ : ٢) . ثم ارسله و المعجزة بيده : « خذ بيدك العصا تصنع بها

المعجزات ... و صنع موسى المعجزات على عيون الشعب فأمن الشعب » (الخروج ٤ : ١٨ ـ ٣١)

و القرآن نفسه يشهد بأن المعجزات كانت عند موسى دلائل النبوّة : « و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين » (غافر ٢٣) ، « و لقد آتينا موسى تسعة آيات بيّنات » (الإسراء ١٠١ ، القصص ٣٠ ـ ٣٦ ، طه ١٧ : ٢٣ ، الشعراء ٣٠ ـ ٣٣) ، و يفصلها (الأعراف ١٠٤ ـ ١٣٦) ، حتى أمن بنو إسرائيل ، و عجز سحَرة مصر عن المعارضة ، وسَلَّم فرعون و آمن عند غرقه (يونس ٩٠) . فالمعجزة هي « السلطان المبين » الذي به يشهد الله لنبيه أنه أرسله ليبلغ كلام الله ، فلا نبوّة بدون معجزة .

٢ ـ في الإنجيل

و في الإنجيل جعل السيد المسيح المعجزات دلائل النبوّة : « إن كنت لا أعمل أعمال أبى (الله) فلا تصدقونى . و لكن إن كنت أعمالها ، و لا تريدون أن تصدقونى ، فصدقوا هذه الأعمال » (يوحنا ١٠ : ٣٧ ـ ٣٨) ، ثم يستشهد بالكتاب لنفسه ، و يستشهد بسابقه يحيى المعمدان ، و لكنه يستشهد خصوصا بأعماله المعجزة : « و إنّ لى شهادة أعظم من شهادة يوحنا : إنّ الأعمال التى أتانى الآب أن أعملها ، هذه الأعمال عينها التى أنا أعملها هي تشهد لى بأن الآب (الله) قد أرسلنى » (يوحنا ٥ : ٣٦) .

و على التخصيص ، كلما ادّعى السيد المسيح لنفسه سلطانا إلهيا أكده بالأعمال المعجزة . لمّا نسب لذاته سلطان الله نفسه على مغفرة الخطايا ، بمناسبة شفاء مقعد في كفرناحوم ، أبرأه بكلمة منه على مشهد من الجماهير المزدحمة ، يشهد بهذه المعجزة الخارقة لسلطانه المعجز . ادّعى أنه « نور العالم » ، فشفى الأكمة ، أى الأعمى منذ مولده ، شهادة للحقيقة المنزلة معه و فيه . علّم أمام الجماهير في بيت عنيا : « أنا القيامة و الحياة » ـ و لا ينسب ذلك لنفسه إلاّ إله أو كافر مجنون ـ و نادى لعازر الميت من القبر فاحياه شهادة للسلطان الإلهي الذي يدعيه لنفسه . و قد أعطى قيامته الشخصية من الموت و القبر معجزته الكبرى .

و القرآن يصدق شهادة الإنجيل أن رسالة المسيح كانت بتأيد روح القدس والمعجزات: « و آتينا عيسى أبن مريم البيّنات ، و أيدناه بروح القدس » (البقرة ٨٧) . فامتاز

السيد المسيح على سائر المرسلين بتأييد روح القدس الدائم له . ثم يعدد القرآن **أربعة أنواع من المعجزات** التي يفضل فيها المسيح سائر النبيّين : «و رسولا الى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم : إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، و أبرئ الأكمة و الأبرص ، و أحيي الموتى بإذن الله ، و أنبئكم بما تأكلون و ما تدخرون في بيوتكم : إنَّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » (آل عمران ٤٩) . و توج معجزاته بمعجزة المائدة التي اكتسحت إيمان الحواريين (المائدة ١١٠ ـ ١١٥)، وختمها جمعياً بعجزة رفعه حيّاً إلى السماء ، تلك المعجزة الخالدة التي لم يحلم بمثلها نبي و لا رسول (النساء ١٥٨) .

٣ ـ في القرآن

للقرآن فلسفة رائعة في ضرورة المعجزة لصحة النبوّة .

فالقرآن يسمى المعجزة «**سُنّة الأولين** » التي لا تبديل لها و لا تحويل «فهل ينظرون إلا سُنّة الأولين ! فلن تجد لسُنّة اللهِ تبديلا ! و لن تجد لسُنّة اللهِ تحويلا » (فاطر ٤٣) . وبدون معجزة لا يوجب الله على الناس الإيمان : «و ما منع الناس أن يؤمنوا ، إذ جاءَهم الهدى ، و يستغفروا ربهم ، إلا أن تأتيهم سُنّة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلاً » (الكهف ٥٥). فقد امتنع مشركو مكّة عن الإيمان بالدعوة القرآنية ، «بالحكمة و الموعظة الحسنة » ، لأنها لم تقترن بالمعجزة المطلوبة ، «سُنّة الأولين » ، و رضحوا لها بالجهاد في المدينة «بالحديد الذي فيه بأس شديد و منافع للناس » (الحديد ٢٥) . ففي فلسفة القرآن و في عرف الناس جميعا ، **إن المعجزة سُنّة النبوّة** : «لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسول الله » (الأنعام ١٢٤) .

لذلك ، إذ يتشدق بعض أهل زماننا بقولهم : «إن حكمة الله أقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام ، و برهاناً على صحة رسالته و صدق دعوته [١] » ، فهم إنما يتنقدون حكمة القرآن في ضرورة المعجزة للنبوّة ، و سُنّة اللهِ في أنبيائه .

و القرآن يسمى المعجزة أيضاً « **السلطان المبين** » من الله لتأييد أنبيائه : « و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين إلى فرعون و ملئه » (هود ٩٦ ـ ٩٧) ، « ثم أرسلنا موسى و أخاه

(١) الأستاذ دروزة : **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٦ .

هارون بآياتنا و سلطان مبين إلى فرعون و ملئه » (المؤمنون ٤٥ ـ ٤٦) ، و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين و هامان و قارون » (غافر ٢٣ ـ ٢٤) . فالمعجزة هي السلطان المبين من الله لصحة النبوّة . و الشعب في كل زمان لا يؤمن بنبوّة إلا بسلطان المعجزة المبين : «قالت رسلهم : أفي الله شك ، فاطر السماوات و الأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى ! قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا : **فأتونا بسلطان مبين** » (إبراهيم ١٠) .

فالمعجزة على أنواعها ، هي سلطان الله المبين لصحة النبوّة ، و سننه المتواترة في رسله.

ثانياً : ضرورة المعجزة لصحّة النبوّة ، بحسب علم الكلام

لقد أجمع أهل العلم قاطبة من المسلمين بأن المعجزة دليل النبوّة الأوحد ، و ذلك قديما وحديثا .

١ ـ قديماً انقسم المسلمون ثلاث فئات بالنسبة إلى معجزة القرآن :

أهل السنة و الجماعة اختلقوا في الحديث و السيرة للنبي العربي معجزات تفوق معجزات الأنبياء الأولين كلها ، و لم يحترموا موقف القرآن السلبي من كل معجزة لمحمد . وذلك لإيمانهم الشعبى بضرورة المعجزة لصحة النبوّة .

و اقتصر العلماء من أهل الإعجاز على إعجاز القرآن معجزة له . فكان ذلك ردا منهم على أهل الحديث و السيرة . قال الباقلاني [١] : «إن نبوّة النبي معجزاتها القرآن » . و فصّل الجويني [٢] فقال «**لا دليل على صدق النبي غير المعجزة** . فإن قيل : هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة ؟ قلنا : **ذلك غير ممكن !** فإن ما يقدّر دليلاً على الصدق لا يخلو إما أن يكون معتاداً ، و إمّا أن يكون خارقاً للعادة : فإن كان معتاداً يستوى فيه البرُّ والفاجر ، فيستحيل كونه دليلاً ، و إن كان خارقاً للعادة يجوز تقدير وجوده ابتداءً من فعل الله تعالى ، فإذا لم يكن بدّ من تعلقه بالدعوى ، فهو المعجزة بعينها » .

---

(١) **إعجاز القرآن** ، ص ٤
(٢) **الإرشاد** ، ص ٣٣١

و قال ابن أبى الاصبع [1] : « لابدّ لكل رسول من الاتيان بخارق قرين دعوى النبوّة ، ليتحدى به من بعث إليهم ليكون علامة صدقه » . فلا صحة لنبوّة بدون معجزة .

و ترى من هذا التحليل ما أوجزه السيوطي ، خاتمة المحققين القدماء في أركان المعجزة الثلاثة ، وفى ضرورتها : أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّي ، سالم عن المعارضة. و قد قسم المعجزة الى نوعين : المعجزة الحسية ، والمعجزة العقلية أو اللغوية أى الإعجاز. فقال [2] : المعجزة « **إمّا حسية و إما عقلية** . و أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم و قلة بصيرتهم . و أكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم و كمال افهامهم ، و لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر » .

فإجماع العلماء قديما على أن القرآن وحده معجزة محمد : لذلك ، في باب معجزة النبي العربي اقتصروا على كتب الإعجاز . و هذا اقرار منهم بأنه ليس لمحمد معجزة حسية تشهد له ، كما سنرى ذلك من القرآن نفسه .

و الفريق الثالث من الأقدمين ، المعتزلة ، ما فتئوا يرددن « بأن الله لم يجعل القرآن دليل النبوّة » ! و سنرى بأن القرآن الذي يصرح بإعجازه لم يجعل إعجازه برهان النبوّة .

فموجز تاريخ الكلام قديماً في معجزة محمد ان علماء الكلام المسلمين أجمعوا على ضرورة المعجزة لصحة النبوّة ، لكنهم استنكروا ان معجزة حسية تشهد للنبي العربي ، واقتصروا معجزته على إعجاز القرآن . فأنكر المعتزلة كون القرآن معجزة تشهد لمحمد ، مع قولهم بإعجاز القرآن .

٢ ـ و حديثا يفترق المسلمون ثلاث فرق في تقدير معجزة محمد : فئة التقليديين الذين لم يزالوا غائصين في رواسب الماضى ، و فئة العلماء الذين يجعلون القرآن وحده معجزة محمد ، و فئة المتحررين الذين ينادون بأنه لا ضرورة للمعجزة لصحة النبوّة .

من أغرب ما قرأنا للتقليديين في « **معجزة النبي** » مقالا في مجلة (الفكر الإسلامي ص ٣٦) التى تصدرها دار الفتوى في بيروت ، عدد ايلول سنة ١٩٧٠ ، جاءَ فيه « أما معجزة نبينا ﷺ فقد كانت ذا شَعب ثلاث :

---

(١) **بديع القرآن** ، ص ٣٠٧
(٢) **الإتقان** ٢ : ١١٦ .

« تناولت الشعبة الأولى ما ظهر على أيدى كافة الرسل من الأمور الكونية و الغيبية: فنبعَ الماء بين أصابعه ، و سعت الشجرة اليه ، و أنبأته الشاة أنها مسمومة ، و حن الجذع اليه، و غير ذلك كثير !

« وظهرت الثانية في شخصه ﷺ و تكوينه الخلقى المدهش . فقد نشأ فقيراً يتيماً محروماً من عطف الأم و حبها و حنانها ، أميّاً ، و في قوم أميّين ، قساة القلوب ، فظاظ الطباع ، حداد الألسنة ، جفاة النفوس ، غلاظ الأكباد . فكان مع ذلك على ما وصفنا من الرقة و الحلم و سعة الصدر و حلاوة اللسان و الشمائل العجيبة ، التى لا تتكون إلا فيمن منحه الله من عنايته ما منح النبي ﷺ .

« أمّا الثالثة ، **و هي الأساسية** ، فهي القرآن الكريم ، لأنها المعجزة العقلية العلمية الدائمة على الدهر ، لا ينالها تشويه ، و لا يشعر بها تحريف ، تنطق بلسان النبي ، و تثبت بقاء رسالته على وجه الدهر إلى أن يرث الله الأرض و من عليها » .

لقد أحسن صاحب المقال باستدراكه « و هي الأساسية » ، لأن القرآن وحده معجزة محمد بإجماع العلماء المسلمين . أما الشعبة الأولى فهي أساطير من الحديث و السيرة لا يأخذ بها عالم ، و موقف القرآن السلبي من كل معجزة ينقضها نقضاً مبرماً . و أمّا الشعبة الثانية ، **المعجزة الشخصية** ، فمع شهادة القرآن بأنك « لعلى خلق عظيم » فلم يعتمدها معجزة لنبيه ، و لا ينطبق عليها تعريف المعجزة للسيوطي . نذكر من ذلك أسطورة « أمية محمد » ، وأسطورة « فقر محمد » الذي أغناه زواجه من السيدة خديجة قبل البعثة بخمس عشرة سنة ، أكثر من سائر تجار قريش مجتمعين . في هذا الكتاب نوجز المعجزة الشخصية ، في فصل ، و نفرد لها كتابنا : « المسيح و محمد في عرْف القرآن » . و في موقف العلماء تقييم حقه لمثل مقال المجلة المذكورة .

فعلماء العصر يشهد فريق المحافظين منهم ، مثل الدكتور حسين هيكل في (حياة محمد) : « **لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة** أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على أختلاف عصورهم برسالة محمد إلاّ القرآن » . و كان الأستاذ دروزة [1] أصرح في قوله : « **إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام ، و برهاناً على صحة رسالته ، و صدق دعوته** » .هذا هو الواقع القرآني . فلم يبقى الا إِعجاز القرآن معجزة لمحمد .

---

(١) **سيرة الرسول** ٢ : ٢٢٦

لكن بما أن الإعجاز البياني للخاصة من العرب الفصحاء لا للعامة ، و لا لجميع الأجانب من الناس كلهم ، فقد أخذ بعض أهل العصر **ينكرون ضرورة المعجزة لصحة النبوّة،** بخلاف كتب الله كلها ، و بخلاف علماء المسلمين حتى عصرنا .

فالمعجزة هي دليل النبوّة الأوحد .

فهل يشهد القرآن لمحمد بمعجزة ؟

و هل يعتبر القرآن إعجازه معجزة له ؟

ثالثاً : مابين الإعجاز و المعجزة

في كتابنا « نظم القرآن و الكتاب ـ الكتاب الأول : **إعجاز القرآن** » درسنا واقع القرآن في إعجازه . و في هذا « الكتاب الثاني :**معجزة القرآن** » ندرس هل يصح إعجاز القرآن معجزة له ؟

لقد قسم أهل الإعجاز المعجزة على نوعين :**حسية و عقلية** . المعجزة الحسية هي كل عمل إلهي يفعله الله تعالى على يد نبيه يشهد له بالنبوّة ، و العقلية هي إعجاز القرآن في النظم و البيان . و قالوا : إن إعجاز القرآن في النظم و البيان معجزة عقلية تفوق جميع معجزات الأنبياء السابقين الحسية ، لذلك فنبوة محمد تفوق جميع النبوات .

١ ـ لكن الواقع القرآني يشهد ، كما سنرى ، **بموقف القرآن السلبي من كل معجزة !** لذلك كل ما جاء في **الحديث و السيرة** من معجزة حسية منسوبة إلى محمد ينقضها موقف القرآن السلبي الصريح من كل معجزة له و لنبيه ، و كل ما رأوه من معجزات في « آياته المتشابهات » ينقضها صريح « آياته المحكمات » .

٢ـ فليس من القرآن من **معجزة حسية** . و الواقع القرآني يشهد بأن محمداً لم يأتِ بمعجزة : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » (الأنعام ١٢٤) ، « فلياتنا بآية كما أرسل الأولون » (الأنبياء ٥) ، « و أقسموا بالله جَهْد إيمانهم : لئن جائتهم آية ليؤمنن بها » (الأنعام ١٠٩) ، « و ما منع الناس أن يؤمنوا ... الا أن تأتيهم سنة الأوليين » (الكهف ٥٥). **فالمعجزة هي سُنّة النبوّة ، و القرآن يشهد صراحة نحو خمس** و عشرين مرة ، غير الشهادات

الضمنية المتواترة ، أن ليس في القرآن و السيرة من معجزة . و يشهد القرآن أيضاً ، كما سنرى ، أن المعجزة قد منعت عن محمد منعاً مطلقاً ، **من حيث المبدأ :** « و ما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون » . (الإسراء ٥٩) ، فمهما كان السبب ، إن المعجزة قد منعت عن محمد منعاً مبدئياً ، **و من حيث الواقع :** « و إن كان كَبُرَ عليك اعراضهم فإن استطاعت أن تبتغي نفقاً في الأرض ، أو سلماً في السماء ، فتأتيهم بآية » (الأنعام ٣٥) ـ « فافعل : المعنى أنك لا تستطيع ذلك ، فاصبر حتى يحكم الله » (الجلالان) . فالمعجزة على أطلاقها مُنعت أيضاً عن محمد منعاً واقعياً . فإن امتناع المعجزة على محمد هو **مبدأ وواقع** ، و هذا بنص القرآن القاطع .

٣ ـ لكن القرآن يتحدى بإعجازه ، و هذه هي **معجزته العقلية** . و شهادة القرآن خير جواب . بما أنه يشهد بمنع المعجزة عن محمد ، فليس إعجاز القرآن المشهود بمعجزة له. و سنرى أن اختلافهم في **وجه الإعجاز** يجعله أيضاً معجزة متشابهة . و القرآن يقسم نفسه إلى محكم و متشابه ، و المحكم فيه هو بالاجماع أحكامه الشرعية . ففي « **متشابه القرآن** » ، و هو أكثره ، حكم القرآن نفسه على نفسه أن إعجازه ليس بمعجزة : « منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، و أخر متشابهات ... **و ما يعلم تأويله إلا الله** ، الراسخون في العلم يقولون : أمنا به ، كلٌ من عند ربنا » (آل عمران ٧) . كما في « محكم القرآن » حكم على نفسه بوجود الناسخ و المنسوخ في أحكامه (البقرة ١٠٦) ، و قيام « التبديل » في آية (النحل ١٠١) . و سنرى أيضاً ، من حيث الجدلية ، أن الدين للعامة ، و الإعجاز البياني للخاصة من العرب : فلا يصح إعجاز للخاصة من العرب معجزة للعالمين ، و حاشا لله أن يعجز العالمين بما لا طاقة لهم فيه . ففي ذلك يصح قول السيوطي : « **ما لا يمكن الوقوف عليه ، لا يُتصوَّر التحدّي به** » (الإتقان ٢ : ١١٧) ، فكيف و هو « ما يعلم تأويله الا الله » ، ويكتفي الراسخون في العلم بالتسليم به !

٤ ـ و القرآن نفسه شاهد عدل على أنه **لا يعتبر إعجازه معجزة له** . و الإعجاز الحق الوحيد الذي يقول به هو **الإعجاز في الهدى** : « فلما جاءَهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثل موسى ! ... قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله **أهدى منهما** أتبعه ، إن كنتم صادقين » (القصص ٤٨ ـ ٤٩) . فالقرآن و الكتاب هما في الهدى سواء ، بل يعتبر الكتاب « إمام » القرآن في الهدى (هود ١٧ ، الأحقاف ١٢) . فتحدى القرآن لإعجازه موجه للمشركين ، لا للكتاب و أهله . لذلك فهو لا يعتبر إعجازه معجزة له على الإطلاق .

٥ ـ في القرآن شهادة ناطقة غفل عنها القوم حتى اليوم . ففيما هو يتحدى المشركين بقوله : ((قل : لئن اجتمعت الأنس و الجن على أن يأتوا **بمثل** هذا القرآن ، لا يأتون **بمثله** ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)) (الإسراء ٨٨) ، نراه يشهد شهادة قاطعة بوجود ((مثل)) القرآن في زمانه ، عند النصارى من بني إسرائيل : ((**و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله**)) (الأحقاف ١٠) . لاحظ وحدة التعبير ، ((**مثله**)) ، في التحدّي و في شهادة الواقع التى لا يمكن لأحد ان يمارى فيها ـ و هذه الشهادة القاطعة حجة ناطقة على أن القرآن لا يعتبر إِعجازه معجزة له .

٦ـ و نحن لا نقتصر المعجزة على حسيّة و عقلية . بل نستجمع في هذا الكتاب وجوه المعجزة جميعها ، لاستكمال النظر فيها أبعد من المتقدمين و المتأخرين .

ففى **القسم الأول** ، نرى **المعجزات الحقيقية** : المعجزة الحسية (أى الافعال المعجزة)، و المعجزة الغْيبية (أى الإنباء بالغيب) ، و المعجزة الشخصية في السيرة و النبوّة و الرسالة ، و المعجزة الظرفية من حيث البيئة و شمول الدعوة و ((حفظ)) القرآن ، والمعجزة الذاتية في التنزيل و في التأليف ، و المعجزة الموضوعية في الهدى و الشريعة و((العلم)) و التاريخ (القصص القرآني) . تلك أنواع ستة تشمل المعجزة من كل وجوهها .

و في **القسم الثاني** نرى **المعجزة البيانية** ، من الأسس الضعيفة لاعتبار الإِعجاز معجزة (أمية محمد ، القرآن كلام الله فهو معجز بذاته ، وجه الإِعجاز مجهول) ، إلى حقيقة شهادة القرآن لإِعجازه ، إلى الإِعجاز في فصاحة لغته مع ((غريب القرآن)) فيها ، إلى الإِعجاز في بيانه مع متشابهاته ، إلى الإِعجاز في بلاغته مع ((متشابه القرآن)) ، و ناسخه ومنسوخه ، إلى الإِعجاز في جدليته ، مع ((مشكله و موهم الاختلاف و التناقض فيه)) ، إلى الإِعجاز في أسلوبه و نظمه ، و هو نظم الكتاب بحسب الأسلوب الآرامى ، لا العربي . ويأتي فصل الخطاب : أيصح هذا الإِعجاز معجزة الهية ؟

٧ ـ و اننا نستفتح كتابنا **بهذا التصريح : إننا نؤمن إيمانا علميا بإِعجاز القرآن .**

هذا هو موقفنا الذي يجب أن يفهمه كل من يطالع هذا الكتاب . لكن بما أن المعجزة على أنواعها هي برهان النبوّة الأوحد ، يظل السؤال المحرج الذي حير العلماء من مسلمين

و غير مسلمين قائما : هل يشهد القرآن لمحمد بمعجزة ؟ هذا ما نراه في القسم الأول ؟ هل يعتبر القرآن إِعجازه المشهود معجزة له ؟ هذا ما نراه في القسم الثاني . هدانا الله إلى السراط المستقيم .

القسم الأوّل

المعجزة الحقيقية

هل يشهد القرآن لمحمد بمعجزة ؟

« و ما منع الناس أن يؤمنوا ... إلاّ أن تأتيهم سُنّة الأولين »

(الكهف ٥٥)

« فأتونا بسلطان مبين »

(إبراهيم ١٠)

[Blank Page]

تقديم

أنواع المعجزة

المعجزة عمل خارق يفوق طاقة المخلوق ، و لا يمكن أن يأتيه إلا الله وحده بواسطة نبيه ، لكي يشهد له في نبوته و رسالته .

و المعجزة على أنواع . و قد درسناها فوجدناها **اثنتى عشرة معجزة** ، جمعناها في **ستة أبواب .**

فقد تكون المعجزة عملاً خارقاً لطاقة الانسان، و هي ما أسموه ((**المعجزة الحسية**))، و قد تكون نبأ من الغيب تفوق معرفته طاقة البشر ، و هذه هي ((النبوّة)) حصراً ، أى **المعجزة الغيبية .**

و قد تكون المعجزة في شخصية النبي : إعجاز في السيرة ، و إعجاز في النبوّة ، وإعجاز في الرسالة . و هذه هي **المعجزة الشخصية .**

و قد تكون المعجزة في ظروف الدعوة : إعجاز في حال النبي مثل ((أمية محمد)) ـ هذا الواقع نبحثه في القسم الثاني ـ إعجاز في ظروف البيئة ، من زمان الدعوة و مكانها ، إعجاز في صفة الدعوة ، من شمول و كمال ، تتحدى كل ما سبقها ، إعجاز في ((حفظ)) الدعوة و كتابها من عاديات الدهر . هذا ما أسميناه **المعجزة الظرْفية .**

و المعجزة الأولى تكون في ذات الوحي المُنزل ، من إعجاز في التنزيل ، إلى إعجاز في التأليف . تلك هي **المعجزة الذاتية .**

و المعجزة الكبرى تكون في التعليم ، موضوع الوحي و التنزيل : إعجاز في الهدى والعقيدة ، إعجاز في الشريعة ، إعجاز في العلم بغيب ((الكونيات)) ، إعجاز في التاريخ ، يكشف أخبار الخلق و التكوين ، أو أخبار الامم و الأنبياء الغابرين ، كما يفعل القرآن في قصصه ، أو يكشف أوصاف اليوم الآخر و المعاد . تلك هي **المعجزة التعليمية أو الموضوعية** .

في ذلك تكون **المعجزات الحقيقية** ، بأنواعها الاثنى عشر .

فهل يشهد القرآن لمحمد بمعجزة من هذه المعجزات ؟

إننا نسأل الشاهد الاوحد و المعصوم ، القرآن نفسه ، فعنده ((القول الفصل ، و ما هو بالهزل)) كما في غيره (الطارق ١٣ ـ ١٤) .

الفصل الأوّل

أنواع المعجزة الحقيقية

توطئة

موقف القرآن السلبي من كل معجزة

(للاستاذ دروزة)

إن المعجزة دليل النبوّة الاوحد ، بإجماع الكتب السماوية ، و إجماع المتكلمين في كل دين . و ينسب القوم في الحديث و السيرة و الشمائل و المغازى إلى محمد معجزات تفوق معجزات عيسى و موسى و سائر النبيّين كمية و قيمة . و أبو بكر ابن العربي في تفسيره (أنوار الفجر) أوصلها إلى **ألف معجزة** عداً ، و هو يقول : لقد لخصت و اختصرت . و ابن تيمية ، في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » (٤ : ٢٤٩) أوصلها إلى عشرات الألوف ، قال : « و المقصود هنا تواتر أنواع آياته المستفيضة في **الأحاديث** أعظم من أمور كثيرة هي متواترة عند **الأمة** أو عند علمائها و علماء أهل الحديث . و هذا غير الآيات و البراهين المستفادة **بالقرآن** ... حتى بيّنوا أن ما في القرآن من الآيات يزيد على **عشرات**

ألوف من الآيات . و هذا غير ما في كتب أهل الكتاب من الاخبار به . و هذه الاجناس الثلاثة غير ما في شريعته التى بُعث بها ، و غير صفات أُمته ، و غير ما بُذل من المعرفة بسيرته وأخلاقه و صفاته و أحواله . و هذا كله غير نصر الله و إكرامه لمن آمن به ، و عقوبته و انتقامه ممن كفر به ، كما فعل بالأنبياء المتقدمين . **فإن تعداد أعيان دلائل النبوّة** مما لا يمكن بشراً الاحاطة به)). لكن القول الفصل في النبوّة و المعجزة هو للقرآن وحده : **فهل يشهد القرآن لمحمد بمعجزة ؟**

إن الواقع القرآني المشهود هو ((موقف القرآن السلبي)) من كل معجزة له .

و قد أوجز هذا الموقف السلبي زعيم أهل السيرة العلمية في عصرنا ، الأستاذ حسين هيكل في (حياة محمد) : ((**لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة** أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم ، برسالة محمد ، إلاّ القرآن)) . و هي مقالة زعيم أهل كتب الإِعجاز ، الباقلاني : ((**إن نبوّة النبي ﷺ معجزتها القرآن**)) . فهي مقالة الأولين والاخرين بالاجماع : ليس في القرآن من معجزة سوى إِعجازه . فبحسب نص القرآن القاطع، و اجماع العلماء فيه ، ليس لمحمد من معجزة حسية تشهد لنبوته . هناك إِعجاز القرآن وحده يشهد له . و سنرى في القسم الثاني : هل يعتبر القرآن إِعجازه معجزة له ؟ و هل يصلح الإِعجاز البياني معجزة إلهية في النبوّة للعالمين ؟

و قد فصل الأستاذ عزة دروزة ((موقف القرآن السلبي)) من المعجزة ، في (سيرة الرسول ١ : ٢٢٥ ـ ٢٢٦) . قال : ((وقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآني من تحديهم ، و أخذوا يطالبون النبي ﷺ بالمعجزات والآيات برهانا على صدق دعواه أولاً ، ثم أخذوا يدعمون مطالبهم بتحد آخر ، و هو **سُنّة الأنبياء السابقين** الذين جاؤوا بالآيات و المعجزات (الإسراء ٩٠ ـ ٩٣ ، الحجر ٦ ـ ٧ ، الفرقان ٧ ـ ٨ ، القصص ٤٨ ، الأنبياء ٥) . و قد تكرّر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم ، كثيراً ، حتى حكي القرآن المكي عنهم نحو **خمس و عشرين** مرة صريحة ، عدا ما حكي عنهم من التحدّي الضمنى ، ومن التحدّي بالإتيان بالعذاب و استعجاله و السؤال عنه .

((و لا نعدو الحق اذا قلنا إن من المستفاد من الآيات القرآنية المكية **أن الموقف تجاه هذا التحدّي المتكرر كان سلبيّاً** ، إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية ، أو إلى احتوائه

ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحى الله به (الأنعام ٣٧ ، يونس ٢٠ ، الرعد ٧ ، طه ١٣٣ ، الشعراء ١٩٧ ، العنكبوت ٥٠ ـ ٥٤ ، الملك ٢٥ ـ ٢٦) .

« بل هناك ما هو أبعد مدى على الموقف السلبي المذكور : إن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحدى الكفّار و إظهار معجزة تُبهتهم فيؤمنون بَراً بإيمانهم (الأنعام ٧ و ١٠٩ ـ ١١١ ، الحجر ١٤ ـ ١٥) و في (الأنعام ١٤) آية وجّه فيها الخطاب الى النبي ﷺ تدل على أنه هو نفسه كان يتمنى أن يُحدث الله على يده آية تبهت الكفّار و تحملهم على الاذعان . و في سورة (هود ١٢) آية عظيمة المغزى من ناحية شعور النبي ﷺ هذا ، إذ تكشف عما كان يخالج نفس النبي ﷺ **من حيرة و ضيق بسبب تحدّى الكفّار إياه بالمعجزات** ، حتى لقد كان يترك أحياناً تلاوة بعض ما يوحى إليه عليهم ، أو يكاد صدره يضيق به لتوقعه منهم التحدّي . و قد روى الرواة في صدد الآية ما فيه توضيح أكثر إذ قالوا : إن الكفّار كانوا يطالبون النبي ﷺ بالمعجزات **فلا يستجيب إليهم** ، ثم تُوحى إليه الآيات القرآنية ، فيسخرون منه ، و يقولون : هلاّ استنزلت ملاكاً أو كنزاً ، بدلا من هذه الآيات ؟ **فكان يخجل و يتهرب منهم أحياناً .**

« و نعتقد أن من السائغ أن يُقال : إن هذا **الموقف السلبي** كان من عوامل تكرر التحدّي من جانب الزعماء المكابرين المستكبرين ، و انقلاب أسلوبهم فيه إلى **التعجيز حيناً** (الإسراء ٩٠ ـ ٩٣) ، **و إلى السخرية حينا** (الحجر ٦ ـ ٧) ، و الالتجاء إلى الله (الأنفال ٣٢) ، كما كان دعامة لصدّهم و تعطيلهم و خبث دعايتهم و مكرهم ضد النبي ﷺ و دعوته أيضاً ، بل لعله كان من أسباب تمسك المعتدلين بجحودهم أولاً ، و انجرافهم مع المعاندين أخيراً ...

« نقول ما قلناه و نحن نعرف أن كثيراً من المفسرين قالوا : ١) « آيات سورة القمر الأولى احتوت **معجزة انشقاق القمر** فعلا بمكّة ، و رووا أحاديث عدة مؤيدة لقولهم ، و في بعضها ما يفيد أن هذه المعجزة قد وقعت جواباً على تحدى الكفّار [١] . ٢) إن **حادث الإسراء** [٢] الذي ذُكر بصراحة في الآية الأولى من سورة (الإسراء) يسلك في عداد

---

(١) ونصّها « اقتربت الساعة وانشق القمر » صريح، كما سنرى، بأن الخبر عن « الساعة » أى اليوم الآخر.
(٢) و الإسراء بنص الآية كان « ليلاً » لم يُشاهده أحد ليصح التحدّي به كمعجزة . و الكرامة غير المعجزة .

المعجزات النبوية ، و مثله **حادث المعراج** الذي ذكر ضمناً ، على رأى بعض العلماء في بعض سورة (النجم) . ٣) « إن في القرآن **تأييدات ربانية** للنبي ﷺ و المسلمين في بعض المواقف و الأزمات ، و خاصة في أثناء الجهاد ، كما أن فيه ما يدل على أن النبي ﷺ قد أطلع **على بعض الامور المغيبة** [١] ممّا عُدَّ في عداد المعجزات النبوية . ٤) إن في كتب الحديث و السيرة و الشمائل **روايات كثيرة عن معجزات نبوية** ، منها ما روى أنه وقع في مكّة جواباً على تحدى الكفّار .

« **غير أننا في الحق نرى أن الموقف السلبي الذي تمثله آيات القرآن عاماً و قوياً ، من الصعب أن ينقصه ذلك** » .

ثم انتهى إلى القول « و هذه النواحي الايجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة **لحكمة ذلك الموقف السلبي** ، بحيث يصح أن يستلهم منها ، و أن يقال ـ و قد ألمح الى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً ـ **إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام** ، و برهاناً على صحة رسالته و صدق دعوته » .

فالواقع القرآني شاهد عدل إذن أنه لا معجزة في القرآن ، و بالتالى في الحديث والسيرة و الشمائل : ففى هذه إفتراء على التاريخ ، و في تفسير القرآن تخريج مغرض ، وذلك **بشهادة القرآن الصريحة القاطعة** ، في موقفه السلبي من كل معجزة لمحمد .

بحث أول

الواقع القرآني ينفى المعجزة عن محمد

و إنه لبحث طريف ان نستقرىء تلك الشهادة الصريحة القاطعة ، لنستطلع بالتفصيل موقف القرآن السلبي ، و اقرار نبيه **بعجزه عن كل معجزة .**

نتبع في ذلك ترتيب النزول التاريخي الذي يعتمده أئمة المسلمين [٢] .

---

(١) و القرآن صريح بأن محمد « لا يعلم الغيب » (الأنعام ٥٠ الأعراف ١٨٨) .
(٢) راجع في هذا الصدد لوائح ترتيب **أطوار الدعوة القرآنية** ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٣ .

إن الآية الأولى التى تلاها نبي القرآن كانت أمر الوحي له : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ! إقرأ و ربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (العلق ١ ـ ٥) . تلك الآيات التى تكرر **الأمر بالقراءَة و التعلّم بالقلم** تقضى منذ مطلع الدعوة على القول بأمية محمد التى يجعلونها أساس اعتبار الإِعجاز القرآني معجزة .

في السورة الثانية (القلم) يسمّون دعوته « أساطير الأولين » فلا يرد التحدّي ، بل يستعلي عليهم : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ! ... أم عندهم الغيب فهم يكتبون ! » (٣٧ و٤٧). إن الاشارة واضحة: محمد أفضل منهم لأن عنده كتاباً فيه يدرس، و عنده غيباً منه يكتب، فليس التعليم الذي يبلغهم إياه« أساطير»، بل تنزيل الله في الكتاب من قبله. إنه منذ البدء يشير إلى مصادره الكتابية، **و يثبت لهم حقيقة ثقافته الكتابية بالدرس و الكتابة.**

في السورة الثالثة (المزمل) يُدعى محمد إلى قيام الليل للصلاة و ترتيل القرآن: « ورتل القرآن ترتيلاً » لاحظ تعبير « القرآن » على الإطلاق ، فهو قائم يتلونه كل يوم في قيام الليل ، كعادة الرهبان النصارى وحدهم . و لم ينزل من قرآن محمد سوى عشر آيات ، فاتحة سورتى العلق و القلم ، لا تكفى للتلاوة في قيام الليل : فما هو هذا « القرآن » الذي يدعى لترتيله ؟ نرى الجواب في قوله : « و أمرت أن أكون من المسلمين، و أن أتلو القرآن » (النمل ٩١ ـ ٩٢) . **إن « المسلمين » موجودون قبل محمد ، و هو يُؤمر بالانضمام إليهم و تلاوة « القرآن » معهم** أى قرآن الكتاب .

في السورة الرابعة (المدّثر) يصف وقع الدعوة عليهم : « هذا سحر » ، لكن في نظر قائلها ـ الوليد بن المغيرة المخزومى ـ « إنْ هذا إلاَّ سحر يؤثر ! إن هذا إلا قول البشر ! » (٢٤ ـ ٢٥) . تعبير آخر لقولهم « أساطير الأولين » . فهو يدعوهم بدعوة الكتاب ؛ لذلك يطالبونه بإبراز الكتاب الذي فيه يدرس ، و الغيب الذي منه يكتب : « بل يريد كل امرىء أن يُؤتى صحفا منشرة » (٥٢) . فلا يبرزها ، فيعرضون « كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » ـ أى أسد (٥٠ ـ ٥١) .

في السورة الخامسة (الفاتحة) يطلب لنفسه و لجماعته الهداية إلى الصراط المستقيم. و هذا الصراط المستقيم هو ما يتلوه عليهم من قرآن الكتاب (المزمل ٤ مع النمل ٩١ ـ ٩٢).

هذا ما يصرّح به في السورة السابعة (التكوير) ، حيث نجد أوّل وصف لرؤيا غار حرّاء : « و إنه لقول رسول كريم ... و لقد رآه بالأفق المبين » و قول الرسول الكريم نعرف مضمونه من سورة (الشورى ٥٢ مع ١٥) حيث يأمره الوحي بالإيمان بالكتاب و تلاوته على العرب ، هذا هو الصراط المستقيم الذي يُهدى إليه: « و إنك لتُهدى إلى صراط مستقيم » (٥٢) ، « و قل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، و أمرت لأعدل بينكم » (١٥) ، هذا هو دين إبراهيم و موسى و عيسى الذي يشرعه الله في القرآن للعرب (الشورى ١٣) .

يؤكد ذلك منذ مطلع الدعوة، في السورة الثامنة (الأعلى) حيث يدعو لتوحيد « الرب الأعلى » بدعوة الكتاب نفسه : « إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم و موسى » (١٨ ـ ١٩) . و نجد هذه الدعوة القرآنية بحرفها في التوراة : « إيل عليون » (التكوين ١٤: ١٩ ـ ٢٠) ، فهي صورة **التوحيد السامى الأصيل** ، الذي يدين به « ملك شاليم » (القدس) ، ملكي صادق في زمن إبراهيم الخليل .

و هكذا بعد عشر سور ، أو مقاطع منها ، فتر الوحي القرآني أياماً أو شهوراً أو ثلاث سنين ، على أقوال مختلفة . و ينقل صحيح البخاري إن فتور الوحي كان بسبب وفاة قس مكّة، معلّم محمد ، و هو ورقة بن نوفل ابن عمّ (أو عمّ) السيدة خديجة ، ثرية مكّة التى كانت تجارتها تعدل تجارة قريش ، ووليّها الذي أزوجها محمداً . فتأثر محمد تأثراً بالغاً حتى كاد ينتحر . فجاءت السورة الحادية عشرة (الضحى) تعزيه و تذكّره بنعم الله عليه : « ألم يجدك يتيما فآوى ! ووجدك ضالا فهدى ! ووجدك عائلا فأغنى » . فالقرآن يذكر لمحمد هداية بمناسبة زواجه من خديجة ، و ما كانت هذه الهداية إلا إلى دين قس مكّة ورق بن نوفل ، أى **هداية إلى « النصرانية »** ، و هي الشيعة بالنسبة إلى السنة المسيحية . و حزن محمد من وفاة معلمه طويلا ، حتى أوشك أن ينتحر ، و هذا الدليل الأكبر مع القرآن على اتجاه النبي العربي في دعوته . فالوحي القرآني كان هداية من الضلال إلى « صحف إبراهيم و موسى » كما يفهمها قس مكّة « النصراني »، الى التوحيد الواحد الوحيد بين « إبراهيم و موسى و عيسى » (الشورى ١٣) .

في السورة الثانية عشرة (الشرح) ، بعد التعزية عن فتور الوحي ، يأتي الغفران: « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك » (١ ـ ٣) . أيكون هذا الوزر الثقيل فكرة الانتحار التى ساورت النبي في أزمة الوحي ووفاة معلمه ، قس مكّة ؟

بعد الأزمة ، جاء وقت **تحديد الدعوة** . فحددها سلباً في السورة الثامنة عشرة (الكافرون) حيث يعلن تبرُّؤَه من شرك قومه : « يا أيها الكافرون ... لكم دينكم و لى دين » . فما هو دين محمد ؟ يحدده ايجاباً في السورة الثانية و العشرين ، (الإخلاص) ، حيث يعلن التوحيد الكتابي الخالص ، بحرفه العبراني : « قل : **هو الله أحد** » كما ورد في التوراة (سفر التثنية ٦ : ٤) و في الإنجيل (مرقس ١٢ : ٢٩) : « يهوه الهنا هو الله أحد » و هي شهادة التوحيد عند بني إسرائيل ، من يهود و « نصارى » و الشاهد على صحة هذا المصدر قوله : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٧)، الذي يفسره قوله: « بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩) ، النصارى من بني إسرائيل، لأن اليهود كانوا « أول كافر به » . و خير شاهد أيضاً صيغة التوحيد القرآني: « هو الله أحد » ، فقوله « هو الله » تعريب « يهوه » ، و لا يستقيم لها تخريج آخر، يؤيد ذلك صيغة « أحد » في الاثبات ، و هي لا تأتى عادة في العربية إلا في حال النفى .

حتى الان كانت الدعوة « سرّية » أى بين الأفراد . نقل السيوطي (الإتقان ١ : ٢٥): « إن أول سورة أعلنها رسول الله بمكّة : النجم » ، و هي الثالثة و العشرون في تاريخ النزول. و فيها يؤكد أن الدعوة القرآنية « وحى يوحى علمه شديد القوى » . و فيها الوصف الأول لرؤيا ملاك الوحي في غار حرّاء . و الوصف الثاني في (الشورى ٥٢ مع ١٥) يفسر هذا « الوحي يوحى » بأنه هداية إلى الصراط المستقيم ، الإيمان بالكتاب و الدعوة له ، بحسب قوله : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة ... **أمراً من عندنا** ، إنا كنا مرسلين » (الدخان ٣ ـ ٥) .

الخامسة و العشرين (القدر) يأتي أول تصريح عن زمن الوحي : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » . و هو مثل قوله : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » (الدخان ٣) حيث الضمير معلن في قوله : « **أمراً من عندنا** ، إنّا كنا مرسلين » (الدخان ٥) . فالمنزل هو « الأمر » بالرسالة . هذا هو « **القرآن** » **الذي نزل جملة** : « آمنت بما أنزل الله من كتاب » (الشورى ١٥) ، بحسب آيتى سورة (الدخان ٣ ـ ٥) . فما الدعوة القرآنية كلها سوى تفصيل هذا « الأمر » في « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) .

و السورة التاسعة والعشرون (قريش) توضح أهل الدعوة الأولين موضوعها: « لإيلاف قريش : **فليعبدوا رب هذا البيت** » ! حسب الوهم المشهور كان « البيت العتيق » ، كعبة

شرك و أوثان . فهل يأمر القرآن بالشرك ؟ هذا كفر بحقه . إن القرآن العربي يشهد بأن الكعبة كانت معبد توحيد ، و تمثيل المسيح و أُمه على جدرانها ، كما روى الأزرقى ، و ذلك قبل البعثة بخمس سنوات ، عند تجديد بنائها ، يشهد بأنها كانت معبداً مسيحياً ، يطوف به قس مكّة ((النصراني)) ورقة بن نوفل . و ما كان القس ليطوف بمعبد شرك و أوثان ، و ما كان القرآن ليأمر بعبادة ((رب هذا البيت)) ربّ شرك و أوثان . هذه شهادة قرآنية أولى على ذلك.

و الشهادة الثانية في السورة الخامسة و الثلاثين (البلد) حيث يقسم : ((لا ! **أقسم بهذا البلد** ، و أنت حِلٌّ بهذا البلد ، **ووالد و ما ولد :** لقد خلقنا الانسان في كبد)) (١ ـ ٤). إن القسم ((بوالد و ما ولد)) قَسَم مسيحى بالله و المسيح ـ لا ((بآدم و ذريته)) كما يقول الجلالان ـ و هو قسم ترددده عقيدة النصارى من بني إسرائيل ، كما نقلها القرآن في قوله : ((قلْ : هو الله أحد ، الله الصمد ، **لم يلد و لم يولد**)) . وقسم القرآن ((**بهذا البلد**)) برهان على أن مكّة كانت بلد توحيد ، بخلاف الوهم المشهور ، و إلاَّ جعلنا القرآن يقسم ببلد مشرك ، معاذ الله ! إنما شرك أهل مكّة كان ((الى الله)) (الزمر ٣) ، لا عبادة مخلوق مع الخالق . فالقسم الثنائى ((بهذا البلد ، ووالد ما ولد)) شهادة قائمة لسيطرة المسيحية على مكّة و الكعبة ، بخلاف ما يتوهمون و يوهمون . و إعلان القرآن : ((قل : هو الله احد ، لم يلد و لم يولد)) هو اشهار الصراع الناشىء بين ((النصرانية)) و المسيحية ، للسيطرة على مكّة و الكعبة ، بفضل الدعوة القرآنية .

و في السورة السابعة و الثلاثين (القمر) يفتتح القصص القرآني . و فيها يذكر مصادر دعوته و قصصه ، و يستعلي بها على المشركين من بنى قومه : ((أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءَة في الزُبر ؟)) (٤٣) . و يكرر : ((و كل شيء فعلوه في الزُبر)) (٥٢) . و هو مثل قوله: ((و إنه لتنزيل رب العالمين ... و إنه لفى زبر الأولين : ألم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)) (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧) ، ((زبر الأولين)) أى ((كتبهم كالتوراة و الإنجيل)) (الجلالان) . فالقرآن ينتسب في دعوته إلى النصارى من بني إسرائيل ، ((**المسلمين**)) من أهل الكتاب ، الذين يتلو معهم ((قرآن)) الكتاب (القلم ٣٧ ـ ٣٨ ، المزمل ١ ـ ٥) .

نصل الى سورة (الأعراف) ،التاسعة والثلاثين . وهي سورة متبعّضة أي فيها آي مكي وآي مدني (حديث النبي الأمّي)،من أزمنة مختلفة . و(الأعراف) مع (الأنعام) هما صورة الجدال الأكبر في الدعوة والمعجزة التى يطلبون لتأييدها . يصرح: ((ولقد جئناهم

بكتاب فصلناه على علم ،هدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٥٢): فالقرآن العربي إنما هو « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) ، على طريقة « أولي العلم » ، «الصالحين » كناية عن «النصارى » من بني إسرائيل : « **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون** » (١٥٩). فعلى مثالهم يدعو « النبي الأمّي الذي يؤمن بالله و كلمته » [1] (١٥٨) أى بالله و المسيح . فالدعوة القرآنية دعوة « نصرانية » : « إن وليَّ الله الذي نزّل الكتاب ، و هو يتولّى الصالحين » (١٩٦) . و هؤلاء « الصالحون » هم « **ممن خلقنا أمة يهدون بالحق و به يعدلون** » (١٨١ قابل ١٥٩) ، أي « النصارى » من بني إسرائيل . فهو يدعو في القرآن بدعوة هؤلاء « النصارى » الصالحين . و شهادتهم له هي كل برهانه على صحة دعوته . **يتحدونه بمعجزة** فيجيب : « و إذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها » ! (٢٠٣) أي « لولا أنشأتها من قبل نفسك » (الجلالان) . و يتحدونه **بنبوءَة غيبية** فيجيب : « قل : لا أملك لنفسى نفعاً و لا ضراً ، إلا ما شاء الله ! **و لو كنت أعلم الغيب** لاستكثرت من الخير و ما مسنى السوء ! إنْ أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون » (١٨٨) . فليس في القرآن العربي نبوءة غيبية ، و لا معجزة حسية ، إنما هو قرآن الكتاب على العرب : « واذا قُرىء القرآن فاستمعوا له و انصتوا لعلكم ترحمون » (٢٠٤) ، فالقرآن الذي يتلوه عليهم هو غير هذا القرآن العربي الذي يقص الخبر : فالقرآن المُخبر هو غير القرآن المُخبَر عنه ، لاحظ استعمال التعريف المطلق دائما : « القرآن » منذ مطلع الدعوة (المزمل ٤) و لم ينزل من القرآن العربي ، حينئذٍ إلاَّ آيات معدودات ، حتى الآن (الأعراف ٢٠٤) . فالقرآن العربي هو دعوة لقرآن الكتاب ، « للقرآن » على الإطلاق ، **بلا نبوءة غيبية و لا معجزة حسية** ، إنه « تفصيل الكتاب » للعرب . **و في هذا « التفصيل » نبوءَة محمد كلها** ، و دعامة صحتها .

في الحادية و الأربعين (يس) يقسم : « و القرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، و تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوم ما أنذر آبائهم فهم غافلون » (١ ـ ٦). ليس المقسم به « القرآن الحكيم » و المقسم عليه القرآن العربي واحداً ؟ و ما نزل من القرآن العربي لم تكن له هذه الحرمة عند المشركين حتى يصح القسم به ، و ليس هو بالمعروف المشهور المطلق حتى يسميه « القرآن الحكيم » : **فهذا « القرآن الحكيم » الذي يدعو إليه القرآن العربي هو**

---

(١) قراءَة « **كلمته** » أصحّ من « **كلماته** » ، لانسجامها مع السياق كله .

الكتاب المقدس . فقرآن الكتاب هو « تنزيل العزيز الرحيم » ، و محمد « من المرسلين ، على صراط مستقيم » بالدعوة له. و هذا « الصراط المستقيم » هو « طريق الأنبياء من قبلك » (الجلالان) . اسم الدعوة يدل عليها : « إن هو إلاّ ذكر و قرآن مبين » (٦٩) . فدعوة محمد قراءَة عربية للكتاب الإمام ، و ذكر منه . و مع ذلك فمشركو مكّة يُعرضون عنه لأنه لا يأتيهم بمعجزة كالأنبياء الأولين : « و ما تأتيهم من آية (خطابية) من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » (٤٦) . يطلبون معجزات حسية فيقدم لهم آيات خطابية ، فيردونها إلى الشعر أو إلى السحر (٦٩) .

في الثانية والأربعين (الفرقان) يشتد الخصام، لعجز محمد عن معجزة تفحمهم: « وقال الذين كفروا: إن هذا إلاّ إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ! ـ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً » (٤) . إنه يرد التهمة بكلمة ساحقة . لكن الرد يقع على الإفتراء ، لا على معونة قوم آخرين ينتسب محمد اليهم في دعوته : « و قالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا ! ـ قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات و الأرض » ! (٥ ـ ٦) . تراجعوا عن قولهم : « أفك افتراه » ، و سموه : « أساطير الأولين » أى أساطير أهل الكتاب . فرد عليهم : ليس ما يدعوهم اليه « أساطير » بل تنزيل الله في الكتاب . فلا يرد مباشرة على تهمتهم : « اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة و أصيلاً » . و بما أن النبي يدّعى إن دعوته تنزيل ، فهم يطلبون منه معجزة (٧ ـ ٨) فيتهرّب . يعاودون الكرة (٢١) فيتهرّب أيضاً . حينئذ يتحدّونه بالإتيان بالقرآن جملة : « و قال الذين كفرا : لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة (٣٢) ـ كالتوراة و الإنجيل و الزبور (الجلالان) ـ فيجيب : « كذلك ، لنثبت به فؤادك ! ورتلناه ترتيلا » (٣٢) : القرآن عليه كان لتثبيت محمد نفسه قبل دعوة غيره . و الدعوة القرآنية ليست إفتراء و لا أساطير ، إنما هي قرآن الكتاب كما عند « الأولين » ، كما يتضح من القول المتواتر « أساطير الأولين » كما نعتوها (٨ : ٣١ ، ٢٣ : ٨٣ ، ٢٥ : ٥ ، ٢٧ : ٦٨ ، ٦٨ : ١٥ ، ٨٣ : ١٣).

في الثالثة و الأربعين (فاطر) **يظهر تضامنه في دعوته مع طائفة « أولي العلم »** من أهل الكتاب : « إن الذين يتلون كتاب الله ، و أقاموا الصلاة و أنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (٢٩) . فهو يشهد بأن « كتاب الله » موجود قبل القرآن العربي ، و أن ما يتلوه أهل الكتاب في زمان محمد لم يزل « كتاب الله » ، و يشهد أيضاً بأن تلك الطائفة

الصالحة تؤازر الدعوة القرآنية و تنفق في سبيلها سراً و علانية ، و هم ((أولو العلم)) من أهل الكتاب ، فيجيبهم بقوله : ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)) (٢٨) . ليس هذا تعبيراً لغوياً كما يفهمونه ، إنما هو اصطلاح قرآني ، كناية عن ((أولو العلم)) من أهل الكتاب أي ((النصارى)) من بني إسرائيل . فيتعنّت المشركون ، فيستعلي عليهم ((بكتاب الله)) الذي يتلوه مع ((العلماء)) من أهل الكتاب : ((أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه)) ؟ (٤٠) إن محمداً عنده ((كتاب الله)) وهو على بينة منه ، و يدعوهم إليه حسب رغبتهم و قسمهم: ((وأقسموا بالله جهد إيمانهم : لئن جاءَهم نذير ، ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم)) (٤٢) ـ أى اليهود . إن محمداً ، بتضامن مع ((أولي العلم)) من أهل الكتاب ، حقق للعرب أمانيهم ، ((فلما جاءَهم نذير ما زادهم إلا نفوراً و استكباراً في الأرض ، و مكر السّىء)) (٤٢ ـ ٤٣). و سبب ذلك عجزه عن معجزة ، هي سُنّة الأنبياء الأولين ، كما ينتظرونها منه : ((فهل ينظرون الا سُنّة الأولين ؟ ـ فلن تجد لسُنّة اللهِ تبديلاً ! و لن تجد لسُنّة اللهِ تحويلاً)) (٤٣). لقد منعت المعجزات عن محمد ، و لا أمل في تبديل و تحويل سُنّة اللهِ (قابل الإسراء ٥٩) .

و هكذا انتهى العهد الأول بمكّة ، بالهجرة الجماعية إلى الحبشة المسيحية . لقد احتمى المسلمون المضطهدون عند بنى دينهم . جاءَ في (الإتقان ١ : ١٩) : ((ينبغى أن يمثل لما حُمل إلى الحبشة **بسورة مريم** . فقد صح أن جعفر بن أبي طالبٍ قرأها على النجاشى . أخرجه محمد في مسنده)) . و سورة مريم ، الرابعة و الأربعون ، إعلان إيمان الدعوة القرآنية بالمسيح و أمه . فالقرآن دعوة إنجيلية على طريقة ((النصرانية)) . هذا ما نراه أيضاً في العهد الثاني بمكّة .

رجع النبي العربي إلى دعوته ، و رجع مشركو مكّة إلى تعجيزه بمعجزة كالأنبياء الأولين. هذا نراه في سورة (طه) ، الخامسة و الأربعين : ((و قالوا : لولا يأتينا بآية من ربه ! ـ **أوَلم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى**)) (١٣٣) . لا معجزة عند محمد مثل سائر الأنبياء ، معجزته أن القرآن العربي ((بينة ما في الصحف الأولى)) ، و هذا البيان شهادة له على صحة دعوته .

و في (الشعراء) ، السابعة و الأربعين ، يأتي التصريح الكامل في معنى دعوته ونبوته . يستفتح بذكر إعراضهم المتواصل (١ ـ ٩) لأن المعجزة المطلوبة لم تأتِ (٤) . و يرد على كفرهم بدعوته بهذا التصريح :

((و إنـه لتنزيل رب العـالمين   نـزل بـه الـروح الأميـن
على قلبك لتكـون من المنـذرين   بلســان عـربـى مبيـن

((و إنـه لفـى زبـر الأولين   أولم يكن لهم أن يعلمه علماء بني إسرائيل
و لو نزّلناه على بعض الأعجمين   فقرأه عليهم مـا كانـوا بـه مؤمنيـن))
(١٩٢ ـ ١٩٩)

أجل إن القرآن العربـي هـو أيضـاً ((تنزيـل رب العـالمين)) (١٩٢) ، لكنـه ((فـي زبـر الأولين)) (١٩٦) أى ((كتبهم كالتوراة و الإنجيل)) (الجلالان) و هذه هي البيّنة الأولـى على صحته . فهو تعريب التنزيل ((بلسان عربى مبين)) ، كما أمره به ملاك الله في رؤيا غار حرّاء ، ((نـزل بـه الـروح الأمين علـى قلبك لتكـون مـن المنـذرين)) . و الشـهادة علـى مطابقـة القرآن العربي لكتاب الله في زبر الأولين ، هي شهادة ((علمـاء بنـي إسـرائيل)) أى ((أولـي العلـم)) مـن بني إسرائيل ، بحسب الاصطلاح القرآني المتواتر [1] ، و هم ((النصـارى)) مـن بنـي إسـرائيل ، فشهادتهم لمطابقة الدعوة القرآنيـة لكتـاب الله الإمـام هـي البيّنـة الثانيـة علـى صـحتها . لا معجـزة عنده سوى ذلك، فالتضامن في الدعـوة و الشهادة لهـا كامل بين محمد و ((علماء بني إسرائيل)) أى ((النصـارى)) ، لذلك فالقرآن العربي دعوة ((نصرانية)) .

و في (النمل) ، الثامنة و الأربعين يعلن أن **أولئك ((النصارى))** **من بني إسرائيل هم ((المسلمون))** الحقيقيون الذين ينتمى محمد إليهم ، و يتلـو معهم قـرآن الكتـاب بقراءَتهم . قابـل فاتحة السـورة : ((تلك آيـات القرآن و كتـاب مبين ، هدى و بشرى للمؤمنين ... و إنـك لتـُلقى القرآن من لدن حكيم عليم)) (١ ـ ٦) ، مع خاتمتها : ((**و أُمِرتُ أن أكون من المسلمين** و أن أتلو القرآن)) (٩١ ـ ٩٢) . ((**فالمسلمون**)) موجودون قبـل محمـد ، و هـم ((مـن قـوم موسـى أمة يهدون بالحق و به يعدلون)) (الأعراف ١٥٩) ، و يعرفون ((القرآن)) قبل محمد : ((أولـم يكـن لهـم آيـة أن يعلمـه **علمـاء بنـي إسرائيل**)) (الشـعراء ١٩٧) ، بـل ((هـو آيـات بيّنـات فـي صدور

[1] وحمْل التعبير ((علماء بنـي إسـرائيل)) علـى اللغـة . لا علـى الاصـطلاح القرآنـي المتـواتر ، هـو مـا يحمـل كثيرا من المفسرين و المستشرقين على سوء فهم القرآن ، فيظنون من الآيتين (الشعراء ١٩٧ ، الأحقـاف ١٠) أنه كان في مكّة جالية يهودية ، و أن اليهـود في عهـد مـن القرآن كانـوا مـن شـهوده، و القـرآن كلـه تأييد ((للنصرانية)) الإسرائيلية على اليهودية (الصف ١٤) .

الذين **أوتوا العلم** » (العنكبوت ٤٩) . إن « علماء بني إسرائيل » ليسوا اليهود ، « أول كافر به »، بل النصارى من بني إسرائيل ، الذين فرضوا « نصرانيتهم » على الجزيرة باسم الإسلام الذي أسهموا في نشأته و ذابوا فيه (الصف ١٤). و « القرآن » ، « القرآن العظيم » موجود معهم « آيات » من الكتاب المبين ، و محمد مأمور بأن ينضم اليهم ، و يتلو معهم هذا « القرآن » لاحظ الاستفتاح : « تلك » و هي اشارة الى ما يسبق السورة القرآنية العربية من تلاوة « آيات القرآن » من الكتاب المبين ، و ما السورة التي تستفتحها الآية سوى تعليق على تلك التلاوة . هذا الواقع القرآني شاهد عدل على أن محمداً انضم إلى النصارى « المسلمين » قبله ، و تلا الكتاب المبين على العرب « بقرآنهم » أى قراءَتهم العربية له ، بإشراف « حكيم عليم » منهم .

و في هذه السورة التصريح **بغاية الدعوة القرآنية** : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦) . بنو إسرائيل اختلفوا في المسيح الى يهود و نصارى ، و الدعوة القرآنية قامت ـ مع هداية مشركي العرب الى التوحيد الكتابي ـ للفصل في الخلاف على المسيح بين اليهود و النصارى من بني إسرائيل . و سيقول القرآن المدني بأن غايته تأييد هذه النصرانية الإسرائيلية على اليهودية حتى الظهور عليها (الصف ١٤) . فوقف القرآن كله حتى آخر عهده ، و مجادلة وفد نجران المسيحي اليعقوبى ، موقف الحياد من المسيحية كلها . و موقف الحياد هذا لا يمنع بيان الاختلاف في العقيدة معها من حين لآخر ، بيان « نصرانية » العقيدة القرآنية .

ثم يقول « **و أُمرت أن أعبد رب هذه البلدة ... و أمرت أن أكون من المسلمين** » (٩١) . إن مكّة لم تطهّر بعد من الشرك ، فمن هو « رب هذه البلدة » ؟ و كيف يؤالف بين هذه العبادة ، و بين دعوة « المسلمين » الذين انضمّ اليهم ؟ إمّا هو إله الشرك ، و إما هو إله « المسلمين » من قبله، النصارى من بني إسرائيل. اتهام القرآن العربي بالدعوة لإله الشرك كفر ! إن « رب هذه البلدة » هو الله ، إله المسيحية السائدة في مكّة ، و الذي يعبده أيضاً « المسلمون » من قبل محمد ، « النصارى » الذين أُمر بأن ينضم إليهم ، و يعبد الله بعبادتهم ، و يدعو بدعوتهم ، في منافسة المسيحية ، و محاربة الشرك ، و هذه شهادة قرآنية ثالثة على سيادة التوحيد المسيحي بمكّة و الكعبة . فلا يقبلون دعوته لأنها بدون معجزة كالأنبياء الأولين. أما محمد فيأمل أن تأتى المعجزة : « و قل : الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها » (٩٣) .

و في (القصص) ، التاسعة و الأربعين ، يقص عليهم سيرة موسى ، «فلما جاءَهم الحق من عندنا قالوا : **لولا أُوتى مثل ما أُوتى موسى !** ـ أولم يكفروا بما أُوتى موسى من قبل ؟ قالوا : سحْران (ساحران) تظاهرا ! و قالوا : إنا بكلٍ كافرون ! ـ قل : **فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما** أتّبعه ، إن كنتم صادقين » (٤٨ ـ ٤٩) . **هذا مطلع التحدّي بالقرآن** ، و في آية (القصص ٤٩) معنى تحدى العرب بإِعجاز القرآن : **إنه تحدى بالهدى**، لا بالنظم و البيان ، كما يتوهمون و يوهمون . لكن « الكتاب » في هذا « الهدى » هو والقرآن سواء : « أهدى منهما » . فالتحدّي موجه للمشركين ، لا للكتابين . فعلى ضوء هذا الاستفتاح بالتحدّي بالقرآن ، يجب فهم قصة إِعجاز القرآن العربي كلها . و سنرى أن القرآن في « الهدى » تابع للكتاب إماماً له : « و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً ، و هذا كتاب مصدق لساناً عربياً » (الأحقاف ١٢ ، قابل هود ١٧) : فليس إِعجاز القرآن معجزة له . والسورة تشهد بإسلام « النصارى » قبل القرآن العربي ، و باسهامهم في الدعوة القرآنية: « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، و اذا يُتلى عليهم قالوا : آمنّا به ، إنه الحق من ربنا ، **إنا كنا من قبله مسلمين !** أولئك يُؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، و يدرأون بالحسنة السيئة ، و ممّا رزقناهم ينفقون ، و اذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه و قالوا : لنا أعمالنا و لكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » (٥٢ ـ ٥٥) . قال الجلالان : « نزلت في جماعة أسلموا من اليهود كعبد الله بن سلام ، و غيره من النصارى قدموا من الحبشة و من الشام » . تفسير متناقض مع صريح الآية « إنا كنا **من قبله** مسلمين » . و إسلام نفر من اليهود أو من المسيحين لا يأخذ هذا التعبير الشامل ، و لا يمكن أن يقولوا : « إنا كنا من قبله مسلمين » و لا اليهود ، و لا المسيحيون أسهموا في نشر الدعوة القرآنية بإعلان الإيمان بها و الشهادة لها ، واحتمال « اللغو » أى « الشتم و الاذى من الكفّار » لذلك ، و الانفاق في سبيلها ، إنهم وحدهم النصارى من بني إسرائيل (الأعراف ١٥٧ ، الصف ١٤) الذين أسهموا بتلك الأعمال في إنشاء الإسلام و ذابوا فيه . و ذوبانهم في الإسلام أضاع معالمهم على المفسرين فخبطوا فيهم خبط عشواء . و إعلانهم « إنا كنا قبله مسلمين » شهادة بأن الإسلام اسلامهم ، و الدعوة القرآنية « نصرانية » . « أولئك يُؤتون أجرهم مرتين » ، « لإيمانهم بالكتابين » (الجلالان) . كانت آية (النمل ٩١) إعلاناً بانضمام محمد إلى « المسلمين » النصارى ، و جاءَت آية (القصص ٥٣) إعلاناً لانضمام النصارى إلى الدعوة القرآنية . على

ضوء هذا الواقع نفهم قوله المتواتر : ((فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين ، و لا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ، و ادعُ الى ربك و لا تكوننَّ من المشركين ، **و لا تدعُ مع الله إلهاً آخر**)) (٨٦ ـ ٨٨) . يقصد ((الكافرين)) بدعوته من أهل الكتاب اليهود و المسيحيين ، و((المشركين)) من العرب ، فقوله : ((لا تدع مع الله إلها آخر)) قد يعنى الشرك ، و هذا بعيد عن محمد ، و قد يعنى عبادة المسيح عند المسيحيين ، و هذا أقرب الى السياق . و النهي دليل على صراع المسيحية و النصرانية لاكتساب محمد و آله . على كل حال **فآية محمد هي شهادة ((النصارى)) له** ، لا المعجزة .

و في (الإسراء) ، السورة الخمسين ، يأتي **التحدّي الأول و الأكبر بالقرآن** : ((قل : لئن اجتمعت الانس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً)) (٨٨) . ان التحدّي بالقرآن صريح شامل . لكن ما معناه ؟ تصاريح السورة عينها تدل عليه . فهو واقع بين تصريحين يحددان معناه . التصريح الاول يفيد أن المعجزات منعت عن محمد منعاً مبدئياً مطلقاً : ((**و ما منعنا أن نرسل بالآيات ، إلا أن كذب بها الأولون**)) (٥٩) ، فمهما كان السبب ، فمبدأ امتناع المعجزة على محمد قائم ، بنص القرآن القاطع . و بعد التحدّي (٨٨) يأتي الواقع المشهود ، فهم يعددون له أنواع المعجزات التى يطلبونها منه لأنها ((سُنّة الأولين)) ، و قالوا لن نؤمن لك حتى ... قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً)) ! (٩٠ ـ ٩٣) . إنه الاقرار الواقعي المشهود **بعجز محمد عن كل معجزة .** و العلة التى يقدمها لتبرير عجزه ، كانت أيضاً في الأنبياء السابقين ، فقد كان كل نبي أتى بمعجزة ((بشراً رسولاً)) ، و أتى بالمعجزة دليل النبوّة . هكذا يجمع القرآن **الواقع المرير إلى المبدإ الخطير** : عجْز محمد عن معجزة ، و الامتناع المبدئي فيه لكل معجزة . وهذان المبدأ و الواقع يمنعان من اعتبار إعجاز القرآن معجزة . و لا يصح تفسير التحدّي بالقرآن إلا أنه تحدٍّ ((بالهدى)) كما استفتح به (القصص ٤٩) و بما انه في ((الهدى)) مع الكتاب سواء ، فهو تحدٍّ للمشركين وحدهم ، بالإعجاز في الهدى ، لا بالإعجاز في البيان . لذلك ليست آيته المعجزة على اطلاقها ، بل شهادة ((**أولي العلم**)) **النصارى له :** ((قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا ! إن الذين اوتوا العلم من قبله ، اذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً)) (١٠٧) . فالقرآن هو اسلام ((أولي العلم)) ، فهو دعوة ((نصرانية)) ، حتى **سجود المسلمين في الصلاة هو عادة ((نصرانية))** : ((يخرون للاذقان سجّداً)) . و من ((العلم)) النصراني لا يبلغ القرآن الا القليل :

« و يسألونك عن الروح ؟ قل : الروح من أمر ربى ، و ما أُوتيتم من العلم ، إلاّ قليلاً » (٨٥) ، فهذه شهادة ناطقة على أن « العلم » المنزل في القرآن أقل مما في الكتاب الإمام الذي مع « أولي العلم » . و تلك الحدود و القيود للتحدى بإعجاز القرآن تفسّر أيضاً معنى « **الإسراء** » في الآية الوحيدة التى تستفتح السورة : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » (١) . فليس المذكور معجزة على الإطلاق ، لأن السورة عينها تعلن أن المعجزة منعت عن محمد منعاً مبدئياً مطلقاً (٥٩) . و التكرار في اخبار القرآن و أوصافه متواتر مشهود ، فلو كان في آية الإسراء اليتيمة أدنى معنى للإعجاز لتوارد في القرآن . و الآية نفسها تنص على أنه تم « **ليلاً** » فلم يكن مشهوداً ، فليس فيه معنى التحدّي ليصح معجزة . إنه أيضاً « رؤيا » ليل ، قصّها محمد « للفتنة » بنص القرآن القاطع (٦٠) فليس فيه معنى الإعجاز . و القرآن نفسه يقطع الطريق على كل من يرى فيه إعجازاً أو معجزة ، بنقله تحدى المشركين له بإسراء كالذي تضعه الآية ، « أو ترقى في السماء ! ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ! ـ قل : سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولاً » (٩٣) ، لذلك فهو لم يرق في السماء ، و لم ينّزل عليهم كتاباً من السماء ، والقرآن يصرح بعجز النبي عن مثل ذلك .

و السورة الحادية و الخمسون (يونس) تصرّح بأن **القرآن** « **تفصيل الكتاب** » **الذي قبله** . يتحدونه بمعجزة ، « و يقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه ! ـ فقل : إنما الغيب لله ! فانتظروا انى معكم من المنتظرين » (٢٠) . لم تأتِ المعجزة بعد . لذلك فالتحدّي بالقرآن من قبل و من بعد ليس فيه معنى المعجزة على الإطلاق . و بدون معجزة ينسبون اليه **إفتراء القرآن** ، فيجيب : « و ما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، و لكن تصديق الذي بين يديه ، و تفصيل الكتاب ، لا ريب فيه ، من رب العالمين » (٣٧) . يرد تهمة الإفتراء بأن القرآن « تفصيل الكتاب » و « تصديق » له ، « بأمر » من رب العالمين (الدخان ١ ـ ٥). و هو اذا ما سمى « التفصيل » القرآني « تنزيلاً » ، فلأنه تفصيل التنزيل الكتابي: « وهو الذي **أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً** ، و الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق ، فلا تكوننَّ من الممترين » (الأنعام ١١٤) . فأهل الكتاب لا يستطيعون أن يعلموا و أن يشهدوا لتنزيل و تفصيل من السماء ، بل لتفصيل التنزيل الموجود معهم و يتم على الأرض بأمر الله . و بعد رد الإفتراء ببيان حقيقة القرآن أنه « تفصيل الكتاب » ، **يتحداهم** « **بسورة مثله** » : « أم يقولون : افتراه ! ـ قل : فاتوا بسورة مثله ، و ادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنتم صادقين » (٣٨) . إن التحدّي للمشركين ، فهو نسبى محدود ، و بما أنه « تفصيل الكتاب »

فالتحدّي بالهدى ، لا بإعجاز الخطاب و البيان ، و هُداه من هدى الكتاب الذي يفصله ، فليس فيه معنى المعجزة ، و هو ينتظرها معهم (٢٠) . لذلك ظلوا يكذبونه حتى شك من نفسه ومن أمره ، فيحيله وحيه الى أساتذته من أهل الكتاب : « فإن كنت في شك مما أنزلناه إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ! لقد جاءَك الحق من ربك ، فلا تكونَّ من الممترين ! ولا تكونَّ من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » (٩٤ ـ ٩٥) . تلك الصورة النفسية و الإيمانية ، بعد التحدّي بإعجاز القرآن « بسورة مثله » ، **دليل على أن محمداً نفسه لم يعتبر إعجاز القرآن الذي يتحدى به معجزة له** ، فالشك مع الإيمان و المعجزة لا يجتمعان في نفس نبي ! فرفْع محمد عن الشك ثم عن الشرك كما في قوله : « و أمرت أن أكون من المؤمنين ، و أن أقم وجهك للدين حنيفاً ، و لا تكونَّ من المشركين » (١٠٤ ـ ١٠٥) هما **برهان قاطع على أن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوّة .**

و في (هود) ، الثانية و الخمسين ، تتطور الأزمة الإيمانية في نفس محمد الى تركه بعض الوحي : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، و ضائق به صدرك ، أن يقولوا : لولا أُنزل عليه كنز ! أو جاءَ معه ملك ! ـ إنما أنت نذير ، و الله على كل شيء وكيل » (١٢). فمحمد نذير « بتفصيل الكتاب » للعرب ، و ليس بنبي مطّلع على الغيب ، أو رسول بمعجزة . إنما هو نبي و رسول ، بنبوّة الكتاب و رسالته . فاذا ردَّ على اتهام المشركين له بالإفتراء: « أم يقولون : افتراه ! قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، و ادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ! فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله ، و أن لا إله الا هو ، فهل أنتم مسلمون » (١٣ ـ ١٤) ـ فهو إنما يتحداهم بمطابقة القرآن للكتاب : « أفمن كان على بيّنة من ربه ـ **و يتلوه شاهد منه** ، و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً ـ أولئك يؤمنون به . و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » (١٧) . و هذه المطابقة يشهد بها أهل الكتاب : « و يتلوه شاهد منه » ، كقوله : « و شهد شاهد من بني إسرائيل على » (الأحقاف ١٠) ، « و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً » : براهين ثلاثة تدل على صحة المطابقة بين القرآن و الكتاب ، فليس من إفتراء في دعوة محمد . و لكن ليس من معجزة فيها، و لا من إعجاز يُعتبر معجزة ، لأن الإعجاز الأول للكتاب الإمام : « و من قبله كتاب موسى إماماً » . و لو كان القرآن دليل النبوّة ، لما شك النبي في أمره : « **فلا تك في مرية منه** : إنه الحق من ربك ، و لكن أكثر الناس لا يؤمنون » (١٧) . فاذا كان إعجاز القرآن لم يرفع الشك حتى الآن من

نفس محمد ، فكيف يكون هذا الإعجاز معجزة للثقلين ؟ فمحمد بحاجة إلى التثبيت في الإيمان قبل المؤمنين بدعوته : ((و كلاّ نقص عليك من انباء الرسل **ما نثبت به فؤادك** ، و جاءك في هذه الحق ، و موعظة و ذكرى للمؤمنين)) (١٢٠) . هذه الصورة النفسية و الإيمانية الثانية برهان قاطع على إن محمداً لم يعتبر إعجاز القرآن معجزة ، و أن الله لم يجعل القرآن دليل النبوّة . و من انتساب محمد إلى ((أولي العلم)) من أهل الكتاب ، و من انتساب القرآن إلى ((إمامة)) الكتاب له ، نفهم أن التحدّي بإعجاز القرآن كان محصوراً بالمشركين العرب ، لا مطلقاً يعمّ العالمين ، و لا موجها للكتابيّين أهل العلم و الهدى الذين عندهم الكتاب ((إمام)) القرآن .

و في سورة (الحجر) ، الرابعة و الخمسين ، يستفتح بقوله : ((آلر . تلك آيات الكتاب و قرآن مبين)) (١) . بهذا الوصف يحدد صلة القرآن العربي بالكتاب : يتلو آيات الكتاب ، كما يشير بقوله : ((تلك)) ، ثم يعقب عليها بقرآن مبين لها . فيقول : ((ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين)) ! (٢) . فيردّون عليه : ((يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر ، انك لمجنون)) ! لو ما تأتينا بالملائكة ، إن كنت من الصادقين)) (٦ ـ ٧) . فيجيب ببساطة: ((لا يؤمنون به ، **و قد خلت سُنّة الأولين**)) (١٣) . أجل لقد مضت و انقضت سُنّة اللهِ بتأييد أنبيائه بالمعجزات ، **فلا معجزة عند محمد** . و هذا ما يضايقه في دعوته : ((و لقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون)) (٩٧) .

و في هذه السورة النص القاطع على أن ((القرآن)) الذي يدعو إليه الكتاب الامام : ((و لقد آتيناك سبعا من المثاني و القرآن العظيم ... كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين)) (٨٧ و ٩٠ ـ ٩١) . فالمقتسمون هم ((اليهود و النصارى ، **(الذين جعلوا القرآن) أي كتبهم المُنزلة عليهم** ، (عضين) أجزاء ، حيث آمنوا ببعض و كفروا ببعض)) (الجلالان) . فالقرآن العظيم الذي يدعو اليه محمد بالقرآن العربي هو الكتاب المقدس و ذلك بشهادته هذه القاطعة . و بما ان ((القرآن العظيم)) هو الكتاب المقدس فإن ((المثاني)) المقرونة به هي ((المِشْنَة)) في التلمود ، نقل التعبير بحرفه العبرى و عرَّبه . والمشنة هي ((فرقان)) الكتاب أي تفصيله و تفسيره . إن تعبير ((القرآن و المثاني)) يعنى الكتاب و السُنَّة . فالقرآن العربي هو تفصيل ((القرآن العظيم)) أى الكتاب المقدس مع سبع قصص من ((المشنة)) و هذا مصدر قصصه التوراتى.

نصل إلى (الأنعام) السورة الخامسة و الخمسين ، التى يبلغ فيها الجدل في صحة النبوّة و الدعوة ذروته . و هي متبعّضة أي فيها آي مكي و آي مدني ، و من أزمنة مختلفة . يحاورهم في إعراضهم عن الدعوة القرآنية بسبب عجز محمد عن معجزة . يستفتح بذكر إعراضهم الذي يُحرجه : ((و ما تأتيهم من آية (قرآنية) من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين)) (٤) لأنهم يطلبون منه معجزة حسية كنزول ملاك يشهد له (٨) . أما هو فيكتفى بشهادة الله بوحى القرآن له : ((قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم و أوحى الى هذا القرآن لأنذركم به و من بلغ)) (١٩) ، و يقرن إليها شهادة ((أولي العلم)) من أهل الكتاب ، ((الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم)) (٢٠) . هذه **المعرفة الأبوية المصدرية** شهادة على المصدر ، و شهادة على مطابقة القرآن لأصله الكتابي . فآية محمد الوحيدة هي شهادة : ((مَن عنده علم الكتاب)) . و سيظل هذا موقفه حتى آخر العهد بمكّة : ((و يقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قل : كفى بالله شهيداً بينى و بينكم و من عنده علم الكتاب)) (الرعد ٤٣) . أما المعجزة فهي ممنوعة على محمد . و يتدخل الوحي نفسه في تعجيزه عن كل معجزة : ((و إن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقاً في الأرض ، أو سلماً في السماء ، فتأتيهم بآية ـ أكمل الجلالان الجواب : ((فافعل ، **المعنى أنك لا تستطيع ذلك**)) (٣٥) . بعد المنع المبدىء لكل معجزة (الإسراء ٥٩) ، يصرّح هنا بالأمر الواقع ، و هو العجز المطلق (٣٥) . و بعد تعجيز الوحي له عن كل معجزة يأتي إقرار النبي لحقيقة هذا الامر الواقع : ((ما عندي ما تستعجلون به)) ! (٥٧). و يكرر : ((قل : لو أن عندي ما تستعجلون به لقضى الامر بينى و بينكم)) (٥٨) . هذا هو القول الفصل في عجز محمد عن كل معجزة .

مع العجز عن كل معجزة حسية ، يأتي التصريح **بالعجز عن كل نبوءة غيبية**: ((قل: لا أقول لكم عندي خزائن الله **! و لا أعلم الغيب !** و لا أقول لكم إنى مَلَك : إن اتبع إلاّ ما يوحى إليّ)) (٥٠) . الإقرار صريح : محمد لا يعلم الغيب فليس في القرآن إذن من غيبيات او نبوءات للحاضر أو المستقبل.

فدعوة القرآن بلا معجزة حسية ، و لا نبوءة غيبية . هذا هو نص القرآن القاطع . إنما دعوة القرآن امتداد لدعوة الكتاب ، على طريقة ((أولي العلم)) من أهله . و على النبي العربي أن يقتدى بهداهم . فهو يعدد أنبياء الكتاب و متابعيهم ، ((و من آبائهم و ذرياتهم واخوانهم ، و اجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده))

(٨٧ ـ ٨٨) . ثم يقول : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب و الحُكمَ (الحكمة) و النبوّة ـ فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها كافرين ـ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتد** » (٨٩ ـ ٩٠) . شهادة أخرى ناطقة : الإعجاز هو التحدّي بالهدى . إن القرآن و نبيه يقتديان بهدى الكتاب و أهله ، فهما تابع ، لا متبوع ، و هذا التصريح يؤيد قول القائلين : إن الله لم يجعل القرآن دليل النبوّة .

و مُن هم الذين على محمد أن يقتدى بهداهم ليكون على صراط مستقيم ؟ هم « أولئك الذين آتيناهم الكتاب و الحُكم و النبوّة » (٨٩) . « الحُكم » يعنى « الحكمة » (الجلالان) ، فقد أخذ التعبير العبرى على حرفه . فهو يقتدى بهم حتى في تعبيره . ثم إن « الحكمة » في اصطلاح القرآن **كناية عن الإنجيل** كقوله : « و لما جاء عيسى بالبيّنات قال : **قد جئتكم بالحكمة** » (الزخرف ٦٣) أي « شرائع الإنجيل » (الجلالان) ، « و آتيناه الإنجيل فيه هدى و نور » (المائدة ٤٦) ، و كما يظهر من هذا الترادف المتواتر : « و يعلمه الكتاب والحكمة ـ و التوراة و الإنجيل » (آل عمران ٤٨) ، « و اذ علمتك الكتاب و الحكمة ـ والتوراة و الإنجيل » (المائدة ١١٠) . فمحمد يقتدى بأهل الكتاب و الإنجيل ، « و يعلمهم الكتاب و الحكمة » (البقرة ١٢٩ ، آل عمران ١٦٤ ، الجمعة ٢) ، **على طريقة الذين يقيمون « التوراة و الإنجيل » معاً** (المائدة ٦٦ و ٦٨) و هم النصارى من بني إسرائيل ، الذين يسميهم في اصطلاحه المتواتر « أولي العلم » المقسطين ، أو « الراسخين في العلم » . فالقرآن دعوة « نصرانية » .

و هذه الدعوة هداه إليها ملاك الله في رؤيا غار حرّاء ، و أمره بقراءَة « الكتاب والحكمة » على العرب . فدَرس و درَّس ، و اهتدى و هدى . و يعلم أهل مكّة ذلك ، والقرآن يصرح به : « و ليقولوا : درستَ ! ـ و لنبيِّنه لقوم يعلمون » (١٠٥) . فلا يردّ التهمة ، بل يؤكدها ببيان غايتها . إنه درسٌ ليدرّس ، « و يعلمهم الكتاب و الحكمة » ، لأنهم هم غفلوا عن دراستهما : « أن تقولوا : إنما أُنزِل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، و إنْ كنا عن دراستهم لغافلين » (١٥٦) . و هذان الاقرار و التقرير بالدرس يهدمان أسطورة أمية محمد ، و ما بنى عليها من إعجاز و معجزة .

و ما القرآن العربي سوى « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) ، و تصديقه : « و هذا كتاب أنزلناه مبارك ، مصدّق الذي بين يديه (قبله) ، و لتنذر أُمَّ القرى و مَن حولها ، والذين يؤمنون

بالآخرة يؤمنون به » (الأنعام ٩٢) . فهو يعود دائماً إلى تأييد « النصارى » له و شهادتهم معه ، كملا طلبوا منه معجزة و عجز عنها : « أقسموا بالله جهد إيمانهم : لئن جاءَتهم آية ليُومِنُنَّ بها ! ـ قلْ : إنما الآيات عند الله » ! (١٠٩) . و على انتظارهم الملح لمعجزة يجيب بفلسفة **الإيمان بدون معجزة** : « هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك ! ـ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ! لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً » ! مع ذلك فهو ينتظر : « قل : انتظروا ، إنا منتظرون » (١٥٨) . إنك تشعر بحرج النبي من عجزه عن معجزة تؤيده ، و يتردد في قبول هذا القدر المحتوم (الإسراء ٥٩ ، الأنعام ٣٥) .

فلا المعجزة تؤيده ، و لا الإعجاز القرآني ينفعه ، فقد تجرأ أحدهم على القول: « **سأنزل مثل ما أنزل الله** » (٩٣) . إنه قول ظالم يستحق عذاب الموت و النار ، لكن جرّأهم عليه عجزه عن معجزة حتى شك من أمره : « أفغير الله ابتغى حكماً ، و هو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، و الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكوننَّ من الممترين ! و تمت كلمات ربك صدقاً و عدلاً ، لا مبدل لكلماته » (١١٤ ـ ١١٥). فالشهادة على صحة الدعوة القرآنية هي مطابقتها للكتاب ، « لا مبدل لكلماته » ، و ذلك بشهادة أهل الكتاب أنفسهم . و حقيقة القرآن العربي هي في هذا التعريف : « **هو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا** ... لا مبدل لكلماته » . فليس هو « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) الذي في السماء ، إذ لا يستطيع أحد أن يشهد بذلك ، بل « تفصيل الكتاب » الذي عند أهل الكتاب ، كما يستطيعون أن يشهدوا بذلك : « و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠)؛ و شهادتهم هي آية محمد الوحيدة (الأنعام ٢٠ ، الرعد ٤٣) .

و يسمى القرآن العربي منزَلاً لأنه « تفصيل الكتاب » المنزل من قبله ، فهو تنزيل لأنه تفصيل التنزيل الكتابي : « و تمّت كلمات ربك صدقاً و عدلاً ، لا مبدل لكلماته » ، إنه « **الكتاب مفصّلاً** » **أي معربا** (قابل حَمَ فصلت ٤٤) . فليس في القرآن من وحى جديد ، و لا من معجزة . إنما هو « تفصيل الكتاب » كما يشهد له أهل الكتاب . هذا هو الواقع القرآني في سورة (الأنعام) الطويلة .

في (الصافات) ، السادسة و الخمسين ، يتحداهم في جدالهم : « أم لكم سلطان مبين، فاتوا بكتابكم ، إن كنتم صادقين » (١٥٦ ـ ١٥٧) . و في (لقمان) ، السابعة و الخمسين،

نعرف أن السلطان المبين الذي به يستعلي عليهم هو الكتاب المقدس المنير : « و من الناس من يجادل في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير » (٢٠) . أما محمد ، فهو يجادلهم بالعلم و الهدى بحسب الكتاب المنير . فآيته في دعوته هي انتسابه الدائم الى الكتاب و أهله من « أولي العلم » أي « النصارى » . يؤيد ذلك قوله في (سبأ) ، الثامنة و الخمسين: « ويرى الذين أُوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق ، و يهدى الى صراط العزيز الحميد » (٦) . ردّوا عليه: « وقال الذين كفروا: لن نؤمن بهذا القرآن، و لا بالذي بين يديه » أي قبله (٣١) . فيستعلي عليهم بالكتب المنزلة التى يدرسها من دونهم : « **و ما آتيناهم من كتب يدرسونها !** و ما أرسلنا اليهم قبلك من نذير » (٤٤) . و في (الزمر) ، التاسعة و الخمسين ، يستعلي عليهم أيضاً بانتسابه الى « أولي العلم » : « قل هل يستوى الذين يعلمون ، و الذين لا يعلمون » ! (٩) ـ يجب أن يفهم التعبير على اصطلاحه لا على لغته كما يتوهمون . تلك هي شهادته الدائمة على صحة دعوته . و في (حم غافر) السورة الستين، يكرر ذلك : « و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب » (٥٣) . بنو إسرائيل طائفتان : يهود و نصارى ، و الدعوة القرآنية تأييد للنصارى من بني إسرائيل على عدوهم اليهود (الصف ١٤) . فبانتماء محمد إلى « أولي العلم » هؤلاء ، يجادل المشركين بسلطان ، و هم يجادلون بغير سلطان (٥٦) . يصرّون على المعجزة فيتهرب : « و ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » (٧٨) . و الله لم يأذن لمحمد بمعجزة (الإسراء ٥٩) ، « و قد خلت سُنّة الأولين » بالمعجزات (الحجر ١٣) .

في (حَمَ فصلت) ، الحادية و الستين ، يستعلي عليهم بانتسابه إلى الكتاب ، في تعريفه بحقيقة القرآن العربي : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً » (٣) ، فالقرآن العربي إنما هو « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) . و في قوله : « و لو جعلناه قرآناً أعجمياً ، لقالوا : لولا فُصّلت آياته » (٤٤) نرى أن **التفصيل ، في لغة القرآن ، يعنى التعريب** . و هكذا فإن « تفصيل الكتاب » في القرآن يعنى « تعريب الكتاب » . لكنهم لا يقبلون بهذه الشهادة ويصرّون على طلب معجزة ، فيقول : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه » (٦) ـ لكن كل الرسل من قبله كانوا بشراً مثله و أيّد الله رسالتهم بالمعجزة.

و في سورة (الشورى) ، الثانية و الستين ، **نرى معنى نبوّة محمد و موضوع القرآن** . فهذه هي نظرية القرآن في النبوّة و الوحي و مراتبهما : « ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك

روحاً من أمرنا : ما كنت تدرى ما الكتاب و لا الإيمان ، و لكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، و إنك لتهْدى [1] إلى صراط مستقيم ، صراط الله » (٥١ ـ ٥٣) . فطرق الوحي ثلاث : الوحي المباشر ، ثم الوحي من وراء حجاب بالتكليم ، ثم الوحي بواسطة ملاك رسول ، و هذه الثالثة أدنى طرق الوحي . و هي التى كانت من نصيب محمد في غار حرّاء : أرسل الله اليه « روحاً من أمرنا » أى روحاً مخلوقاً ، من عالم الأمر ، لا « روحاً منه » تعالى كما في المسيح (النساء ١٧١) . و هذا الملاك هدى محمداً إلى الإيمان بالكتاب لأن الله جعل الكتاب نوراً يهدى من يشاء من عباده الى الصراط المستقيم ، في الإيمان بالكتاب . فنبؤة محمد كانت هداية الى الإيمان بالكتاب المقدس . فآمن و اهتدى و أخذ يهدى العرب الى التوحيد الكتابي : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ـ و الذي أوحينا إليك ـ و ما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى : أن اقيموا الدين و لا تتفرّقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . الله يجتبى اليه من يشاء ، و يهدى اليه من ينيب و ما تفرّقوا الا من بعد ما جاءَهم العلم بغياً بينهم ، و لولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، و إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادعُ و استقم كما أمرتَ و لا تتبع اهواءَهم . و قل : **آمنت بما أنزل الله من كتاب** ، و أمرت لأعدل بينكم » (١٣ ـ ١٥) . فالدين الذي شرعه الله هو دين إبراهيم و موسى و عيسى معا بلا تفريق . فدين القرآن هو دين الكتاب . لذلك يقول : « آمنت بما أنزل الله من كتاب » فنبوءة محمد هي الإيمان بالكتاب المقدس ، كما أوحى اليه الملاك في غار حرّاء ، و رسالته هي الدعوة الى **دين موسى و عيسى معاً ، و إقامة التوراة و الإنجيل معا** . و هذا ما كان يفعله النصارى من بني إسرائيل ، من دون اليهود الذين اختلفوا « لمّا جاءَهم العلم » بالإنجيل ، لذلك « فان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم (يهود الحجاز في زمن محمد) لفى شك منه (محمد) مريب » ؛ ومن دون المسيحيين من الأميّين الذين يقيمون الإنجيل من دون أحكام التوراة . فالنصارى من بني إسرائيل « أمة وسط » بين اليهودية و المسيحية ، و محمد على طريقة النصارى من بني إسرائيل يدعو الى اقامة دين موسى و عيسى معا بلا تفرقة « لا نفرق بين أحد منهم ، و نحن له مسلمون ». فالقرآن يشرع للعرب دين موسى و عيسى معاً (١٣) فهو دعوة « نصرانية ». بذلك يعدل بين اليهودية و المسيحية في صراعهما على الجزيرة العربية . و بإيمانه « بالكتاب و الحُكْم

---

(١) القراءَة على المجهول أصح من قراءة « لتهدى » لأنها تنسجم مع السياق .

(الحكمة) و النبوّة » على طريقة « النصرانية » يستعلي على المشركين من بنى قومه : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » (الزخرف ٢١) .

و في (الجاثية) ، الخامسة و الستين ، نجد الصورة نفسها : « و لقد آتينا بني إسرائيل الكتاب و الحُكم (الحكمة) و النبوّة ، و رزقناهم من الطّيبات ، و فضلناهم على العالمين . وآتيناهم بيّنات الأمر ، فما اختلفوا إلاَّ من بعد ما جاءَهم العلم بغيا بينهم ، إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » (١٦ ـ ١٨) . يقسم القرآن أهل مكّة و الحجاز إلى « الذين لا يعلمون » و هم المشركون ، و إلى « الذين يعلمون » أو « أولي العلم » أى أهل الكتاب ، ثم يقسم « أولي العلم » إلى « ظالمين » و هم اليهود (العنكبوت ٤٦) و إلى صالحين أو مقسطين (آل عمران ١٨) أو « الراسخين في العلم » (آل عمران ٧) و هم النصارى . « **فالعلم** المذكور في القرآن هو اصطلاح يعنى **حكمة الإنجيل** : فقد اختلف بنو إسرائيل الى طائفتين ، نصارى و يهود (الصف ١٤) « من بعد ما جاءَهم العلم ، بغياً بينهم » . و الله جعل محمداً « على شريعة من الأمر » ، أمر الدين ، باتباع « أولي العلم قائماً بالقسط »، « الراسخين في العلم » ، الذين يقيمون التوراة و الإنجيل معاً ، و يدعون إلى دين موسى وعيسى معاً ، هذا هو سبيل محمد ، و هذا هو الدين الذي شرّعه الله : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون أنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئا ، و إن الظالمين (المشركين و اليهود) بعضهم أولياء بعض ، و الله ولى المتقين » من العرب ، مع النصارى من بني إسرائيل (١٨ ـ ١٩) . فبالكتاب و بشهادة أولي العلم المقسطين ، يتحدى المشركين ، لا بمعجزة و لا إِعجاز .

في (الأحقاف) ، السادسة و الستين ، يرجع الى الاستشهاد بالكتاب و أولي العلم على صحة رسالته و صحة دعوته . يستفتح ، كما في سورة هذه الفترة ، بإعلان التنزيل في الكتاب : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » (٢) . فيتمسكون بشركهم ، فيتحداهم: « ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين » (٤) . إنه يتحداهم بالكتاب المنزل و بعلم أولي العلم النصارى : « قلْ : أرايتم إن كان من عند الله و كفرتم به ـ **و شهد شاهد من بنى اسؤائيل على مثله** فآمن و استكبرتم ـ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ... و من قبله كتاب موسى إِماماً ورحمةً ، و هذا كتاب مصدق لساناً عربياً ، لينذر الذين ظلموا

و بشرى للمحسنين » (١٠ ـ ١٢) . **إن القرآن العربي هو من عند الله لثلاثة أسباب** : أولاً « شهد شاهد من بني إسرائيل **على مثله** » : **فمثل القرآن موجود عند النصارى من بني إسرائيل،** لذلك فالتحدّي « بمثل » القرآن لا يقوم و لا يصح ، « فمثله » موجود في عصر النبي . ثانياً « من قبله كتاب موسى إماماً » فهو يتبع إمامه في الهدى و البيان . ثالثاً : « هذا كتاب مصدق ، لساناً عربياً » فلا فرق بين الكتاب و القرآن سوى اللسان العربي . فرسالة محمد ، بأمر ملاك الله في غار حرّاء ، تقوم على نقل « الكتاب و الحكمة ، و التوراة والإنجيل » الى العرب ، « لساناً عربياً » ، يشرع لهم دين موسى و عيسى بلا تفرقة ، على طريقة « أولي العلم » ، النصارى من بني إسرائيل ، و زعيمهم قسّ مكّة ، ورقة بن نوفل .

و هكذا انتهى العهد الثاني بمكّة بلا معجزة ، و لا إعجاز ، فقد « شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » . و هاجر محمد إلى الطائف شريداً طريداً . فردّه أهلها من عرب ويهود ، رداً غير جميل . فرجع الى مكّة مستجيراً بأحد زعمائها . و رجع الى دعوته .

في سورة (الكهف) ، التاسعة و الستين ، ظلوا يطالبونه ، لصحة دعوته ، بمعجزة ، لأنها « سُنّة الأولين » . يستفتح بتحذير النبي من اليأس : « فلعلّك باخعٌ (مهلك) نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ، أسفاً » (٦) ، و يحرضه على متابعة رسالته بالتضامن مع الكتاب و اهله من أولي العلم المقسطين : « و اتلُ ما أوحى إليك من كتاب ربك ، لا مبدل لكلماته » (٢٧) ، فالقرآن وحي من الكتاب المقدس ، لا مبدل لكلماته في تفصيله و تعريبه ، « و اصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشى يريدون وجهه » (٢٨) فمحمد أمة واحدة مع « النصارى » . ثم يستعرض فشل الدعوة بسبب عجزه عن معجزة ، سُنّة اللهِ في النبوّة : « و ما منع الناس أن يؤمنوا ، إذ جاءَهم الهدى ، و يستغفروا ربهم ، إلا أن تأتيهم **سُنّة الأولين** ، أو يأتيهم العذاب قبُلاً » (٥٥) . فالمعجزة حتى عند المشركين ، هي دليل الله الأوحد على النبوّة لأنها سُنّة الأنبياء كلهم قبل محمد ، و عجْز محمد الدائم عن معجزة هو سبب امتناعهم عن الإيمان به و بدعوته . مع ذلك فهو يعلن إفلاسه عن معجزة تؤيده : « قلْ: إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ إنما إلهكم إله واحد » (١١٠) . فالقرآن دعوة كتابية « نصرانية »، لكنها بدون معجزة . هذا ما يظهر أيضاً من السورة التالية .

في (النحل) ، السورة السبعين ، يجهر من جديد **بانتمائه الى الكتاب و أهله من « أولي العلم المسلمين** » . في جدال المشركين يعلن : « فاسألوا أهل الذكر ، إن كنتم لا تعلمون

بالبيّنات و الزبر » (٤٣ ـ ٤٤) . يستشهد بهم لأن القرآن العربي بيان التنزيل الكتابي : « و أنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ، و لعلهم يتفكرون » (٤٤) . فمحمد لا يأتي بوحي جديد ، بل هو ينقل للعرب « و ما نُزّل إليهم » من قبل في الكتاب ، دين موسى وعيسى معاً بلا تفرقة الذي شرعه للناس (الشورى ١٣) . و غاية ثانية من الدعوة القرآنية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب : « و ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه » (٦٤) ، و هذا البيان يأتي على **طريقة « المسلمين » من أهل الكتاب** : « و نزّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، و هدى و رحمة و بشرى للمسلمين » (٨٩) . و هؤلاء المسلمون هم غير جماعة محمد ، المتقين من العرب : « قل : نزّلَه روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، و هدى و بشرى للمسلمين » (١٠٢) . فالتمييز صريح بين الكنايتين : « الذين آمنوا » و هي الكناية المتواترة لجماعة محمد ، « و المسلمين » و هي الكناية المتواترة للنصارى من بني إسرائيل الذين يدعو القرآن بدعوتهم . و **هكذا « فالمسلمون » الأصليون ، في لغة القرآن ، ليسوا جماعة محمد** . و القرآن العربي هو « **هدى و بشرى للمسلمين** » ـ اصطلاح قرآني آخر : « الهدى » كناية عن التوراة ، و « البشرى » كناية حرفية عن الإنجيل، فالقرآن العربي هو تثبيت « للذين آمنوا » من العرب ، و بمثابة توراة و إنجيل « للمسلمين » من أهل الكتاب . مع ذلك يحول دون إيمان المشركين بالدعوة القرآنية سببان ، غير العجز عن معجزة : الأول اشتباههم بأن يتعلم من بشر : « و لقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ! ـ **لسان الذي يلحدون إليه أعجمي** و هذا لسان عربى مبين » (١٠٣) . محمد التجار الدولى في أكبر تجارة مكية ، مدة عشرين عاما ما بين اليمن و الشام كان يعرف **لغة اليمن و لغة الشام** ، الحميرية و الأرامية ، و لا يقيم بين ظهرانى العرب بمكّة من لا يعرف لغتهم . و قولهم « انما يعلمه بشر » مثل قولهم : « و ليقولوا : درست » ، فليس الخلاف على التعليم و الدرس ، انما الخلاف على اللسان العربي المبين الذي هو ميزة محمد و القرآن . والثاني اطلاعهم على سر آخر ، التبديل في آي القرآن : « و اذا بدلنا آية مكان آية ـ و الله أعلم بما ينزّل ـ قالوا : إنما أنت مفتر ! بل أكثرهم لا يعلمون » (١٠١) . و هذان الأمران سببا ردة عن الإسلام في اخر العهد بمكّة .

و في (إبراهيم) ، السورة الثانية و السبعين ، ينقل حوار الرسل و أقوامهم على ضرورة المعجزة ، السلطان المبين من الله على صحة نبوءتهم : « قالوا : إن أنتم إلاّ بشر مثلنا تريدون

أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا : **فأتونا بسلطان مبين !** قالت لهم رسلهم : إن نحن الا بشر مثلكم ، و لكن الله يمنّ على من يشاء من عباده ، و ما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ، إلاّ بإذن الله ، و على الله فليتوكل المؤمنون » (١٠ ـ ١١) هذه حال محمد مع مشركي مكّة ، فإن الله لم يأذن لعبده محمد بسلطان المعجزة المبين .

لذلك في سورة الأنبياء ، الثالثة و السبعين يتهمونه بشتى التهم لأنه لم يأتهم بمعجزة كالأنبياء الأولين : « بل قالوا : أضغاث أحلام ! بل افتراه ! بل هو شاعر ! **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** » (٥) . فلا معجزة في القرآن؛ يكفيه أنه ينقل للعرب « الذكر » الذي في « الكتاب و الحكمة و التوراة و الإنجيل » : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » (١٠) . و هذا الذكر القرآني من الذكر الكتابي : « هذا ذكر من معي و ذكر من قبلي » (٢٤) . فالكتاب هو القرآن و الذكر و الفرقان للمتقين من العرب : « و لقد آتينا موسى وهارون الفرقان ، و ضياءً و ذكراً للمتّقين » (٤٨) . لذلك فأهل الكتاب و أهل القرآن الذين يؤمنون « بالتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا و جعلناها و ابنها آية للعالمين » (٩١) هم « أمة واحدة » (٩٢) . **هذا هو الإعلان الأول عن وحدة الأمة بين جماعة محمد و « النصارى »** ، ووحدة الأسماء بين الكتابين كالذكر و القرآن و الفرقان ، تعنى وحدة الدعوة . ووحدة الدعوة تعبيراً و تفكيراً ووحدة الأمة **برهان قاطع على أن الدعوة القرآنية دعوة « نصرانية » .**

و في سورة (المؤمنون) الرابعة و السبعين يعود إلى إعلان وحدة الأمة بين جماعة محمد و النصارى من بني إسرائيل الذين يؤمنون معًا بأن « ابن مريم و أمه آية » : « و إن هذه أمتكم أمة واحدة ، و أنا ربكم فاتَّقونِ » (٥٢) . إنهم أمة واحدة ما بين الذين « تقطّعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » (٥٣) . و سنعرف **أن هذه الأمة الواحدة هي أمة وسط بين اليهودية و المسيحية** ، لأنها تقيم التوراة و الإنجيل معا و لأنها تدعو لدين موسى و عيسى ديناً واحداً بلا تفرقة . فانكروا رسولهم لأنه لم يأتهم بمعجزة تؤيد صحة رسالته و دعوته (٦٩) حتى كاد يشك في أمره .

ففى (السجدة) الخامسة و السبعين يردع القرآن محمداً عن الشك في أمره و في « تفصيل الكتاب » في القرآن العربي : « و لقد آتينا موسى الكتاب : **فلا تكن في مرية من لقائه ! و جعلناه هدى لبني إسرائيل ، و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا** » (٢٣ ـ ٢٤) . على

محمد ألاّ يشك في لقاء الكتاب بواسطة أئمته الذين بأمر الله يهدونه إليه . و نعلم من المتواتر في القرآن أن هؤلاء الأئمة أساتذة النبي العربي هم « أولو العلم قائماً بالقسط » ، « الراسخون في العلم » النصارى من بني إسرائيل . و هذا التصريح الضخم برهان قاطع على تدريسهم الكتاب لمحمد و تفصيلهم له على طريقتهم « النصرانية » و لو لم يتله في الأصل بنفسه و لم يخطه بيمينه (العنكبوت ٤٨) . فيتشدد محمد بهداية أئمته له .

و في (الطور) ، السادسة و السبعين ، يطمئن ، و يتحدى المشركين بالقرآن الذي يتهمونه بافترائه : « أم يقولون : تقوله ! بل لا يؤمنون ! ـ **فليأتوا بحديث مثله** ، إن كانوا صادقين » (٣٣ ـ ٣٤) هذا التحدّي موجه للمشركين ، فقد « **شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله** » (الأحقاف ١٠) فليس التحدّي بإعجاز القرآن مطلقاً . و قد أخذ بالتراخي مع المشركين أنفسهم ، من « **سورة مثله** » (يونس ٣٧) ، الى « **عشر سور مثله** » (هود ١٣)، الى « **حديث مثله** » (الطور ٣٤) فليس إعجاز القرآن معجزة لأن عند النصارى من بني إسرائيل « مثله » (الأحقاف ١٠) .

في سورة (الروم) ، الرابعة و الثمانين ، يظهر القرآن أولاً تضامنه مع المسيحية نفسها ، كما ظهر تضامنه معها في الهجرة الى الحبشة : « آلم . غُلبت الروم في أدنى الأرض، و هم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . لله الأمر من قبل و من بعد . و حينئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء و هو الرحيم العزيز » (١ ـ ٥) . سورة (الروم) من آخر العهد بمكّة أى من العام ٦٢٢ م . و قد غزا الفرس سوريا سنة ٦١٢، وفلسطين ٦١٤ و مصر ٦١٨. وبدأ هرقل غزو الفرس بنصر ساحق عام ٦٢٢ دام حتى ٦٢٩ م. فالروم من بعد غَلَبهم **سيغلِبُون في تاريخ نزول سورة (الروم) عام ٦٢٢ م** . ويتم النصر « في بضع سنين » عام ٦٢٩ م كما يتضح من انتصارات الغزو لبلاد الفرس . **فالآية القرآنية تاريخ لا نبوءة** لأن محمداً ، بنص القرآن القاطع ، « لا يعلم الغيب » (الأنعام ٥٠). و النبوءة الغيبية نوع من المعجزة ، و لا معجزة في القرآن ، بتصاريحه المتواترة (الإسراء ٥٩ ، الأنعام ٣٥) .

تضامن في المصير مع المسيحية ، ووحدة مع « النصرانية » . ففى سورة (الروم) أيضاً يعطينا صفة الدين الذي يدعو له : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، **ذلك الدين القيّم** ، و لكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠) ؛

« فأقم وجهك للدين القيم ، من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله ، يومئذ يصدعون » (٤٣). يُؤمر محمد بالحنيفية ، و يصفها بأنها « الدين القيّم » ، و هذا التعبير ترجمة « الارثذكسية » في المسيحية . و نعرف أن « الحنيفية » لقب أطلقه مسيحو سورية على النصارى من بني إسرائيل ، فجعله هؤلاء عنوان « الدين القيّم » الذي يدعيه المسيحيون لأنفسهم في دولة الروم. فمحمد يدعو بدعوة النصارى الى « الحنيفية » ، و يصفها معهم بأنها « الدين القيّم » و كما نازعت النصرانية المسيحية في صفة « الدين القيّم » نازعتها في صفة الانتساب الى إبراهيم ، كما فعل بولس مع اليهود . فالحنيفية النصرانية تدّعي أنها الدين القيّم و أنها ملّة إبراهيم . وبهذا النسب عينه، الحنيفية ، الدين القيّم ، ملّة إبراهيم ، يتضح أن القرآن دعوة « نصرانية »، في وحدة الأمة .

في (العنكبوت) ، الخامسة و الثمانين ، و الأخيرة في مكّة ، يتم كشف الغطاء عن هوية الإسلام الذي يدعو اليه القرآن . **التصريح الأول** : « ووهبنا له اسحاق و يعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوّة و الكتاب » (٢٧) . نلاحظ التعريف و الإطلاق : إن النبوّة و الكتاب هما في ذرية إبراهيم ، من اسحاق و يعقوب ، لا من اسماعيل . **التصريح الثاني** : القرآن العربي وحى من هذا الكتاب : « اتلُ ما أُوحي إليك من الكتاب » (٤٥) . **التصريح الثالث** : يعلن الوحدة التامة الكاملة مع النصارى المحسنين ، المقسطين ، « أولي العلم و الإيمان » : « و لا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتى هي أحسن ـ إلاّ الذين ظلموا منهم ـ و قولوا : آمنا بالذي أنزل الينا و أُنزل إليكم ، و إلهنا و إلهكم واحد ، و نحن له مسلمون » (٤٦) . قال : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦) . و قد اختلفوا الى يهود و نصارى (الصف ١٤) . و في عرفه المتواتر ، اليهود هم الظالمون الذين يصح جدالهم بغير الحسنى ، أما النصارى فلا يصح جدالهم الا بالحسنى ، و هذه الحسنى هي الأمر لأمّته بالشهادة معهم أن التنزيل واحد ، و الاله واحد ، و الإسلام واحد . فالقرآن دعوة « نصرانية ». **التصريح الرابع** : « و كذلك أنزلنا إليك الكتاب : فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، و من هؤلاء مَن يؤمن به ، و ما يجحد بآياتنا إلا الكافرون . و ما كنت تتلو من قبله من كتاب ، و لا تخطّه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ، و ما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون » (٤٧ ـ ٤٩) . صورة كاملة عن موقف أهل مكّة من الدعوة القرآنية في آخر العهد المكي : ١) « فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » ، تعبير عام يُقصد

به الخاص ، يعنى ((الذين أُتوا العلم)) أى النصارى ، فهم يؤمنون بالدعوة القرآنية ، و القرآن ((آيات بيّنات في صدورهم)) ، فالدعوة دعوتهم . ٢) ((و من هؤلاء)) أى ((أهل مكّة)) بعضهم يؤمن بالدعوة . ٣) ((و ما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون)) من سائر أهل مكّة . ٤) و ((المبطلون)) (٤٨) و ((الظالمون)) (٤٩) هم اليهود الذين يرتابون بصحة النبوّة و يجحدون صحة الدعوة القرآنية ، و ذلك لأنها ((آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم)) أى النصارى . لكن تبطيلهم لا يستند الى حق : ((و ما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك)) (٤٨) . قبل القرآن لم يكن يفعل ذلك ، لكن في رؤيا غار حرّاء جاءه الأمر بالقراءَة و التعلّم بالقلم (العلق ١ ـ ٤) ، فأخذ يدرس و يكتب مع ((المسلمين)) من قبله ، ((أولي العلم و الإيمان)) (القلم ٣٧ و٤٧) . فلا تعنى الآية (٤٨) أمية محمد في شىء . وقوله : ((و كذلك أنزلنا إليك الكتاب ... بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم)) (٤٧ و٤٩) يدل على كيفية بلوغ التنزيل الى محمد . **التصريح الخامس** ، في ضرورة المعجزة لصحة النبوّة : ((و قالوا : لولا أُنزل عليه آيات من ربه ! ـ قل : انما الآيات عند الله ! و انما نذير مبين ! أوَلم يكفهم أنا أنزلنا علَيك الكتاب يُتلى عليهم ؟)) (٥٠ ـ ٥١) . فلا معجزة عند محمد ، بل هو نذير ، و آيته تلاوة الكتاب على العرب بلسان عربى مبين ، في ((تفصيل الكتاب)) بالقرآن العربي . و يشهد على صحة التفصيل و نقل التنزيل ((الذين أوتوا العلم و الإيمان)) أى ((النصارى)) .

و هنال بعض سور مختلف في زمانها ، منها (الرعد) ، السورة التسعون . نجد فيها الجدال الأخير بمكّة على صحة النبوّة و الدعوة : ((و يقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، و لكل قوم هادٍ)) (٧) ، فمحمد منذر ، كما لكل قوم هادٍ ، و هذا التشبيه يدل على أن **نبوءة محمد لا تقوم على معجزة و بأنها هداية** . و هذا الواقع التاريخي أمر مقرر مكرر : ((و يقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! ـ قلْ : إن الله يضل من يشاء و يهدى اليه مَن أناب)) (٢٧) ، فليس لديه معجزة . فيزدادون تعجيزا له : ((ولو أنّ قرآناً سُيِّرت به الجبال ، أو قُطِّعت به الأرض ، أو كُلِّم به الموتى ! ـ بل الله الأمر جميعاً ! أفلم ييأس الذين آمنوا ، أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا)) (٣١) . **ينتهي بالتسليم بالعجز المطلق عن كل معجزة** ، حتى كاد اليأس يستولى على جماعته ، و حتى تيقن مشركو مكّة أنه ليس مرسلا : ((و يقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قلْ : كفى بالله شهيداً بينى و بينكم و مَن عنده عِلْم الكتاب)) (٤٣) .

ينتهي القرآن المكي بالتحدّي الأكبر : « لست مرسلاً » ! فلا يرد التحدّي بمعجزة . ولا يقدم لهم إعجاز القرآن معجزة له . آيته الوحيدة طول العهد بمكّة ، إنما هي شهادة « من عنده علم الكتاب » أى النصارى « أولو العلم و الإيمان » . فلا معجزة اذن في القرآن على الإطلاق ، و لا يعتبر إعجازه معجزة له . و هكذا فالواقع القرآني يؤكد قول المعتزلة الأقدمين : إن الله لم يجعل القرآن دليل النبوّة .

و كانت الهجرة الكبرى الى المدينة انقلابا في الرسول و الرسالة . و تحولت الدعوة « بالحكمة و الموعظة الحسنة » ، الى الدعوة بالجهاد و الحديد الذي « فيه بأس شديد و منافع للناس » (الحديد ٢٥) . و انتقل الجدال من المشركين الى أهل الكتاب من اليهود . و برز الصراع الخفى مع المنافقين من أهل المدينة .

في سورة (البقرة) ، الأولى ، يستشهد لآخر مرة في دعوة العرب بإعجاز القرآن : « و إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، **فأتوا بسورة من مثله** ، و ادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقين » (٢٣) . أخيراً يتضح أن التحدّي بإعجاز القرآن موجه للمشركين وحدهم . فيجيبونه : « و قال الذين لا يعلمون (العرب الأميّون المشركون) لولا يكلّمنا الله ! أو تأتينا آية ! ـ كذلك قال الذين من قبلهم (أهل مكّة) مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ! قد بيّنا الآيات (الخطابية) لقوم يوقنون : إنّا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً » (١١٨ ـ ١١٩) . فموقف أهل المدينة من ضرورة المعجزة لصحة النبوّة كان مثل موقف أهل مكّة ، و كان جواب النبي العربي الدائم : لا معجزة عنده ، إنما هو بشير بالحق و نذير . لكن اليهود العليمين « بالبيّنات و الزبر » أخذوا يردّون على دعوى إعجاز القرآن . فقد لاحظوا التبديل في آيات القرآن (النحل ١٠١) و النسخ في أحكامه (البقرة ١٠٦) فأشاعوا بين الناس : إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر و ينهى عنه غداً (الجلالان) فنزلت : « ما ننسخ من آية ، أو نُنْسيها ، نأتِ بخير منها أو مثلها : ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » (١٠٦) . و التبديل في الآيات ، و النسخ في الأحكام لا ينسجمان مع الإعجاز في القرآن . بهذه الآية (البقرة ١٠٦) **نسخ القرآن إعجازه في الأحكام** .

و في سورة (الأنفال) ، الثانية ، يصف وقعة بدر ، النصر الأول في الإسلام ، « يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان » ، حيث فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله . فرأى محمد في

النصر معجزته: « فلم تقتلوهم ، و لكن الله قتلهم ! و ما رميت ، و لكن الله رمى » ! (١٧). و الإشارة بذرّ الرماد في وجه العدو علامة لبدء الغارة . فهل النصر في معركة معجزة ؟ لم يقبل بها أهل المدينة ، « و اذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ! **لو نشاء لقلنا مثل هذا !** إنْ هذا إلا أساطير الأولين ! » (٣١) . فبعد التحدّي كله بالقرآن لم يقتنعوا بإعجازه . ويمعنون في التحدّي للنبي : « إذ قالوا : اللهمّ ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ! أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢) . فهم يستمسكون بمعجزة حسية على صحة النبوّة ، كالأنبياء الأولين ، و لو كانت لهلاكهم .

و في (آل عمران) ، الثالثة ، **يأتي القول الفصل في إعجاز القرآن كمعجزة** : « هو الذي أنزل عليك الكتاب : منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب ، و أُخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، و ابتغاء تأويله . و ما يعلم تأويله إلا الله، و الراسخون في العلم يقولون : آمنّا به ! كلٌّ من عند ربنا ، و ما يذّكر إلا أولو الألباب » (٧) . بهذه الآية ، تحت ضغط جدال اليهود في القرآن ، **نسخ القرآن نفسه معجزة إعجازه** لفظا و معنى ، بياناً و تبييناً . **فالتصريح الأول** : بوجود المتشابه في بيان القرآن يرفع صفة الإعجاز المعجز عن نظمه و بيانه . **و التصريح الثاني** : « و ما يعلم تأويله إلا الله » نسخ صفة الإعجاز المعجز في تعليمه و تبيانه . فكتاب يعجز الخلق عن تأويله و فهمه لا يكون معجزاً لهم . و من البديهة انه يبعد ان يخاطب الله عبادة بما لا طاقة لأحد من الخلق في معرفته . و هناك خلاف في قراءَة الآية « و الراسخون في العلم » ـ هل (الواو) للعطف أو للاستئناف . و الأكثرون على أنها للاستئناف . لكن هب ان « الراسخين في العلم » معطوف على (الله) في معرفة تأويل القرآن ، فيظلّ ذلك من شأن « الراسخين في العلم » ، لا من شأن جميع المخاطبين بالقرآن ، و القرآن للعامة كلهم ، لا للخاصة وحدهم . فلا يكون القرآن معجزاً لجميع الناس الذين لا يعلمون تأويله و فهمه . و حاشا لله أن يخاطب الناس بمعجزة لغوية لا سبيل لهم الى ادراكها . و قد فاتهم جميعاً أن تعبير « الراسخين في العلم » (٧) هو اصطلاح قرآني مثل « أولي العلم قائماً بالقسط » (١٨) ، و هو كناية عن النصارى من بني إسرائيل ، فهم وحدهم مع الله يعلمون تأويل القرآن ، أو على الاصحّ يسلّمون به تسليماً ويفوضون تأويله لله . و معنى الآية هو وصف موقف اليهود و النصارى من بني إسرائيل تجاه القرآن في المدينة : فإن كان اليهود من وراء المنافقين العرب ، « الذين في قلوبهم زيغ ، يتبعون ما تشابه

منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله » ، فإن النصارى و هم «الراسخون في العلم يقولون : آمنا به، كلٌّ من عند ربنا » . هذا هو استشهاده المتواتر بهم على صحة دعوته . و هكذا يبقى التصريح الضخم قائما : « **و ما يعلم تأويله إلا الله** » . و سنرى أن متشابه القرآن هو القرآن كله ما عدا آيات الاحكام (الإتقان ٢ : ٢) . لذلك فليس إعجاز القرآن بمعجز و لا بمعجزة ، اذ فهمه و تأويله من اختصاص الله وحده . و آية محمد على صحة رسالته و دعوته تبقى النصر في الحرب : «قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، و أخرى كافرة، يرونهم مثلَيهم رأى العين ، **و الله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » (١٣) ، «لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » (١٢٣). منذ نصر بدر ، صارت آية النبي العربي تأييد الله له «**بنصره** » في الجهاد و القتال ، **وتوارى الحديث عن المعجزة و الإعجاز .**

و في سورة (محمد) ، السادسة ، نرى صدى هذه **المعجزة من نوع جديد** في ضمير المؤمنين : «و يقول الذين آمنوا : لولا نُزّلت سورة ! فإذا أُنزلت سورة محكمة ، و ذكر فيها القتال ، رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت . فأولى لهم طاعة و قول معروف » (٢٠ ـ ٢١) . بسبب معجزة الجهاد كثر المنافقون في المدينة . وحصلت موجة من الارتداد عن الإسلام : «إن الذين ارتدوا على أدبارهم ، من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سوّل لهم و أملى لهم » (٢٥) ، « إن الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله و شاقوا الرسول ، من بعد ما تبين لهم الهدى ، لن يضروا الله شيئا و سيحبط أعمالهم » (٣٢) . و نلاحظ على قوله : « **فإذا أُنزلت سورة محكمة** » (٢٠) الإقرار الضمني بأن هناك سوراً غير محكمة ، و غير معجزة ، كما أن «فيه آيات محكمات ، هن أُم الكتاب ، وأخر متشابهات » (آل عمران ٧) .

و في (البيّنة) ، التاسعة ، نرى أن معجزة «الحديد فيه بأس شديد و منافع للناس » لم يقبلها أيضاً اليهود و لا المشركون : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب (اليهود) والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيّنة » (١) . و البيّنة التي يطلبون هي « رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة ، فيها كتب قيمة ! ـ و ما تفرق الذين أوتوا الكتاب (من اليهود) إلا من بعد ما جاءَتهم البيّنة » (٢ ـ ٤) . إن الخلاف على نوع البيّنة : فاليهود يرون في الرسول الحق الموعود مطابقته للتوراة من دون الإنجيل ، و القرآن يرى أنه أتى بالبيّنة ، و إن دعا إلى إقامة

التوراة و الإنجيل معاً ، الى دين موسى و عيسى ديناً واحداً . و تلك البيّنة بأنه ((**يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة**)) تؤكد انتساب محمد الى كتاب على الأرض ، لا الى كتاب محفوظ في السماء ، فالقرآن العربي هو قراءة الكتاب المنزل قبله على العرب ، بلسان عربى مبين .

و في (الحج) ، الثالثة عشرة ، مازال يجادل المشركين بهدى و علم الكتاب المنير ، ((و من الناس من يجادل في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير)) (٨) . فيطلبون منه معجزة حسية ، كعذابهم الموعود (٤٧) فيجيب : ((قلْ : يا أيها الناس ، إنما أنا لكم نذير مبين)) (٤٩) فليس عنده معجزة . لذلك ((لا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم)) (٥٥) . ليس عنده سوى الآيات الخطابية: ((و اذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا)) (٧٢) . و سورة (الحج) تسجل ضجة قامت في المدينة بين الطوائف كلها بسبب تصريح القرآن **بإمكانية إلقاء الشيطان في تنزيل القرآن** ، ((ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض (المنافقين) و القاسية قلوبهم (المشركين) و إن الظالمين (اليهود) لفى شقاق بعيد ، و ليعلم الذين أُوتوا العلم (النصارى) أنه الحق من ربك ، فيؤمنوا به فتخفق له قلوبهم ، و إن الله لهادٍ الذين آمنوا (جماعة محمد) الى صراط مستقيم)) (٥٣ ـ ٥٤) . فالنصارى من بني إسرائيل ((الذين أوتوا العلم)) آمنوا بإحكام الآيات بعد إلقاء الشيطان فيها ، كما آمنوا بمتشابه القرآن ، لأن الدعوة القرآنية دعوتهم . لكن إمكانية إلقاء الشيطان في الوحي تظل شبهة على الإعجاز في التنزيل .

و في (الفتح) ، السابعة عشرة ، يرى في صلح الحديبية ((فتحاً مبيناً)) يؤكد ((إنا أرسلناك **شاهداً ومبشراً ونذيراً** ليؤمنوا بالله و رسوله)) (٨ ـ ٩) . فرسالة محمد شهادة . و معجزة هذه الشهادة ظهور دينه على أديان الجزيرة : ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، **ليظهره على الدين كله** ، و كفى بالله شهيداً . محمد ، رسول الله ، و مَن معه **أشدّاء على الكفّار** ، رحماء بينهم)) (٢٨ ـ ٢٩) . تكفيه شهادة الله بنصره في الجهاد : فلا معجزة و لا إعجاز .

و في (الصف) ، السورة العشرين ، يشيد بفتح شمال الحجاز حيث ((أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ، **ليظهره على الدين كله** ، و لو كره المشركون)) (٩) ، و يشيد بالمعجزة التى بدأت جماعته تحبها : ((و أخرى تحبونها : **نصر من الله و فتح قريب** ، وبشر المؤمنين)) (١٣) .

فالفتح بالنصر لإظهار الإسلام على الدين كله هي المعجزة التى انتهت اليها الدعوة و النبوّة . سيكرر ذلك مرة ثالثة في (براءَة ٣٣) . شعار واحد يردده ثلاث مرات : في بدء النصر على قريش ، و في النصر على يهود الشمال ، و في النصر على العرب المسيحين في أطراف الشام . هذا ما رأى فيه إِعجاز القرآن و معجزة النبوّة .

و في سورة (الصف ١٤) مفتاح لفهم سر الدعوة القرآنية ـ بعد محاربة الشرك . في مكّة قال : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦) . و في المدينة ، بعد النصر على اليهودية في الشمال ، يكشف سرّ دعوته : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ، ابن مريم، للحواريين: مَن أنصارى الى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . **فآمنت طائفة من بني إسرائيل** (هم النصارى = الأنصار)، و كفرت طائفة (اليهود) فأيدنا الذين آمنوا (النصارى) على عدوهم (اليهود) فأصبحوا ظاهرين » . فالنصارى في لغة القرآن هم حصراً من بني إسرائيل . و هكذا عرفوا في التاريخ . و من الجهل بالتاريخ و القرآن تسمية المسيحيين نصارى . و الآية شاهد على أن الدعوة القرآنية قامت في الجزيرة العربية **انتصاراً للنصرانية الإسرائيلية المؤمنة بالمسيح على اليهودية الكافرة به .** . فبالدعوة و الجهاد تمّ النصر و الفتح لهذه النصرانية . فالآيتان (النمل ٧٦ و الصف ١٤) هما البرهان القاطع على أن الدعوة القرآنية « نصرانية » .

و انظر تفسير الجلالين في التعريف بتلكما الطائفتين ـ و هو مثال لتفاسيرهم : « (فآمنت طائفة من بني إسرائيل) بعيسى و قالوا إنه عبد الله رفع الى السماء ، (و كفرت طائفة) لقولهم إنه ابن الله رفعه اليه . فاقتتلت الطائفتان ، فقوينا الطائفة المؤمنة على الطائفة الكافرة فأصبحوا غالبين » . هذا جهل بالتاريخ و العقيدة . و هم معذورون لجهلهم حقيقة « النصارى » بعد أن أسهموا في نشأة الإسلام و ذابوا فيه ، و اندثر وجودهم و خبرهم . مع أن القرآن شاهد ناطق بوجودهم و عملهم على عهده . فالطائفة الكافرة بالمسيح من بني إسرائيل لم يقبلوا البتّة و لم يقولوا « إنه **عبد الله** رُفع الى السماء » فهذا اعتراف منهم بأن المسيح أتى . و الطائفة المؤمنة بالمسيح من بني إسرائيل لم يقولوا البتّة « إنه **ابن الله** رفعه اليه ». هذه مقالة المسيحية . و تلك مقالة النصرانية و القرآن . فلا ذكر على الإطلاق للمسيحية في آية (الصف ١٤) . و الجلالان و صحبهما ينسبون الى النصرانية عقيدة المسيحية .

و في سورة (الحديد) ، الحادية و العشرين ، ينشد نشيد الحمد على **فتح مكّة** ، عاصمة الشرك ، **بمعجزة الحديد** : « لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات ، و أنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم

الناس بالقسط . **و أنزلنا الحديد** ، فيه بأس شديد و منافع للناس ، و ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز » (٢٥) . لقد بعث الله الرسل بكتاب الهدى و ميزان العدالة لقيام العقيدة و الشريعة بين الناس . أما مع محمد و القرآن فقد « **أنزلنا الحديد** » . لاحظ دقة التعبير حيث **صار السيف معجزة منزلة** ، لصحة الدعوة و النبوّة . أليس هذا « بدْعاً من الرسل » (الأحقاف ٩) ، في مقابلة القرآن الصريحة (الحديد ٢٥) .

و في (المائدة) ، الثانية و العشرين ، ينقل من حجة الوداع : « اليوم أكملت لكم دينكم ، و أتممت عليكم نعمتى ، و رضيت لكم الإسلام ديناً » (٣) . أي إسلام ؟ إسلام الشاهدين له : « إنّا كنّا من قبله مسلمين » (القصص ٥٣) ، إسلام « أولي العلم قائماً بالقسط » الذين يشهدون مع الله و ملائكته « إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ ١٩) ، إسلام الطائفة المؤمنة بالمسيح من بني إسرائيل ، التى انتصرت على اليهودية بفضل القرآن و جهاد النبي (الصف ١٤) ، أي إسلام « النصارى » الذي ارتضاه لهم ديناً ، وظهر على اليهودية و الشرك . لذلك « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، **فلا تخشوهم واخشونِ** » (٣). فالخوف من بطش الله و رسوله ظل آيته حتى النهاية، لظهور الإسلام « النصراني » على اليهودية و الشرك : « لتجدَنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود و الذين أشركوا . ولتجدَنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ... يقولون: ربنا آمنا مع الشاهدين » (٨٢ و٨٣) . فاليهود و العرب المشركون هم أهل العداوة ، **و النصارى أهل المودة والإيمان و الشهادة الى النهاية** . و هذا الإعلان الصريح دليل على أن الدعوة القرآنية ظلت حتى النهاية دعوة « نصرانية » . و انتصار الإسلام القرآني على الدين كله ، أي على اليهودية و الشرك ، هو انتصار « النصرانية » في الجزيرة العربية . و هذا الظهور بالنصر و الفتح هو معجزة القرآن و النبوّة .

و في (التوبة ـ براءَة) ، الثالثة و العشرين ، أُحكمت « **آية السيف** » ، معجزة القرآن و النبي العربي : « براءَة من الله و رسوله الى الذين عاهدتم من المشركين : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، و اعلموا أنكم غير معجزي الله ، و أن الله مخزي الكافرين ... فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم « من حِلّ و حَرَم (١ ـ ٢ و٥) . **فهو يشرع قتال المشركين العرب حتى يسلموا** . جاء في (الناسخ و المنسوخ) ص ٢٦ للنحاس : « نسخ بهذه الآية (٥) وثلاثة عشر موضعا في القرآن » . و قال ابن حزم: « نسخ بهذه الآية مائة

و أربع عشرة آية في ثمان و أربعين سورة)) . و نقل (الإتقان ٢ : ٢٤) : ((قال ابن العربي : كل ما في القرآن من الصفح عن الكفّار و التولي و الاعراض و الكف عنهم ، منسوخ **بآية السيف**)) . و هذا الواقع الضخم دليل على أن ((**آية السيف**)) **هي دليل النبوّة ، لا المعجزة و لا الإِعجاز** ، في ظهور الإسلام على الدين كله . و هو يشرع قتال أهل الكتاب العرب ((حتى يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون)) (٢٩) أى حتى يخضعوا لسلطان الإسلام ، لا لدين الإسلام . هكذا بقتال الناس كلهم، من مشركين و كتابيين ، يكون ظهوره ((على الدين كله)) (٣٣) . هذه هي شرعة القرآن الأخيرة ، ووصية محمد الأخيرة لأمته . فهي دليل النبوّة و الدعوة ، لا المعجزة و لا الإِعجاز .

و ختام القرآن المدني ، بل القرآن كله ، في سورة (النصر) ، و هي نشيد الحمد الختامى على معجزة القرآن و النبوّة ، في النصر و الفتح :

((إذا جـــاء نصـــر الله و الفتـح و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً
فسبح بحمد ربك ، و استغفره إنه كان توّاباً))

إنها نشيد الحمد على سيطرة الإسلام على الجزيرة العربية . إنها نشيد الحمد على **معجزة النصر و الفتح** . لكنها ، بنص القرآن القاطع ، تظل **معجزة مشبوهة** ، لانها تقتضى الاستغفار ، و لا أمر بالاستغفار حالَ النصر و الفتح بدون ذنب . و هكذا فالصدى الأخير **لمعجزة السيف** ، كالصدى الأخير **لمعجزة الإِعجاز** (آل عمران ٧) ، أنها من ((متشابهات القرآن .

هذا هو الواقع القرآني من المعجزة . حاول الأقدمون اخفاءه ، و حاول أهل الإِعجاز ستره بجعل الإِعجاز معجزة القرآن ، و قهرت النزاهة العلمية أهل عصرنا على الجهر به .

بدأه الأستاذ حسين هيكل في (**حياة محمد** ، ص ٥٥) : ((لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد ، إلاّ القرآن))

و ختمه الأستاذ دروزة بتحليل جامع مانع : ((إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام، وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته)) (١)

---

(١) دروزة : **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٦.

و في تحليل الواقع القرآني ثبت لنا :

أولاً : **لا معجزة حسية في القرآن** ، و أن المعجزة مُنعت عن محمد منعاً مبدئياً قاطعاً (الإسراء ٥٩) ، و منعاً فعلياً حازماً (الأنعام ٣٥) . **وآية محمد الوحيدة** هي شهادة ((أولي العلم)) له على صحة دعوته : ((و قال الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قلْ : كفى بالله شهيداً بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب)) (الرعد ٤٣) .

ثانياً : **لا نبوءة غيبية في القرآن** ، فالتصريح بذلك حازم قاطع : ((و لا أعلم الغيب)) (الأنعام ٥٠)

ثالثاً : لم يعتبر القرآن إعجازه معجزة له (آل عمران ٧) . و هذا ما سنفصله في القسم الثاني .

و هكذا فقد رجع المعاصرون الى مقالة الأقدمين : **إن الله لم يجعل القرآن دليل النبوة.** هذا هو الواقع القرآني الذي لا ريب فيه . لذلك فكل ما نسبوه في الحديث و السيرة والمغازى و الشمائل من معجزات لمحمد مدسوس عليه ينقضه واقع القرآن .

و قال القرآن في النبي العربي : ((**ما كنتُ بدْعاً من الرسل**)) (الأحقاف ٩) . لكن الرسالة ظهرت على وجهين مختلفين ما بين مكّة و المدينة . كانت الدعوة في مكّة ((بالحكمة و الموعظة الحسنة)) على طريقة الرسل الأولين ، ففشلت ، و في المدينة نجحت الدعوة العسكرية بشرعة الجهاد ، أولاً للدفاع عن العقيدة ، ثم لفرضها بالقوة على الجزيرة العربية ، ((بالحديد فيه بأس شديد و منافع للناس)) . و في تقييم هذا الدور من الرسالة قال الأستاذ حسين هيكل في (حياة محمد ١٩٠) :

((هنا يبدأ الدور السياسي ... وهذا الدور من حياة الرسول **لم يسبقه إليه نبي أو رسول** . فقد كان عيسى ، و كان موسى ، و كان من سبقهما من الأنبياء يقفون **عند الدعوة الدينية** يبلغونها للناس من طريق الجدل و من طريق المعجزة ... و كذلك أمر سائر الأديان في شرق العالم و غربه . فأمّا محمد فقد أراد الله أن يتمَّ نشر الإسلام و انتصار كلمة الحق على يديه ، و أن يكون **الرسول و السياسي و المجاهد و الفاتح**)) . ألا يعنى هذا أن محمداً صار ((بدْعاً من الرسل)) ؟ و أن السياسة و الجهاد و الفتح كانت دلائل النبوّة ؟ أنحن في رسالة السماء ، أم في

سياسة الدنيا ؟ أنحن في تأسيس دين أم في تكوين دولة ؟ لقد غارت العقيدة في السياسة ! و تاه الدين في الدولة ! « بهذا الدور الذي لم يسبقه إليه نبي و لا رسول » .

أما نحن فنقول : إن نبوّة محمد و رسالته قد اقتصرت ، بأمر ملاك الله له في رؤيا غار حرّاء ، على « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) بالقرآن العربي . و هذا لا يحتاج الى معجزة و لا إلى نبوءة غيبية ، و لا الى إعجاز في قرآن الكتاب . يكفيه شهادة « أولي العلم والإيمان » على صحة رسالته هذه و على صحة دعوته : « قلْ كفى بالله شهيداً بيني و بينكم ، و من عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٣) . فالقول الفصل : ليس في القرآن و السيرة من معجزة حسية .

بحث ثان

المعجزات في الحديث و السيرة

لقد ثبت لنا بالبحث السابق في الواقع القرآني و بشهادة أئمة العلماء في عصرنا أنه لا معجزة فالقرآن ، مع أنه قد رافقه ، طول الرسالة و الدعوة ، تحدى العرب له بمعجزة كالأنبياء الأولين ، فما نزلت و لا وقعت . و هذا الموقف القرآني السلبي من كل معجزة يستند، بتصريح القرآن نفسه ، إلى **مبدإٍ إلهي مقرر** : لقد شهد القرآن نفسه بعجز محمد عن كل معجزة عجزاً مطلقاً (الأنعام ٣٥) .

أولاً : موقف الأقدمين

تجاه هذا الواقع القرآني المشهود ، من الغريب حقاً أن ينسب أهل الحديث و السيرة والمغازى و الشمائل ، حتى أهل علم الكلام ، **هذا السيل العرم من المعجزات الى محمد** ، فينقضون بذلك صريح القرآن .

و من المؤلم حقّاً أن ينجرف حجة الإسلام ، **الغزالي** نفسه ، في تيار الحديث و السيرة فيأخذ بما فيهما من المعجزات على حقيقته التاريخية ، بعد الواقع القرآني المشهود . و ننقل هنا فصلا من (إحياء علوم الدين) ، القسم الثاني : « ربع العادات » ص ٣٤١ .

بيان معجزاته و آياته الدالة على صدقه :

... و قد ظهر من آياته و معجزاته ما لا يستريب فيه محصّل . فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار و اشتملت عليه الكتب الصحيحة ، إشارة الى مجامعها ، من غير تطويل بحكاية التفصيل . فقد خرق الله العادة على يده غير مرة .

١ ـ انشق له القمر بمكّة ، لمّا سألته قريش آية .

٢ ـ و أطعم النفر الكثير في منزل جابر ، و في منزل أبى طلحة و يوم الخندق . ويوماً أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير . و مرة أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده . و مرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها فأكلوها كلهم حتى شبعوا من ذلك و فضل لهم

٣ ـ و نبعَ الماء من بين أصابعه عليه السلام ، فشرب أهل العسكر كلهم و هم عطاش ، و توضأوا من قدح ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه .

٤ ـ و أهرق عليه السلام وضوءَه في عين تبوك و لا ماء فيها ، و مرة في بئر الحديبية ، فجاشتا بالماء . فشرب من عين تبوك أهل الجيش و هم ألوف حتى رووا . و شرب من بئر الحديبية ألف و خمسماية ، و لم يكن فيها قبل ذلك ماء .

٥ ـ و أمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يزود أربعماية راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير ـ و هو موضع بروكه ـ فزوّدهم كلهم منه ، و بقى منه، فحبسه .

٦ ـ و رمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم . و نزل بذلك القرآن في قوله تعالى : ((و ما رميت و لكن الله رمى)) .

٧ ـ و أبطل الله تعالى الكهانة بمبعثه ﷺ فعدمت ، و كانت ظاهرة موجودة .

٨ ـ و حنَّ الجذع الذي كان يخطب اليه ، لمّا عُمل له المنبر ، حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الابل ، فضمّه إليه فسكن .

٩ ـ و دعا اليهود إلى تمنى الموت ، و أخبرهم بأنهم لا يتمنونه ، فحيل بينهم و بين النطق بذلك و عجزوا عنه . و هذا مذكور في سورة البقرة .

١٠ ـ و أخبر عليه السلام بالغيوب : و أنذر عثمان بأن تصيبه بلوى من بعدها الجنة. و بأن عمّاراً تقتله الفئة الباغية . و أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . و أخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه . و هذه كلها أشياء إلهية لا تُعرف البتة بشيء عن وجوه تقدّمت المعرفة بها ، لا بنجوم ، و لا بكشف ، و لا بخط ، و لا برجز ، لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه.

١١ ـ و اتبعه سراقه بن مالك ، فساخت قدما فرسه في الأرض ، و اتبعه دخان حتى استغاثه . فدعا له فانطلق الفرس . و أنذره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى فكان كذلك.

١٢ ـ و أخبر بمقتل الأسود العنسى الكذاب ، ليلة قتله ، و هو بصنعاء اليمن ، وأخبر بمن قتله .

١٣ ـ و خرج على ماية من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه.

١٤ ـ و شكا إليه البعير بحضرة أصحابه و تذلّل له .

١٥ ـ و قال لنفر من أصحابه مجتمعين : أحدكم في النار ، ضرسه مثل أُحُد . فماتوا كلهم على استقامة ، و ارتد منهم واحد فقُتل مرتداً .

١٦ ـ و قال لآخرين منهم (أصحابه) : آخركم موتا في النار . فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها فمات .

١٧ ـ و دعا شجرتين فأتتاه و اجتمعتا . ثم أمرهما فافترقتا .

١٨ ـ و كان عليه السلام نحو الرابعة . فإذا مشى مع الطوال طالهم .

١٩ ـ و دعا عليه السلام النصارى إلى المباهلة ، فعرفهم ﷺ أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا . فعلموا صحة قوله فامتنعوا .

٢٠ ـ و أتاه عامر بن الطفيل بن مالك ، و أربد بن قبس ، و هما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله عليه السلام . فحيل بينهما و بين ذلك ، و دعا عليهما ، فهلك عامر بغده، و هلك أربد بصاعقة أحرقته .

٢١ ـ و أخبر عليه السلام أنه يقتل أُبَي بن خلف الجمحى ، فخدشه يوم أُحد خدشاً لطيفاً ، فكانت منيته فيه .

٢٢ ـ و أُطعم عليه السلام السُم . فمات الذي أكله معه . و عاش هو ﷺ بعده أربع سنين . و كلّمه الذراع المسموم .

٢٣ ـ و أخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش . ووفقهم على مصارعهم رجلاً رجلاً . فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع

٢٤ ـ و أنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر . فكان كذلك .

٢٥ ـ و زويت له الأرض فأُرىَ مشارقها و مغاربها . و أُخبر بأن ملك أمته سيبلغ ما زوي له منها . فكان كذلك . فقد بلغ ملكهم من أول المشرق ، من بلاد الترك ، الى آخر المغرب من بحر الأندلس ، و بلاد البربر . و لم يتّسعوا في الجنوب ، و لا في الشمال ، كما أخبر ﷺ سواء بسواء .

٢٦ ـ و أخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحاقاً به فكان كذلك .

٢٧ ـ و أخبر نساءَه بأن أطولهن يداً أسرعهن لحاقا به . فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يداً بالصدقة لحاقاً به رضى الله عنها .

٢٨ ـ و مسح ضرع شاه حائل لا لبن لها . فدرّت و كان ذلك سبب اسلام ابن مسعود رضى الله عنه . و فعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية .

٢٩ ـ و ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردّها عليه السلام بيده فكانت أصح عينيه و أحسنهما

٣٠ ـ و تفل في عين علي رضى الله عنه ، و أهو أرمد ، يوم خيبر ، فصحّ من وقته و بعثه بالراية

٣١ ـ و كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ.

٣٢ ـ و أُصيبت رِجل بعض أصحابه ﷺ فمسحها بيده ، فبرأت من حينها .

٣٣ ـ و قلّ زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقى ، فاجتمع شيء يسير جداً . فدعا فيه بالبركة . ثم أمرهم فأخذوا . فلم يبقَ وعاء بالعسكر ، إلا مُلىء من ذلك .

٣٤ ـ و حكي الحكم بن العاص بن وائل مشْيته عليه السلام مستهزئاً . فقال ﷺ كذلك فكن . فلم يزل يرتعش حتى مات .

٣٥ ـ و خطب عليه السلام امرأة . فقال له أبوها : إن بها برصاً ، امتناعاً من خطبته واعتذاراً . و لم يكن بها برص . فقال عليه السلام : فلتكن كذلك فبرصت . و هي أم شبيب بن البرصاء الشاعر .

إلى غير ذلك من آياته و معجزاته ﷺ . **و إنما اقتصرنا على المستفيض** .

و من يستريب من انخراق العادة على يده ، و يزعم **أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواتراً ، بل المتواتر هو القرآن** فقط ... و لكن مجموع الوقائع يورث علماً ضروريّاً)) .

هذا ما نقله الغزالي في (الإحياء) بصفته زعيم المتكلمين . و قد أحسن اذ ((اقتصر على المستفيض)) . لكنه أورد مبدأ التواتر الذي لا يصحّ حديث بدونه . فكيف فاته أن لا يعمل به ، و هو يعلم ((**أن آحاد هذه الوقائع لم تُنقل تواتراً**)) ، و يعلم أيضاً أن مجموع الوقائع من الآحاد لا يورث علماً ضرورياً . و فاته استطلاع الواقع القرآني المشهود ففيه القول الفصل . و ما أشار اليه من القرآن سنفرز له بحثاً خاصاً .

ثانياً : موقف المعاصرين الصادقين

و أتى عصر العلم و النقد . و أخذ العلماء يجهرون بالحقيقة .

١ ـ أوجز الأستاذ **حسين هيكل** [١]، بعد بحث طويل : ((لقد كان ﷺ حريصاً على أن يقدّر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه ، **حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن** . و يصارح أصحابه بذلك ... و لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة ، على اختلاف عصورهم ، برسالة محمد ، إلاّ القرآن ... هذا مع أنه ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى من سبق محمداً من الرسل)) .

٢ ـ و فصّل الأستاذ عبد الله السمان[٢]: ((لقد أغرم كثير من المسلمين بأن يحوطوا شخصية الرسول **بهالة كبرى من الخوارق** ، منذ أن حملت به أمه الى أن لقى ربه . **و بلغ الغلو**

---

(١) **حياة محمد** ، ص ٤٤ ـ ٥٥ .
(٢) **محمد ، الرسول البشر** ، ص ١٠ ـ ١٨ .

بهم درجة لا تُطاق . ومن المتـأكد أنه ليس لهـم سند من قرآن صريح أو حـديث صحيح ... »
.

١) ـ و قال : « إن الكثيرين حين يحاولون دراسة شخصية الرسول ، يعمدون الـى **كتب السيرة** ليأخذوا جزافاً بكل ما ورد فيها . **و هذه الكتب على كثرتها لا يجوز أن تكون مرجعا أصيلا في هذا الصدد** ، لأنها كُتبت في عصور لم يكن النقد مباحاً تماماً فيها . ومعظمها كان يُدوّن لغاية تعبدية . و الخلافات الكثيرة في رواياتها يحتم على الباحث أن يقف منها موقف الحذر و الحيطة .

« و قد استوعبت **كتب السيرة سيلا من أنباء الخوارق و المعجزات** ، التى تزيد وتنقص تبعاً لاختلاف الأزمان التى دُوّنت فيها . فبينما نجد سيرة ابن هشام لا تعنى كثيراً بأنباء الخوارق و المعجزات ، نجد أن سيرة ابن أبى الفداء ، و (الشفاء) للقاضى عياض ، وغيرهما ، قد عنيت العناية الكبرى بها . و كتب السيرة مزدحمة **بالرواة القصاصين** الذين عرفوا بالصناعة القصصية في ما يروون . و هؤلاء لا يتحرون الدقة في سند الرواية أو متنها ، لأنهم يعنيهم ـ فحسب ـ صياغة الأسلوب و عنصر التشويق » .

٢) ـ ثم قال : « و إذا تركنا السيرة الى **كتب الحديث** ألفينا أنفسنا إزاء مشكلة معقدة **تجعل الباحث في حيرة لا تنتهي و لا تقف عند حد ... و ظهر وضع آلاف الأحاديث** و نسبتها الى النبي لتكون مؤيداً لحزب سياسى ، أو ناقضاً لحزب آخر . و انتهز اليهود و الزنادقة فرصة هذه الخلافات التى تدثرت بالدماء في معظم الأحايين ، و راحوا يختلقون الأحاديث ليهدموا بها الإسلام ، و يشغلوا العامة عن أصوله لتنصرف الى شكلياته . كما تطوع كثير من السذج و البسطاء فوضعوا أحاديث في الترغيب و الترهيب ، ظنا منهم أن في هذا خدمة للدين، و لو عقلوا لأدركوا أنهم إنما أساؤوا إلى الدين أكبر إساءَة ... » .

(مع هذه الأسباب الثلاثة لاختلاف الاحاديث) لم يبدإ التدوين إلا في عهد المأمون . و ذلك بعد أن اختلط النقى بالدخيل ، **و أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكَذِب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود** ، كما يقول الدراقطنى أحد جامعى الحديث المعروفين ... وحسبك أن تعلم أن البخاري ، و هو شيخهم ، قد وجد أن الاحاديث المتداولة تزيد على ستماية ألف حديث ، و لكنه لم يعتمد منها في صحيحه إلا قرابة أربعة آلاف .

و لدينا نموذج حى بهذا **الخلط في الأحاديث النبوية** ، و هو كتاب (إحياء علوم الدين) **للإمام الغزالي** ، من علماء الثلث الأخير من القرن الخامس ، هذا الكتاب الضخم جمع بين دفتيه ألوف الأحاديث المنسوبة الى رسول الله . و جاء الحافظ العراقى ، في أواخر القرن الثامن ، ليخرج أحاديث (الاحياء) و ليجد **من بين كل عشرة أحاديث واحداً** تقريبا يمكن الاعتماد عليه .

٣ ـ ثم قال : « و بعض **تفاسير القرآن** نفسها محشو بآلاف الأحاديث المنسوبة الى الرسول، دون أن يكلف أصحاب التفاسير أنفسهم مشقّة توضيح درجتها من الصحة والضعف.

« ... الذين يتشدّقون بأحاديث دخيلة ، و يصرّون على نسبتها الى رسول الله ، و لو قبلناها ، لكان معنى هذا أن محمداً نطق بما **يفسد ذوق الحياة ، و يتنكّر لسنتها** ، و يهدم بمعول هذه الشريعة التى قامت أصولها على المنطق القوى السليم .

« ... **و هؤلاء الحمقى** يرضى عقولهم مثلا أن يكون محمد ولد مختوناً مكحولاً مطهّراً . و أن أبواب الجنة فُتحت و أبواب الجحيم أُغلقت ساعة ميلاده . و أن ايوان كسرى تصدّع ، و نيران فارس أُخمدت ، و بحيرة طبرية غارت . و يرضيهم أن يكون **الجذع في المسجد قد حن اليه** ، و أن **الحصى سبح بين يديه .** و أن غار ثور الذي لجأ إليه يوم هجرته قد خيم العنكبوت على بابه و باض الحمام ... دون ما نظر الى أن مثل هذه القضية ، إنما تحتاج إلى أخبار معتمدة . **و ليس هناك آية قرآنية صريحة في القضية ، و لا حديث واحد متواتر ...**

« و ما دام هؤلاء يحرصون على أن يكون لمحمد امتياز في كل شيء ، فلابد أن يكون له **امتياز في الجماع** . و لذا كان من خصوصياته الزواج بأكثر من أربع نسوة ، دون سائر المسلمين ، حتى لقد مات عن تسع ، سأترك للقاضى عياض في كتابه **(الشفاء)** يقول: و قد روينا عن أنس أنه ـ صلوات الله عليه ـ كان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار ، وهنَّ إحدى عشرة ! قال أنس : و كنا نتحدث أنه أُعطى **قوة ثلاثين رجلاً .** خرّجه النسائي . و روى نحوه عن أبي رافع و عن طاووس : له عليه السلام **قوة أربعين رجلاً .** وفي حديث أنس أنه عليه السلام قال : **فُضّلت على الناس بأربع : السخاء و الشجاعة و كثرة الجماع و قوة البطش .**

« حتى اذا أراد أن يتبوّل أو يتغوّط ، فلا يمكن في نظرهم أن يكون كالبشر ، بل لا بدّ له من امتياز ، و إلاّ فما معنى كونه سيّد وُلد آدم و لا فخر ! فالقاضي عياض تارة يقول : إن الرسول كان اذا أراد قضاء حاجته في الخلاء تجمعت الحجارة و الأشجار لتستره ! و تارة يقول : إنه اذا أراد أن يتغوّط انشقت الأرض فابتلعت غائطه و بوله ، و فاحت لذلك رائحة طيبة ـ لأن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء ، فلا يرى منه شيء . ثم يواصل القاضي عياض **هذا الهوس** فيقول : إن قوماً من أهل العلم قالوا بطهارة هذين الحدثين منه ﷺ. ويدّعى القاضي أن أُم أيمن ـ و كانت تخدم رسول الله ـ شربت من بوله ، فقال لها : لن تشتكي وجع بطنك أبداً ... »

و ختم بقوله[1] : « و لسائل أن يتساءَل : ألم تحدث للرسول معجزات ؟

« و نحن نقول له : إن كتب الأحاديث ، و كتب السيرة ، قد استوعبت **آلاف المعجزات** . و منها ما بلغ الى **درجة التطرّف الذي يفرض علينا الضحك .** و حسبك أن تقرأ (دلائل النبوّة) للبيهقى ، و أبى نعيم ، و (الشفاء) للقاضى عياض ، و شرح الزرقانى على (المواهب) . **و الأحاديث المعتمدة معدودة على الأصابع .** و كلها أحادية لا تقطع بخبر . ومنها : نبع الماء ، و تكثير الطعام ...

« و الأحاديث التى وردت فيها **أخبار الرسول عن الغيب تتعارض مع صريح القرآن** الذي يؤكد أن الغيب لا يعلمه إلا الله وحده . و من هذه الأحاديث ، الأخبار عن عمار بأن ستقتله الفئة الباغية ، و أن الحسن يصلح الله به بين فئتين ...

« فلا يمكن أن نقر بحال من الأحوال **هذا السيل من المعجزات** التى نسبت إليه ، والتى لو وزعت علىالثلاثة و العشرين عاما التى قضاها في النبوّة ، لأصبح واضحاً أن هذه المدة إنما ضاعت في حدوث الخوارق المتواصلة ، دون أن يفرغ لنضال في مكّة ، أو قتال وتشريع في المدينة .

« و الذي يقرأ للقاضى عياض في كتابه (**الشفاء**) ، يُصاب بدوار ، فهو ينسب الى الرسول معجزات متنوعة ، **محاولاً أن يجعلها شاملة لكل معجزات الرسل قبله .** حتى إحياء

---

(١) عبد الله السمان : **محمد ، الرسول البشر** ، ص ٨٦ ـ ٨٨ و١١٣ .

الموتى ينسبه الى الرسول[1] ، و يذكر **دون خجل** ... حتى حين يفكر رسول الله في قضاء حاجته بالخلاء ، تنتقل الأشجار و تتكدس الحجارة ، و ذلك لتواريه عن الأعين ! و حين يسير، ما من شجرة و لا حجر إلا يقول : السلام عليك يا رسول الله ! و حين يدعو العباس وأهل بيته ، تقول الأبواب و الحوائط : آمين . **و هو يرى من خلفه كما يرى من أمامه** ، وفي الظلام كما في النور ... فينسب الى الرسول معجزات كان خيراً لو أنه لم ينسبها اليه ... بدل أن يعرض **شخصيّة محمد للسخرية .**

((إن القرآن ذكر بعض الآيات لبعض الرسل دون البعض الآخر ، **فكان أجدر له أن يذكر بعض معجزات لمحمد الذي أُنزل عليه** . و لكن الله عزّ وجلّ أراد أن يرفع من قدر الرسالة فيجعلها عقلية منطقية تخاطب العقل و المنطق . و أيدها بكتاب الله ليعيش معها إلى أن يرث الله الأرضَ و من عليها ، كآية خالدة معجزة . و قد شق محمد لدعوته طريقه إلى القلوب والعقول، **غير مؤيّد بالخوارق**، التي لم تصلح قبله وسيلة لإقناع، لأن معه نهجاً واضحاً من كتاب الله ، ليس فيه تعقيد و لا التواء . و من شاء بعد ذلك فليؤمن و من شاء فليكفر)) .

و هكذا فالأستاذ السمان ينقض كل معجزات الحديث و السيرة و الشمائل و المغازى . و ينقض معها كل ما يتوهمونه من معجزات في بعض آيات القرآن . فالواقع التاريخي والقرآني أن محمداً ((**غير مؤيد بالخوارق**)) في نبوته و رسالته .

فلا معجزة لمحمد سوى القرآن . هذا ما قاله من قبله حسين هيكل و أهل الإعجاز .

لكننا نأخذ عليه قوله ، في تبرير منع المعجزات عن محمد ، ((ان الله عزّ وجلّ أراد أن يرفع من قدر الرسالة فيجعلها عقلية منطقية تخاطب العقل و المنطق)) . و رسالة ((عقلية منطقية)) تُنزل الوحي منزلة العقل ، ليس العقل البشرى بحاجة إليها ، و هو بغنى عنها . وهل كونها ((عقلية منطقية)) دليل على أنها من الله ؟ حينئذ كل تأليف بشرى ديني ، ((عقلى منطقى)) هو من الله ! فلا بدَّ من برهان إلهي قرين النبوّة يدل عليها حتى يصح اعتبارها من الله . لقد نسى قول الإمام الجويني[2] ، استاذ الغزالي : ((**لا دليل على صدق النبي غير المعجزة . فإن قيل : هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة ؟ قلنا : ذلك غير ممكن**)) .

---

(١) و قد انحدر الى مستواه سيد علم الكلام الغزالي .
(٢) في **الارشاد** ، ص ٣٣١ .

و نأخذ عليه أيضاً قوله : إن الله لم يؤيد محمداً بالخوارق لأنها ((لم تصلح من قبله وسيلة للإقناع)) . و الإنجيل و التوراة شاهداً عدل على فساد هذه النظرية و على عدم مطابقتها لواقع النبوّة : فقد قامت رسالة موسى و رسالة المسيح على المعجزة ، و بسبب المعجزة آمن بهما الناس على زمانهما و من بعدهما . هذا من حيث الايجاب . و من حيث السلب ، فالواقع القرآني المكي شاهد عدل على أن أهل مكّة تحدّوا النبي طول العهد بمكّة بالاتيان بمعجزة ليؤمنوا به : ((لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله)) (الأنعام ١٢٤)، ((فليأتنا بآية كما أرسل الأولون)) (الأنبياء ٥) ، ((و أقسموا بالله جَهْد إيمانهم : لئن جاءَتهم آية ليؤمن بها)) (الأنعام ١٠٩) ، ((و ما منع الناس أن يؤمنوا ... إلا أن تأتيهم سُنّة الأولين)) (الكهف ٥٥) . ففى عرْف القرآن و نصّه القاطع ، ان المعجزة ((**سلطان الله المبين**)) الوحيد في الشهادة لصحة رسالة أنبيائه و دعوتهم (هود ٩٦ ، المؤمنون ٤٥ ـ ٤٧ ، غافر ٢٣ ـ ٢٤) ، و أنها ((سُنّة الأولين)) في النبوّة و الدعوة (الكهف ٥٥ ، الأنبياء ٥) .

٣ ـ هذا ما وصل اليه أيضاً الأستاذ دروزة ، في فصل قيَّم موقف القرآن السلبي من كل معجزة . و ختم استشهاد القرآن بقوله : ((**إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد** عليه السلام ، و برهاناً على صحة رسالته و صدق دعوته ـ التى جاءت **بأسلوب جديد** : هو أسلوب لفت النظر الى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها ... ثم أسلوب مخاطبة العقل و القلب ، في الحث على الفضائل و التنفير من الرذائل ... وعلى اعتبار أن الدعوة التى تقوم على تقرير وجود الله و استحقاقه وحده للعبودية و اتصافه بجميع صفات الكمال ، و على التزام الفضائل و اجتناب الفواحش ، هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات)) (سيرة الرسول ١ : ٢٢٦) .

فالأستاذ دروزة يشهد بشهادة القرآن عينها ((إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام)). و نحن نكرر هذا الاعتراف الصريح الذي ينكر المعجزات مبدَئياً وواقعيّاً في الدعوة القرآنية و السيرة النبوية .

لكننا نأخذ عليه تبرير موقف القرآن السلبي من كل معجزة ، و تبرير حكمة هذا الموقف السلبي ، بأن الدعوة القرآنية ((جاءت **بأسلوب جديد**)) في الدعوة و النبوّة ، يردّه الى ثلاث ظواهر :

١) « **أسلوب لفت النظر الى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها** » كأن القرآن ابتدع هذا الأسلوب ، أو أعجز فيه أكثر من الكتاب و الحكمة و النبوّة و الإنجيل . أليس هذا الأسلوب هو أسلوب الأنبياء كأشعيا ؟ أليس مزامير الزبور ، كتاب صلاة الإسرائيليين و المسيحيين ، على هذا الأسلوب ؟ أليس الذي أعجز فيه سفر الحكمة ، للرد على الفلسفة الاغريقية ؟ يكفيه أن يقرأ الإنجيل بحسب متى ليرى أن المعلم المعجز في هذا الأسلوب هو السيد المسيح . و فات الأستاذ أن هذا هو أسلوب الفلاسفة الموحّدين ، و أسلوب جميع المتكلمين و الخطباء في التوحيد : فهل هذا الأسلوب دليل النبوّة عندهم ؟

٢) « **ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب** » في الترغيب و الترهيب . نجيب على الأستاذ دروزة بشهادة زميله الأستاذ عبد الله السمان[١] : « و أسلوب الدعوات الى الله يستوى فيه جميع الأنبياء و الرسل ، لأنهم جميعا تربط بينهم مهمة واحدة و هدف واحد ، **و يشقون طريقهم الى قلوب الناس بأسلوب واحد** ، هو تبشير المستجيبين منهم بسعادة الدنيا و نعيم الآخرة ، و إنذار المتمردين منهم بشقائهما . و محمد صلوات الله عليه واحد من الرسل ، و قد التزم هذا الأسلوب في دعوته منذ بدايتها الى آخر لحظة من حياته : « **ما يقال لك إلا ما قيل للرسل من قبلك** ، إن ربك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم » (فصت ٤٣) .

٣) إن الدعوة التى تقوم على تقرير وجود الله ... و على التزام الفضائل و اجتناب الفواحش ، **هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة** لا تتصل بها بالذات » . هل يجهل الأستاذ دروزة أن جميع مؤلفات الموحدين و المصلحين ، من مؤمنين بالنبوّة و كافرين ، تدعو الى التوحيد و الفضيلة ، فهل صاروا بها كلهم أنبياء ؟ و مؤلفات نوابغ الفكر الإسلامي و الفكر المسيحي كلها ممّا قرّر : فهل كلها نبوءات ؟ و ما الذي يميزها عن دعوات النبوءات سوى المعجزات ؟ و ما الذي يميزها عن القرآن نفسه سوى إعجازه في النظم و البيان ؟ أجل لقد فات السيد دروزة قول الإمام الجويني الذي نقلناه في مطلع كتابنا : « لا دليل على صدق النبي غير المعجزة . فإن قيل : هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة ؟ قلنا : ذلك غير ممكن » . وجدلية الأستاذ دروزة كغيره منذ ابن خلدون هي **المغالطة عينها** : ليس المطلوب صحة قول النبي في ذاته ، بل صدقه إن كلامه هو كلام الله ،

---

(١) **محمد ، الرسول البشر** ، ص ٥٢ .

لأن حقيقة كلام الإنسان مهما سمت لا يمكن أن تتمتع بعصمة كلام الله ، و حكمها و حكمتها بحكم و حكمة كلام الله . و الحقيقة المطلقة في الكلام المخلوق لا تجعله في ذاته كلام الخالق ، فلا بدّ من بيّنة خارجة عن الكلام ذاته تدل على أنه كلام الله و أن النبي صادق في نقله عن ربه ، و هذه هي المعجزة التى يشهد بها الله لنبيه . و لنا عودة الى هذا الموضوع كله .

ثالثاً : موقف بعض المعاصرين الرجعيين

يقول عبد الرازاق نوفل[1] : ((**و معجزاته القولية و الفعلية أكثر من معجزات جميع الأنبياء من آدم الى سيدنا المسيح مجتمعة**))

و لا عجب في ذلك فقد سبقه حجة الإسلام ، الغزالي ، كما نقلناه عنه .

فما ينسبونه إلى محمد من معجزة في القرآن و الحديث ، ((**من المتأكد أنه ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح**)) ، ((**و ليست هناك معجزة يؤكدها خبر قطعى** ، مما نسب الى رسول الله)) ـ كما نقلنا عن الأستاذ عبد الله السمان . و قد نقلنا حملته الصادقة على أهل الحديث ، و على أهل السيرة ، و على أهل التفسير ، الذين يضلّلون المسلمين ، ويثيرون سخرية المثقفين .

و كم هو منطقى وواقعى قول إمام الأزهر ، الشيخ المراغى[2] : ((و من الحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حداً دعا الدعاة فيهم الى اختلاق الآلاف **المؤلفة من الأحاديث و الروايات** ، حتى قال على : ما عندنا كتاب نقرأه عليكم إلاّ ما في القرآن ، و ما في هذه الصحيفة أخذتها من رسول الله فيها فرائض الصدقة ... **أما مضرة الروايات التى لا يقرّها العقل و العلم** فقد أصبحت واضحة ملموسة ... و لقد كان ﷺ حريصا على أن يقدّر المسلمون أنه بشر مثلهم يُوحى اليه ، حتى **كان لا يرضى أن تُنسب اليه معجزة غير القرآن** ، و يصارح أصحابه بذلك ... **فالقرآن وحده** معجزة محمد)) .

سنرى في القسم الثاني هل يعتبر القرآن إعجازه معجزة له ، بل هل يصحّ اعتماد إعجاز القرآن معجزة له .

---

(١) **محمّد رسولاً نبيّاً** ، ص ١٥٣ .
(٢) في (**حياة محمد**) لحسين هيكل : تقديم الطبعة الثانية ، ص ٥٠ ـ ٥٤ .

و سنرى في هذا الفصل رأى أدعياء العلم و التفسير الذين يرون معجزات و غيبيّات في « **كونيات** » **القرآن** و مطابقتها لاختراعات العلم العصرى . يكفيهم ردّاً قول الأستاذ عبد الله السمان ، الذي نقلناه

و هكذا ثبت لدينا ، موقف القرآن السلبي من كل معجزة تنسب إلى محمد ، و من شهادة أهل العلم الصادقين ، أنه ليس في الحديث و السيرة من معجزة .

بحث ثالث

قالوا ذكر القرآن لمحمد معجزات

لقد ثبت لنا ، مما تقدم من واقع القرآن و شهادة أئمة الإسلام في عصرنا ، أنه لا معجزة في القرآن ، سوى إِعجازه « في حسن تأليفه و عجيب نظمه » كما قال الباقلاني .

لكن ، بسبب شعور القوم الفطرى بأن المعجزة الحسية هي دليل النبوّة الأوحد ، و أن القرآن وحده هو الخبر اليقين عن السيرة و الدعوة ، أخذوا يقبلون القرآن و يتدبرونه ليجدوا فيه معجزة . فوقعوا على بعض « **آيات متشابهات** » ، فانكبّوا عليها يستدرجونها ليخرجوا منها معجزة تشهد بصحة النبوّة و الدعوة . فوجدوا في القرآن مثل هذه المعجزات .

أولاً : « **أسطورة شق الصدر** » [1]

جاء في مطلع سورة (الشرح) : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، و رفعنا لك ذكرك » (١ - ٤) .

و المتبادر الى الذهن أن « شرح الصدر » **تعبير مجازى** يدل عليه ما بعده : فقد شرح النبي صدراً بوضع وزره عنه و رفع ذكره . فسّرها الجلالان : « أى شرحنا لك يا محمد صدرك

---

(١) التعبير للدكتور حسين هيكل : **حياة محمد** ، ص ٧٢ .

بالنبوّة و غيرها » . فلا ذكر عندهما لمعجزة شق الصدر و تطهيره . و كأن التطهير من الوزر عمل مادى ! و المعنى المجازى متواتر في القرآن : « يشرح صدره للاسلام » (الأنعام ١٢٥) ، « شرح بالكفر صدراً » (النحل ١٠٦) .

فسرها البيضاوى : « ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق و دعوة الخلق فكان غائباً حاضراً . أو ألم نفسحه بما أودعنا فيه من الحكم و أزلنا عنه ضيق الجهل . أو بما يسرنا لك تلقى الوحي بعدما كان يشق عليك ؟ » . فليس في هذا كله مجال لأسطورة شق الصدر . لكن البيضاوى يضيف : « **و قيل** إنه اشارة إلى ما روى أن جبريل أتى رسول الله ﷺ في صباه ، أو يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيماناً و علماً . و لعله إشارة الى نحو ذلك » . وهناك ضحّى القاضي بعلمه ارضاءً لأهل الحديث من العامة : فهل العلم و الإيمان أشياء توضع في القلب ؟ و هل يقوم القلب مقام العقل ؟ و كيف فاته قول القرآن بعد ذلك: « ووجدك ضالا فهدى » (الضحى ٧) .

لكن أصل القصّة عند المفسرين كان في تفسير الطبري بالحديث . فروى أن القصة وقعت لمحمد في سن الطفولة ، أو في سنّ الكهولة نحو الأربعين و قبيل البعثة . و كيف فاته حديث سورة (الضحى ٦ ـ ٨) التى توجز فترة ما قبل البعثة بقولها : « ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى » . فلو كان هناك من حادث جرى ، أو معجزة وقعت لمحمد قبل البعثة لذكرها القرآن تسلية للنبي و تأييداً لدعوته .

و الأسطورة ترويها السيرة على لسان مرضعه حليمة السعدية ، أو على لسان ابنها تِرْب محمد في الرضاعة ، أو على لسان محمد و كان عمره سنتين و نصف السنة . قالت حليمة : « فخرجت أنا و أبوه فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه . فالتزمته و التزمه أبوه . فقلنا له : ما لك يا بنى ؟ قال : جاءَنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لم أدرِ ما هو » . فهل الاثم شيء محسوس ؟ و هل يكون في البطن ؟ و طفل دون الحلم هو غير مكلفّ و لا مسؤول عن وزر ينقض الظهر . و غسل الصدر أو البطن من وزر لا معنى له على الإطلاق ـ إلا أن يكون العماد « النصراني » المستور بهذه الروايات .

و الاحاديث عن الأسطورة تختلف اختلافاً كثيراً. قال الأستاذ عبد الله السمان[1]: « وحديث البخاري يقول : « إن الحادث وقع ليلة المعراج . و ابن حزم يعارض البخاري .

---

(١) **محمد ، الرسول البشر** ، ص ٩٦ .

و قيل : و هو ابن عشرين سنة ، كما في حديث ابن حيان و الحاكم . و قيل : حين كان مسترضعاً لدى حليمة ، و أخوه من الرضاع ، و سنّه لا تتعدى السنتين ، هو الذي شهد الحادث و نقله الى أمه حليمة. والحافظ العراقى في (نظم السيرة) يقول: في عامه الرابع)) . فلا يدرون متى وقع له الحادث و في أي زمان و في أي مكان . و اختلاف الاحاديث دليل تهافتها .

جاءَ في صحيح البخاري : ((بينا أنا عند البيت ، بين النائم و اليقظان ـ و ذكر بين الرجلين ـ فأُتيت **بطست من ذهب مُلىء حكمة و إيماناً** . فشُق من النحر الى مراق البطن ـ أي أسفله ـ ثم غسل البطن بماء زمزم ثم مُلىء حكمةً و إيماناً)) . لاحظ التهافت في التعبير نفسه : محمد ((بين النائم و اليقظان))، فهل الرؤيا حادث واقعى ؟ و ما معنى شهادة من هو غائب عن وعيه ؟ و هل الحكمة و الإيمان أشياء حسية يملأ بها طست من ذهب ؟ فيا ليت البخاري أسقط هذا الحديث مع آلاف الأحاديث التى نرفضها .

يقول الأستاذ السمان : ((و قد اهتمت كتب **السيرة بهذا الحادث دون التعقيب عليه . و ما كان لمنطق سليم أن يقره أو يعترف به .** و رغم اضطرب الروايات ، لا يفوتنا أن هذه الأحاديث تتعلق بجانب غيبى ـ و هو الذي يمثله الملائكة ـ و لا يصح للتصديق بسوى الخبر المتواتر . **و لا خبر متواتر في القصة**)) .

لذلك يسميها الدكتور حسين هيكل : ((أسطورة شق الصدر)) لسبب أن محمداً لم يلجأ في اثبات الى ما لجأ اليه مَن سبقه من الخوارق)) .

ثانياً : الإسراء و المعراج

وجد بعضهم معجزة الإسراء في هذه الآية :

((سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصا

الذي باركنا حوله لنُريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير))

ووجد هذا البعض معجزة المعراج في هذه الآيات :

((و لقد رآه عند سدرة المنتهى أخرى

عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى

مـا زاغ البصـر و مـا طغـى لـقد رأى من آيــات ربـه الكبرى
»

(النجم ١٣ ـ ١٨)

و على هاتين الإشارتين لفقوا ، **في الحديث و السيرة و التفسير** ، هذه القصـة: « بينمـا **أنا في المسجد الحرام** ، في الحجر ، عند البيت ، بين النائم و اليقظان أتاني جبريل بالبُراق ـ أو من الحَرَم و سماء المسجد الحرام لأنـه كلـه مسجد ، أو لأنـه محيط بـه ، لِمَـا رُوى أنـه كـان **نائما في بيت أم هانى** بعد صلاة العشاء » (البيضاوى) . و هند هي بنت عمه أبـي طالـبٍ **. و البراق** « دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه » (الجلالان)، « و هي الدابة التـى كانت تحمل عليها الأنبياء قبلـه » (السيرة لابن هشام ٢ : ٣٨) ـ والكتـاب و أسفار الأنبياء تجهلها . « فقال جبريل : أيها النائم ، قم . فانحنت الدابـة ، و لهـا **أجنحـة كأجنحـة النسر** ، أمـام رسـول الله ، فاعتلاهـا و انطلقت بـه انطـلاق السـهم ، فـوق جبـال مكّـة ، و رمـال الصحراء ، متجهة الى الشمال » (حسين هيكل ، حيـاة محمـد) . « فسـار بـى حتـى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة **بالحلقة التى تربط فيهـا الأنبيـاء** » (الجـلالان) . « و بيت المقدس مهبط الوحي ، و متعبّد الأنبياء ، **محفوف بالأنهار و الأشجار** » [١] (البيضـاوى) . فصلى النبي بين الأنبياء إبراهيم و موسى و عيسى . [٢]

ثـم أوتـى **بـالمعراج** فـارتكز الـى صـخرة يعقـوب ، و عليـه صـعد محمـد سِـراعاً الـى السماوات يقوده جبريل ، **و له ستماية جناح .** فاجتاز **السماء الأولى** ، و هي من فضّة خالصـة ، علّقت اليها النجوم بسلاسل من ذهب ، و قد قـام علـى كـل منهـا مـلاك يحرسـها حتـى لا تعـرج الشياطين . الى علو عليها ، أو يستمع الجن الى أسرار السماء (حسين هيكـل : **حيـاة محمـد**) . فرأى فيها رجـالاً لهم مشـافر كمشـافر الإبـل ، فـي أيديهم قطـع مـن نـار كالأنهـار ، يقذفونهـا فـي أفواههم فتخرج من أدبارهم (سيرة ابن هشام) . و رأى في **غيرها** عزرائيل ، مـلاك المـوت ، بلغ من ضخامته أن كان **ما بين مسيرة سبعين ألف يوم !** و كان يسجل في كتاب ضـخم أسماء مَن يولدون و من يموتون ! و رأى في **أخرى** ملاكاً ضخماً نصفه من نار و نصفه مـن ثلـج **. و في**

---

(١) يظهر أن الإمام البيضاوى يجهل بيت المقدس جهلاً مطبقاً . يؤكد ذلك مَن عاش في المقدس زهرة شبابه، يطوف بها مدة اثنتى عشرة سنة .

(٢) إن كانت تلك الصلاة رؤيا فليس الإسراء بمعجزة حسية ، و إن كانت حدثاً واقعياً ، فكيف رجع أسياد الأنبياء الى حياة الدنيا ليصلوا مع النبي ؟

السماء السابعة رأى ملاكاً أكبر من الأرض كلها ، **له سبعون ألف رأس** ، في كل رأس سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان، كل لسان ينطق بسبعين ألف لغة ، من كل لغة بسبعين ألف لهجة ، فسار النبي ما بين خلق و خلق ما مسيرته بتلك السرعة خمسماية عام ، حتى وصل الى حضرة القديم ، فكان ما بينه و بين العرش ((قاب قوسين أو أدنى)) . و ذلك عند ((سدرة المنتهى ، فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، و اذ ثمرها كالقلال . فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت فما أحد من خلق الله يستطيع يصفها من حسنها . قال : فأوحى الله إليَّ ما أوحى)) (الجلالان) . هناك ((رأى من آيات ربه الكبرى)) - ((فرأى من عجائب الملكوت رفرفاً أخضر سدَّ أفق السماء)) . حينئذ مدّ العلى القدير يداً على صدر محمد ، و الأخرى على كتفه دليل الرضى و القبول . و فرض الله على أمته **خمسين صلاة في كل يوم و ليلة** . و رجع بها محمد حتى لقى موسى ، فحذّره موسى و قال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك . فأخذ محمد يطوف بين الله و موسى ، حتى خفف الله الفريضة الى خمس مرات في اليوم . أخيراً نزل محمد على المعراج الى الأرض ، و امتطى البراق الى مكّة . ((رواه الشيخان . و روى الحاكم في (المستدرك) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ **رأيت ربى عزّ وجلّ**)) (الجلالان) .

١ ـ تلك هي **قصة الإسراء و المعراج** في الحديث و السيرة و التفسير . أصحيح إن النبي الصادق الأمين قد رواها ؟ ظاهرها يدل عليها : إنها من الإسرائيليات التى تزخر بها كتب اليهود المنحولة .

نعرف أن الملاك روح لا جسد له ، أو هو ((من نار)) كما يقول القرآن . فكيف يكون لعزرائيل رأس ، ما بين العينين فيه مسيرة سبعين ألف يوم ؟ و ما هذا الملاك الذي نصفه من نار و نصفه من ثلج ؟ و ذاك الملاك الذي هو أضخم من الأرض كلها ، و له سبعون ألف رأس ، في كل رأس سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان ، و كل لسان ينطق بسبعين ألف لغة ، و من كل لغة بسبعين ألف لهجة ؟! و ما هو هذا البراق ((الدابة فوق الحمار و دون البغل ، و له أجنحة كأجنحة النسر)) ! و محمد يربط البراق ((دابته بالحلقة التى كانت تربط بها الأنبياء)) : و نعرف من التاريخ أنه لم يكن في زمن محمد لا هيكل و لا حلقة ، بل أطلال على أطلال . و حديث الشيخين يضع عيسى في السماء الثانية مع يحيى ابن خالته ، و يوسف في الثالثة ، و ادريس في الرابعة ، و هارون في الخامسة ، و موسى في السادسة و إبراهيم

في السابعة . مع أن القرآن جمع « إبراهيم و موسى و عيسى » معاً (الشورى ١٣) ، و ميّز عيسى عن سائر الرسل بأنه « كلمته ألقاها الى مريم و روح منه » (النساء ١٧١) فهل يكون كلمة الله و روح الله أدنى من سائر الرسل ، في السماء الثانية ؟! و ما هو هذا المعراج الحسّيّ كالسلّم يصل ما بين الأرض و السماء السابعة ؟ و هل يعقل أن يفرض الله على أمة محمد خمسين صلاة في اليوم ؟ و اذا فرض الله فريضة فهل يراجعه العبد فيها ؟ لقد استذوق القوم دس « الإسرائيليات » و أخذوا يتغنون بها !

و يا ليتهم اكتفوا بالإسراء النبوي الروحي الذي حصل لبعض المرسلين كبولس الرسول الذي « أُسرى به الى السماء الثالثة ، أبالجسد أم بدون جسد ، لست أعلم ، الله يعلم »، « قد أُسرى به الى الفردوس و سمع كلمات معجزة لا يحلّ لإنسان أن ينطق بها » (٢ كور ١٢ : ١ ـ ٤) . لكنهم ارادوا أن يستجمعوا لمحمد ما وزّعه الله على جميع الأنبياء : لقد شاهد ربه كما شاهده عيسى، وكلّم ربه كما كلّمه موسى، وصلّى مع الأنبياء وشهدوا له، كما صلى موسى و إيليا مع المسيح و شهدا له حين تجلّيه . و فاتهم تصريح القرآن : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ... » !

٢ ــ **أمّا الإسراء و المعراج بحسب القرآن** فقد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً . قال الزمخشري عن الحادث نفسه : « **و اختلفوا في وقت الإسراء** . فقيل كان قبل الهجرة بسنة . و عن أنس و الحسن أنه كان قبل البعثة » . فما معنى المعجزة قبل البعثة ؟ و كيف يكون أسمى الوحي في المعراج ، و لم يبعث محمد بعد ؟

« و اختلف في أنه كان **في اليقظة أم في المنام** . فعن عائشة: « و الله ما فُقد جسده ، و لكن عرّج بروحه » . و عن معاوية أنه عرّج بروحه . و عن الحسن **كان في المنام رؤيا رآها** . و أكثر الأقاويل بخلاف ذلك » ـ و هذه الخلافات تثير الشبهات على الحادث نفسه .

و قال الأستاذ دروزة [1] في هل يصحّ اعتبار الإسراء كما وصفه القرآن معجزة: « واذا ما دققنا في مدى آية الإسراء ، وجدنا أن الإسراء النبوي الذي أشارت اليه الآية **لم يكن جوابا على تحدٍّ ، و انما كان حادثاً خاصاً بالنبي** ﷺ ليريه من آياته . **و أنه لم يدركه و لم يشعر به غيره** . و استطعنا بالتالى أن نقول : **إنه لا يدخل في مدى اصطلاح المعجزة** ، و لا

---

(١) **سيرة الرسول** ، ١ : ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

يصح أن يُعدّ و الحالة هذه ناقضاً للموقف السلبي العام . و نصل الى النتيجة نفسها إذا ما دققنا في مدى آيات (النجم ١٣ ـ ١٨) التى قال بعض المفسرين إنها تضمنت خبر المعراج النبوي . و هذا بغضّ النظر عما هناك من **أقوال و روايات مختلفة في كيفية و ظروف الحادثتين** . حيث هناك روايات بأن كليهما **رؤيا منامّية** ، أو أنهما كانا في اليقظة و الجسد والروح أو بالروح دون الجسد . أو بأن الإسراء كان باليقظة و الجسد و الروح ، دون المعراج الذي كان مناماً أو كان بالروح . أو بأن **حادث المعراج النبوي لم يقع** ، و انما الواقع الثابت هو حادث الإسراء ، أو بأن الإسراء كان في وقت ، و المعراج في وقت آخر ، أو بأنهما كانا في ظرف واحد . و بأنهما وقعا في أوائل البعثة ، و في أواسطها ، بل هناك قول بأنهما وقعا قبل البعثة بسنة)) .

إن الخلاف قائم في أساس الحادث و فهمه ، **فهو مشبوه** ، و لا تقوم معجزة على مشبوه . و القرآن لا يذكر المعراج ، و لا يجعل الإسراء الليلى معجزة له .

٣ ـ و عندنا أن **الدلائل القرآنية تنقض المعجزة في الحادث ، و تنفى الحادث نفسه بمعناه الحسى .**

النص يقول حرفياً : ((سبحان الذي أسرى بعبده **ليلاً** من المسجد الحرام الى المسجد الاقصا)) . فالتعبير ((أسرى ليلاً)) يدل على أنه ((رؤيا منامية))، لا حادث تاريخي . والتعبير الآخر ((الى المسجد الاقصا)) ينقضه التاريخ العام ، فجميع التواريخ تشهد بأنه لم يكن في بيت المقدس ، على أيام محمد ، مسجد أقصى غير كنائس النصارى . و ما يسمى ((المسجد الاقصى)) بدأ بناءَه عبد الملك بن مروان . فإن هيكل سليمان ، الى الغرب من الصخرة الشهيرة ، كان قد هدمه الرومان في القرن الأول الميلادى ، في حرب السبعين ، ولم تقم له قائمة ، حتى بناه بنو أمية . فإلى أي مسجد أسرى بمحمد ؟ هل أسرى به الى كنائس المسيحيين ، و لم يكن في بيت المقدس حينئذ سواها ، ليرى فيها ((من آيات ربه الكبرى)) ؟

و اذا كان للإسراء في الآية **أساس لغوي** ، فليس في آيات (النجم ١٣ ـ ١٨) من أساس للمعراج على الإطلاق : فإنها تصف نزول القرآن على محمد في غار حرّاء، في ((ليلة مباركة)) ، ((ليلة القَدْر)) ، ((من شهر رمضان)) ـ فالقرآن كله ينقض قصة المعراج. ((تنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين)) (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٣) بوسيط ووسط . **فالتعابير الحرفية تنقض تعابير العروج و المعراج** . و ما توهموه فيها من عروج و معراج تنقضه الآية في

سورة الإسراء : « أو ترقى في السماء : **و لن نؤمن لرقيّك** حتى تنزّل علينا كتاباً نقرأه ! ـ قل : سبحان ربى هل كنت إلاّ بشراً رسولاً » (٩٣) . فتحدّيهم له ، و اقراره بعجزه يقضيان قضاءً مبرماً على أسطورة المعراج ، بصريح القرآن . و القرآن نفسه يشترك في تعجيز محمد عن أي فكرة عروج و معراج : « و إن كان كبر عليك اعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقاً في الأرض ، أو **سلّماً في السماء** ، فتأتيهم بآية » (الأنعام ٣٥) ـ فافعلْ : المعنى أنك لا تستطيع ذلك » (الجلالان) . قوله : « سُلّماً في السماء » هو تعريف حرفي بالمعراج ، و نقض مبرم لحدوثه.

و القرآن نفسه يعتبر أن « الإسراء » كان « **رؤيا للفتنة** » و التخويف ، مثل رؤيا شجرة الزقوم في قعر الجحيم : « و ما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلاّ فتنة للناس و الشجرة الملعونة في القرآن . و نخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » (الإسراء ٦٠) . ففى السورة كلها ليس من رؤيا إلا « أسرى ليلاً » ، فالاشارة في الآية (٦٠) تعود الى هذا الإسراء الذي تصفه السورة « **برؤيا منامية** » ، فليست بحادث تاريخي . يزيد ذلك يقيناً مقابلتها مع رؤيا شجرة الزقوم في قعر الجحيم ، و كلاهما **رؤيا للتخويف** ، لا للتحقيق : « و نخوّفهم » . أبعد صريح القرآن، نجرؤ على إقامة الأساطير ؟! وقوله « رؤيا، ونخوّفهم » يجعل تعبير « أسرى بعبده ليلاً » تعبيراً مجازياً ، لا أمراً واقعيّاً .

و جُلّ ما يقال في آية الإسراء إنها « **رؤيا منامية** » كالرؤيا المنامية التى رآها في المدينة بدخوله الحرم : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق : لتدخلُنّ المسجد الحرام ، إن شاء الله ، آمنين محلقين روؤسكم و مقصرين ، لا تخافون » (الفتح ٢٧) . فكلاهما رؤيا منام ؟ لكن القرآن يصرّح بأن الله « صدق رسوله الرؤيا بالحق » أى بالواقع في دخوله مكّة . لكن القرآن لا يصرح أبداً بتحقيق رؤيا الإسراء ، فظلّت طيف ليل .

و ليس لتلك الرؤيا المنامية معنى المعجزة و لا معنى المكاشفة .

فلو كان لآية الإسراء **معنى المعجزة** لكان النبي أعطاها كمعجزة كلما تحدّوه بمعجزة، و طالما تحدّوه . و السورة نفسها تردّ على تحدّياتهم بمعجزة (٩٠ ـ ٩٣) بالاقرار بالعجز عن كل معجزة : « قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً » (٩٣) و السورة نفسها تعلن منع المعجزة مبدئياً عن محمد: « و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (٥٩) . فهذان المنع الرباني و العجز المحمدي عن كل معجزة برهان قاطع أن ليس في « الإسراء » من معجزة . فسورة الإسراء نفسها تنفى الإِعجاز في الحادث ، و المعنى الحسّى فيه .

و ليس في « الإسراء » أيضاً شيء من **معنى المشاهدة أو المكاشفة** ، في قوله: « لنريه من آياتنا » (الإسراء ١) ، « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (النجم ١٨) . فما رواه الحاكم في (المستدرك) عن ابن عباس: « قال رسول الله ﷺ رأيتُ ربي عزّ وجلّ » ، فإن عائشة تكذّبه تكذيباً قاطعاً ، باسم القرآن نفسه : « مَن قال إن محمداً رأى ربه فقد كذب : ألا ترى إلى قوله : و لا تدركه الأبصار » ! و القرآن كله « تنزيل » من « لوح محفوظ » بواسطة جبريل : فهو تنزيل بوسيط ووسط ، لا وحي مباشر ، و لا تكليم ، و لا كشف ، و لا مشاهدة . فليس في رؤيا « آياتنا » (الإسراء ١) أو رؤيا « آيات ربه الكبرى » شيء من معنى المشاهدة أو المكاشفة في عالم الغيب ، إنما تقصد آيات عالم الشهادة أى الكون و الخلق، كما هو الأسلوب المتواتر في القرآن ، « أسلوب لفت النظر إلى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها على وجود الله » و توحيده ، كما يقول دروزة[1] ، أو كما يصرح القرآن نفسه : « سنريهم آياتنا **في الآفاق و في أنفسهم** حتى يتبين لهم أنه الحق » (فُصّلت ٥٣) . و أشد من ذلك وقعاً أن في السورة نفسها عتاباً لمحمد بأنه كاد يركن « شيئاً قليلاً » الى فتنة المشركين له عن الوحي (الإسراء ٧٣ ـ ٧٥) ، و الى فتنتهم له عن التوحيد الخالص (١١٠ ـ ١١١) ، فهذا الواقع المزدوج المرير لا يتفق مع المشاهدة أو المكاشفة « لآيات الله الكبرى » في ذاته أو في ملكوته السماوي ، و لا مع إسراء أو معراج !

هناك واقع قرآني لا يفطنون له : **إن آية الإسراء نفسها لا تمتّ بصلة الى السورة ،** فهي لا تمتّ الى ما بعدها بصلة ، حيث الآية التالية تبدأ قصة موسى . و روي الآية ذاته يختلف عن روي السورة كلها . و اختلافهم في زمن حدوث « الإسراء » دليل على أن آيته ملصقة بالسورة . يؤيد ذلك أن آية الإسراء لا تمت أيضاً الى ما قبلها بصلة ، لا في النسق الحالى (بعد سورة النحل) ، و لا في ترتيب النزول (بعد سورة القصص) . فآية الإسراء معلّقة بالسورة تعليقاً .

هل لنا أن نذهب الى أكثر من ذلك ؟ سمعت من بعض شيوخ العلم أن الحجاج بن يوسف ، عميل بنى أمية ، و الذي تمّ آخر اصدار للقرآن على يده ـ و ما أدراك ما الحجاج ! ـ قد يكون هو الذي دسّ الإسراء على السورة ، عند اصدار القرآن و إتلاف النسخ

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٦ .

العثمانية ، ليصرف حج أهل الشام الى بيت المقدس ، عن مكّة المكرمة حيث كانت الفتنة تفتنهم عن بنى أمية . و قد كانت السورة تسمى ((بني إسرائيل)) كما في الآية التى تستفتح قصص موسى (٢) ، على ما نقل البخاري عن ابن مسعود : ((قال النبي ﷺ إن بني إسرائيل و الكهف و مريم و طه و الأنبياء هن من العتاق الأوَل ، **و هن من تلادى**)) [٢] فصارت تسمى ((أسرى)) أو ((الإسراء)) . و نحن نقول : هذا تخريج قد يكون له دلائل ، لكن ليست له أخبار ثابتة .

فمن الثابت ، بالبراهين القرآنية التى قدمنا ، أن **ليس في آية الإسراء معجزة ، و لا حادثٌ تاريخي**. إنما ((الإسراء)) بنص الآية نفسها ((رؤيا منامية)) لم يحققها الواقع والتاريخ، كما حقق رؤيا دخول مكّة يوم الفتح الاعظم . و لا يقوم إعجاز التنزيل و لا معجزته على ((رؤيا منامية)) . و جُلّ ما في القصة أنها **تعبير مجازى** لاتجاه محمد في دعوته الى ((بيت المقدس ، مهبط الوحي ، و متعبّد الأنبياء)) .

ثالثاً : معجزة الغار

جاء في سورة (التوبة ـ براءَة) قوله : ((إلاّ تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين ، إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، **و أيّده بجنود لم تروها** . و جعل كلمة الذين كفروا السفلى . و كلمة الله هي العليا . و الله عزيز حكيم)) (٤٠) . ففى الآية إشارة الى حادث اختفاء الرسول مع أبي بكرٍ، في غار ((ثور)) ، جبل الى الجنوب من مكّة ، في طريق هجرتهما الى المدينة .

و في سورة (الأنفال) فسر عناية الله بالنبي بقوله : ((و اذ يمكر الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك . و يمكرون و يمكر الله ، و الله خير الماكرين)) (٣٠) . فقد أنجى الله محمداً بعنايته الخاصة . و ليس في الآيتين ذكر لمعجزات حسية جرت على فم الغار لحجب من فيه عن أعين المطاردين .

و قوله : ((**أيده بجنود لم تروها**)) يكفى لإبعاد كل معجزة حسية . لكن بعض أهل الحديث أتوا بجنود من الله محسوسة ملموسة : كنسيج العنكبوت على باب الغار ، و نماء شجرة على فمه ، و بيض الحمائم فيها . لكن **السُنَن الصحاح** لم يرد فيها ذكر لشيء من ذلك.

---

(٢) نقلا عن دروزة : **القرآن المجيد** ، ص ٦٨ .

و نجاة محمد و صاحبه من المطاردة إنما كان لمهارة محمد و صاحبه أبي بكرٍ في ذلك . جاءَ في السيرة لابن هشام : أن النبي يوم هجرته من مكّة أضجع عليّاً على فراشه ببردته ليوهم الناس انه لم يذهب . و أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما اذا أمسى ، في الغار ، كما أمر ابنه عبد الله أن يستطلع لهما أخبار قريش ، ثم يأتيهما اذا أمسى فيقص عليهما ما علم منها . فاذا غدا عبد الله من عندهما الى مكّة عفّى الراعي عامر بآثار الغنم على آثار عبد الله ابن أبي بكرٍ. هكذا ((يمكرون ، و يمكر الله ، و الله خير الماكرين)) . و حماية الله لمحمد في الغار ، ((**بجنود لم تروها**))، ليس حادثاً مشهوداً يمكن التحدّي به كمعجزة ، بنص القرآن القاطع .

و هنا تسعفنا السنن الصحيحة ، و سيرة ابن هشام التى وضعت بعد مئتى عام من الحادث : فجميعها لا تذكر شيئاً من المعجزات الثلاث التى اختلقوها .

و لو أن القرآن نفسه علم في الأمر معجزة لنوّه بها كلما تحدوه بمعجزة ، و لما سكت عنها الى آخر سورة (التوبة ـ براءَة ٤٠) . و ينسون على الدوام أن المعجزات منعت عن محمد منعاً مبدئياً مطلقاً (الإسراء ٥٩) ، و امتنعت عليه امتناعاً واقعياً مطلقاً (الإسراء ٩٣).

لذلك يرى العلماء ، و منهم الأستاذ دروزة ، أن ليس في حادث الغار من معجزة ، انما هو عناية ربانية : ((و الآية (براءَة ٤٠) تتضمن التنويه **بالعناية الربانية** بالنبي أولاً ، و بما كان من رباطة جأشه في هذا الموقف العصيب ثانياً ، ثم بما كان من أثر إفلاته ، ونجاحه ، و التحاقه بالمدينة ، في قوة الإسلام و انتشاره و كبت أعدائه)) .

فليس في الحادث عنصر من أركان المعجزة : لا حادث مشهود ، و لا معجز معهود، و لا تحدّ مقصود . إنما هي **حاجة الأمة للخوارق لإثبات النبوّة بالمعجزة ، لم يجدوها فخرقوها** . و الأساطير تحط من هيبة النبوّة ، و لا ترفعها .

رابعاً : معجزة ((الرمي)) في بدر

نزلت سورة (الأنفال) في ملابسات غزوة بدر ، التى كانت أول نصر في الإسلام . و جاء في وصفها :

((و إذا **يعدكم الله** احدى الطائفتين أنها لكم ، و تودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله أن يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين (٧) .

« إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم : إنى أمدكم بألف من الملائكة مردفين : و ما جعله الله **إلا بشرى** ، و لتطمئن قلوبكم . و ما النصر إلا من عند الله ... (٩ - ١٠) .

« إذا يغشيكم **النعاس** أمنة منه .

« و ينزل عليكم **من السماء ماء** ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان و ليربط قلوبكم و يثبت به الأقدام (١١) .

« إذ يوحي ربك الى الملائكة : إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى في قلوب الذين كفروا **الرعب** . فاضربوا فوق الاعناق ، و اضربوا منهم كل بنان (١٢) .

« فلم تقتلوهم ، و لكن الله قتلهم ! و ما رميت، إذ رميت ، **و لكن الله رمى** ، و ليُبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً : إن الله سميع عليم (١٧) .

« إذ يريكهم الله في **منامك** قليلاً، و لو أراكم كثيراً لفشلتم و لتنازعتم في الامر (٤٣).

« و إذ يريكموهم ، إذ التقيتم في أعينكم قليلاً و يقللكم في أعينهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . و الى الله ترجع الأمور » (٤٤) .

في هذا الوصف القرآني لمعركة بدر رأى المفسرون الأقدمون في قوله : « و ما رميت إذ رميت ، لكن الله رمى » **معجزة** قال الجلالان : « و ما رميت يا محمد أعين القوم اذ رميت بالحصى ، لأن كفّاً من الحصى لا يملأ عيون الجيش الكثير برمته بشر (و لكن الله رمى) بإيصال ذلك اليهم ، فعل ذلك ليقهر الكافرين » .

و قال البيضاوى : « **روي** أنه لما طلعت قريش من العَقَنْقل قال ﷺ : هذه قريش جاءَت بخيلائها و فخرها يكذّبون رسولك : اللّهم إنى اسألك ما وعدتنى . فأتاه جبريل و قال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها . فلما التقى الجمعان تناول كفّاً من الحصباء ، فرمى بها في وجوههم و قال : شاهت الوجوه ! فلم يبقَ مشرك إلاّ شُغل بعينه ، فانهزموا ، و ردفهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم .

« ثم لما أنصرافوا أقبلوا على التفاخر ، فيقول الرجل: قتلتُ و أسرتُ ! فنزلت: (وما رميت) يا محمد (إذ رميت) أتيت بصورة الرمي (و لكن الله رمى) أتى بما هو غاية الرمي ، فأوصلها الى أعينهم جميعاً ، حتى انهزموا و تمكنتم من قطع دابراهم .

« **و قيل** : معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ، و لكن الله رمى بالرعب في قلوبهم .

« **و قيل** : إنه نزل في **طعنة** طُعن بها أُبي بن خلف يوم أحد ، و لم يخرج منه دم ، فجعل يخور حتى مات . أو **رمية سهم** رماه يوم حنين نحو الحصن ، فأصاب ابن أبي الحقيق على فراشه . و الجمهور على الأول » .

و أنت ترى اختلاف القوم **أولاً** بموضوع الرمي هل هو حصباء ، أم طعنة سيف ، أم رمية سهم ، **و ثانياً** في زمن الحادث ، هل كان في بدر أم في أحد أم في خيبر ، أم في حنين. **و ثالثاً** هل كانت الحصباء التى رمى بها **من الأرض أم من السماء ؟** بعضهم قال : من الأرض ، و بعضهم من السماء كما « روى ابن جرير (الطبري) و ابن أبي حاتم والطبراني عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء الى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست . و رمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء فانهزمنا . فذلك قوله (و ما رميت اذ رميت) . و أخرج أبو الشيخ نحوه عن جابر و ابن عباس و لابن جرير من وجه آخر مرسلا مثله (**أسباب النّزول** ، للسيوطي) . فترى تهافت التخريج و التفسير .

لكن ليس للحادث المعنى المعجز الذي يتوهمون : فرمى الحصباء في وجه العدو ، مع الهتاف بالمعركة : « شاهت الوجوه » ! هو اشارة الى الزحف و الهجوم ، **على عادة القوم** . فهجم المؤمنون و هم قلّة ، على قريش و هم كثرة ، فهزموهم شرّ هزيمة ، لأنها كانت في نظر المسلمين مسألة حياة أو موت استبسلوا في سبيلها حتى الاستشهاد . **فليس للحادث معنى المعجزة** ، و ليس فيه عنصر من أركان المعجزة : فلا الحادث عمل معجز ، **و لا سبقه تحدٍّ** ليكون له صفة المعجزة ، **و القرآن نفسه لم يَرَ في الحادث معجزة له** . ففى السورة نفسها يتحدونه بمعجزة « إذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ! أو أئتنا بعذاب أليم » (٣٢) . فلا يردّ عليهم القرآن بمعجزة ، و لا يقدّم لهم معركة بدر ، و حادث الرمي ، كمعجزة . و في نظر المشركين ، لا معجزة و لا إعجاز : « و اذا تتلى عليهم آياتنا قالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا : إنْ هذا الا أساطير الأولين » (الأنفال ٣١) .

و فات القوم **تحليل الوصف القرآني** كله لمعركة بدر . إنه وصف صوفي يرى يد الله في أحداثها ، و تدخّل الله و ملائكته في وقائعها . و ما قصة « الرمي » إلا إحدى هذه الرؤى الصوفية للمعركة :

إمدادهم ((بألف من الملائكة مردِفين أي مترادفين متتابعين يردف بعضهم بعضاً ، وعدهم بها أولاً ثم صارت ثلاثة آلاف ، ثم خمسة كما في آل عمران)) (الجلالان) . و هذا التفاوت في تحقيق عدد الملائكة دليل على الرؤيا الصوفية ، لا على الرؤية الواقعية .

و النعاس الذي ((يغشاهم أَمَنَةً)) مما حصل لهم من الخوف قبل المعركة هو أيضاً عناية ربانية .

و المطر الذي ينزل عليهم فجأة ليستعيضوا به عن ماء بدر هو أيضاً تدخل رباني .

ثم وحي الله في أثناء المعركة للملائكة بإلقاء الرعب في قلوب المشركين ، و أمر الله إلى ملائكته ليضربوا المشركين فوق الأعناق و كل بنان . و هذا هو الحديث الغيبي كأنه محسوس !

ثم رؤيا محمد للمشركين في المنام قليلاً كي لا يفشل قومه من كثرة عددهم !

ثم ، في أثناء المعركة ، يتدخل الله مع الجيش بالرؤيا ليُري المسلمين عدوهم قليلا ويري المشركين عدوهم كثيراً ليتم القتال و النصر . فالرؤيا الغيبية تصبح شاملة .

في هذا الجو الحمآسي من **الرؤى الصوفية لأحداث المعركة** ، يجب أن نفهم مقالة الرمي : ((و ما رميت ، إذ رميت ، و لكن الله رمى)) ، مهما كان موضوع الرمى . فهي مثل قوله في الآية نفسها : ((**فلم تقتلوهم و لكن الله قتلهم**)) ! فهو رد على تفاخرهم بعد المعركة ، حيث ((كان الرجل يقول : قتلت و أسرت)) ! فقد قَتل مَن قَتل ، لكن في حقيقة الأمر ((**الى الله ترجع الأمور**)) (٤٤) . على ضوء هذا المبدإ فسّر القرآن أحداث المعركة و معنى ((الرمي بالحصباء)) ، و هو عمل مألوف إشارة الى الهجوم .

فليس في هذه الأحداث كلها المشهودة و الغيبية من حادث معجز ـ و الأحداث الغيبية المقرونة بالمشهودة برهان قاطع على أنها تحليل صوفي للمعركة .

فليس للرمى بالحصباء من معنى المعجزة شيء ! و لا من أركان المعجزة شيء! فلم يأتِ الرمى جواباً على تحدّ بالمعجزة ، و في السورة عينها لما تحدّوه بمعجزة لم يردّ عليهم ((بمعجزة الرمى)) !

خامساً : معجزة انشقاق القمر

نختم هذا البحث بذكرهم معجزة انشقاق القمر . فقد رأى بعضهم في مطلع سورة (القمر) معجزة خارقة : ((اقتربت الساعة ! و انشقّ القمر ! و إن يروا آية يعرضوا و يقولوا: سحر مستمر)) ! (١ - ٢) .

جاءَ الحديث فوثّق الخبر ، فتداولته الكتب الصحاح . و صحيح البخاري يجعل المعجزة بناء على طلب الكفّار . و مُسند أحمد يذكر المعجزة لكن لا يشير الى طلب الكفّار لها، فهي عنده خالية من **عنصر التحدّي** . و أكثر الروايات تؤيد أحمد في مسنده .

و في حديث البخاري أن أهل مكّة سألوا محمداً آية فانشق القمر بمكّة **مرتين** ! إنما حرف الآية يقول : ((**أتت الساعة** و انشق القمر)) . **فانشقاق القمر مرتبط بقدوم الساعة .** وإن ((الساعة)) في لغة الكتاب ، و في لغة القرآن ، **كناية عن يوم الدين** . و انشقاق القمر من أشراط الساعة . فليس هو حادث يجرى في حياة الرسول ، هذا بنص القرآن القاطع .

قال القرطبى في تفسيره : ((قال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعد . و هو منتظر . أي اقترب قيام الساعة و انشقاق القمر . و أن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره . و كذا قال القشيرى . و ذكر الماوردى : **إن هذا قول الجمهور**. وقال : **لأنه اذا انشق ما بقي أحد إلاَّ رآه ، لأنه آية و الناس في الآيات سواء .** و قال الحسن : اقتربت الساعة ، فإذا جاءَت انشق القمر بعد النفخة الثانية ... و قيل : ((و انشق القمر)) أى وضح الأمر و ظهر ، و العرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح . و قيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها ، كما يُسمى الصبح فلقا لانفلاق الظلمة عنه)) .

ففى نظر المفسرين المدركين ، تعبير ((انشق القمر)) إما **حقيقى** ، و هو من أشراط الساعة في اليوم الآخر ، و إما **مجازى** فليس فيه من حادث طبيعى .

و قال محمد عبد الله السمّان[٣] : ((و لو سلّمنا جدلا بأن الانشقاق قد حدث ، **فهل من العقل و المنطق بألاّ ترى الدنيا بأسرها هذا الانشقاق!** لأن القمر للدنيا كلها و ليس لمكّة وحدها ، إن هذا حدث ضخم ، و ليس بالأمر الهين اليسير . و لو حدث حقا لكان على

---

(٣) **محمد ، الرسول البشر** ، ص ٨٥ .

الأقلّ دونته **كتب التاريخ المعاصر** ، و تغنى به الشعراء المعاصرون و ما أكثرهم في جزيرة العرب يومئذ ».

و نقول : لو حدث شيء من مثل ذلك ، لآمن العرب من دون جهاد و قتال ، و لعرفه الفرس و الروم و آمنوا بالنبي العربي ، من دون فتوحات و حروب !

لا يسعنا إذن أن نرى في الآية القرآنية ، على نقيض حرفها و معناها ، حادثاً تاريخياً جرى على يد محمد معجزة له ! فهذا يناقض علم الفلك ، و ارتباط عالمنا الشمسى بجاذبية واحدة ، و ارتباط هذه الجاذبية الشمسية بالجاذبية الكونية . و لْنُفكِّر في ما يترتب على انشقاق القمر من أحداث و أخطار في مدار القمر كما في مدار الأرض ، في الهواء كما في البحر ، في النبات و الحيوان و الانسان .

إن انشقاق القمر **شرط من اشراط الساعة** : هذا كل ما في آية القرآن . و من الظلم للقرآن و العقل و العلم أن ننسب للقرآن ما هو منه براء .

تلك نماذج خمسة من المعجزات التى يستنبطونها للنبوّة في القرآن ، و تهافتها في ذاتها يقضى عليها قضاءً مبرماً . إنما هي الحماسة التى تدفع بالشعب و مَن يجاريه من العلماء بالحديث و التفسير ، الى استنباط معجزات من « **آيات متشابهات** » في القرآن ، لأنهم يشعرون بالفطرة ، مثل أهل مكّة أنفسهم ، أن المعجزة دليل النبوّة الأوحد ، « سُنّة الأنبياء الأولين » ، « السلطان المبين » من لدن الله ، و أنه لا نبوّة بدون معجزة . فإذا لم يجدوها في القرآن خرقوها بالحديث و التفسير .

و صريح القرآن هو بمنع المعجزة عن محمد منعاً مبدئياً مطلقاً (الإسراء ٥٩) ، وامتناع المعجزة عنه امتناعاً واقعياً مطلقاً (الإسراء ٩٣) . لذلك وقف المعتزلة قديماً بوجه الحماسة الشعبية تجاه أهل الكتاب ، و حماسة المحدثين و المفسرين ، بإعلانهم : لم يجعل الله القرآن دليل النبوّة . و علماء العصر في التفسير و السيرة ، اضطروا إلى أن يعلنوا موقف القرآن السلبي من كل معجزة ، و أن يصرّحوا مثل الأستاذ دروزة كما نقلنا : « إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة سيدنا محمد عليه السلام ، و برهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته »

أجل لم « يذكر القرآن لمحمد معجزات » على الإطلاق .

بحث رابع
التأييدات الربّانية للنصر في الحرب

« قلْ : يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم »
(السجدة ٢٩)

يعتبر بعضهم الفتوحات النبوية في الجهاد معجزات تدلّ على صحة النبوّة و صدق الدعوة ، لقوله : « و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة » (آل عمران ١٢٣) ، « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » (التوبة ٢٥) ، « إذا جاءَ نصر الله و الفتح ، فسبّح بحمد ربك » (النصر ١ و ٣) .

أجل مَن يؤمن بالله الرحمان الرحيم يؤمن بعنايته بخلقه . و هذه العناية الإلهية تشمل البشر أفراداً و جماعات . و كل إنسان له نصيب من فضل الله و لطفه و عطفه . فكم بالأحرى ينَعم بتأييد الله من يدعو الى سبيل الله ! فالدعاة لدين الله بصدق و إخلاص ، يشملهم الله تعالى بفضل خاص يمكنهم من دعوة الناس الى الصراط المستقيم .

لذلك لا شك ان الله آتى محمداً فضلاً عظيماً : « و كان فضل الله عليك عظيماً » (النساء ١١٣) ، كذلك « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » (الفتح ١) . و هذا ما يسمونه « التأييدات الربانية » في السيرة و الرسالة ، و يرون فيها معجزات قرآنية للنبي .

إن تلك التأييدات الربانية ، خصوصاً في الفتوحات النبوية ، قائمة لا شك فيها . و لكن هل يصح ، كما وهم بعضهم ، أن نجعل منها **معجزات خارقة** لسنن الطبيعة و النعمة ؟

و الجميع يعلمون أن **المعجزة** أمر خارق للطبيعة ، مقرون بالتحدّي ، سالم عن المعارضة . **فهل نجد هذه الاركان الثلاثة في الفتوحات النبوية ليصح اعتبارها معجزة ؟**

إن القرآن ، بعد عجز النبي عن معجزة حسية طول العهد بمكّة ، و بعد أن نسخ التحدّي بإعجاز القرآن في المدينة (آل عمران ٧) ، و جاء نصر الله في معركة بدر ، أخذ يرى في الفتوحات النبوية **آية** له على صحة رسالته و صدق دعوته . لكن القرآن لا يعتبرها معجزات من دلائل النبوّة ، كما سنرى .

أوّلاً : نصر الله في مواطن كثيرة

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » . منها هذه المواطن الأربعة الكبرى .

١ - « يوم الفرقان » في معركة بدر (الأنفال ٤١) .

يعتبر القرآن معركة بدر « فرقاناً » بين الإيمان و الكفر . ففيه ظهر الإسلام الجديد على خصومه مشركي مكّة. فهل يعتبر ذلك النصر معجزة إلهية ؟ وهل فيه شروط المعجزة ؟

نقلنا قوله فيها في (سورة الأنفال) . و رأينا أنه يعتبر مساعدة الملائكة ، و مساعدة الطبيعة من نعاس و مطر قبل المعركة ، و حنكة القائد يرمي الحباء لبدء القتال ، من آيات التأييد الرباني . لكن هذا التأييد لا يتخذ صفة المعجزة : فليس العمل بخارق للعادة ، قبل المعركة : « و إن فريقاً من المؤمنين لكارهون » (٥) ، « **يجادلونك في الحق ، بعدما تبيّن،** كأنما يساقون الى الموت و هم ينظرون » (٦) ، و يستغيثون ربهم من رعبهم (٩) ـ ليست هذه حال من يقبل على مشاهدة معجزة . و ليس من تحدٍّ بالمعركة لإثبات صحة الرسالة. و بعد المعركة نشبت بينهم الفتنة (٢٥) حتى حذرهم من الخيانة (٢٧) و اختلفوا في مصير الأسرى (٦٧) . و اختلفوا في قسمة الغنائم (١ و ٤١) و تنازعوا (٤٦) . ولو كان في المعركة شيء خارق للعادة لما قال بعضهم : « اذ يقول المنافقوق و الذين في قلوبهم مرض : غرَّ هؤلاء دينهم » ! (٤٩) .

و اختلاف التفسير الصوفي لأحداث الغيب يمنع من رؤية معجزة فيها . ففى (الأنفال) يقول : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم : إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » (٩) . لكن في (آل عمران) يقول ، تعزية لهم عن خذلانهم في معركة أُحد : « و لقد نصركم الله ببدر ، و أنتم أذلة ! فأتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن

يمدّكم ربكم **بثلاثة آلاف** من الملائكة منزلين ؟ بلى ، إن تصبروا و تتقوا ـ **و يأتوكم من فورهم هذا** ـ يمددكم ربكم **بخمسة آلاف** من الملائكة مسوَّمين » ! (١٢٣ ـ ١٢٥) . و في الحالين يعتبر الإخبار بذلك « بشرى » للاطمئنان ، لا معجزة للتحدّى (الأنفال ١٠ = آل عمران ١٢٦) . اختلاف في رؤيا الغيب ، و اختلاف في رؤية المشهود : « و اذ يريكموهم إذ التقيتم في **أعينكم قليلاً ، و يقلّلكم في أعينهم** ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » (الأنفال ٤٤). لكنه في (آل عمران) يقول : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله، و أخرى كافرة : **يرونهم مِثْلَيْهم** [٤] **رأي العين** . و الله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (١٣) ـ فهل كانت **الآية** في رؤية العدو « قليلاً » ، أم في رؤيته « مِثْلَيْهم لعبرة العين » ؟ يتطور التفسير الصوفي مع تطور الأحوال ، و ليس في ذلك شيء من المعجزة .

و لو رآي القرآن نفسه في نصر بدر معجزة لتحدّى بها المشركين كلما أحرجوه بمعجزة . و لو رأى العرب فيها معجزة لما ظلّوا يحرجون النبي بمعجزة ، بمثل هذا التحدّي الصارخ : « و اذ قالوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » (الأنفال ٣٢) . ولو رأى المنافقون من المسلمين في بدرٍ معجزة لما قالوا: « غَرَّ هؤلاء دينهم » ! (٤٩) . و لو كان نصر بدر معجزة ، لما تواعدوا عَلى اللقاء في بدر الأخرى و في أُحُد .

أجل لقد كان نصر بدر « فرقاناً » بين الحق و الباطل ، لكن هذا « الفرقان » لا يحمل شيئا من معانى الحادث المعجز ، و لا من أشراط المعجزة . نصر بدر بطولة ، لا معجزة .

٢ ـ يوم « الزلزال الشديد » في غزوة الخندق

كانت غزوة المشركين للمدينة و الرسول ، في يوم الخندق ، ذروة هجوم أهل الشرك، انتقل بعدها المسلمون الى الهجوم حتى فتح مكّة . لذلك رأى بعضهم أيضاً في معركة الخندق معجزة إلهية تؤيد الرسالة و الدعوة . لكن ليس في الحادث شيء من أركان المعجزة ،

---

(٤) فسره البيضاوى : « يرونهم مثليهم : يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين و كان قريب ألف؛ أو مثلي عدد المسلمين و كانوا ثلاثماية و بضعة عشر . و ذلك كان بعد ما « قللهم » في أعينهم حتى اجترأُوا عليهم و توجهوا اليهم . فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غُلبوا مدداً من الله تعالى للمؤمنين . أَو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين و كانوا ثلاثة أمثالهم » . فالتفسير الثاني « ثلاثة أمثالهم » ينقض حرف القرآن « مثليهم » و التفسير الأول هو الصحيح ، و تخريج البيضاوى للتعارض بين « يقللكم » و بين « يرونهم مثليهم » متهافت لا يستقيم .

بل « هناك ابتُلى المؤمنون و زلزلوا زلزالاً شديداً » (الأحزاب ١١) . و لم يتم النصر بمعركة ، بل تمَّ بفشل حصار المشركين للمدينة . لقد فوجىء المشركون ، في زحفهم على المدينة ، بالخندق الذي أشار بحفره سلمان الفارسي « النصراني » . و لا عهدة للعرب بمثلها. فوقفوا تجاهه جامدين .

و تم الفشل بهذين السببين : « يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءَتكم جنود ، فأرسلنا عليهم **ريحاً** ، و جنوداً **لم تروها** ، و كان الله بما تعلمون بصيراً » (٩) .

علق عليها الأستاذ السمّان[1] : « إن نزول الملائكة ، في حدّ ذاته ، لا يعتبر معجزة . لأن المعجزة أمر خارق للعادة يُجريه الله على يدي رسوله ، **و تراه العين للردّ على التحدّي** ، أو للدليل على أن رسالته حق . و الملائكة لم يرها الكفّار حتى تكون آية عليهم ، و لم يرها المسلمون حتى تكون تثبيتاً لإيمانهم. و لذلك أكد القرآن في الآية: (و أيدكم بجنود لم تروها).

« و الريح التى أرسلها الله في يوم الخندق ، من الحوادث العادية التى يمكن حدوثها في أية ساعة ، و إن كان الله عزّ وجلّ جعلها في هذه المرة وسيلة لهزيمة الأعداء » .

لكن السبب الأكبر ، بعد حفر الخندق ، في فشل الغزو كانت مهارة محمد في الايقاع بين الأحزاب ، كما نقلته سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق . فلما جاءَه نُعيم بن مسعود مسلماً ، أوصاه أن يكتم إسلامه وردّه إلى المشركين يوقع بينهم . و قال له : « إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » . فقام نعيم الى يهود بني قريظة ثم الى قريش و غطفان فأخلف بينهم . و قد كانوا توافقوا على أن يطبقوا من داخل و من خارج على المسلمين ، ففشلت خطّتهم . و أفلح محمد في فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة فتخاذلت و ارتحلت . و كان شعار محمد في هذه الدبلوماسية : « الحرب خدعة » . و هذا حديث صحيح متواتر رواه الشيخان من حديث جابر و أبي هريرة . لكن الخدعة في الحرب ليست معجزة .

فليس في فشل الغزو حادث خارق للعادة ، و لا سبق به التحدّي دليلا على النبوّة ، ولا هو سالم من المعارضة . كان براعة من محمد لا معجزة من الله . و قد يكون في الريح أو الجدري عناية إلهية ظرفية ، لا معجزة للتحدى و إثبات النبوّة .

---

(١) **محمد ، الرسول البشر** ، ص ٨٤ .

٣ ـ الفتح الأكبر ، فتح مكّة ، عاصمة الشرك العربي

بعد فتح مكّة نزلت سورة (الحديد) بنشيد النصر ، و جاء فيها : « لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات و أنزلنا معهم الكتاب و الميزان ليقوم الناس بالقسط ، **و أنزلنا الحديد** فيه بأس شديد ، و منافع للناس ، و ليعلم الله من ينصرُه و رسله بالغيب . إن الله قوى عزيز » (٢٥) .

لقد أخذ القرآن منذ نصر بدر يرى في « الحديد » أي السيف آيته الكبرى .

فهل في فتح مكّة حادث خارق للعادة ، سبق به التحدّي ، و هو سالم عن المعارضة ، حتى يصح ما زعمه بعضهم أنه معجزة النبوّة والرسالة ؟

قال محمد الغزالي[١] : « إن فتح مكّة جاءَ عقب ضربة خاطفة . و لقد أفلحت خطة المسلمين في تعمية الأخبار على قريش ، حتى بوغتوا في عقر دارهم بعشرة آلاف محارب ، فلم يجدوا مناصاً من الاستسلام ، فما استطاعوا الجلاد ، و لا استجلاب الأمداد » . لكن زعماء مكّة كانوا قد أدركوا الخطر . فخرج العباس بن عبد المطلب ، عمّ النبي ، يريد الإسلام ، و خرج زعيم مكّة أبو سفيان ، ابن عمّ محمد ، و عبد الله بن أبي أمية ، ابن عمة محمد ، يستدركان الأمور . فاستعرض أبو سفيان معسكر المسلمين فوجد أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ، فاستسلم و أسلم . و اجتمع بالعباس فقال له : « و الله يا أبا الفضل ، **لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً**. قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوّة ! قال: فنعم إذن » ! فأبو سفيان يرى في المشهد ملْكاً لا نبوءة . و سألوا محمداً الأمان لقريش ، فقال رسول الله ، كما في حديث صحيح : « مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! و مَن دخل المسجد فهو آمن ! و مَن أغلق عليه بابه فهو آمن » ! فذهب أبو سفيان ، قبل دخول الجيش مكّة ، ينادى فيها : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءَكم بما لا قِبَل لكم به ! **فتخاذل القوم** . ثم أخذ أبو سفيان يصيح بالناس : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! و من دخل المسجد فهو آمن ! و من أغلق عليه بابه فهو آمن » ! ـ فتفرق الناس إلى دورهم و إلى المسجد . فدخل جيش المسلمين مكّة آمنين مطمئنين ، بدون . إن فتح مكّة كان كثرة جيش ، و براعة مناورة ، وتخاذل قادة أمام حرب أهلية ، و عبقرية عسكرية من محمد ، لا معجزة من الله .

---

(١) فقه السيرة ، ص ٤١٩ .

هذا هو الواقع التاريخي . فليس الحادث في نفسه معجزاً . لكنه كان في معناه عظيماً : إنه الفتح الأكبر الذي فتح الحجاز و الجزيرة للدين الجديد . فليس في هذا الفتح الأكبر شيء من أركان المعجزة : فلا الحادث في ظروفه خارق للعادة ، و لا تحدّى به النبي دليلاً على نبوته ، و لا هو سالم عن المعارضة في تاريخ الفتوحات . و كلام الزعماء المسلمين الجدُد في هزيمة حنين يدل على أنهم لم يروا في فتح مكّة معجزة .

٤ ـ معركة حنين

وصفها القرآن بقوله : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، يوم حُنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغنِ عنكم شيئا ، و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت . ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين ، و أنزل جنوداً لم تروها ، و عذّب الذين كفروا ، و ذلك جزاء الكافرين » (التوبة ـ براءَة ٢٥ ـ ٢٦) .

تجمعت قبائل غطفان من الاعراب ، و قبيلة ثقيف من الطائف ، للذود عن نفسها في وجه ملْك النبوّة الزاحف . و اجتمعوا في وادي حنين ، يستقبلون جيشاً يفوقهم عدداً و عدة . ذلك أن المسلمين **بلغوا اثنى عشر ألفا** ، بمن انضم إليهم من أهل مكّة .

فلما توغلت المقدمة في الوادى أمطرهم المحاصرون على جنباتة وابلاً من السهام. فارتاع المسلمون وولوا الأدبار. وركبت الإبل بعضها بعضاً وهي مولية بأصحابها تطاردها خيل ثقيف وهوازن.

حينئذ انفجر ما في القلوب . فقال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! و قال كلدة بن الجنيد : ألا بطل السحر اليوم ! فأجابه صفوان بن أمية : صه ، فضَّ الله فاك ، فوالله لئن **يربّني رجل من قريش** أحب إلى من أن يربّني رجل من هوزان . فالقصة في نظرهم دولة لا نبوّة .

في هذه اللحظة التى فيها يتقرر المصير ، صعد محمد شرفاً يحف به بعض المهاجرين و بعض أهل بيته وصاح: « هلموا إليَّ ! أنا رسول الله ! أنا محمد بن عبد الله ! ».

ثم أمر العباس أن ينادي بصوته الجهير : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية ، فأدركه بعض الأبطال يشقّ الموج المتلاطم ، و قد اختلط القوم و ساد الهرج والمرج في قعر الوادى.

ووسط هذه الفوضى أنقذ محمد و من حوله الموقف . فارتدّ المسلمون على المشركين و قد صاروا جمعياً في وسط الوادي ، فهزموهم شرّ هزيمة .

و جاء وقت اقتسام الغنائم الكثيرة . فأجزل محمد العطاء لزعماء مكّة لتأليفهم ، فسمّوا ((المؤلفة قلوبهم)) و خمس الرسول وزعه على الأعراب . فارتاحوا الى الإسلام و مكاسبه .

إنه لموقف بطولي في الشجاعة و الكرم ! و لكن هل فيه معجزة ؟

قال الجلالان : ((أعجبتكم كثرتكم : **كانوا أثنى عشر ألفاً ، و الكفّار أربعة آلاف .**

فانهزم المسلمون أولاً ، و ثبت النبي ﷺ على بغلته البيضاء ، و ليس معه غير العباس و أبي سفيان . فرُدّوا الى النبي لما نداهم العباس بإذنه)) . موقف بطولي لكن ليس فيه من خارق المعجزات شيء .

قال البيضاوى : ((**و أنزل جنوداً لم تروها** ـ بأعينكم ، أي الملائكة ، و كانوا خمسة آلاف ، أو ثمانية ، أو ستة عشر ، على اختلاف الأقوال)) . هذا أمر غيبي غير مشهود ، فلا يصح التحدّي به . و ليس الملائكة بحاجة الى مثل هذا العدد الموهوم للقضاء على بشر !

فالنبي ، مثل كل مؤمن ينظر الى الأمور **نظرة صوفية** ، يردّ كل شيء في سيرته الى الله . و هذه المواقف البطولية يرى فيها يد الله ، و لكن ليس في النص القرآني ، و لا في الواقع التاريخي ، من ركن من أركان المعجزة .

و القول الفصل في معنى التأييد الرباني للنبي في تلك المواطن الكبرى من الجهاد والقتال هو نظر القرآن المتواتر فيها : ((فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً **لم تروها**)) (الأحزاب ٩) ، ((و أنزل جنوداً **لم تروها**)) (التوبة ٢٦) ، ((وأيده بجنود **لم تروها**)) (التوبة ٤٠). إن تأييد الله لمحمد كان ((**بجنود لم تروها**)) . فهذا التواتر في التعبير يدل على رؤية صوفية ((للتأييدات الربانية)) في سيرته و جهاده ، لا إلى معجزة مشهودة تحدّى بها فوقعت كما تحدّى بها . لذلك ليس في النصر بمواطن كثيرة من شروط المعجزة ، و لا من معناها ، شيء. فنص القرآن القاطع ((لم تروها)) يقطع عليها سبيل المعجزة .

ثانياً : فلسفة القرآن في الجهاد و النصر و الفتح

و هكذا فالنصوص القرآنية في البطولات الجهادية ، حيث ((نصرهم الله في مواطن كثيرة)) ، تشهد من ذاتها أنه لا معجزة فيها تحدى بها النبي للبرهان على صحة رسالته وصدق دعوته .

١ ـ لكن ميل القرآن إلى إسناد كل عمل إلى الله ، و هو المصدر و المعاد ، حمل بعض القوم الى رؤية معجزات في موقف البطولات . **و فلسفة القرآن** في الجهاد و النصر والفتح تشابهت عليهم . فالقرآن نفسه أخذ نصر بدر ، بعد عجز محمد عن كل معجزة حسية ، و بعد نسخ إعجاز القرآن كمعجزة (آل عمران ٧) يعتبر آية « الحديد » أى السيف (الحديد ٢٥) آيته الكبرى في رسالته .

لكن « من الجدير بالتنبيه أن آيات وقائع الجهاد النبوي **قد نزلت بعد الوقائع** ، ممّا يسوغ القول : إن الوقائع قد كانت بأمر النبي ﷺ و رأيه ، **و بدون وحي قرآني** كما هو شأن أكثر احداث السيرة النبوية » [1] . و هذا يُخرج وقائع الجهاد من شروط المعجزة : التحدّي بها قبل وقوعها .

كانت الدعوة بمكّة ، على طريقة الأنبياء الأولين ، « بالحكمة و الموعظة الحسنة » ، فصارت الدعوة بالمدينة عسكرية بالجهاد . و تشريع الجهاد مع المبدإ : « لا اكراه في الدين » لا ينسجمان . لنا على ذلك اسلام أهل مكّة أنفسهم : فلم يسلموا إلا بالفتح العسكرى . لكن بعد ذلك صح إسلامهم و فتحوا الدنيا للإسلام .

٢ ـ **و فلسفة الجهاد** في القرآن ، لا تسمح أن نرى فيه معجزة .

يقول : « كُتب عليكم القتال ، و هو كره لكم ! و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم، و عسى أن تحبوا شيئاً و هو شرٌّ لكم ، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون » (البقرة ٢١٦) . فكانوا يكرهون قتال قومهم .

و يقول : « فلمّا كتب عليهم القتال ، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ! و قالوا: ربنا ، لِمَ كتبتَ علينا القتال ؟ لولا أخّرتنا إلى أجل قريب » ؟ (النساء ٧٧). فلو كان في الجهاد معجزة إلهية لمَا خشى بعضهم الناس كخشية الله أو أشد خشية !

و يقول و يكرر : « و الفتنة أشد من القتل » (البقرة ١٩١ و ٢١٧) ، « و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين لله » (البقرة ١٩٣) . إن اتقاء الفتنة في الدين يكون بالإيمان لا بالقتال .

---

(١) دروزة : **سيرة الرسول** ٢ : ٢٢١ .

بدأ العهد في المدينة بقوله : « **لا اكراه في الدين** » (البقرة ٢٥٦) ، و ختمه بعد الفتح مكّة بقوله : « براءَة من الله و رسوله الى الذين عاهدتم من المشركين : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، و اعلموا أنكم غير معجزي الله ، و أن الله مخزي الكافرين ... فإذا انسلخ الأشهر الحرام ، **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ... » (التوبة - براءَة ١ - ٢ و٥) . فلم يشرع الجهاد للدفاع فقط ، بل للهجوم أيضاً و فرض الدين ، حتى التبرئة من كل عهد مع المشركين .

فقد فرض القتال ليظهر الإسلام على الدين كله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، و كفى بالله شهيداً » (الفتح ٢٨) ، « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ، و لو كره المشركون » (الصف ٩ ، التوبة ٣٣) . يتم هذا الاظهار بالجهاد و الفتح ، مع الدعوة بالقرآن . هذه هي فلسفة الجهاد في القرآن : فهل فيها معجزة إلهية ؟

٣ - ثم يقرن فلسفة الجهاد **بفلسفة النصر و الفتح** : « يا أيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على **تجارة** تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله و رسوله ، و تجاهدون في سبيل الله بأموالكم و أنفسكم ... يغفرْ لكم ذنوبكم و يدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، و مساكن طيبة في جنات عدن . ذلك الفوز العظيم . **و أخرى تحبونها نصر من الله ، و فتح قريب .** و بشر المؤمنين » (الصف ١٠ - ١٣) . الجهاد يفتح السماء ، و يفتح الأرض ، مع غنائم في الدارين . هذه هي البُشرى للمؤمنين . فالغنائم كانت هدفاً من أهداف الجهاد ، و تجارة دينية رابحة .

و يقول : « و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة : فاتقوا الله لعلكم تشكرون » (آل عمران ١٢٣) . فالنصر من الله يرفع الذل عن المسلمين ، و يوجب « الرضاء عليهم بقسمة الغنائم ، أو بتعبير أدق بفرز الخمس منها » لله والرسول[٢] ، « و إن الآيات تلهم أن الخلاف في صدد لغنائم ، إنما كان على فرز الخمس أكثر منه على طريقة التوزيع و مقداره ، لأن الكلام فيها مصبوب على ذلك ، **و أكثر ما جاء في صدد نصر الله و تأييده قد استهدف تشريع الخمس و ايجاب قبوله و الرضاء به** » . و يظل الفيء كله - أى ما استحوذوا عليه بدون قتال - للرسول وحده .

---

(٢) دروزة : **سيرة الرسول** ٢ : ٢٦٧ ، ٢٧١.

و يقول : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » (التوبة ٢٥) . لكن نصر الله لهم **مقرون بنصرهم لله** : « إن تنصروا الله ينصرْكم » (٤٧ : ٧) ، « و لينصرن الله مَن ينصره » (٢٢ : ٤٠) ، « و ليعلم الله من ينصره » (٥٧ : ٢٥) .

و الفتح مقرون بمغفرة ذنوب النبي : « إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (الفتح ١ ـ ٢) . مهما كان الذنب المتقدم و الذنب المتأخر ، فإن الغفران منه مقرون بالفتح : فهل في الفتح من ذنب يقتضى الغفران ؟

و في (أسباب نزول) آية التوبة: « و منهم من يقول : ائذنْ لى و لا تفتنّي » (٤٩) نقل السيوطي : « أخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : **أغزوا تغنموا بنات الأصفر !** فقال ناس من المنافقين : إنه ليفتنكم بالنساء ! فنزلت » .

و آخر ما نزل من القرآن على قول بعضهم سورة النصر : « إذا جاءَ نصر الله والفتح، و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك ، و استغفره ، إنه كان تواباً » . نفهم الأمر بالتسبيح لله إذا جاءَ نصر الله و الفتح ؛ لكن لا نفهم الأمر بالاستغفار بعد نصر الله و الفتح ؟ و هذا الأمر بالاستغفار ، بعد النصر و الفتح ، في آخر القرآن ، يجعل آية الحديد و السيف **مشبوهة** . فليس في فلسفة الجهاد و النصر و الفتح من معجزة إلهية : « قل: يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم » (السجدة ٢٩) .

أجل إن الفتوحات النبوية كانت بطولات : لكن « التأييدات الربانية » فيها لم تكن معجزات .

و المبدأ القرآني القاطع أن المعجزات منعت عن محمد منعاً مبدئياً وواقعياً ، يمنع أن نرى في إشارة القرآن إلى تلك « التأييدات الربانية » معجزة . قال الأستاذ دروزة[٣] : « أما التأييدات الربانية للنبي ﷺ و المسلمين التى تضمنت أخبارها آيات قرآنية عِدّة ، مثل آيات سورة الأنفال (٩ ـ ١٣) و مثل الذي جاء في سورة الأحزاب (٩) فإنها ، **كما هو ظاهر من نصوصها و روحها** ، لا تدخل في عداد معجزات التحدّي . و بالتالى فإنها ليس من شأنها نقض **الموقف السلبي العام** الذي تمثله الآيات القرآنية » .

---

(٣) **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

فليس في الوقائع الجهادية ، و لا في « التأييدات الربانية » للنصر في الحرب ، من معجزة أُعطيت برهاناً على صحة النبوّة و الدعوة . و الواقع القرآني المتواتر أن السور التى تذكرها نزلت بعد الوقائع الجهادية ، فارتفعت بذلك صفة التحدّي بالمعجزة .

إن الجهاد آية محمد ، و فيه تأييد ربّاني ، لكن ليس فيه معجزة من الله تشهد للنبوّة .

بحث خامس

الآيات البيّنات التى يذكرها القرآن

لقد ثبت لنا أنه ليس في القرآن ، أي في السيرة و الدعوة ، من معجزة حسية ، « ومن المتأكد أنه ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح » [٤] على ادعاء معجزة لمحمد .

أمام هذا الواقع القرآني المذهل ـ و المعجزة دليل النبوّة الأوحد ـ يتساءل بعضهم : كيف ينكرون على القرآن و نبيه المعجزات ، و هو الذي يصرّح بتواتر : « و لقد أنزلنا إليك آيات بيّنات » (البقرة ٩٩) . و يردّد ذلك في كل سورة (البقرة ١١٨ و ١٥١ ، الأنعام ٤ و٥ و ٢٥ و ٤٩ و ٥٥ ، الأعراف ١٨٢ ، يونس ١٥ و ٢٠ ، الأنبياء ٣٧ ، الأنفال ٣١ ، الحج ٧٢ الخ) .

أجل يردّد القرآن أن محمداً أُوتي « آيات بيّنات » ، لكنها آيات قرآنية خطابية ، لا معجزات حسية كالأنبياء الأولين .

ففى القرآن ، أن تعبير « آية » ، « آيات » هو من كلماته المتشابهة (آل عمران ٧). فهو يأخذ تعبير « آيات » **بمعانٍ ثلاثة :**

المعنى الأول عبارة عن أقوال الكتاب و القرآن .

---

(٤) محمد عبد الله السمان : **محمد ، الرسول البشر** ، ص ٢١ .

المعنى الثاني عبارة عن خوارق الكون و عجائب المخلوقات .

المعنى الثالث عبارة عن المعجزات الحسية . و هي « الآيات » المعجزات حصراً .

و يظهر المعنى المقصود من القرائن اللفظية و المعنوية القريبة و البعيدة . و القرآن كله شاهد عدل على أن « الآيات البيّنات » التى ينسبها القرآن لنفسه و لنبيه هي **آيات خطابية لا معجزات حسية** ، بسبب موقفه السلبي العام من كل معجزة ، و بسبب تصريحه القاطع أن المعجزات منعت عن محمد منعاً مطلقاً : « و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (الإسراء ٥٩) .

ففى سورة (البقرة) يأتي التعبير « آيات بيّنات » بالمعانى الثلاثة . فهو قد يعنى خوارق الطبيعة : « إن في خلق السموات و الأرض ... لآيات لقوم يعقلون » (١٦٤) . وقد يعنى التعبير عند إسناده لموسى و عيسى معنى المعجزات : « و لقد جاءكم موسى بالبيّنات » (٩٢) أى « المعجزات كالعصا و اليد و فلق البحر » (الجلالان) ، و هو مثل قوله : « سلْ بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة » (٢١١) . كذلك بالنسبة إلى عيسى : « و آتينا عيسى ابن مريم البيّنات ، و أيدناه بروح القدس » (٨٧ و ٢٥٣) . لكن إذ ينسب « الآيات » إلى محمد ، فالقرآن يشير الى أنها آيات خطابية ، كما في هذا الجدول: (في شرعة الطلاق) « ولا تتخذوا آيات الله هزواً ، و اذكروا نعمة الله عليكم و ما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمة يعظكم به » (٢٣١) ، « و قال الذين لا يعلمون (المشركون) : لولا يكلمنا الله ـ أو تأتينا آية (معجزة) ؟ ـ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم : قد بيّنا الآيات لقوم يؤمنون ، إنّا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً » (١١٨ ـ ١١٩) : ففى التحدّي و في الجواب يظهر معنيان لكلمة « آيات » ، فهم يتحدّونه بمعجزات ، فيجيب ببيان آيات الحق بشيراً و نذيراً . و رسالة محمد كلها تظهر في قوله : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم **يتلو عليكم آياتنا ، و يعلمكم الكتاب و الحكمة** ، و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (١٥١) . فالآيات البيّنات عند محمد تعليمية ، لا معجزات عملية حسية .

كذلك في سورة (آل عمران) نجد المعانى الثلاثة لتعبير « الآيات » . إنها خوارق الطبيعة : « إن في خلق السماوات و الأرض، و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولى الألباب » (١٩٠) . إنها معجزات الأنبياء الأولين : « قال (زكريا) : ربّ اجعلْ لى آية ! ـ قال : آيتك

ألاّ تكلّم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزاً » ! (٤١)، والآية ، أو الآيات هي معجزات عيسى: « إنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ... » (٤٩) . لكن بالنسبة إلى محمد فآياته خطابية : « منه (القرآن) آيات محكمات هن أم الكتاب ، و أخر متشابهات » (٧) ، « قد بيّنا لكم الآيات » (١١٨) ، « و كيف تكفرون و أنتم تُتلى عليكم آيات الله و فيكم رسوله ... » (١٠١) ، و رهبان عيسى « يتلون آيات الله آناء الليل و هم يسجدون » (١١٣) . و حملته المتواصلة على الذين « كفروا بآيات الله » (٤) : « مَن يكفر بآيات الله » (١٩) ، « يكفرون بآيات الله » (٢١ و ١١٢) ، « تكفرون بآيات الله » (٧٠ و ٩٨) ، « لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً » (١٩٩) ، هي حملة على الكافرين بآيات خطابية ، لا بآيات المعجزات الحسية .

كذلك في سورة (الأنعام) نجد المعانى الثلاثة: فالآيات هي عجائب المخلوقات: « الحمد لله الذي خلق السماوات و الأرض ... و ما تأتيهم من آية من ربهم إلا كانوا عنها معرضين » (١ ـ ٤) ، « إن الله فالق الحب و النوى ، يخرج الحى من الميت ... و هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ... و هو الذي أنزل من السماء ماء ... إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٩٥ ـ ٩٩) .. و الآيات هي أيضاً المعجزات التى يتحدّون محمد بها: « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك ـ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها » (١٥٨) ، فيعجز عنها . « و إن كان كبر عليك أعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء ، فتأتيهم بآية » ! (٣٥) بسبب « إنما الآيات عند الله » (١٠٩) . لكن بالنسبة إلى محمد فالآيات البيّنات هي خطابية: « كذلك نصرِّف الآيات » (١٠٥) ، فهو من الذين « يقصون عليكم آيأتي » (١٣٠)، فانظر « كيف نصرف الآيات » (٤٦ و ٦٥) . و يحمل على الذين « يخوضون في آياتنا » (٦٨) ، « يصدفون عن آياتنا » (١٥٧) ، « كذبوا بآياتنا » (٣٩) ، « و الذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب » (٤٩) ، يتبعون « أهواء الذين كذبوا بآياتنا » (١٥٠) ، « عن آياته تستكبرون » (٩٣) . لا معجزة عند محمد ، بل دعوة ، لذلك « إذا جاءَتهم آية (خطابية) قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » (١٢٤) .

كذلك في سورة (الأعراف) نجد المعانى الثلاثة . يذكر عجائب المخلوقات و يختم بقوله: « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » (٥٤ ـ ٥٨) ، و يذكر عناية الله بآدم ويقول:

« ذلك من آيات الله » (٢٦) . و بالنسبة إلى الأنبياء الأولين يأتي تعبير « الآيات » بمعنى أقوال الله : « يا بني آدم ما يأتينّكم رسل منكم يقصّون عليكم آيأتي ، فمن اتقى و أصلح فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون ، و الذين كذبوا بآياتنا و استكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٣٥ ـ ٣٦) ، و بمعنى معجزات الأنبياء : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد و القمل و الضفادع و الدم **آيات** مفصلات ، فاستكبروا و كانوا قوماً مجرمين » (١٣٣) ، « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون و ملئه » (١٠٣) . و بيّناته آياته (١٠٥ ـ ١٠٦) . و سحرة مصر بعد معجزات موسى يخاطبون فرعون : « وما تنقم منا إلاّ أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » (١٢٦) . لكن بالنسبة إلى محمد « فالآيات » التى يتحدونه بها هي معجزات : « و إذا لم تأتهم بآية ، قالوا : لولا اجتبيتها » (٢٠٣) . فيجيبهم **بآيات الأقوال** ، كالقصص : « إن الذين كذبوا بآياتنا و استكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء » (٤٠) ، « و الذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ... أوَلم يتفكروا ما بصاحبهم من جنّة ، إنْ هو إلا نذير مبين » (١٨٢ ـ ١٨٤) ، و يردّ على التحدّي بمعجزة (٢٠٣) بهذا القرآن : « قلْ : إنما أتبع ما يُوحى إلى من ربي : هذا بصائر من ربكم و هدى و رحمة لقوم يؤمنون » (٢٠٣) . فمعجزات محمد آيات أقوال ، لا آيات أعمال خارقة العادة .

كذلك في سورة (يونس) ترد كلمة « الآيات » بمعناها الثلاثى . إنها خوارق الكون : « إن في اختلاف الليل و النهار ، و ما خلق الله في السماوات و الأرض ، لآيات لقوم يتّقون » (٦) . و يفصّل آيات الخليقة و يختم بقوله : « يفصّل الآيات لقوم يعلمون » (٥) . و إنها أقوال « الكتاب الحكيم » (١) و القرآن الكريم : « و إذا تتلى عليهم **آياتنا بيّنات** ، قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائتِ بقرآن غير هذا ، أو بدّلْه ... قل لو شاء الله ما تلوته عليكم » (١٥ ـ ١٦). فليس عند محمد سوى أقوال الكتاب والقرآن، لذلك يتحدونه بمعجزة حسية: « ويقولون: لولا أُنزل عليه آية من ربه ! ـ فقلْ : إنما الغيب لله ! فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » (٢٠) . و يحمل على الذين « عن آياتنا غافلون » (٧) الذين « لهم مكر في آياتنا » (٢١)، و عند قصص القرآن هم « عن آياتنا لغافلون » (٩٢) . فتجد دائما **تعبيراً متشابهاً ، وموقفاً سلبياً** من المعجزة ، واحداً .

كذلك في سورة (الإسراء) تظهر كلمة « الآيات » بمعناها الثلاثى : إنها عجائب الله في كونه : أسرى بعبده « لنريه من آياتنا » (١) ، « و جعلنا الليل و النهار آيتين : فمحونا آية الليل

و جعلنا آية النهار مبصرة » (١٢) . و إنها عند الأنبياء الأولين المعجزات الحسية دليل النبوّة : « و لقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات » (١٠١) . فالأنبياء الأولون يجمعون الى الأقوال المعجزة أعمالهم المعجزة . لكن عند محمد ليست « الآيات البيّنات » سوى أقوال بيانية، و ذلك لأن **المعجزات منعت عنه منعاً مبدئياً مطلقاً** : « و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (٥٩). ولو كذبوا بها ، فقد كانت براهين الله على صحة نبوتهم. وتحدّوا محمداً بمثلها ، «وقالوا لن نؤمن بك حتى...» ، فعجز وأقرّ بالعجز : « قلْ : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً » (٩٠ - ٩٣) .

و في سورة (العنكبوت) يتحدّونه بمعجزة : « و قالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه » ! (٥٠) ، فيعجز عن التحدّي ، و يقدم آيات القرآن : « قل : إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ! أوَلم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ » (٥٠ ـ ٥١) ، فيكفر بها المشركون : « و ما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » ! (٤٧) ، و يسعى في ابطالها اليهود ، « إذاً لارتاب بها المبطلون » (٤٨) ، و لا يقبل بها إلا النصارى أولي العلم ، من دون اليهود الظالمين : « بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ، و ما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » (٤٩) . فحتى آخر العهد بمكّة ليس عند محمد من آية سوى القرآن : « أوَلم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » ! (٥١) .

و في سورة (الرعد) ، إن « الآيات البيّنات » هي عجائب المخلوقات ، فالله « يدبر الأمر ، يفصّل الآيات » (٢) في كونه العجيب: « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣)، « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٤) . و هي أيضاً المعجزات التى يتحدونه بها: « ويقول الذين كفروا : لولا أُنزل عليه آية من ربه » (٧ و ٢٧) ، و يعددون له منها : « و لو أن قرآنا سُيّرت به الجبال ، أو قُطعت به الأرض ! أو كُلم به الموتى » ! فيجيب جواب العجز واليأس : « بل لله الأمر جميعاً ! أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » ! (٣١) . تجاه هذا العجز المشهود المعهود ، « يقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قل كفى بالله شهيداً بينى و بينكم ، و من عنده علم الكتاب » (٤٣) . إن شهادة النصارى أولي العلم له مشبوهة عندهم لأن دعوته من دعوتهم ، و شهادة الله لأنبيائه هي المعجزة ، و ليس عند محمد من معجزة !

و في سورة (الحج) ، « الآيات البيّنات » ليست المعجزات ، بل آيات القرآن: « وكذلك أنزلناه آيات بيّنات، و إن الله يهدى من يريد » (١٦)، فلا يقبلونها كمعجزة: « وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر » (٧٢) ، « سعوا في آياتنا معاجزين » (٥١) ، لأنها أقوال بيانية ، لا معجزات حسية يطلبونها منه فمثل الأنبياء الأولين .

و ظلّ حتى النهاية لا يعطى في « الآيات البيّنات » سوى أقوال بيانية لا معجزات عملية كالأنبياء الأولين : فالمشركون « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله » (التوبة ٩) ، « و يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ! ـ قل : استهزئوا ، إن الله مخرج ما تحذرون ، و لئن سألتهم ليقولُنَّ : إنا كنا نخوض و نلعب ! ـ قل : أباللهِ و آياته و رسوله كنتم تستهزئون » ؟ (التوبة ٦٤ ـ ٦٥) .

و هكذا فأهل مكّة و المدينة و العرب أجمعين لم يروا في « الآيات البيّنات » في القرآن سوى أقوال خطابية من سحر البيان ، لا أعمالاً معجزة كالأنبياء الأولين .

و القرآن نفسه لا يعطى « آياته البيّنات » كمعجزات حسية ، بل « تنزيل الكتاب » . لكن **تواتر المعانى الثلاثة في تعبير « الآيات البيّنات »** هو الذي القى عليها شبهة المعجزات .

قبل سورة (آل عمران) قد يُفهم التشابه في التعبير القرآني . لكن بعد أن صرّح أن في القرآن آيات « متشابهات » (آل عمران ٧) ، ما كان له أن يُبقي على التشابه في معنى « الآيات البيّنات » .

و هذا التشابه المتواتر في القرآن كله لمعنى « الآيات البيّنات » ، هو الذي جعل بعضهم يشتبه بين المعجزة و بين الخطابة و البيان . لكن ، ليس في « الآيات البيّنات » التى ينسبها القرآن إلى نفسه أو إلى نبيّه ، من معجزات حسية كالأنبياء الأولين . إنما هي أقوال في الهدى و البيان . و ما كان لمحمد أن يأتيهم بمعجزة كالأنبياء الأولين ، فإن المعجزات قد منعت عنه منعاً مبدئياً قاطعاً (الإسراء ٥٩) . و قد أقر القرآن نفسه بتعجيز محمد و عجزه عن كل معجزة (الأنعام ٣٥) .

بحث سادس

موقف القرآن السلبي من المعجزة ،
و فلسفته عند أهل عصرنا

لقد ثبت ثبوتاً قاطعاً للعلماء المسلمين موقف القرآن السلبي من كل معجزة تشهد له . و ثبت أيضاً أن ما ورد في الحديث و السيرة من معجزات لمحمد ينقضه صريح القرآن نقضاً مبرماً ، و أن ما رأوا من معجزات في الجهاد كان بطولات لا معجزات ، و أن ما ذكره القرآن من ((آيات بيّنات)) فيه هي آيات خطابية ، لا أعمال معجزة . فمن يرى في ذلك معجزة يكذب على النبي ، و القرآن يكذّبه .

و برز لعلماء عصرنا **المشكل الضخم** ، ما بين ضرورة المعجزة لصحة النبوّة ، وبين موقف القرآن السلبي من كل معجزة له . فكان لا بدّ لهم من فلسفة ، فلم يجدوا سبيلاً إلاّ بنقض احدى المقدمتين من القياس ، ليسلموا من حتمية النتيجة أن النبوّة المحمدية بلا معجزة . فسار بعضهم على خطة أهل الإعجاز ان ((القرآن وحده معجزة محمد)) ، متناسين قول المعتزلة ((إن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوّة)) ، و بعضهم رأى الخلاص بنقض المقدمة الكبرى : ليست المعجزة بلازمة لصحة النبوّة ، و قد جاءَ القرآن بما يغنى عنها ، بل بأفضل منها .

و نحن ندرس في هذا البحث أولاً تاريخ فلسفة أهل العصر في النبوّة و المعجزة ، ثانياً عرْض نظرياتهم الجديدة في ((**أساليب القرآن الجديدة**)) في النبوّة ، التى تقوم مقام المعجزة . و قد نلجأ الى تكرار بعض الاستشهادات للتذكير و التقرير ، و لإعطاء نظرة شاملة جامعة .

أوّلاً : من تاريخ فلسفة أهل العصر في النبوّة و المعجزة

١ ـ بدأ النقد الذاتي الحر الجرىء ، تجاه تحدّيات العلوم القرآنية و التاريخية في عصرنا ، الأستاذ حسين هيكل في (حياة محمد) . لاحظ تأثير العصر في العنوان نفسه ، حيث يقول ((حياة)) بدل ((سيرة)) . و قد أثار الكتاب ضجة كبرى بين بعض علماء الأزهر. لكنه وجد في

شيخ الأزهر فضيلة مصطفى المراغى سنداً لـه في « تقديم الطبعة الثانية » (ص ٥٠ ـ ٥١) حيث يقول : « و من الحق ان المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي ﷺ حداً دعا الدعاة فيهم الى **اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث و الروايات ...** و لقد كان ﷺ حريصاً على أن يقدّر المسلمون انه بشر مثلهم يوحى اليه ، حتى كان **لا يرضى أن يُنسب اليه معجزة غير القرآن** ، و يصارح أصحابه بذلك ... **فالقرآن وحده معجزة محمد** » . ما أجمل و أصدق وأصرح هذا التقرير من شيخ الأزهر المسؤول .

٢ ـ أمّا الأستاذ حسين هيكل فيقول[٥] : « فقد أضافت أكثر كتب السيرة الى حياة النبي ما لا يصدقه العقل ، و لا حاجة اليه في ثبوت الرسالة » . ثم يقول : « **إن كتاب الله هو وحده معجزة محمد** » . و هو قول السلف من أهل الإعجاز . هذا التقرير الجامع المانع يقضى على كل معجزة يرونها في القرآن ، أو يختلقونها في الحديث و السيرة . و يختم بقوله: « **فحياة محمد حياة انسانية بحتة** بلغت أسمى ما يستطيع الإنسان أن يبلغ . و لقد كان ﷺ حريصاً على ان يقدّر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى اليه ، حتى كان **لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن** ، و يصارح أصحابه بذلك ... و هذا الذي جرى عليه النبي ... هو ما حال بين كثير من علماء المسلمين و كتابهم و الوقوف **عند ما أضيف الى سيرة النبي من خوارق** وضعها بعض الغلاة مضاهاة لما ورد في القرآن عن عيسى و موسى ، أو دسها (في الحديث) من دسوا الإسرائيليات على الإسلام و نبيه ، ليزيفوا بها العقائد ، و ليبعثوا بها الشك الى نفوس من يؤمنون بأن سُنّة اللهِ لن تجد لها تبديلا . **و ما كان محمد بحاجة الى الخوارق لإثبات رسالته** » . و سنرى جدلية هذا التصريح الأخير عن قريب ، نسجل الآن انكاره لكل معجزة حسية تُنسب إلى محمد .

٣ ـ و في (سيرة الرسول) عقد الأستاذ دروزة [٦] فصلاً قيماً في « موقف القرآن السلبي من المعجزة » ـ نقلناه في بحث سابق . و يعقب عليه بقوله : « بقيت **المعجزات المروّية** ، و خاصة التى وقعت في مكّة بناء على تحدى الكفّار . و نعتقد أنّا على صواب ، إذا قلنا : **إن سكوت القرآن عنها ، مع كثرة تحدّي الكفّار ، و اقتصار الأجوبة القرآنية على السلب** ، لا

---

(٥) **حياة محمد** ، ص ١٤ و ١٥٧ ـ ١٥٨ و ٣٧٧ و ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .
(٦) **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٣ ـ ٢٢٦ .

يمكن أن يشجّعا على التسليم بصحتها . هذا إلى أن الروايات غير متواترة و لا وثيقة . وكثير منها ، إن لم نقل أكثرها ، لم ترد في المدوَّنات القديمة ، **الى ما فيها من تخالف كبير** في الوقت نفسه)) .

ثم يخلص إلى هذا التصريح الضخم : ((و هذه النواحي الايجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة **لحكمة ذلك الموقف السلبي** ، بحيث يصح أن يستلهم منها و أن يقال - و قد المح إلى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً - **إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام** و برهاناً على صحة رسالته و صدق دعوته ، التى جاءَت **بأسلوب جديد** : هو أسلوب لفت النظر إلى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها ... **ثم أسلوب مخاطبة العقل و القلب ...** (جعلها) في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات)) . سنرى جدلية و حقيقة هذا ((الأسلوب الجديد)) في النبوّة و المعجزة .

٤ - و في كتابه الحرّ الجرىء (محمد الرسول البشر) ، يقول الأستاذ عبد الله السمان[٧] و قد نقلنا شهادته كاملة في بحث سابق - ((لقد غرم كثيرون من المسلمين بأن يحوّطوا شخصية الرسول بهالة كبرى من الخوارق ، منذ أن حملت به أمه ، إلى أن لقي ربه ، و بلغ الغلو بهم درجة لا تطاق. **ومن المتأكد أنه ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح**)) .

و يقول عن مصادرهم ، في السيرة : ((و هذه الكتب على كثرتها لا يجوز أن تكون مرجعاً أصيلاً في هذا الصدد ، لأنها كتبت في عصور **لم يكن النقد مباحاً تماماً فيها**)) ، وفي الحديث : ((**أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود** - كما يقول الدار قطني أحد جامعي الحديث المعروفين)) .

ثم يقول عن كتبة السيرة من المتقدمين و المحدثين : ((إن كثيراً من العلماء الدينيين السابقين حرصوا على أن يكون لمحمد **معجزات مشهورة ، حتى لا يكون أقل قدراً من غيره من إخوانه الرسل** ، صلوات الله عليهم أجمعين . و هؤلاء لهم عذرهم ، فقد راحوا يجمعون الأحاديث صحيحها و ضعيفها و موضوعها ، دون ما نظر الى ان هذه القضية إنما

---

(٧) **محمد ، الرسول البشر** ، ١٠ و ١٣ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ١١٣ .

تحتاج إلى أخبار معتمدة : **و ليست هناك آية قرآنية صريحة في القضية ، و لا حديث واحد متواتر**)) **.**

و يختم بقوله في المعجزات المنسوبة الى النبي : ((ان كتب الأحاديث و كتب السيرة قد استوعبت **آلاف المعجزات،** ومنها ما بلغ الى درجة التطرف الذي يفرض علينا **الضحك ... و الأحاديث المعتمدة معدودة على الأصابع ، و كلها آحادية لا تقطع بخبر ...** و كتّاب السيرة جميعاً عنوا عناية كبرى بأمر الخوارق ليؤكدوا أن للرسول آلافاً ، بل **عشرات الآلاف من المعجزات .** و هذه المعجزات أم اعتقادي ، لا بدّ لتصديقها من خبر قطعي ، **و ليست هناك معجزة واحدة يؤكدها خبر قطعي مما نُسب إلى رسول الله**)) .

لكنه يستنتج : ((و لكن الله عزّ وجلّ أراد أن يرفع من قدر الرسالة فيجعلها **عقلية منطقية** تخاطب العقل و المنطق . و أيدها بكتاب الله ليعيش معها الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ، كآية خالدة معجزة . و قد شقّ محمد لدعوته طريقه الى القلوب و العقول ، **غير مؤيد بالخوارق التى لم تصلح من قبل وسيلة لإقناع** ، لأن معه **نهجاً واضحاً** من كتاب الله ، ليس فيه تعقيد و لا التواء)) . و سنرى هذا ((**النهج الواضح**)) في النبوّة و المعجزة .

٥ ـ و طلع علينا الدكتور نظمي لوقا في كتابه ((محمد الرسالة و الرسول)) بنظرية جديدة **ترد المعجزة كدليل على النبوّة** ، و تجعل دليل النبوّة و الوحي في ((صدق النبي)) ومطابقة النبوّة للحقيقة . قال : ((ما من نبي حمل الينا توكيلاً موثقاً بأنه ينطق بلسان الوحي ، و إنما كانت آيته صدق ما أتانا به)) . و هذه شهادة أخرى : ((و أما المعجزات فلا حجية لها إلا لمن شهدها شهود العيان . و بيننا و بين تلك أجيال و أجيال . فتبقى بعد هذه الآيات المغايرة ، **الآية الكبرى** التى لا يثبت بغيرها صدق ، و لا يغني عن غيابها ألف دليل مغاير مهما بلغت درجته من الإعجاز . **و هذه الآية الكبرى هي صدق الكلمة من حيث هي .** فإن الحقيقة آية نفسها تحمل برهانها في مضمونها ، فيطمئن اليها العقل و يبدو ما يباينها هزيلا واضح البطلان)) (ص ٤٩) .

فهو يضع مقياسين لصحة النبوّة ، المقياس الأول **في ذات الرسالة** : ((ليس للمعجزات حجية ، و الآية الكبرى هي أن صدق الرسالة متضمن في ذات الرسالة)) . و المقياس الثاني **في ذات الرسول** ، ((ان أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها))

(ص ١٥٧) . و هذان المقياسان نقض لضرورة المعجزة ، و لوجودها في الدعوة و السيرة عند محمد ، و تجاهل مقصود لإِعجاز القرآن كمعجزة . و سيأتي البحث في هذه المغالطات .

٦ ـ و في كتاب المؤتمر الإسلامي : ((حقائق الإسلام و أباطيل خصومه)) للاستاذ عباس محمود العقاد ، من عام ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م ، جاء في مبحث ((النبوّة)) قوله :

((نمت في الإسلام فكرة النبوّة كما نمت فيها الفكرة الإلهية ... ١) **فليست الخوارق ممّا يغنى النبي** في دعوة المكابر المفتون . إنه ليزعمها اذن ضرباً من السحر أو السكر ، ولو فتح له الأنبياء باباً في السماء ... ٢) **و لقد جاءَت الخوارق طائعة لنبي الإسلام** ، و أنّى لهم أن يصدقوها أو يفهموها على غير حقيقتها ، و لو أنه سكت عنها لحسبوها له معجزة من المعجزات لم يتحقق مثلها من قبل لأحد من المرسلين (حادث كسوف الشمس ساعة دفن ابنه إبراهيم ... ٣) و ما نحسب أن النبوّة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد في القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية **لهداية الضمائر و العقول** ، غير مشروطة بما غبر في الأوهام **من قيام النبوّة كلها على دعوة الخوارق و الإنباء بالمغيبات ...** ٤) فلا يرى عجباً أن تكون هذه النبوّة خاتم النبوات ، إذ كان الاصلاح بعدها منوطاً بدعوات يستطيعها من لا يدّعي خارقة تفوق طاقة الإنسان ، و لا يهول العقول بالكشف عن غيب من الغيوب لا يدريه الإنسان ... ٥) و الواقع أن **النبوّة الإسلامية** جاءَت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوّة ، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بني الإنسان في الإله)) (ص ٥٨ ـ ٦١) .

إن تلك المبادىء عند الأستاذ الإمام تنكّر مفضوح لضرورة المعجزة و نكران لوجودها في الدعوة و السيرة عند محمد . و نستغرب قوله : ((**و لقد جاءَت الخوارق طائعة لنبي الإسلام**)) . و هو يعلم ما قاله زميله الأستاذ عبد الله السمان : ((و ليس هناك آية قرآنية صريحة في القضية ، و لا حديث واحد متواتر)) ، ((و من المتأكد أنه ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح)) . و حديثه عن النبوّة و المعجزة تجاهل مقصود لإِعجاز القرآن كمعجزة .

٧ ـ و في كتاب المؤتمر الإسلامي ((العقائد الإسلامية)) للاستاذ العقاد ، من سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤ م ، جاءَ في فصل ((الرسل)) :

١) الأعمال الكبرى التى تمثل نجاح سيّدنا محمّد

العمل الأول : أنه قضى على الوثنية و أحل محلها الإيمان بالله و اليوم الآخر .

العمل الثاني : أنه قضى على رذائل الجاهلية و نقائصها ، و أقام مقامها الفضائل والمكارم و الآداب .

العمل الثالث : أنه أقام الدين الحق الذي يصل بالإنسان إلى أقصى ما قدّر له من كمال.

العمل الرابع : أنه أحدث ثورة كبرى غيّرت الأوضاع و العقول و القلوب و نظام الحياة الذي درج عليه أهل الجاهلية .

العمل الخامس : أنه ﷺ وحّد الأمة العربية ، و أقام دولة كبرى تحت راية القرآن ...

((إن القيام بهذه الأعمال و النجاح فيها على هذا النحو **لهو المعجزة الكبرى** لحضرة رسول الله ﷺ ـ فإذا كان عيسى له معجزة إحياء الموتى ، و موسى له معجزة العصا ، فإن هاتين المعجزتين في جانب هذه الانتصارات ، و الى جانب هذه المعجزات لا تساوى شيئاً)) .

و نقول : لا يسعنا أن نسلّم بهذا المنطق الذي يجعل النجاح مقياس الحقيقة و النبوّة . فهل نجاح الهندوكية ، و البوذية ، أو الشيوعية الإلحادية ، مقياس لحقيقتها و دليل نبوتها ؟! وهل نجاح الاسكندر ذى القرنين ميزان لادعائه الألوهية ؟ و نرى أنّ السّيد العقاد يدور في حلقة مفرغة : الدعوة القرآنية منزلة ـ و هو المطلوب إثباته ـ لأنها نجحت ـ ، و كل الدعوات الدينية القائمة منذ آلاف السنين قد نجحت ، فهل هذا دليل على انها منزلة من الله ؟

٢) دلائل صدقه

((و من دلائل الصدق على أن الرسول انما هو مرسل من عند الله ما يأتي :

أولاً : إنه كان زاهداً في الدنيا ...

ثانياً : من دلائل نبوته أنه كان أُميَّاً ...

أما الناحية الثالثة فهي الصدق ، فلم يُعلم عن الرسول ﷺ أنه كذب قط قبل البعثة و لا بعدها)) .

و نقول ، هل الزهد في الدنيا دليل على أن صاحبه مرسل من الله ؟ فما القول اذن بفقراء الهند ؟ هل كلهم رسل أنبياء ؟! و من تزّوج السيدة خديجة ، ثرية مكّة التى كانت تجارتها تعدل تجارة قريش كلها ، و تاجر بمالها خمسة عشر عاماً قبل مبعثه ، هل كان من أهل الزهد ؟ و القرآن نفسه يأمر بلسان محمد : « يا أيها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً ، و لا تتبعوا خطوات الشيطان (بالامتناع و الزهد) ، إنه لكم عدو مبين » (البقرة ١٦٨) ، « يا أيها الناس كلوا من طيبات ما رزقناكم ، و اشكروا الله » (البقرة ١٧٢) . ويختم كما بدأ : « اليوم أحلّ لكم الطّيبات » (المائدة ٥) . فالترغيب بالطّيبات ليس من الزهد. و فرض خمس الأنفال « لله و الرسول » ليس من الزهد ، و فرض الفيء كله (ما استولوا عليه بدون حرب) ليس من الزهد . قد يكون للمصلحة العامة لكن المصلحة العامة لا تنفي المصلحة الخاصة .

و هل ثبت من القرآن أن محمداً كان أُميّاً ؟ سنرى هذا الموضوع لاحقاً

أخيراً هل كل إنسان لا يكذب في حياته يكون نبيّاً مرسلاً ؟ و كيف نفسر قول الرسول، في الحديث الصحيح : « الحرب خدعة » ؟ قد نقول : إنها سياسة . و هل السياسة دليل النبوّة ؟

١) آيات الرسل

« لم يرسل الله رسولاً ليبلّغ الناس الدين و يعلمهم الشريعة ، **إلاّ و أيّده بالآيات** التى تقطع بأنه مرسل من عنده ، و أنه موصول بالملإ الأعلى يتلقى عنه ، و يأخذ تعاليمه منه . وهذه الآيات التى يؤيد الله بها رسله لابد و أن تكون **فوق مقدور البشر** و خارج نطاق طاقاتهم و علومهم و معارفهم ، كما يجب أن تكون **مخالفة للسنن الخاصة بالمادة ، و خارقة للعادات المعروفة و القوانين الطبيعية المألوفة . و لذلك سمى العلماء هذه الآيات معجزات** لأنها تُعجز العقل عن تفسيرها ، **كما تعجز القدرة الانسانية عن الاتيان بمثلها .** وعرّفوا **المعجزة** بأنها الأمر الخارق للعادة الذي يجريه الله على يدى نبي مرسل ، ليقيم به الدليل القاطع على صدق نبوته .

« و من ثَمّ **كانت المعجزة ضرورية و اظهارها واجباً** ، ليتم بها المقصود من تبليغ الرسالة ، و تُقام بها حجة الله على الناس . و هذه الآيات ممكنة في ذاتها ، و العقل لا يمنعها، و العلم لا ينفيها ، و الواقع يؤيدها .

« **الفرق بين آيات الرسل و غيرها من الخوارق** : و لا تلتبس معجزات الرسل وآيات الأنبياء ، بما يحدث على يد غيرهم من خوارق العادات ، فإن المعجزات تأتي مصحوبة بالتحدّي ، و تصدر عن رجال عُرفوا بالتقوى و الصلاح ، و أنهم بلغوا منها الذروة التى لا يتطاول إليها إنسان » .

و نقول : هذا فصل بليغ في تفصيل المعجزة و شروطها : « إن المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّي ، سالم عن المعارضة » [1] . فهلاّ طبق المؤلف تعريف المعجزة وتفصيلها كما جاء به على ما يُنسب إلى محمد ؟! وعلى ما نسبه هو إلى محمد من « الأعمال الكبرى » و من « دلائل صدقه » ليرى هل فيها من معجزة تحدّى هو بها ، سالمة عن المعارضة ، لإثبات نبوته ؟

٤) معجزة خاتم الأنبياء

« ما بعث الله رسولاً إلاّ و قد أيده بالآيات الكونية و المعجزات المخالفة للسنن المعروفة للناس ، و الخارجة عن مقدور البشر ، ليكون إظهارها على يديه ، مع بشريته ، دليلاً على أنه مرسل من عند الله . فعدم حرق النار إبراهيم ، و ناقة صالح ، و عصا موسى، و ما ظهر على يدي عيسى من العجائب ، كلها من هذا القبيل .

« و كانت **الآيات حسية** يوم أن كان العقل الإنساني في الطور الذي لم يبلغ فيه الرشد بعد ، و يوم ان كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الجماهير مبلغاً لا تملك معه إلا الإذعان والتسليم .

« فلمّا بدأ النوع الإنساني يدخل **في سن الرشد** ، و بدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها الى الظهور و النماء ، **لم تعد تلك العجائب هي الأدلة الوحيد على صدق الرسالة .**

« و لم يعد من السهل على العقل أن يذعن لمجرد شيء رآه خارجاً عن عرف الحياة . إنه يريد شيئاً جديداً يتناسب و الطور الذي وصل اليه : يريد الإيمان الذي لا تخالطه الشكوك و اليقين الذي يبدد الظلمات .

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ٢ : ١١٦ .

« و ما كان الله ليمدّ النوع الإنساني في طفولته بما يحفظ به حياته الروحية ، ثم يدعه بعد أن أخذ سبيله الى النظر العقلي و الاستقلال الفكري دون أن يقيم له من الأدلة ما يتناسب و الارتقاء الذي انتهى اليه : فكانت أن بعث محمداً ﷺ و أيّده **بالمعجزة العلمية و الحجة العقلية** و هو القرآن الكريم : « قلْ لئن اجتمعت الانس و الجن على أنه يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

و نقول : إن الأستاذ العقاد يرجع الى منطق علم الكلام ، فيعلن ضرورة المعجزة لصحة النبوّة ، و يعطى إِعجاز القرآن أفضل معجزة له .

لكنه جاء بتعليل لا يتماشى مع التاريخ العام ، و لا القرآن نفسه . و قد نقل في الحاشية التعليل القديم الذي كان ضعيفاً : « كان السحر مشتهراً في عهد موسى ، و كان الطب و إنكار الروح في عهد عيسى ، و كانت البلاغة في عهد محمد : فكانت معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر على عهده . مع ملاحظة أن المعجزة فوق مقدور البشر فهي أعلى مستوى وأرفع قدراً ».

و فات الأستاذ ان القرآن دعوة قومية قبل أن يمسي دعوة عالمية : « و كذلك أوحينا إليك **قرآناً عربياً لتنذر أم القرى** و من حولها » (الشورى ٧) . و لغة القرآن تدل على قوميته : « و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (إبراهيم ٤) . فالقرآن دعوة لمكّة و ما حولها قبل أن يكون ذكراً للعالمين . فهل كان الحجاز في الجاهلية قبل البعثة على ما وصفوه في التعليل القديم و التعليل الجديد ؟

فهل كانت البلاغة في الحجاز الجاهلي أبلغ منها في أنطاكية و أثينة و رومة ، ناهيك عن عواصم الهند و الصين ؟ أم هل كانت عناية العصر الجاهلي بالبلاغة أكثر منها بالشعر ؟ و قد قالوا: « الشعر ديوان العرب » . والقرآن ينص: « و ما علمناه الشعر ، و ما ينبغي له » (ياسين ٦٩) . هل كان الطب في فلسطين على عهد المسيح ، عند شعب مستعمر مقهور مغلوب على امره ، أعظم منه في دولة الرومان و دولة الفرس ؟ و هل كان السحر في مصر، على زمن موسى ، أوغل منه في كل عصر و مصر ؟ إن **تعليلهم هذا** لا يصحّ أن تقوم عليه حجية إِعجاز القرآن .

و لا تقوم فلسفة إِعجاز القرآن على التعليل الجديد الذي خرج به السيد السابق و أمثاله. فهل بلغت جاهلية الحجاز سن الرشد أبلغ من عواصم الهند و فارس و اليونان والرومان ؟ بل

هل كان في الحجاز الجاهلي من الرشد نصيب زهيد مما كان في دولة الأكاسرة و دولة الأباطرة ؟ أم هل كانت الحياة العقلية في « أمّ القرى و ما حولها » أعظم من أنطاكية و أثينة وروما ؟ هذا الزعم تحدٍّ لحقيقة التاريخ . و من المعروف أن العرب لم يأتوا سورية إلاّ بالدين، و أخذوا الحضارة و الثقافة عن سورية المسيحية ، في العهد الأموي . و في العهد العباسي تكونت الحضارة و الثقافة الإسلاميّتان بالعناصر التى أسلمت من الروم و الفرس والهنود ، كما تشهد أسماء أعلامها الى اليوم ، و بالترجمات عن اليونانية و الفارسية والهندية، فكانت خلاصتها كلها .

لقد كانت جاهلية الحجاز في **طفولة عقلية و علمية** بحاجة الى معجزة حسية ، أكثر منها الى معجزة عقلية و حجّة علمية كالتى يرونها في إعجاز القرآن ، لإثبات صحة النبوّة والتنزيل . و القرآن نفسه شاهد عدل على وضعه التاريخي في بيئته . فهو صراع متواصل بين محمد والمشركين على معجزة حسية من الله تؤيده : « لن نؤمن حتى نُؤتى مثل ما أوتي رسل الله » (الأنعام ١٢٤). فالمعجزة في نظر أهل الشرك كما في نظر القرآن هي « سلطان الله المبين » الذي كان « سُنّة الأولين » في إثبات صحة نبوتهم : « و ما منع الناس أن يؤمنوا ... إلا أن تأتيهم سُنّة الأولين » (الكهف ٥٥) . لكن المعجزة مُنعت عن محمد منعاً مبدئياً مطلقاً (الإسراء ٥٩) و امتنعت عليه منعاً واقعياً مطلقاً (الأنعام ٣٥ ، الإسراء ٩٣) . فجدلية الأستاذ العقاد ينقصها الواقع القرآني و التاريخي .

٨ ـ و السيد عبد الكريم الخطيب، في « النبي ﷺ إنسان الإنسانية ، و نبي الأنبياء » ـ سنة ١٩٦٣ ـ يعرّف أولاً بالمعجزة : « المعجزة عند المؤمنين بالمعجزات : حدث خارق للعادة، لم يجرِ على سنن الحياة، و لا ناموس الطبيعة على الوجه الذي ألفه الناس وعرفوه ... و من أجل هذا لم تكن **مخترعات المخترعين و لا أعمال العباقرة** في العلوم و الفنون والآداب مما تُدّعى له « المعجزة » أو ممّا يُتحدّى به في مقام الإعجاز ... و من هنا كانت المعجزة مصحوبة بالتحدّي من جهة ، و بدعوى النبوّة من جهة أخرى ... يقول ابن تيمية : إنما تكون المعجزة آية إذا كانت من فعل الله ، مع التحدّي بمثلها ، و دعوى « النبوّة » (ص ٦٠ ـ ٦١) . و الخارق و التحدّي و دعوى النبوّة هي العناصر الثلاثة المكونة للمعجزة منذ أن قال بها المتكلمون ، و إن نازعهم في ذلك الفلاسفة المسلمون .

ثانياً يقول مردّداً مقالة قومه في « اختلاف المعجزات باختلاف الأمم ... كما سنرى لماذا كانت معجزة النبي محمد معجزة عقلية تخاطب العقل الإنساني في أعلى مستوياته وأدناها

جميعاً ، فيما حمل القرآن من آيات بيّنات » (ص ٦٨ و ٧١) . « الرسالة الإسلامية اذن هي الرسالة التى أدركت الإنسانية **حين بلغت رشدها** و حين رفعت عنها وصاية السماء التى أقامتها على الناس عن طريق أنبياء الله و رسله الكرام . **و شواهد التاريخ تؤيد هذا و تشهد له** . فالانسانية لعهد محمد كانت في **آخر مرحلة من مراحل سيرها نحو النضج العقلي** » (ص ١١٥) . « يتحدّث الجاحظ في كتابه (حجج النبوّة) عن طبيعة الرسالة الإسلامية ، و أنها تتجه الى مجتمع يأخذ الأمور بمعيار العقل ، و ينظر في أعقابها و ما تؤول إليه » (ص ١١٧) . **فنظرية إعجاز القرآن معجزة عقلية ترجع الى الجاحظ** . كذلك نظرية بلوغ البشرية في عهد محمد سن الرشد و النضج العقلي .

ثالثاً موقفه الضعيف علميّاً و نقديّاً تجاه **أساطير السيرة قبل البعثة** ، مثل النور في جبين أبيه عبد الله ، وحلم **آمنة** أُمه ، وقصة ولادته مختوناً، وقصة شقّ صدره طفلاً: « موقفنا من جميع القصص التى رويت عن حياة النبي قبل البعثة ، أننا لا ننظر اليها بحسابها من دلالات النبوّة ، و معجزات النبي ، و انما ننظر اليها جميعها على أنها ـ **إن صحت** ـ لم تكن لتزيد في قدر النبوّة و لا في عظمة النبي ، و أنها ـ **إن لم تصحّ** ـ لم تكن لتنقص شيئاً من قدر النبوّة ، ولا من عظمة النبي ! » (ص ١٩٦). كذلك موقفه في ما يسمونه « **إرهاصات بين يدى النبوّة** » (ص ١٩٧) ، و يرى فيها « صوراً من الحق » (ص ٢٠١) مثل دين الحمْس من قريش ، و رجال في الطليعة الى الإسلام ، و هم الحنفاء ، و أخبار الرهبان من النصارى و الأحبار من اليهود ، و الكهان من العرب الذين ينبئون بمجيء النبي العربي . فهوذا زيد بن نفيل الحنيف يطوف بالبلاد و الشام « فيلتقى براهب ينصح له أن يلتمس الحنيفية دين إبراهيم عند نبي سيبعث في بلاده ، و أن زمانه قد أظل » (ص ٢٠٦) : راهب مسيحى ينصح بمتابعة دين غير دينه ، و نبي على غير دينه ! و أحبار اليهود الذين يحتكرون الله وكتابه و أنبياءَه يتوعدون العرب بالنبي العربي (ص ٢٠٨) ! و يتابع السّيد الخطيب فيقول: « و كان شق وسطيح أشهر كاهنين في الجزيرة العربية قبيل مبعث النبي ، **و لا نستبعد** أن يكون لشق وسطيح **استطلاعات في موكب النبوّة** » (ص ٢١٧) ثم ينقل لهما نبوءَة مفصلة عن سيرة محمد و دعوته (٢١٨ ـ ٢٢٠) ، و هو يستظرفها و لإن شك فيها . كما ينقل لكاهنة مثلها ، و للكاهن (خطر بن مالك) ما هو أخطر: « مبعوث عظيم الشأن ، يبعث

بالتنزيل و القرآن ... ثم قال : هذا هو البيان **أخبرني به رئيس الجان .** ثم قال : **الله أكبر** ، جاء الحق و ظهر ، و انقطع عن الجن الخبر ! ثم سكت فأغمى عليه : فما أفاق إلا بعد ثلاثٍ. فقال : لا إله إلا الله ! ... (ذكر ذلك في حضرة الرسول) فقال رسول الله ﷺ : **لقد نطق عن مثل نبوءة** ، و انه ليُبعث يوم القيامة أمة وحده » (ص ٢٢١ ـ ٢٢٣) . فلا يكفى القوم أن يستنطقوا الأحبار و الرهبان في مبعث محمد ، حتى يستنطقوا الجن و العفاريت على لسان الكهّان !

ثم ينتقل الشيخ الخطيب الى « **معجزات الرسول بعد البعثة** » (ص ٢٢٣) ، فيقول فيها قبل أن يعدّدها : « فإذا كان من الممكن أن يُسلّم ـ عقلاً ـ بأن تخلو سيرة الرسول الى مبعثه من غير اشارات و دلالات تشير الى النبوّة ... ـ **و هو ما لا يمكن أن يُسلّم به أو يقبل بحال أبداً** ـ فإن امكان عدم التسليم بهذا في الفترة السابقة من حياة النبي قبل مبعثه **يرتفع الى درجة المستحيل** ان تخلو سيرة النبي خلال فترة النبوّة من آيات و معجزات تشهد له » (ص ٢٢٤). نحيل السّيد الخطيب إلى أقوال زملائه « بأن القرآن وحده معجزة محمد »، و إن استدرك فقال : « إنها ليست من باب المعجزات التى تجيء للتحدّي و تعجيز الناس عن الاتيان بمثلها ، ليعترفوا للنبي بمثلها » (ص ٢٢٥) ، بل « من نفحات النبوّة ، و من شذاها العطر الذي لا ينفصل عنها بحال » (ص ٢٢٧) . فهو يقبل بها معجزات من النبوّة ، لا معجزات تحدي لصحة النبوّة ، مثل نبع الماء من أنامله ، وتكثير الطعام ، و شجرة تتكلم وتشهد لأعرابى أن محمداً رسول الله ، و شجرة يستنطقها فتشهد للنبي أنه نبي : « فإذا تكلّم الطير ! و سبح الحجر ! و مشى الشجر ! و شكا البعير ! و حنَّ الجذع بين يدى الرسول ! **فذلك مما لا ينكر أو يدفع** » (ص ٢٣٦) . و ترى الخطيب يذهب بين الشك و اليقين في أمر هذه المعجزات فيقول تارة : « و لا نريد أن نعيد القول هنا فيما يدور في هذه المعجزات من جدل حول وقوعها أو عدم وقوعها على الوجه الذي رويت فيه و على الكثيرة التى تكاد تجعل حياة النبي و أعماله كلها خوارق و معجزات » (ص ٢٣٦) و يقول للحال : « و نعود فنقرر مرة أخرى أن كل هذه المعجزات و الخوارق التى رُويت عن نبي الإسلام **لم تكن ـ إن كانت ـ** إلا شرارات من جذوة النبوّة و إلاشعاعات من شموسها المشرقة . أما معجزة النبي **الكبرى** و آيته الخالدة فهي القرآن الكريم » (٢٣٧) . لاحظ قوله : « لم تكن ـ **إن كانت** ـ إلا شرارات من جذوة النبوّة » و صفة « معجزة النبي **الكبرى** »: أي تلك المعجزات كلها **صغرى** قائمة .

فهذا السير بين الشك و اليقين غير مقبول . لكن نشهد له أنه أصاب الحق في قصة « انشقاق القمر » من انه « سيقع حين تقترب الساعة » (ص ٢٤١) ، و ان « الإسراء ـ على ما تشهد به الآية ـ لم يكن للإعجاز و إنما هو **رحلة روحية** الى بيت المقدس ، مجمع الأنبياء ، و أول قبلة للإسلام » (ص ٢٤٣) .

رابعاً و أخيراً يصل الى معجزة إعجاز القرآن : « الرسول و المعجزة الكبرى » (ص ٢٦٥) . فيقرر لها الأساس القديم ، « و الدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده ، ليس من اختراع البشر ، هو انه **جاء على لسان أميّ لم يتعلّم الكتابة ، و لم يمارس العلوم** » (٢٧١ ـ ٢٧٢) . و عن عناية المسلمين بعلوم القرآن يشهد : « لهذا كان ذلك الاختلاف المتشعب في كل علم و في كل فن من فنون العربية و علومها ... و من هنا كان الاختلاف الذي لا يكاد يُحصر ، و الذي لا نجد له شبيها **عند أمة من الأمم ، أو في لغة من اللغات** . و حسبنا أن نشير الى الفقه و ما في أحكامه من آراء ! و النحو و ما في مسائله من خلاف » (ص ٢٧٣) . فهل هذا كله شاهد لمعجزة الإعجاز ؟

ثم يقول : « إن دلائل الإعجاز في القرآن ـ مع أنها تنتظم القرآن كله و تجرى في كل آية من آياته ـ لا تكفى وحدها في حسن استقبال الناس لها ، و في صدق نظرتهم اليها ، ووزنها بميزان الحق و الانصاف » (ص ٢٧٧) . فهل هذه الظاهرة تجعل إعجاز القرآن معجزة للعالمين ؟

و في مقابلة معجزات الرسل بإعجاز القرآن يقول : « إن الإعجاز القرآني يخاطب العقل و يناجي الوجدان . على حين أن الإعجاز في معجزات الرسل إنما يجابه الحواس ويصادم ناموس الطبيعة القائم في الناس ، فيُحدث في الحياة زلزلة عنيفة تنبه الغافلين و توقظ النيام . لهذا كان **الإعجاز القرآني في حاجة ملزمة الى قوة تُظاهره** و تفتح له القلوب و توجه اليه العقول و تقيم له في الحياة مكاناً راسخاً و تجعل له في الناس قدماً ثابتة . **و هذه القوة التى يحتاج الإعجاز القرآني الى مظاهرتها** ينبغي أن تكون هي ذاتها معجزة ... فكان هو ﷺ عنوان هذا الكتاب الكريم » (ص ٢٧٩) . فحاجة القرآن الملزمة الى معجزة شخصية تظاهره هي البرهان على ان إعجاز القرآن ليس بمعجزة في ذاته . و سنرى المعجزة الشخصية في فصل آخر .

و يرى معجزة أخرى تؤيد إعجاز القرآن في **خلق العرب دولة** تفتح دولة الفرس ودولة الرومان ، « هذا الإعجاز الرائع لقوة الإيمان » (ص ٣٠٥) . فهل هذا أيضاً يشهد لمعجزة الإعجاز في ذاته ؟

و يرى أيضاً في الشريعة القرآنية معجزة . و فاته ما قاله من اختلاف في الفقه المبني على أحكام القرآن و شريعته .

فجلُّ ما عند الشيخ الخطيب أن **معجزة الشخصية النبوية** لازمة لإظهار إعجاز القرآن لقد شذّ عن سربه ، و جعل قوة المعجزة في غير إعجاز القرآن نفسه .

٩ ـ و السيد محمد الغزالي في (عقيدة المسلم) الذي تواترت طبعاته في مصر ولبنان و الكويت و غيرها ، يقول في ضرورة المعجزة لصحة النبوّة : « من حق الناس أن يسألوا كل رجل يزعم انه مُرسَل لهم من عند الله : ما دليلك على صدق قولك ؟ » (ص ٢٣٩) « و الدليل على صدق أية دعوى قد يكون بأمور خارجة ، أو يكون **بحقيقتها في نفسها** » (٢٤١) . « و قد كان التعويل في العصور الأولى على الخوارق المادية فحسب ، أمّا ما تضمنته الأديان من حقائق فكانت **منزلته ثانوية** ، حتى جاء الإسلام فغضّ من شأن **الإعجاز المادي** ، و نوه **بالإعجاز العقلي** و القيم المعنوية للرسالات » . « كانت معجزات الأنبياء شيئاً آخر غير الرسالات التى يبشّرون بها و يدعون اليها . إلاّ أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئاً لا ينفصل عن جوهرها . **فجعل حقائق الرسالة و دلائل صحتها كتاباً واحداً** » بإعجاز القرآن (ص ٢٤٣) . « فلتكن اذاً معجزة نبي الإسلام عقلية » (٢٤٥) . هذا ما يردده المتكلمون منذ الجاحظ ، و الفلاسفة الإسلاميون منذ ابن رشد . فلم يأتنا السيد الغزالي بجديد .

لكن الجديد عنده موقفه من المعجزات في القرآن و السيرة : « إن الحكمة الإلهية اقتضت أن تبث في طريق الرسول أنواعاً من الخوارق التى أيّد بها النبيّون الأولون ، فجاءَت هذه الخوارق تحمل طابعاً خاصاً ينبغي أن نعرفه حتى لا نتجاوز به حدوده الصحيحة . **هذه الخوارق ثانوية الدلالة** في تصديق النبوّة و الشهادة لها .

« و الطريقة التى أُرسلت بها من عند الله تشير الى أن الحكمة الإلهية لم تعلّق عليها كبير أهمية ، و لم تغضّ بها من قيمة **المعجزة العقلية التى انفرد بها الرسول** . فقد حدثت جملة من

هذه الخوارق بين المؤمنين ... وحدث بعض آخر أمام أعين الكافرين . بيد أن الصورة التى تمَّ بها تثير الدهشة ، اذ كانوا يقترحون معجزة فتأتيهم أخرى ، أو يأتي ما يقترحون بعد سنين طوال ، و على وجه يبدو منه أن إجابتهم الى ما طلبوا لم تُقصد أصلاً . و ربما تُهمل مقترحاتهم كلها فلا يُنظر لها قط » (ص ٢٤٦).

فالسيد الغزالي يقبل اذاً بصحة و تاريخية الخوارق و المعجزات المنسوبة الى محمد في السيرة و الحديث . نحيله الى قول زميله الأستاذ عبد الله السمان الذي نقلناه : « و من المتأكد أنه ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح » . فنظرية الغزالي ساقطة لاغية. و الاصرار عليها ضعف ، و إن اعتبرها « ثانوية الدلالة » .

و الجديد عنده أيضاً نظريته في **الشخصية النبوية** : « لئن كانت العبقرية امتداداً في موهبة واحدة أو في جملة مواهب ، إن **النبوّة امتداد في المواهب كلها** ، و اكتمال عقلي وعاطفي و بدني ، وعصمة من الدنايا و رسوخ في الفضائل كلها وعراقة في النبل والفضل » (ص ٢٥٤) . و مع النبي العربي « انتقل العالم من عهد الى عهد . و الكلام في عظمة الشخصية التى حملت عبء هذه الرسالة يطول . و حسبنا أن الله عزّ وجلّ جمع في سيدنا محمد ﷺ من شارات السيادة و النبل **ما تفرّق في النبيّين من قبل** » (ص ٢٥٦) ، « فإن خصال الكمال التى توزعت عليهم التقت أطرافها في شخصية الكريم » (ص ٢٥٧) . وسنرى في فصل « المعجزة الشخصية » في السيرة و النبوّة و في الرسالة مدى الإعجاز فيها، و هل « جمع الله ما تفرق في النبيّين من قبل » . تكفى شهادة القرآن التى عنها يغفلون : « إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ، و ما تأخر » (الفتح ١) ، « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك » (الشرح ١ ـ ٣) . والوزر الذي ينقض الظهر ليس « باللّحم » و لا بالصغيرة ، و هذا يدحض تفسير السيد الغزالي في قصة استغفار محمد : « فليس استغفار الأنبياء عن مثل ما نقارف من خطايا ، أو ترتكب من سيئات » (ص ٢٣٩) .

و الجديد عنده أخيرا تطرّفه على أقرانه في **قصة تحريف التوراة و الإنجيل** و العقيدة فيهما : « و سريان **الفساد** الى الديانتين الكبيرتين السابقتين على الإسلام ، اليهودية والنصرانية ، و ما طرأ عليهما من **تغيير** ، و داخل كتبهما من تحريف ، جعل الإسلام هو الطريق الفذ للإيمان

السليم » (ص ٢٦٢) ، « و لا تحسبنّ هذا غلواً في تزكية مخلوق ، أو افتياتاً على حق الخالق ، أو تجنياً على أتباع الرسل الأولين . فإن عيسى و موسى صلوات الله عليهما سارا بالناس الى الله على بصيرة ، و هم لا يدرون ما فعل أتباعهم من بعدهم . و لو عادوا إلينا لكانوا أول من يبرأ من **الكتب المدسوسة عليهم** ، و أول من يستمع الى آيات الذكر الحكيم ويبادر الى تنفيذ أحكامها ووصاياها ؟ » (ص ٢٦٣) . هذا غلو و تجنّ على القرآن نفسه الذي يعتبر الكتاب كله ، و على عهده نفسه « **كتاب الله** » في عشر سَور (٢ : ١٠١ ، ٣ : ٢٣ ، ٥ : ٤٤ ، ٨ : ٧٥ ، ٩ : ٣٦ ، ٢٢ : ٨ ، ٣٠ : ٥٦ ، ٣١ : ٢٠ ، ٣٣ : ٦ ، ٣٥ : ٢٩) . يكفي قوله في اليهود و النصارى : « **الذين يتلون كتاب الله** » (٣٥ : ٢٩) ، ويكفي تحدّي القرآن للمشركين بالكتاب و القرآن على السواء : « قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله هو **أهدى منهما** أتّبعه، إن كنتم صادقين » (٢٨ : ٤٩). وتسمية القرآن للتوراة والإنجيل « **كتاب الله** » بتواتر شاهد قاطع على فساد مقالتهم بتحريف التوراة و الإنجيل القائم على تفسير خاطىء مغرض للفظة « تحريف » الواردة بمعنى **تأويل** مخالف « للكلم عن مواضعه » في آية أو آيتين من التوراة ، و لا ذكر فيه للإنجيل على الإطلاق [٢]. و قد نقلنا في كتابنا (مدخل الى الحوار الإسلامي المسيحي) عشر شهادات كل واحدة من مجموعات قرآنية تشهد أن « صحة الكتاب و الإنجيل عقيدة في القرآن » (ص ٩٤ ـ ١٢٤) . و شهادة القرآن أن « هدى » القرآن و الكتاب واحد (٢٨ : ٤٩) برهان قاطع على أن عقيدة أهل التوراة و أهل الإنجيل سالمة سليمة كما وصلت الى زمن محمد . و هذه الشهادة القرآنية الناطقة تسقط قول السيد الغزالي الذي يتهجم على عقيدة المسيحيين بقوله : « لم تصادف خرافة من الرواج في العالم مثل **الخرافة التى تعد عيسى إلهاً لهذا العالم** ـ أو شريكاً فيه مع الله !! » (ص ٦٥). و نسى أن القرآن نفسه ينسب مرتين الى السيد المسيح المقدرة على الخلق ، مرة على لسان السيد المسيح : « إنى **أخلق** لكم من الطين » (آل عمران ٤٩) ، و مرة على لسان الله نفسه: « و إذ تخلق من الطين » (المائدة ١١٠) . و لا غرابة في قول السيد الغزالي بحق المسيحية، فقد بلغ نقده القرآن نفسه ، حيث ينكر بعث المسيح و رفعه حياً الى الله ، قال: « لأنه في حياته عبد ضعيف ، **و بعد مماته رفات موارى في حفرة من التراب** » (ص ٦٧) . فما نظر حضرته بقوله :

---

(٢) راجع كتابنا : **الإنجيل في القرآن** ، ص ٦٤ ـ ٨٨ ، و كتابنا : **مدخل الى الحوار الإسلامي المسيحي** ، ص ٨٠ ـ ٩٤.

و ما قتلوه و ما صلبوه ، و لكن شبه لهم » ؟ (النساء ١٥٧) . و ما نظر حضرته في قوله : « يا عيسى إنى متوفيك و رافعك الى » (آل عمران ٥٥) ، « **بل رفعه الله اليه** » (النساء ١٥٨) . إن رفع المسيح الى الله حصل في آخرته على الأرض ، و لا ينتظر اليوم الآخر ، حتى يجعله السيد الغزالي « بعد مماته رفاتاً موارى في حفرة من التراب » !

فالسيد الغزالي مثل الشيخ الخطيب ، من القوم الذين يصعب عليهم التسليم بواقع القرآن و موقفه السلبي من كل معجزة تنسب الى محمد ، مهما قال العلماء المسلمون الصادقون بانتحال الخوارق و المعجزات لمحمد في الحديث و السيرة ، كما نقلنا عنهم .

١٠ ـ و السيد عفيف عبد الفتاح طبارة أصدر (روح الدين الإسلامي) في أربع طبعات من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٠ ، أهداه الى « أهل الفكر الإنساني » . و فيه يقسم القول الى فصلين . الأول « بعض وجوه إعجازه » (ص ٢٠) . و سبب اختيار الله لإعجاز القرآن معجزة له أن « العرب كانت مفطورة على حب البلاغة و الأدب و الشعر و الخطابة ... جاءَ القرآن الكريم أفصح منها فيما هي قوية به » (ص ٢٧) ـ فهل فاقت العرب ، أم سبقت اليونان و الرومان ، و من قبلهم الهنود و الفرس ، بصناعة الكلام و الفطرة عليه ؟ فمناسبة الإعجاز معجزة ليست العلة القائمة . فما « اقتضت حكمة الله أن تكون معجزته من جنس ما نبغ فيه أمته » (ص ٣٠) . فقد كانت المعجزة الحسية « سُنّة الأولين » من الأنبياء أجمعين، بشهادة القرآن نفسه . و المؤلف يكرر ما قالوه قبله . و إنّما فاته أن القرآن نسخ التحدّي بإعجازه عندما أنهى فترة التحدّي به للمشركين ـ لا لغيرهم ـ بإعلان « متشابه القرآن » (آل عمران ٧) و المتشابه والإعجاز لا يجتمعان . وبهذا النسخ لإعجازه لم « يسنّ نهجاً جديداً في البرهان على صحته » (ص ٣١) ، و لم يقبله العرب حجة على صحة النبوّة ، بدليل تحديهم الدائم له بمعجزة مثل الأنبياء الأولين (الأنبياء ٥) ، و امتنعوا عن التصديق حتى تأتيهم سُنّة الأولين » (الكهف ٥٥) .

و في وجه الإعجاز على الاجمال يقول : « **و أسلوبه مخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها** ». و يستشهد على ذلك بأقوال الدكتور طه حسين ، و الباقلاني ، و الرافعي . وفاته وفاتهم أنه أسلوب نظم الكتاب ، كما كان يقرأه مع أستاذه و ابن عمه ورقة بن نوفل

قسّ مكّة ، و ذلك بنص القرآن القاطع : « و شهد شاهد من بني إسرائيل (النصارى) على مثله » (الأحقاف ١٠) .

ثم يفصّل بعض وجوه الإعجاز البياني فيه : التصوير الفنى ، ضرب الأمثال ، التكرار ، الايقاع الموسيقى ، في فصل « بعض خصائص أسلوب القرآن » (ص ٣٤). وينقل عمن سبقه « وجوه أخرى من إعجاز القرآن » (ص ٣٧) : فصاحته في كل المواضيع، وفرة بلاغته ، سلامته من التناقض و الخطإ ، سمو روحه ، غزارة معانيه . هذا هو الوجه البياني ، الذي لا يماري فيه أحد . لكن هل اعتبره القرآن معجزة له ؟ و هل يصحّ بذاته معجزة لتحدّي العالمين ؟

و يرى وجها آخر في « **اشتمالته على أنباء غيبية** » (ص ٤٠) . و هي على نوعين : نبوءات للمستقبل القريب و البعيد يراها في استخلاف المسلمين في الأرض (النور ٥٥) ، و عصمة محمد من الناس أعدائه (المائدة ٦٧) ، انتشار الإسلام بين العرب (غافر ٥١ ، التوبة ٣٢) ، تفرّق المسلمين شيعاً و محاربة بعضهم بعضاً (الأنعام ٦٥) ، و النوع الآخر : « و من الأنباء الغيبية التى أتى بها القرآن ، الأنباء عن قصص الأولين من الأنبياء » (ص ٤) . **و هو يرى في القصص القرآني معجزة** لسببين : الأول **أمية محمد** ، و هي تفسير لا يصح لاصطلاح قرآني كما سنرى ، و الثاني « مما يشهد للقرآن أنه وحى إلهي أن قصص القرآن تخالف كثيراً ما ورد في الكتب المقدسة و تسمو عليها » (ص ٤١) . و فات حضرة المؤلف أن الخلاف الموجود بين القرآن و التوراة في قصص الأنبياء وارد في التلمود، و أن عصمة الأنبياء مما ورد في التوراة من ذنب لهم أو هفوة هي أيضاً في التلمود . و فات السيد طبارة شهادة القرآن لنبيه : « و لا أعلم الغيب » (الأنعام ٥٠) . « و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير و ما مسّني السوء : إن أنا نذير و بشير لقوم يؤمنون » (الأعراف ١٨٨) ، « و لا أقول لكم : عندي خزائن الله ! و لا (إنى) أعلم الغيب ! و لا أقول : إنى ملك ... إنى إذاً لمن الظالمين » (هود ٣١) . فالقرآن يشهد بامتناع المعجزة الغيبية على محمد ، كما يشهد بامتناع المعجزة الحسية عليه (الإسراء ٥٩ و ٩٣ ؛ الأنعام ٣٥) .

و يرى السيد طبارة وجها جديداً من الإعجاز في **روحانية القرآن** (ص ٤٢) التى أتت بمعجزتين : الأولى جعل العرب « أمة موحدة قوية تنشر الفضل و الفضيلة و الكمال في أرجاء

العالم المضطرب : أيّ حجة أكبر من هذه على أن القرآن وحى إلهي ، و أنه روح من عند الله » . و الثانية : « هذه الروحانية اشتملت على العلوم الإلهية و أصول العقائد الدينية وقوانين الفضائل و الآداب ، و قواعد التشريع السياسي و المدني و الاجتماعي و غيرها من الأصول التى أتى بها القرآن ، **و سبق بها كل الأوضاع البشرية** التى من نوعها و التى يؤلف مجموعها الصرح الأدبى الضخم لهذه المدنية الحديثة ... كل هذا مشمول بالنص ، لا بالتأويل، في الأصول التى جاء بها القرآن في القرن السابع الميلادى » (ص ٤٢) .

هذا ما يسميه « روح القرآن » (ص ٤٢) . و هو يستند إلى هذه الآية :« و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان ، و لكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، و إنك لتَهدى (قراءَة أخرى أصحّ : لتُهدى) الى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢) . وفاته ان تعبير « **روحاً من أمرنا** » لا يعني « روح القرآن » أو روحانيته ، بل ملاكاً من عالم الأمر أي مخلوقاً ، جاءَه و هو معتكف في غار حرّاء **أمره** (الدخان ١ ـ ٥) بالإيمان بالكتاب الذي جعله « نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا »، لذلك يأمره : « قل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » (الشورى ١٥) . لاحظ القرينة « **من أمرنا** » و القرآن غير مخلوق في ملته و اعتقاده .

و السند الثاني للإعجاز في العقيدة و الشريعة هو أيضاً **أمية محمد** : « فكيف يستطيع رجل أُمّي لم يقرأ و لم يكتب ، و لا نشأ في بلد علم و تشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً و كمالاً ، يؤيده بالحجج و البراهين » (ص ٤٣) . و نعرف أن أمية محمد مبنية على تفسير خاص لاصطلاح قرآني متواتر . وفاته أن القرآن ينقض الإعجاز في العقيدة بقوله: « فبهادهم اقتدِهْ » (الأنعام ٩٠) ، و هو في الهدى مع الكتاب سواء : « قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين » (القصص ٤٩) . كما ينقض الإعجاز في الشريعة بقوله : « يريد الله ليبين لكم و يهديكم سنن الذين من قبلكم » (النساء ٢٦) ، أي « الأنبياء في التحليل و التحريم فتتبعوهم » (الجلالان) .

و الإعجاز في الشرائع و الأخلاق و الآداب لمن يغلب الروح على الجسد ، و الآخرة على الدنيا ، و الدين على الدولة ، و الشريعة القرآنية دين و دولة ، دنيا و آخرة ، جسد وروح ، كما يرى العقاد نفسه ، فقد جمع القرآن مادية التوراة الى روحانية الإنجيل في « أمة وسط » .

و بعد هل من تحدّ بإعجاز بمثله بعد قوله : « و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠) .

فترى أن السيد طبارة في هذا الفصل لم يأتِ بجديد ، بل كرّر ما رددته الأجيال من قبله . و علماء العصر المسلمون لا يرون فيه معجزة .

أمّا الفصل الثاني ، « **معجزات القرآن العلمية** » فهو من حاجة المحتاجين إلى معجزة لإثبات النبوّة . و القرآن مثل الإنجيل و التوراة كتاب هداية دينية ، لا كتاب علوم كونية . مع ذلك فهو يقول في مغالطات مكشوفة : « إن القرآن لم تكن مهمته أن يتحدث الى عقول الناس عن مشكلات الكون و حقائق الوجود العلمية ، و إنما هو **كتاب هداية و إرشاد** للناس في حياتهم الدينية و الدنيوية . و لكن مع ذلك لم تخلُ آياته من التعبيرات الدقيقة و لا من الإشارات الخفية الى حقائق كثيرة من **المسائل الطبيعية و الطبية و الجغرافية** ، مما يدل على إعجاز القرآن و كونه وحياً من عند الله . و من الثابت تاريخياً أن محمداً ﷺ ، فضلاً عن **كونه أميّاً** لا يقرأ و لا يكتب ، قد **نشأ في مكّة** حيث لم تكن علوم و لا معارف و لا جامعات و لا مدارس تُقرأ فيها العلوم الكونية ، كما ان محمداً كان بعيدا عن ذلك المحيط العلمى الذي كان موجودا في الشام و الاسكندرية و أثينا و رومية . و مع ذلك فإن **النظريات العلمية** التى أشار اليها القرآن لم تكن معلومة في ذلك العصر في القرن السابع الميلادى ، و لم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ أمد قريب » (ص ٤٤) .

هذا هو الجديد الذي أتى به السيد طبارة ، مع من يحذو حذوه : **في القرآن إعجاز علمي** ، سبق العلم العصرى بنيّف و ثلاثة عشر قرناً . هذه معجزة ضخمة لو صحت . لكنها في ذاتها و في ظروفها سراب بسراب . إن أساس هذا الإعجاز العلمى واهٍ جداً ، و هو يبنيه على ثلاث ركائز ضعيفة : أميّة محمد ، نشأته في مكّة البعيدة عن مراكز العلم ، و عدم اتصال محمد بتلك المراكز . وفاته أن قريش كانت سّيدة التجارة بين أطراف الجزيرة ، و أن محمداً كان شيخ تجارها في تجارة زوجه خديجة التى «كانت تجارتها تعدل تجارة قريش كلها » ، و القرآن يعدّ رحلتي الشتاء و الصيف الى اليمن و الشام من نعم الله عليهم ، و أن تجار قريش و سيدهم محمداً كانوا على اتصال بمراكز العلم في اليمن و دول الشمال العربي حيث علم الروم و الفرس و الهنود يتسرّب و يتفاعل ، و حيث كان محمد خصوصاً يتصل بالأحبار

و الرهبان حملة العلم في كل زمان و مكان . و ورقة بن نوفل ، أستاذ محمد بعد زواجه من ابنة أخيه خديجة ، كان محجة علم لأنه كان قسّاً على اتصال بالراهب بحيرة في بصرى ، كما نقل الحديث و السيرة . و القرآن بنقل : ((و أعانه عليه قوم آخرون)) (الفرقان ٤) ، ان لم يصح قولهم في القرآن نفسه ، فيصح في ((الكونيات)) القرآنية ، و نعرف في صحابته سلمان الفارسي ، صاحب فكرة الخندق ، و صهيب الرومي ، و غيرهما . فقد كانت مكّة أكبر سوق للتجارة و الثقافة في الجزيرة ، و يحضرها التجار العرب و غيرهم ، و التجارة باب إلى الثقافة . فإذا لم يذهب محمد في طلب العلم الى الاسكندرية و الشام و أثينة و رومة ، فقد أتى أهلها بعلمهم و تجارتهم إليه في مكّة و في أطراف الجزيرة . فأسس الإِعجاز العلمى ساقطة .

ثم إن ((التعبيرات الدقيقة و الإشارات الخفية الى حقائق علمية)) لم يأخذها القرآن على حسب اصطلاحها كما يفعلون به ، و لم يفهمها المخاطبون العرب بحسب هذا الاصطلاح ، بل أخذها القرآن و فهموها بحسب معناها اللغوى ، مثل قوله في الذرة : ((من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)) (٩٩ : ٧ و ٨)، ((لا يعزب عنه مثقال ذرة)) ، ((لا يملكون مثقال ذرة)) (٣٤ : ٣ و ٢٢) ، ((لا يظلم مثقال ذرة)) (٤ : ٣٩) : فالمعنى اللغوى بارز ظاهر ، و لا أدنى إشارة الى اصطلاح علمى . فالقرآن أخذ بلغة قومه و نظرة زمانه الى ظواهر الكون ، و لم يقصد إلى تحدّي الناس بالإِعجاز العلمى . و كيف فاتتهم عناصر التحدّي الثلاثة للمعجزة : العمل الخارق للطبيعة ، التحدّي به ، و سلامته من المعارضة لدى العالمين . فأى شيء من هذه العناصر الثلاثة لصحة المعجزة في ((الكونيات)) القرآنية ؟! حسب أهل المنحى العلمى في موقف القرآن من **كروية الأرض** ، فقال مثل أهل زمانه بأنها مبسوطة ، و لذلك سمّوها ((البسيطة)) . انظر الى قوله : ((و الله جعل لكم الأرض بساطا)) (نوح ١٩) أي ((مبسوطة)) (الجلالان) ، ((و الأرض بعد ذلك دحاها)) (النازعات ٣٠) أي بسطها و كانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو)) (الجلالان) : أهذا في النص و التفسير من العلم في شيء ؟ و كل تعابيره تدل على أن الأرض مبسوطة لا كروية : ((و اذا الأرض مُدّت)) (٨٤ : ٣) ، ((و الأرض مددناها)) (١٥ : ١٩) ، ((وهو الذي مدَّ الأرض)) (١٣ : ٣) ، ((ألم نجعل الأرض مهاداً)) (٧٨ : ٦) ، ((جعل لكم الأرض مهداً)) (٢٠ : ٥٣ ، ٤٣ : ١٠)، ((جعل لكم الأرض فراشاً)) (٢ : ٢٢)، ((والأرض فرشناها)) (٥١ : ٤٨) . و يلاحظ الجلالان أن قول القرآن يخالف قول ((علماء الهيئة)) . و هل صحيح أن

الجبال رواسي تثبت الأرض و تمنعها أن تميد بالشر بحسب قوله : « و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » (١٦ : ١٥) أى « جبالا ثوابت تتحرك بكم » (الجلالان) . والمعجز عنده **أن السماوات قائمة بغير عمد تحملها** ، و جبال الأرض تمنعها من أن تتحرك : « خلق السماوات بغير عند ترونها ، و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » (٣١ : ١٠) . والعلم عنده **أن السماء « سقف » للأرض** : « و جعلنا السماء سقفاً » (٢١ : ٣٢) أي « سقفاً للأرض كالسقف للبيت » (الجلالان) .

و نحن نقول : إن هذه التعابير لغوية بيانية تقول بظواهر الكون كما فهمها أهل زمانه، و لا تشنيع على القرآن إذا أخذ بها بحسب اللغة و مجازها و بيانها . لكن هذا الواقع يمنع أمثال السيد طبارة من أن يرى **معجزات علمية** في بعض أوصاف القرآن الكونية مثل : وحدة الكون و سر الحياة (الأنبياء ٣٠) ، نشأة الكون من دخان (فصلت ٩ ـ ١١) ، تمدد الكون و سعته (الذاريات ٤٧) ، تحركات الشمس و القمر و الكرة الأرضية (يسن ٣٨ ـ ٤٠) ، وجود أحياء في السماء (أي الفضاء الكوني) (الشورى ٢٩ ، الإسراء ٤٤ ، و ٥٥ ، مريم ٩٣) ، نقص الأوكسجين في الارتفاعات (الأنعام ١٢٥) ، تقسيم الذرة (يونس ٦١) ، الزوجية في كل شيء (الذاريات ٤٩) ، تلقيح السحاب (النور ٤٣ ، الحجر ٢٢) ، اهتزاز الأرض بسبب المطر (الحج ٥ ، حم السجدة ٢٧) ، توازن العناصر الكونية (الرعد ٨ ، الحجر ١٩) ، الأمواج الداخلية و السطحية (النور ٤٠) ، عالم الحيوان و الطير « أمم أمثالكم » فهو شبيه بعالم الانسان (الأنعام ٣٨) ، مراحل نمو الجنين (المؤمنون ١٢ ـ ١٤)، أغشية الجنين في « ظلمات ثلاث » (الزمر ٦) ، مصدر تكوّن الإنسان من « الظهر » (الأعراف ١٧٢) ، كيفية تكوّن الذكر و الأنثى من منيّ الرجل وحده الحامل صبغيات ذكرية أو أُنثويّة (القيامة ٣٧ ـ ٣٩) ، الحيوان المنوي للانسان يشبه العلق (العلق ١ و ٢) ، اختلاف بصمات الانسان (القيامة ١ ـ ٤) . إذا أضفنا اليها العسل الذي « فيه شفاء للناس » (النحل ٦٨ ـ ٦٩)، فتلك **عشرون معجزة علمية** للقرآن تشهد بأنه « وحى إلهي » (ص ٤٤ ـ ٥٩) .

يقول السيد طبارة فيها : « و هذه (تلقيح السحاب) مسألة لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر » (ص ٥٤) ، « و هذه الآية (خلق الانسان من علق) **معجزة بليغة من معجزات القرآن** لم تظهر وقت نزولها و لا بعده بمئات السنين ، الى أن اكتشف

المكروسكوب و عُرف كيف يتكون الانسان من هذه الحيوانات » (ص ٥٨) . إن السيد طبارة بتسميته تلك الأوصاف الطبيعية « **معجزات** » يحيد عن جادة الصواب ، لأنه ليس فيها شيء من شروط المعجزة كما حددها علماء الكلام ، و لا اتخذها القرآن معجزة له على الإطلاق . و هو « يحرف الكَلِم عن مواضعه » ليقوّله ما لا يريد ، ليرى فيه إعجازاً علمياً . والقرآن نزل لعرب الحجاز قبل غيرهم، ونزل لهداية الناس قبل القرن العشرين؛ فلو صحّ فيه ما يرونه من إعجاز علمي ، فقد خاطب القرآن أهل زمانه و المسلمين ، قبل ثلاثة عشر قرناً بما لا طاقة لهم بمعرفته و فهمه ، و خطاب يعجز الناس عن إدراكه ليس بمعجز على الإطلاق . و القول الفصل هنا أيضاً أن المعجزة منعت مبدئياً عن محمد ، و امتنعت عليه واقعياً ، فاكتشاف معجزات في القرآن تناقض معه و نقض له .

١١ ـ نختم ، من حيث وجب أن نبدأ ، بالسيد مصطفى صادق الرافعي في (إعجاز القرآن ، و البلاغة النبوية) . صدر سنة ١٩٢٣ . و لدى الطبعة الخامسة من سنة ١٩٥٢ . لقد حاول الرافعي أن يفتح فتحاً جديداً في معجزة القرآن ، غير ما تداوله أهل الإعجاز ، فجاء كتابة قسمين . الأول يحاول أن يجد **معجزة تاريخية** في « تاريخ القرآن » (ص ٣٠ ـ ٧٤) « فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب » (ص ١٧٥) ، وفاته التفسير الصحيح لحديث الأحرف السبعة كما فصّله الطبري ، **و معجزة لغوية** في تخليد العربية بخلود القرآن (ص ٧٤ ـ ٨٦) وفاته تاريخ توحيد اللغات من قبل القرآن و من بعده ، فها التوراة تخلّد العبرية ، و الإنجيل يخلد اليونانية ، **و معجزة سياسية** في تكوين القرآن للعرب دولة تفتح العالم و تؤدبه بأدب القرآن (ص ٨٦ ـ ٩٩) ، و فاته تاريخ تكوين الامم و الامبراطوريات من قبل الإسلام و من بعده ، **و معجزة اجتماعية** بالإعجاز الأدبى الذي لقن الناس آداب الفطرة في الاجتماع الإنساني (٩٩ ـ ١٢٥) ، وفاته أن الفتح العربي لم يأتِ دول الهند و الفرس والروم إلا بالدين ، و استجمع الإسلام حضارته من صفوة الحضارات المغلوبة ، **و معجزة علمية** ، و هي على نوعين ، الأول كان القرآن على أساس العلوم العربية كلها ـ و هذا لا مماراة فيه ، و الثاني « الآيات الكونية و العلمية في القرآن » (ص ١٢٦ ـ ١٥٥) فكان الرافعي على أساس القول بالإعجاز العلمى المشبوه في القرآن . تلك **خمس معجزات** ليس فيها شرط من شروط المعجزة كما حدّدها المتكلمون من قبله . إنها من أفضال القرآن ، لا معجزات له .

يبقى القسم الثاني الذي يسميه « إعجاز القرآن » (ص ١٥٦) كما ورثه عن أسلافه . لكنه جدد البحث فيه و طوره الى مداه .

في فصل أول يفصّل « تاريخ الكلام في القرآن » (ص ١٦٠) . فكانت أول مقالة بخلق القرآن للبنانية أو البيانية . و تلقفتها الجعدية «فأضافت الى القول بخلقه أن **فصاحته غير معجزة** ، و أن الناس يقدرون على مثلها و على أحسن منها » . نجمت مقالة الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، في دمشق فأخذها عنه الخليفة نفسه (ص ١٦١) . و في مطلع العهد العباسي بلغ التطرف قمته . فكانت «الرافضة » و على رأسهم الحَكَمية ، جماعة هشام بن الحكم « **يزعمون أن القرآن بُدِّل و غُيِّر و زيد فيه و نُقِص منه وحُرِّف عن مواضعه** » . «أمّا إنكار أشياء من القرآن نفسه ، **على أنها ليست منه** ، فقد وقع لبعض الغلاة ، كالعجاردة ، الذين يُنسبون الى عبد الكريم بن عجرد ، في أواخر المائة الأولى. فإنهم ينكرون أن **سورة يوسف** من القرآن لأنها قصة ، زعموا » (ص ١٦١) .

و ممن أنكر الإعجاز في القرآن أيضاً «**الحسينية** ، أصحاب الحسين بن القاسم العناني ، الذين يزعمون أن كتبهم و كلامهم أبلغ و أهدى و أبين من القرآن » (ص ١٦٩) .

« و أشدّهم بعد الجعْد بن درهم، عيسى ابن صبيح المُزْدار، و أصحابه **المزدارية** » ، « يقولون **إن القرآن غير معجز** ، لا بقوة القدر ، و لا بضعف القدرة » . «**و قد زعم أن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً و نظماً و بلاغة** » (ص ١٦٨ ـ ١٦٩) .

و ظهرت **المعتزلة** فحاولوا الجمع بين قول العامة و قول الخاصة ، فنادت **بالنظامية** « بأن الإعجاز كان بالصَرْفة ، و هي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن ، مع قدرتهم عليها . فكان هذا الصرف خارقاً للعادة . قلنا: و كأنه من هذا القبيل هو المعجزة ، لا القرآن » (ص ١٦٢) .

و الجاحظ ، مؤسس الجاحظية ، كان على رأيين مختلفين . فكان أول من ألف « نظم القرآن » لبيان إعجاز بيانه الذي جعله في لفظه و نظمه ـ و هو القول الحق الى اليوم . لكنه تستّر وراء مقالته بخلق القرآن و عدم إعجازه بالقول المشهور عنه : « إن القرآن جسم يجوز أن يُقلب مرة رجلاً و مرة حيواناً ، أو مرة رجلاً و مرة أنثى » (ص ١٦٥) .

و اختلف القوم حتى اليوم في وجه الإعجاز . فنادى أهل الإعجاز في كتبهم على اختلاف بينهم أنه الإعجاز البياني ، مثل الواسطي و الرماني و الباقلاني و الجرجاني والخطابي و الرازي و ابن أبى الأصبع و الزملكانى ، مدة ثلاثماية سنة ، على اختلاف في وجه الإعجاز .

مع ذلك « فشت **مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة** » . و لجماعة من المتكلمين و أهل التقسيمات المنطقية ، على اختلاف بينهم ، **شُبَهٌ و مطاعن يوردونها على القرآن ، و هي نحو عشرين وجها** » (ص ١٦٧) .

و على الجملة فأهل السنة و الجماعة يقولون بإعجاز القرآن البياني . أما المعتزلة عموماً فيقولون : « **إن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوَّة** ». و الذين يقولون بالإعجاز ، فهم على خلاف في وجه الإعجاز فيه . فقضية الإعجاز القرآني مختلف فيها . و ما أختُلف فيه لا يصحّ أساسا للعقيدة . و سنرى أن القرآن لا يعتبر إعجازه معجزة له .

لكن الرافعي غالى على كل من سبقه فقال **بالإعجاز المطلق** في القرآن ، « **و إنه معجز من كل الوجوه** » ، « و إنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه ، من حيث هو كلام عربي » (ص ١٧٦) . مع ذلك وجه الإعجاز عنده ان « أسلوب القرآن » (ص ٢١٣) « **مخالف لكل الأساليب** » ، و هذه هي الناحية الأولى من إعجازه . الناحية الثانية ، « سرّ الإعجاز في النظم » أي في تركيب الحروف و الكلمات و الجُمَل (ص ٢٣٨) : إعجاز النظم الموسيقى في الحروف و أصواتها (ص ٢٤١) و في الكلمات و حروفها (ص ٢٤٩) بأصوات ثلاثة مجتمعة : صوت النَفَس و صوت العقل و صوت الحسّ ، و في الجُمَلِ و كلماتها ، « بنظم القرآن صورة واحدة من الكمال ، و إن إختلفت أجزاؤها في التركيب ، بذلك التناسب البديع في الترتيبات و الروابط من ربط كل كلمة بأُختها ، و كل آية بضريبتها ، و كل سورة بما إليها . « و هو علم عجيب أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى في تفسيره » (ص ٢٧٧) . ذلك هو الإعجاز في التركيب و التأليف ، **و غرابة أوضاعه التركيبية هي شطر الإعجاز في القرآن** (ص ٢٨٣) ، و هي الناحية الثالثة منه : « **كتاب واحد يستوفي وجوه البلاغة** » ، أي الإعجاز بسياستَي البيان و المنطق ، أو ما يُقال له في العرف : البيان و البلاغة (ص ٢٩١) . و الناحية الرابعة منه هي وجه إعجازه البياني : « الطريقة النفسية في الطريقة اللسانية » (ص ٢٧٧) . و الناحية الخامسة هي وجه إعجازه البلاغي ، على سبيل الخطاب و الجدل ، لا على سبيل البرهان المنطقى إلا ما ندر (٢٩٩) . و هذا الوجه كان أول من نبه اليه الفيلسوف ابن رشد .[٣]

---

(٣) « و قد استخرج الإمام الغزالي (المنطق) من القرآن » (ص ٣٠٠) ، و أيده ابن رشد بأن أسلوب القرآن يقوم على

و يختم الرافعي كتابه بقوله : القرآن هو نفس الوحي ، حيث الوحي هو المعجزة ، والمعجزة هي الوحي . و ذلك تمام إعجازه . « و هذا الحديث يجمع كل ما قدمناه من القول في إعجاز القرآن ، لأنه **وحي بمعانيه و ألفاظه** ، فهو بائن بنفسه من الكلام الإنساني . و لا بدّ أن يكون فائدة للناس ليعملوا ، و صادقاً على الناس كافة ليستفيدوا ، و معجزاً للناس كافة ليصدّقوا » (ص ٣٠٧) .

و فات الأستاذ الرافعي فصل (الإتقان ١ : ٤٤) « في المنزل على النبي ﷺ ثلاثة أقوال : (أحدها) إنه اللفظ و المعنى ، و (الثاني) إن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأنه ﷺ علم تلك المعاني و عبر عنها بلغة العرب ، و (الثالث) أن جبريل ألقى اليه المعنى و أنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب ، و أن أهل السماء يقرؤونه بالعربية » . فالتنزيل الإلهي باللفظ و المعنى قول واحد من ثلاثة . و عليه يكون لفظ القرآن و نظمه ، على قولين من ثلاثة ، إمّا من جبريل، و إمّا من محمد نفسه . و هذا يقضي على نظرية الرافعي أن « القرآن هو نفس الوحي » ، و أنه الإعجاز المطلق.

و نظرية الرافعي تجعل **الدين حرفاً ، و الوحي حرفاً ، و أهلهما عبّاد الحرف .** وذلك لارتباط الإعجاز بحرفه و نظمه .

و بما أن حرف القرآن و نظمه هما من جبريل أو من محمد نفسه ، على قولين من الثلاثة ، **فهذان القولان ينقضان إعجاز القرآن نفسه بحرفه و نظمه .**

فتاريخ الكلام في إعجاز القرآن يقود أهل العصر من المسلمين أنفسهم ، تجاه اختلاف السلف في وجه الإعجاز على ايجاد فلسفة جديدة للقرآن يستعيضون بها عن المعجزة والإعجاز .

« إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة (بالأسلوب الخطابي و الجدلي) ، لا على طريقة المنطق » ، بالأسلوب البرهاني (ص ٢٩٩) . فاخراج طريقة المنطق و البرهان من القرآن ، حوّله من أسمى ما وصل اليه الإنسان .

ثانياً : فلسفة أهل العصر في النبوّة و المعجزة

إن علماء الإسلام اليوم ، كما رأيت ، في حيرة من أمرهم تجاه فلسفة المعجزة والنبوّة. فهم تجاه واقع قرآني صريح قائم ، ((موقف القرآن السلبي من كل معجزة لـه)) ، وتجاه خلاف أهل السنة و الجماعة في وجه الإعجاز القرآني ، و تجاه أمر كلامي متشابه مشبوه في صحة إعجاز القرآن معجزة له ، منذ نادى المعتزلة ((بأن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوّة)) .

إن أئمة العلماء المسلمين الذين لا يُؤخذون بالتقليد يشهدون أن **لا معجزة في القرآن** دليل النبوّة ـ ما عدا الإعجاز البياني الذي سننظر فيه . و ثبت لديهم أن ما توّهمه بعضهم معجزة للنبي في القرآن و الحديث و السيرة ، ((من المتأكد أنه **ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح**)) ، ((ليس هناك آية قرآنية صريحة في القضية ، و لا حديث واحد متواتر)) كما نقلنا عن الأستاذ عبد الله السمان .

و إعجاز القرآن الذي اختلفوا في وجهه و في مداه كان التحدّي به عابراً ، و تجاه المشركين وحدهم . و عند لقاء أهل الكتاب في المدينة نسخه بآية (آل عمران ٧) : ((منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، **و أُخَر متشابهات ... و ما يعلم تأويله إلا الله** ، و الراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا)) . مع ذلك ظلّ بعضهم يتمسك به دليلاً على النبوّة ، لعلمهم بضرورة المعجزة لصحة النبوّة ، و ليس في القرآن غيره .

لكن بما أن القرآن لا يعتبر إعجازه معجزة له ، و لا يصحّ الإعجاز البياني الذي هو لخاصة العرب معجزة للعالمين ، فقد اضطر هذا الواقع القرآني و الكلامي أئمة العلماء في عصرنا أن يأتوا **بفلسفة جديدة** في النبوّة و المعجزة . و نحن ندرس الآن بعض نظرياتهم .

١ ـ قيل : لا ضرورة للمعجزة لصحة النبوّة

إن أهون سبيل للخلاص من ذلك الواقع المرير في القرآن ، هو المناداة بأن لا ضرورة للمعجزة في بيان صحة النبوّة. بدأ هذه الفلسفة الجديدة **حسين هيكل** في (حياة محمد، ص ٤٩٠) : ((ما كان محمد بحاجة الى الخوارق لإثبات رسالته)) . و أيده في ذلك شيخ الأزهر في مقدمة الكتاب . و سرت النظرية الجديدة بين القوم . ففى (سيرة الرسول ١: ٢٢٦) يعلن الأستاذ دروزة: ((إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد

عليه السلام ، و برهاناً على صحة رسالته و صدق دعوته » كما نقلنا عنه . و جاء الأستاذ العقاد ، في كتاب المؤتمر الإسلامي (حقائق الإسلام و أباطيل خصومه ، ص ٥٩) فأكمل النظرية : كانت الرسالة المحمدية « غير مشروطة بما غَبَرَ في الأوهام من قيام النبوّة كلها على دعوى الخوارق و الإنباء بالمغيّبات » . فالمعجزة و الإنباء بالغيب أمسيا « من الأوهام » في البرهان على النبوّة . و هكذا ظنّوا أنهم تخلصوا من مرارة الواقع القرآني « و موقفه السلبي من كل معجزة » لمحمد . لكن هذا الواقع الخطير المرير قد ألجأهم الى منطق غير مقبول .

إنّ قولهم بعدم ضرورة المعجزة لصحة النبوّة ينقضه صريح الكتاب و الإنجيل والقرآن ، حيث المعجزة دليل النبوّة الأوحد ، كما نقلنا في صدر هذا الكتاب . فالقرآن نفسه ـ الذي يعلن منع المعجزة مبدئياً عن محمد (الإسراء ٥٩) وعجزه واقعياً عنها (الإسراء ٩٣) ـ يصرّح أيضاً أن المعجزة « **سُنّة الأولين** » من النبيّين (الكهف ٥٥) ، و فيها « **السلطان المبين** » دليلاً على صحة رسالتهم و صدق دعوتهم (غافر ٢٣) . **و هذه السُنّة الإلهية في النبوّة لن تتحول و لن تتبدّل** : « فهل ينظرون إلا سُنّة الأولين : فلن تجد لسُنّة اللهِ تبديلاً ، ولن تجد لسُنّة اللهِ تحويلاً » (فاطر ٤٣) . فالتنكّر لضرورة المعجزة لصحة النبوّة نقض مفضوح لنص القرآن القاطع الصريح .

و ذلك القول عند علماء العصر ينقض أيضاً ما تواتر في علم الكلام عند أهل التوراة و أهل الإنجيل و أهل القرآن ، خصوصا عند المتكلمين المسلمين . فقد ظلوا على الدوام ينادون بأن المعجزة دليل النبوّة الأوحد . وقد فلسف الجويني ذلك في (الارشاد ، ص ٣٣١) كما نقلنا عنه في صدر الكتاب : « لا دليل على صدق النبي غير المعجزة . فإن قيل : **هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة ! ـ قلنا : ذلك غير ممكن** » . فعلم الكلام في جميع الأديان يثبت : أن لا نبوّة بدون معجزة .

و هذه الضرورة حملت علماء الكلام ـ و قد شاهدوا فراغ القرآن من كل معجزة حسية على ابتكار معجزة (إعجاز القرآن) دليلاً على نبوّة النبي العربي . و هذا ما يقول به علماؤهم إلى يومنا . و هكذا فهم يناقضون أنفسهم بأنفسهم : إنهم ينفون ضرورة المعجزة ، مع أنهم يقوّمون إعجاز القرآن معجزة له كما يقول شيخهم ، حسين هيكل : « إن كتاب الله هو وحده معجزة محمد » [1] . هذا ما كان يقوله أصحاب نظرية (إعجاز القرآن) ، مثل شيخهم

---

(١) **حياة محمد** ، ص ٥٢ و ٥٧ .

الباقلاني[1] ((الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوءة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة)) .

فتنكرهم لضرورة المعجزة هو إنكار لإعجاز القرآن نفسه كمعجزة .

٢ ـ أصحيح أنه ((ليس للمعجزات حجيّة)) ؟

هذا ما تعلمه الدكتور نظمي لوقا من مشايخه العصريين . و قد أعطى الأستاذ دروزة السبب الكلامي : كانت الدعوة القرآنية ((في غنى عن معجزات خارقة للعادة ، **لا تتصل بها بالذات**)) .

أجل إن المعجزة الإلهية التى تشهد للنبي بصدقه فيمَا يبلّغ عن ربه ، لا توضح بحدّ ذاتها الحقيقية أو الرسالة في نفسها ، فإنها ((لا تتصل بها بالذات)) .

و لكن الحقيقة ، سواء كانت منزلة أو بشرية ، هي حقيقة في ذاتها . فما الضامن أنها من عند الله ؟ لا يمكن أن يكون الضامن من ذاتها ـ و حينئذٍ تلتبس علينا الحقيقة الإلهية والحقيقة البشرية ـ فلا بدّ لها من قرين معجز يدلنا على مصدرها الإلهي . قال الإمام الجويني في (الارشاد ، ص ٣٣١) : ((**ليس في المقدور نصب دليلٍ على صدق النبي غير المعجزة** : فإن ما يقدَّر دليلاً على الصدق لا يخلو ، إمّا أن يكون معتاداً ، و إما أن يكون غير معتادٍ ، فإن كان معتاداً (كالحقيقة في ذاتها) **يستوى به البَرّ و الفاجر** ، فيستحيل كونه دليلاً، و إن كان خارقاً للعادة ـ و تعلّق به دعوى النبي ـ فهو المعجزة بعينها)) .

و هكذا فالحجيّة للمعجزة وحدها في إثبات صحة النبوّة من الله ، ((و ليس في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة)) .

٣ ـ هل تنقضي دلالة المعجزة بانقضاء زمانها ؟

قال الأستاذ دروزة[2] في سبيل تفضيل (إعجاز القرآن) على معجزات الأنبياء الحسيّة ، و هو يغمز منها : ((و في هذا ما فيه من وضوح مزيّة الرسالة المحمدية و ترشحها للخلود و التعميم : و آيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت و انقضت)) . و ردّد تلميذهم

---

(١) **التمهيد** ص ١٦ .
(٢) **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٦ .

الدكتور نظمي لوقا[1]: « و أما المعجزات فلا حجيّة لها إلاّ لمن شهدها شهود العيان ، و بيننا و بين تلك أجيال و أجيال » . و هكذا فإن دلالة المعجزة تنقضي بانقضاء زمانها ، على حدّ قولهم .

أجل إن « آيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت و انقضت » ، لكن دلالتها البرهانية على صدق نبيّها لم تنقضِ معها . و ها القرآن نفسه يشهد بعد ألفي سنة بدلالة معجزات موسى: « و لقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات ، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءَهم » (الإسراء ١٠١) . و ما قصص الأنبياء في القرآن سوى دليل قاطع على أن دلالة المعجزة لا تنقضي بانقضاء زمانها .

إن معجزات الأنبياء قد انقضت كحادثات ، لكنّها أدت مهمتها في زمن النبوّة شهادة لها ، و بدونها لم يكن للنبوّة من شهادة . و مازالت تؤدّي مهمتها إلى الأبد ، فالنبي الذي ثبت بالمعجزة أنه يتكلم باسم الله ، سيظل كلامه كلام الله إلى الأبد . فدلالة معجزته تدوم دوام كلامه .

و القرآن شاهد عدل على أن المعجزة دليل النبوّة بعد آلاف السنين . فلما نادى محمد بنبوته ، كان تحدي المشركين له على الدوام بمعجزة مثل سائر الأنبياء : « فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون » (الأنبياء ٥) ، « لن نؤمن حتى نُؤتى مثل ما أُوتى رسل الله » (الأنعام ١٢٤) . فالقرآن يشهد بأن دلالة المعجزة لا تنقضي بانقضاء زمانها .

٤ ـ هل المعجزة الحسية « دليل عهد الطفولة العقليّة » ؟

لقد أوجز السيوطي في (الإتقان ٢ : ١١٦) موقف الأقدمين ، قال : « إن المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّي ، سالم عن المعارضة . و هي إما حسية و إما عقلية . وأكثر معجزات **بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم و قلّة بصيرتهم** ، و أكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم و كمال أفهامهم . و لأن هذه الشريعة ، لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة ، **خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية** ليراها ذو البصائر » .

---

(١) **محمد الرسالة و الرسول** ص ٤٩ .

و هذا ما يردّده علماء العصر ، مثل الأستاذ عبد الله السمان[1] : ((و لكن الله عزّ وجلّ أراد أن يرفع من قدر الرسالة فيجعلها عقلية منطقية تخاطب العقل و المنطق ، و أيدها بكتاب الله ليعيش معها الى أن يرث الله الأرض و من عليها كآية خالدة معجزة)) .

و قال السيد الصادق[2] : ((و ما كان الله ليمدّ النوع الإنساني في **طفولته** بما يحفظ به حياته الروحية ، ثم يدعه بعد أخذ سبيله الى النظر العقلي و الاستقلال الفكري دون أن يقيم له من الأدلة ما يتناسب و الارتقاء الذي انتهى اليه : فكان أن بعث محمداً ﷺ و أيده **بالمعجزة العلمية و الحجة العقلية** ، و هو القرآن الكريم)) .

نقول : إن هذا فرض نظريات على تاريخ البشرية ما أنزل الله بها من سلطان . نتساءَل : ألم تكن جاهلية الحجاز حين الدعوة القرآنية في طفولة عقلية بعد دعوة المسيح في فلسطين بستماية سنة و نيّف ، تحت حكم الدولة الرومانية و الثقافة الهلنستية و الكتابية ؟ فحين الدعوة المسيحية كانت فلسطين ملتقى الحضارات و الثقافات ، وقد بلغت ((سن الرشد)) أكثر مما سيحلم به الحجاز في الجاهلية ؛ و مع ذلك فقد كانت المعجزة الحسية دليل النبوّة في الإنجيل ، مع مخاطبة العقول و الضمائر .

فليست المعجزة الحسية دليل عهد الطفولة العقلية ، و لم تكن ((أكثر معجزات بني إسرائيل (في زمن المسيح) حسية لبلادتهم و قلّة بصيرتهم)) ، انما كانت معجزات المسيح برهان النبوّة و الشخصية لأنه ((ليس في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة)) .

و القرآن نفسه شاهد عدل : فأهل مكّة ظلوا يطالبون محمداً بمعجزة حسية طول عهد النبوّة حتى عجز و أقرّ بعجزه (الأنعام ٣٥) و قرّر القرآن أن المعجزة منعت عن محمد منعاً مبدئياً مطلقاً (الإسراء ٥٩) . فهل تلك المطالبة بمعجزة كالأنبياء الأولين كانت عند أهل مكّة دليل عهد الطفولة العقلية ؟ أم هل كانت جاهلية العرب يوم الدعوة القرآنية في عهد ((النظر العقلي و الاستقلال الفكري)) ، بينما رومة و أثينا و أنطاكية و الاسكندرية كانت كلها في ((عهد الطفولة العقلية)) ؟

---

(١) **محمد الرسول البشر** ، ص ١١٣ .
(٢) **العقائد الإسلامية** ، ص ٢١٦ .

٥ ـ أصحيح أنَّ « المعجزات لم تصلح من قبلُ وسيلة لإقناع » ؟

قال الأستاذ عبد الله السمان[١] : « و قد شقّ محمد لدعوته طريقه الى القلوب و العقول غيرَ مؤيَّد بالخوارق ـ التى لم تصلح من قبل وسيلة لإقناع » .

نسجل على الأستاذ تصريحه المتواتر بأن الدعوة القرآنية لم تؤيّد بمعجزة . لكن نأخذ عليه وعلى أمثاله فلسفة هذا الواقع القرآني: « إن المعجزات لم تصلح من قبل وسيلة لإقناع ».

و ها الكتاب شاهد على أن الدعوة الموسوية لم تنجح في مصر ، و لم تنجح مع بني إسرائيل إلا بفضل المعجزة . و ها الدعوة المسيحية فإنها لم تنجح و تكتسح العالم ، إلا بفضل المعجزة ، و قيامة المسيح و رفعه حياً الى السماء ، و ذلك معجزة المعجزات .

و القرآن نفسه شاهد عدل على أن الدعوة السماوية تقوم أولاً على المعجزة . فإن القصص القرآني يشغل حيزاً كبيراً من القرآن ، و ما يقصّه إلا للتمثيل لأهل زمانه المشركين. و كل قصصه يقوم على ذكر الدعوة و المعجزة التى أيدتها ، و يختمه بمثل قوله : « و تلك الأمثال نضربها للناس » (العنكبوت ٤٣ ، الحشر ٢١) ، « يضرب الله الأمثال » (الرعد ١٧ ، إبراهيم ٢٥ ، النور ٣٥) ، « و ضربنا لكم الأمثال » (إبراهيم ٤٥) . فجدلية القرآن مع المشركين في قصصه هي لإقامة الحجة عليهم بدعوة الرسل و معجزاتها .

و القرآن المكي صراع متواصل مع المشركين على تحدّيهم محمداً بمعجزة كالأنبياء الأولين لكي يؤمنوا به : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أُوتي رسل الله » (الأنعام ١٢٤) ؛ ثم يتهمون النبي بشتى التهم إذ لم يأتهم بآية معجزة : « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (الأنبياء ٥) . و يذهبون الى الأقسام المغلّظة أنهم يؤمنون اذا جاءَهم محمد بمعجزة : « و أقسموا بالله جهد إيمانهم : لئن جاءَتهم آية ليُؤمنُنَّ بها ! قل : انما الآيات عند الله ! » (الأنعام ١٠٩) . إنَّ أهل مكّة يجادلون محمداً في المعجزة وسيلة للإقناع . فالمعجزة دليل النبوّة الأوحد في نظرهم و في نظر القرآن . لذلك يسجل عجزه عن معجزة ، و امتناعهم عن الإيمان : « و ما منع الناس أن يؤمنوا ، اذ جاءَهم الهدى ... إلاّ أن تأتيهم سُنّة الأولين » (الكهف ٥٥) .

---

(١) **محمد الرسول البشر** ، ص ٨٩ .

فالمعجزة ((سلطان الله المبين)) للبرهنة على صحة النبوّة مع الأولين و مع الآخرين و مع العالمين .

فما من رسالة من السماء آمن بها الناس إلا عن طريق المعجزة . لذلك هي الشهادة القاطعة في التوراة و الإنجيل و القرآن . إنها الوسيلة الوحيدة لإقناع الناس ، و الواقع القرآني شاهد عدل .

فالقول بأن الخوارق لم تصلح وسيلة للإقناع ينقض القرآن الصريح والتاريخ الصحيح.

٦ ـ هل سبيل النبوّة الصحيح هو الإقناع بالمنطق السليم ؟

قيل : ((بعد أن بلغ الناس سنّ الرشد ، لا يصلح لإقناعهم سوى المنطق السليم)) . وقال السيد الصادق[1] : ((فلما بدأ النوع الإنساني يدخل في سن الرشد ، و بدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها الى الظهور و النماء ، لم تعد تلك العجائب هي الأدلّة الوحيدة على صدق الرسالة)) .

نقول : إن مثل هذه الأقوال يتنافى وواقع التاريخ و البشرية . إن دعوة المسيح ، بشهادة الإنجيل و القرآن ، قامت على المعجزة ، و كانت بيئة المسيح ملتقى الحضارات وجماع الثقافات ؛ فخاطبهم بالحكمة و المعجزة . فهل بلغت بيئة القرآن الجاهلية سن الرشد حين نزول القرآن ، أكثر من أهل فلسطين تحت الحكم الروماني و الثقافة الكتابية و الهلنستية، حتى يخاطبهم بالحكمة من دون المعجزة ؟!

و هل بلغت الجماهير في العالم الإسلامي ، في عصرنا ، سن الرشد ، حتى لا يصلح لإقناعهم سوى المنطق السليم ؟ إن الناس الذين يُقادون أو ينقادون بالمنطق السليم في البشرية كلها ، هم قلّة محدودة في كل أمة . و ستظل البشرية في سوادها شعباً لا يفهم الحق بالمنطق السليم، ولا تؤمن إلاّ عن طريق المعجزة، لأنها بالفطرة ((سلطان مبين)) من الله ، و ((سُنّة)) النبيّين الى يوم الدين .

و القرآن المكي شاهد عدل على أن سبيل النبوّة الصحيح ليس الإقناع بالمنطق السليم . فقد ظل القرآن يخاطب أهل مكّة ((بالحكمة و الموعظة الحسنة)) مدة اثنتى عشرة سنة ، فما

---

(١) **العقائد الإسلامية**، ص ٢١٦.

أقنعهم بالمنطق السليم ، و ظلوا طول العهد المكي يقولون : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أُوتي رسل الله » (الأنعام ١٢٤) ، فجاءَهم من المدينة « بالحديد الذي فيه بأس شديد و منافع للناس » فرضخوا لسلطانه . فبيئة القرآن نفسها لم تقبل منطق « الحكمة والموعظة الحسنة » ، بل تحدت محمداً بمنطق المعجزة .

و هل كانت دعوةً بالمنطق السليم ، في المدينة ، الدعوةُ التى تشرع الجهاد في سبيل فرض النبوّة ؟ و هل كانت دعوة الى العقول و القلوب و الضمائر ، تلك الدعوة التى يشهد كتابها أن « فيه آيات محكمات هن أُم الكتاب ، و أخر متشابهات ... و ما يعلم تأويله إلا الله ، و الراسخون في العلم يقولون : « آمنا به » (آل عمران ٧) أى « **آمنا بالمتشابه أنه من عند الله ، و لا نعلم معناه** » (الجلالان) ؟ فهل هذا هو المنطق السليم ، و سبيل النبوّة الصحيح ؟ فهل خطاب الناس « بمتشابه » القرآن ـ وهو أكثره ـ جواب على بلوغ البشرية سن الرشد، و السبيل الصحيح لإقناعها بالمنطق السليم ، « الذي لا يعلم تأويله إلا الله » ؟

إن سبيل النبوّة الصحيح هو الحكمة و المعجزة . و لا تقوم حكمة من عند الله بدون معجزة . فالمعجزة دليل النبوّة الأوحد ، ووسيلة الإقناع الوحيدة على صحة النبوّة و الحكمة المنزلة « و ليس في المقدور نصْب دليل على صدق النبي غير المعجزة » .

٧ ـ هل « الآية الكبرى هي صدق الكلمة ، و صدق النبي » ؟

يقول الأستاذ نظمى لوقا : « الآية الكبرى هي صدق الكلمة من حيث هي : فإن الحقيقة آية نفسها تحمل برهانها في مضمونها ، فيطمئن اليها العقل ، و يبدو ما يباينها هزيلاً واضح البطلان » . هذا هو مقياس النبوّة الأول . و قد رأينا بطلانه . فهو يضع الوحي والتنزيل موضع العقل و المنطق ، و يضفي صفة الوحي على كل حقيقة بشرية .

و مقياس النبوّة الثاني في صدق الرسول . و هو مزدوج : « آية صدقه ما أتانا به » في مطابقة الوحي للحقيقة ، « و إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها » . **هذا منطق غريب يدور في حلقة مفرغة** : الكلمة منزلة لأنها صادقة ، و هي صادقة لأنها منزلة ! النبي صادق لأن نبوته صادقة ، و نبوته صادقة لأن النبي صادق .

و هذا التخريج لا يأخذ بعين الاعتبار الواقع القرآني . يقول : « إن أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة هو مبلغ إيمانه بها » . فهل استشهاد سقراط في سبيل فلسفته دليل

على أنها منزلة ؟ و هل استشهاد الحلاّج في سبيل الحلولية المطلقة برهان على أنها الحقيقة ؟ و هل إيمان الفلاسفة و العلماء بنظرياتهم برهان على أنها منزلة من الله ؟

و هذا المقياس ينقضه أيضاً الواقع القرآني : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك : لقد جاءَك الحق من ربك ! فلا تكوننَّ من الممترين ! ولا تكوننَّ من الذين كذبوا بآيات الله ، فتكون من الخاسرين » (يونس ٩٤ ـ ٩٥) . والتحذير الشديد لمحمد برهان على أن الشك من التنزيل قد بلغ في نفسه مبلغاً . و يلاحقه القرآن : « فلا تكوننَّ من الممترين » (الأنعام ١١٤ ، يونس ٩٤ ، البقرة ١٤٧) ، « فلا تكُ في مرية منه ، إنه الحق من ربك » (هود ١٧) ، « فلا تكُ في مرية ممّا يعبد هؤلاء » (هود ١٠٩) .

و يدعوه القرآن مراراً الى الاستقامة في دعوته : « فاستقم كما أمرت و مَن تاب معك، و لا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير » (هود ١١٢) ، « فلذلك (دين إبراهيم و موسى و عيسى) فادعُ و استقم ، كما أُمِرت ، ولا تتبع أهواءَهم ، و قلْ : آمنت بما أنزل الله من كتاب » (الشورى ١٥) . نقل الزمخشري في تفسير « فاستقم كما أمرت » (هود ١١٢) عن ابن عباس : ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد و لا أشق عليه من هذه الآية، ولهذا قال: (شيّبنى هود) ! وعن بعضهم: ما الذي شيّبك منها ! قال: « فاستقم كما أمرت » . ثم قال : أفتقر الى الله بصحة العزم » .

و الأزمات الإيمانية متواترة في القرآن[1]. و هي واقع قرآني لا مرية فيه. فكيف « يكون أول مقياس يقاس به صدق صاحب الرسالة ، هو مبلغ إيمانه بها » ؟

و إن صحّ هذا المقياس ، فما البرهان على أن النبي ـ كل نبي ـ ليس موهوما ؟! فما البرهان أن الوحي عنده ليس وحى الفطرة ، بل وحى الله ؟ إن إخضاع صحة الوحي للعامل النفساني هو أكبر شبهة عليه ، إلاّ عصمة إلا الله .

و عصمة الله في التنزيل لا تقاس على « مبلغ إيمان النبي به » ، و لا « على صدق الكلمة من حيث هي » . فالتنزيل من الله ، لا يؤيده شيء من الانسان ، انما يؤيده شيء من الله نفسه ، و هذا هو المعجزة .

---

(١) راجع كتابنا : **القرآن و الكتاب** (القسم الثاني) ، ص ٦٩٧ ـ ٧٠٥ .

٨ ـ هل القرآن ((أسلوب جديد)) في النبوّة ؟

قال الأستاذ دروزة يفلسف حكمة الله في منع المعجزات عن محمد دلائل على صحة نبوته :

((إن حكمة الله اقتضت **أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام** ، و برهاناً على صحة رسالته و صدق دعوته ـ التى جاءَت **بأسلوب جديد** هو أسلوب لفت النظر إلى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها ... ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب ... (و هذا الأسلوب الجديد) **جعلها في غنى عن معجزات خارقة للعادة** لا تتصل بها بالذات ... هو أسلوب خالد حي قوي في كل زمان و مكان ببراهينه و دلائله و حيويته ونفوذه و فصاحته و معقوليته و منطقه و سمّوه . و لذلك كان **و ظل معجزة النبوّة الخالدة الكبرى** من هذه النواحي)) .

أجل إن أسلوب القرآن ((حي خالد قوي ... ببراهينه و دلائله و حيويته و نفوذه وفصاحته و معقوليته و منطقه و سمّوه)) . لكن هل هو ((أسلوب جديد)) ؟ و هل قبل به أهل مكّة برهاناً على صحة النبوّة و الدعوة ؟ نضيف الى ما قلناه سابقاً هذه الاعتبارات .

١) لم يقبل أهل مكّة ((بالأسلوب الجديد)) في القرآن معجزة له . يكفينا شهادة الأستاذ دروزة نفسه[١]: ((فوقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآني من تحديهم ، و أخذوا يطالبون النبي ﷺ بالمعجزات و الآيات برهاناً على صدق دعواه أولاً . ثم أخذوا يدعمون مطالبهم بتحدٍّ آخر و هو سُنّة الأنبياء السابقين الذين جاؤوا بالآيات و المعجزات ... و لقد تكرر طلب الآيات من الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم ، كثيراً حتى حكى القرآن المكي ذلك عنهم **خمساً و عشرين مرة صريحة** ، عدا ما حكي عنهم من التحدّي الضمني ، و من التحدّي بالإتيان بالعذاب و التساؤل عن موعده . و لا نعدو الحق اذا قلنا **إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدّي المتكرر كان سلبيّاً**)) .

فالواقع القرآني شاهد عدل على أن هذا ((الأسلوب الجديد)) في القرآن لم يكن برهاناً على صحة النبوّة و الدعوة ، و لا قام عند العرب مقام المعجزة دليلاً على صحة النبوّة . **فلم يكن هذا الأسلوب الجديد ((في غنى عن معجزات خارقة للعادة)) .**

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢١٥ ـ ٢٢٦ .

٢) و هل كان « أسلوب لفت النظر الى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها » « أسلوباً جديداً » في النبوّة ؟

ألم يكن « أسلوب لفت النظر الى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها » على صحة التوحيد أسلوب « الكتاب و الحكم (الحكمة) و النبوّة » الذي أُمر محمد أن يقتدي به (الأنعام ٩٠) ؟ أجل لقد كان أسلوب الكتاب و الأنبياء كأشعيا ، و أسلوب الزبور ، وأسلوب الحكمة ، و أسلوب الإنجيل . ففى عرف الكتاب كله ، أن الخليقة تدل على خالقها .

نكتفى من الكتاب بقول الحكمة: « إن جميع الذين لا يعرفون الله هم حمقى من طبعهم. لم يقدروا أن يعلموا الكائن من الآيات المنظورة ؟ و لم يتأملوا المصنوعات حتى يعرفوا صانعها » (سفر الحكمة : ف ١٣ كله) .

و قال الأستاذ العقاد يصف إعجاز الإنجيل في دعوة السيد المسيح[١] : « **و ذوق الجمال بادٍ في شعوره ، كما هو بادٍ في تعبيره و تفكيره .** و التفاته الدائم الى الأزهار والكروم و الحدائق التى يكثر من التشبيه بها في أمثاله ، **عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال** و الاعجاب بمحاسن الطبيعة . و كثيراً ما كان يرتاد المروج و الحدائق بتلاميذه ، ويتخذ من السفينة على البحيرة ـ بحيرة طبريا ـ منبراً يخطب منه المستمعين ، على شاطئها المعشوشب ، كأنما يوقع كلامه على هزّات السفينة ، و صفقات الموج ، و خفقات النسيم . ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة كما يألف الخلاء الطلق ، حيث يقضى سويعات الضحى والأصيل ، أو سهرات الربيع ، في مناجاة العوالم الأبدية ، على قمم الجبال ، و تحت القبة الزرقاء ... و هم يُصغون بأسماعهم و قلوبهم الى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناجيهم بالغرائب و الغيبيات مأنوسة حية » .

و الشعر و الحكمة و الصوفية فطرة في السيد المسيح . فيأخذ من مظاهر الكون ، بالمنطق الفطري السليم ، براهينه على عناية الله بخلقه : « إنى أقول لكم : لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ! و لا لأجسادكم بما تلبسون ! أليست النفس أعظم من الطعام ، و الجسد أفضل من اللباس ؟ انظروا الى طيور السماء ، فإنها لا تزرع و لا تحصد و لا تجمع الى أهراء ، وأبوكم السماوي يقوتها : أفلستم أنتم أفضل منها بكثير ! ... تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو : إنها لا تتعب و لا تغزل ، و أنا أقول لكم : إن سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها ! فإذا كان

---

(١) **حياة المسيح** ، ص ١٧٠ ـ ١٧٧ .

عشب الحقل الذي يكون اليوم ، و يُطرح في التنور غداً ، يلبسه الله هكذا ، فكم بالأحرى يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان ! ... و أبوكم السماوي عالم بأنكم تحتاجون الى هذا كله : فاطلبوا أولاً ملكوت الله و برّه و هذا كله يُزاد لكم » (متى ٦ : ٢٥ ـ ٣٣) . هذا هو منطق الفطرة السليم . و هو الأسلوب المعجز في لفت النظر الى الكون و آياته . لكن السيد المسيح **يقرن الحكمة بالمعجزة** لأنهما جناحا التنزيل في الإنجيل .

و بولس ، رسول المسيح ، يسير على خطى معلمه ، فيخاطب أهل رومة ، عاصمة المسكونة ، مستعلياً بالحكمة المنزلة على الحكمة الهلنستية الرومانية : « إن ما يعرف عن الله واضح لهم ، فقد أبانه الله لهم : فمنذ خلق العالم ، لا تزال صفاته الخفية ، لا سيما قدرته الأزلية و إلهيته ، ظاهر للبصائر في مخلوقاته . فلا عذر لهم ، لأنهم عرفوا الله و لم يمجدوه و لم يحمدوه كما ينبغي لله ، بل تاهوا في آرائهم الباطلة ، فأظلمت قلوبهم الغبية . زعموا أنهم حكماء ، فإذا هم حمقى ، قد استبدلوا بمجد الله الخالد صوَراً تمثل الانسان الزائل و الحيوان من طير و دابة و زحافات » (١ : ١٩ ـ ٢٣) .

فلم يأتِ القرآن « بأسلوب جديد » في النبوّة و الدعوة . إنما سار على مثال الكتاب كله، إمامه في الهدى و البيان : « و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً ، و هذا كتاب مصدق لساناً عربياً » (الأحقاف ١٢ ، هود ١٧) ، فليس فيه من جديد سوى اللسان العربي ، و ذلك بشهادته الصادقة القاطعة . و هو إنما كان « يعلمهم الكتاب و الحكمة » (البقرة ١٢٩ ، آل عمران ١٦٤ ، الجمعة ٢) أي « التوراة و الإنجيل » (آل عمران ٤٨ ، المائدة ١١٠) . ويؤكد : « هذا ذكر مَن معي و ذكر من قبلي » (الأنبياء ٢٤) ، « و إنه لذكر لك و لقومك » (الزخرف ٤٤) ، « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات و الزبر » (النحل ٤٣ ـ ٤٤) . إن « الذكر » القرآني ينتسب إلى « أهل الذكر » أي أهل الكتاب ، و يستشهد بهم على صحة دعوته . هذا هو أسلوب القرآن ، لا غيره .

لقد جاء الكتاب و الإنجيل بهذا « الأسلوب الجديد » ، « أسلوب لفت النظر إلى الكون و ما فيه من آيات باهرة ، و البرهنة بها » . لكن الكتاب و الإنجيل **قرنا الحكمة بالمعجزة .** واقتصر القرآن وحده على الحكمة بدون معجزة .

٣) فهل اقتصار القرآن على « الأسلوب الجديد » المزعوم هو « **معجزة النبوّة الكبرى الخالدة** » ؟ و هل يصحّ هذا « الأسلوب الجديد » برهاناً على صحة النبوّة و صدق الدعوة ؟

إن أسلوب البرهنة بآيات الخليقة على خالقها هو أسلوب جميع المتكلمين في التوحيد ، من أهل الكتب السماوية ، و من أهل الفلسفة و الكلام في كل الأديان . فليس هو مقتصراً على القرآن و حده ، ليكون ((معجزة النبوّة الكبرى الخالدة)) !

و هذا ((الأسلوب الجديد)) يعنى **اقتصار التوحيد المنزل على التوحيد العقلي** كأنه ليس في تنزيل الله من غيبه ما يسمو على الانسان و عقله ! فلو لم يكن عند الله ما هو أسمى من الفطرة و من العقل لَمَا أنزله الله ! فما يقدر عليه العقل بفطرته لا حاجة لنا الى وحى به . هذا هو منطق البوذية و البرهمية : لا نبيَّ سوى العقل !

ثم ان إنزال الوحي منزلة العقل هو جعْل العقل حكماً على التنزيل . و هذا هو موقف الدهريين في كل زمان . إنه تلبيس الوحي بالمنطق . و قد قالوا : ((مَن تمنطق تزندق)) !

و إن قياس الحقيقة المنزلة على الحقيقة البشرية و بميزانها يضطرّنا الى اعتبار كل حقيقة عقلية أو علمية منزلة ، و اعتبار كل كتاب بشري ـ حتى من ملحد ـ يعلم الحقيقة منزلاً ! إذ لم يبق من سبيل الى التمييز في الحقيقة بين وحى الله و فيض العقل .

و إعجاز القرآن كدليل على وحى الله به ، ((لاجتماع الدليل و المدلول عليه فيه)) ، لا يتخطى اللغة العربية ، و للخاصة من أهلها ، و يذوب في الترجمة الى لغات العالمين ، فتبقى الحقيقة المنزلة للعالمين أجمعين بدون دليل على صحتها و مصدرها . و إرغام العالمين على معرفة العربية ، حتى ذوق الجمال الفنّي في القرآن ، هو تكليف الناس بما لا طاقة لهم به ، ويخالف سنن الله في خلقه ، ((و لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها)) .

النتيجة الحاسمة إن الحقيقة في كلام الخالق و كلام المخلوق واحدة في ذاتها : فلا شىء في ذاتها يدلّ على مصدرها ، من حيث هي حقيقة . لذلك لا يميز الحقيقة ، من حيث مصدرها ، في كلام الله ، عنها في كلام الانسان ، سوى دليل إلهي خارج عنها و هذا الدليل الإلهي ، قرين الحقيقة المنزلة للدلالة على مصدرها و على عصمتها ، هو المعجزة . فلا نبوّة بل معجزة .

٩ ـ هل ((كل رسول تكون معجزته من جنس ما نبغت فيه أُمته)) ؟

هي مقالة السيد عفيف عبد الفتاح طبارة في كتابه (روح الدين الإسلامي ، ص ٣٠)، تواترت إليه عمن سبقه اليها من أمثاله. فاختار الله معجزة لمحمد الإعجاز البياني في القرآن، لأن ((العرب كانت مفطورة على حب البلاغة و الأدب و الشعر و الخطابة)) (ص

٢٧) . لقد بحثنا نظرية السيد طبارة . هنا نتوقف على هذه المقالة ، تتميماً لفلسفة أهل العصر في النبوّة و المعجزة .

إن كتب الأدب لا تعرف لعرب الجاهلية سوى الشعر الغنائي ، و تجهل عندهم الشعر الملحمى و المسرحي . و لا تذكر لهم من الخطابة ما يستحق الذكر . ناهيك عن سائر الفنون الأدبية . و هذا الواقع لا يقاس أبداً بما كان في أثينة و رومة و الاسكندرية و أنطاكية . فلم ينبع العرب في الإعجاز البياني و البلاغي ، قبل القرآن ، الى بعض ما نبغت فيه تلك العواصم ، في عهدها الوثني كما في عهدها المسيحي .

و هل يقاس الأدب الجاهلي بما في الكتاب القدسي من تشريع و تاريخ و شعر وخطابة و قصص و ملحمة ، حتى ندّعي أن بنى قومنا في جاهلية الحجاز نبغوا فيه أكثر من بنى عمومتهم ؟

و السيد طبارة يُناقض نفسه حين يزعم للقرآن معجزات علمية لم يكتشفها فيه العرب قبل القرن العشرين : فهل نبغوا في العلوم الكونية حتى تكون هذه المعجزات العلمية « من جنس ما نبغت فيه أمته » !

وهب أن السيد طبارة يتكلم عن العرب وحدهم و نبوغهم في فن الكلام : فهل إعجاز بياني و بلاغي في خطابهم ، يكون معجزة للعالمين ؟ و سنرى أن القرآن لا يعتبر إعجازه معجزة للعالمين ، و لا للعرب الكتابيين .

١٠ ـ هل من « المستحيل أن تخلو سيرة النبي من معجزات تشهد له » ؟

لقد درسنا مقالة الشيخ عبد الكريم الخطيب . نقف هنا عند منطقه من وجود المعجزة شهادة للنبوّة . انها قضية مبدإ : محمد نبي ، فلا بدّ من المعجزات تشهد له ، لذلك فهي قائمة ملموسة . يقول : « إذا كان من الممكن أن يُسلّم عقلاً بأن تخلو سيرة الرسول الى مبعثه من إشارات و دلالات تشير إلى النبوّة و تحدّث عنها ... اذا كان من الممكن أن يُسلّم بهذا ـ وهو ما لا يمكن أن يُسلّم به أو يُقبل بحال أبداً ـ فإن عدم التسليم بهذا في الفترة السابقة من حياة النبي قبل مبعثه يرتفع الى **درجة المستحيل** أن تخلو سيرة النبي خلال فترة النبوّة من آيات ومعجزات تشهد له بأنه ذلك الانسان الذي اختاره الله و اصطفاه و رفع منزلته على منازل الناس جميعا في الدنيا و الآخرة » (النبي محمد ، ص ٢٢٤) .

الاستحالة شهادة ناطقة على ضرورة المعجزة لصحة النبوّة . لكن مقالته جامعة للمتناقضات :

تناقض بالنزول من المبدإ الى الواقع : يجب أن يكون لمحمد معجزات ، إذن محمد له معجزات تشهد له ، و هذا خلاف صريح القرآن .

تناقض بالدوران في حلقة مفرغة : ان محمداً نبي ، لذلك يستحيل ان تخلو سيرته من معجزات . إن أمثال الخطيب يرفضون أن يخضعوا للواقع القرآني الصريح و موقفه السلبي من كل معجزة تشهد له .

تناقض في موقفه . إنه من جهة يروى « إشارات و دلالات تشير الى النبوّة و تحدّث عنها » قبل البعثة ، و يقص معجزات ، خلال فترة النبوّة ، تشهد له . و من جهة أخرى يعلن: « أما معجزة النبي الكبرى و آيته الخالدة فهي القرآن الكريم » (ص ٢٣٧) . و العبرة بمعجزة التحدّي ، و ليس لمحمد سوى القرآن كما يصرح الخطيب نفسه : « و نحن نقول : إن معجزة الرسول هي القرآن ، و ليس له معجزة سواها » (ص ٧٢) .

و في معجزة القرآن يناقض أيضاً نفسه : « إن الإعجاز القرآني يخاطب العقل ويناجي الوجدان . على حين ان الإعجاز في **معجزات الرسل** إنما يخاطب الحواس و يصادم ناموس الطبيعة القائم في الناس ، فيُحدث في الحياة زلزلة عنيفة تنبّه الغافلين و توقظ النيام . لهذا كان **الإعجاز القرآني في حاجة ملزمة الى قوة تظاهره** و تجعل له في الناس قدماً ثابتة » (ص ٢٧٩) . فالإعجاز القرآني بحاجة الى معجزة ، لكن المعجزة ليست بحاجة الى إعجاز . **إن الشيخ يسجل ضعف الحجة عند الناس بالإعجاز** القرآني . لكن هذا السلطان المبين ، المعجزة، « التى تظاهره و تجعل له في الناس قدماً ثابتة » ، لا وجود لها في القرآن و السيرة بشهادة الراسخين في العلم من أهل القرآن . فمبدأ الاستحالة الذي ينادي به الشيخ الخطيب يسقط أمام الواقع .

و هكذا فإن فلسفة علماء العصر ، لتعليل امتناع المعجزة في القرآن و السيرة ، **فلسفة تسيء الى الوحي الإلهي و حرمته و عصمته .** فلا نبوّة بلا معجزة .

خاتمة

ليس للقرآن و النبي من معجزة حسية

لقد أجمع الراسخون في العلم من أهل العصر على هذه النتائج الحاسمة :

الأولى : « إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام » .

الثانية : « إن القرآن وحده معجزة محمد » بحرفه ونظمه .

الثالثة : مَن زعم لمحمد معجزة حسية في القرآن أو الحديث أو السيرة ، « من المتأكد أنه ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح » ، « و ليست هناك **معجزة واحدة** يؤكدها خبر قطعي مما نسب الى رسول الله » ـ كما أثبت السيد عبد الله السمان .

و يضيف الأستاذ عبد الله السمان في كتاب (محمد الرسول البشر ، ص ١١٣): « والذين تناولوا سيرة الرسول من المتأخرين جداً ، و بعقلية ناضجة ، إنما كتبوا بأسلوب عال **لخاصة الناس** ، و لا يبلغ هؤلاء الخاصة إلاّ بضعة آلاف بين الأربعمائة مليون مسلم . أما **الكثرة الساحقة** ... التى هي غثاء كغثاء السيل لا يكادون يعرفون عن الرسول إلا أنه ولد ولادة شاذة ، و عاش عيشة شاذة ، و مات ميتة شاذة . و أحاط به في هذه الأحوال الثلاث **مئات الألوف من الأمور الخارقة التى نافست خرافات (ألف ليلة و ليلة) .**

« و تستطيع أن تضحك ملء فيك ، و أنت تقرأ **كتب الدين** المقررة على طلبة المدارس الابتدائية و التى تعرض للسيرة ، لأن واضعيها سلكوا مسلك كتاب السيرة في سرد

الحوادث مشبعة بالأمور الخارقة ، ليصبّوا في أذهان النشء أن محمداً لم يكن مجرد بشر عادى ، بل كان جزءاً من الله » .

لقد فاتهم كلمة السيد المسيح : « تعرفون الحق ، و الحق يحرّركم » (يوحنا ٨ : ٣٢).

و نحن نقول **لإصحاب المدرسة الحديثة** في النبوّة و المعجزة ، الذين ينكرون ضرورة المعجزة لصحة النبوّة إنهم خرجوا على نهج ملّة إبراهيم في التوراة و الإنجيل و القرآن ، حيث المعجزة برهان النبوّة الذي يميز الحقيقة المنزلة من الحقيقة البشرية . و خرجوا على عقيدة السلف الصالح ، و تبعوا سبيل الفلسفة اليونانية التى ثار عليها ذلك السلف الصالح . وخرجوا على إجماع علماء الكلام كما سجله الجويني ، تلميذ الباقلاني ، و أستاذ الغزالي : « **ليس في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة** » . و موقفهم متناقض : فهم ينكرون ضرورة المعجزة لصحة النبوّة ، و مع ذلك فهم يجعلون إعجاز القرآن معجزة تدل على صحة النبوّة . لكن نسجّل عليهم جميعاً الشهادة الجماعية بأنه ليس للقرآن و النبي من معجزة حسية ، مثل جميع أنبياء الله .

[Blank Page]

الفصل الثاني

المعجزة الغيبية ، و هي النبوءة

حصراً أي علم الغيب

توطئة

النبوءة الغيبية معجزة إلهية

إن النبوءة الغيبية ، أو الإخبار عن الغيب ، غيب الخالق أو غيب المخلوق ، معجزة ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله : « إنما الغيب الله » (١٠ : ٢٠) ، « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » (٧٢ : ٢٦) : قلْ : لا يعلم مَن في السماوات و الأرض الغيب ، إلاّ الله » (٢٧ : ٦٥) . فهو وحده « علاّم الغيوب » (٥ : ١١٦ و ١٠٩ ، ٩ : ٧٨) ، « و عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلاّ هو » (٦ : ٥٩) . لكن « ما هو على الغيب بضنين » (٨١ : ٢٤) ، « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، و لكنَّ الله يجتبي من رسله من يشاء » (٣ : ١٧٩) . فمن يطلعه الله على الغيب ، يكون « عنده علم الغيب » (٥٣ : ٣٥) . و علم الغيب هو النبوّة الغيبية حصراً ، أو الإخبار الحق بالغيوب . و من يمنّ الله عليه بمعرفة الغيب والسرائر هو النبي حقاً .

فالنبوّة الغيبيّة معجزة إلهية من دلائل النبوّة .

فهل في القرآن من نبوءة غيبية تحمل سمة المعجزة ؟

لا نقصد بذلك تنزيل القرآن ، بل ما أخبر به النبي العربي من غيوب .

عقد الباقلاني ، شيخ المتكلمين في (إعجاز القرآن) ، فصلا ((في جملة وجوه إعجاز القرآن)) : ((ذكر أصحابنا و غيرهم في ذلك **ثلاثة أوجه من الإعجاز** . أحدها يتضمن الإخبار عن الغيوب . و ذلك مما لا يقدر عليه البشر و لا سبيل لهم إليه ... و جميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الاخبار عن الغيوب يكثر جداً . و الوجه الثاني أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أمياً لا يكتب و لا يحسن أن يقرأ . و كذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين و أقاصيصهم و أنبائهم و سيرهم . ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ، و مهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه ... و الوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناهٍ في البلاغة الى الحد الذي يعجز الخلق عنه . و الذي أطلقه العلماء (إعجاز القرآن) هو على هذه الجملة)) .

سنفرز لإعجاز القرآن البياني القسم الثاني . هنا نذكر الوجهين الأول و الثاني لأنهما من النبوءة الغيبية . فهل في ((الإلهامات الربانية)) و في القصص القرآني نبوءة معجزة ؟

بحث أوّل

هل إنباء المستقبل في القرآن نبوءة من علم الغيب ؟

لقد جمع أهل (إعجاز القرآن) على أن الإخبار بالغيوب ـ و هو ما يُسمى النبوءات حصراً ـ **هو أحد وجوه الإعجاز الثلاثة في القرآن** ، كما قال الباقلاني : ((أحدها يتضمن الإخبار عن الغيوب ، و ذلك مما لا يقدر عليه البشر و لا سبيل لهم إليه . فمن ذلك : ١) ما وعد الله تعالى نبيّه عليه السلام أنه **سيظهر دينه على الأديان** ، بقوله عزّ وجلّ : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ، ففعل ذلك ...

٢) و قال الله عزّ وجلّ : (قلْ للذين كفروا : ستغلبون و تحشرون الى جهنم و بئس المهاد) فصدق فيه . ٣) و قال في أهل بدر : (و اذ يعدكم الله إحدى الطائفتين إنها لكم) ووفى لهم بما وعد)) .

و أضاف الباقلاني فصلاً آخر ((في شرح ما بيّنا من وجوه الإعجاز)) . فأما الفصل الذي بدأنا به من الاخبار عن الغيوب و الصدق و الإصابة في ذلك كله، فهو كقوله: ١) ((قل للمخلفين من الأعراب : ستُدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون)) فأغزاهم أبو بكر و عمر رضى الله عنهما الى قتال العرب و الفرس و الروم . ٢) و كقوله : ((آلم . غُلبت الروم في أدنى الأرض و هم من بعد غَلبهم سيغلبون في بضع سنين)) ، و راهن أبو بكر الصّديق رضى الله عنه في ذلك . و صدق الله وعده . ٣) و كقوله في قصة أهل بدر : ((سيُهزم الجمع و يولّون الدبر)) . ٤) و كقوله : ((لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق : لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم و مقصرين لا تخافون)) . ٥) وكقوله : ((و اذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم)) . ٦) و كقوله : ((وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، و ليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، و ليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً)) و صدق الله تعالى وعده في ذلك . ٧) و قال في قصة المتخلّفين عنه في غزوته : ((لن تخرجوا معى أبداً ، و لن تقاتلوا معى عدواً)) ، فحق ذلك كله و صدق و لم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد . ٨) و كقوله : ((قلْ : تعالوا ندْعُ أبناءَنا و أبناءَكم و نساءنا و نساءَكم ، و أنفسنا و أنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)) ، فامتنعوا عن المباهلة ، و لو أجابوا إليها اضطرمت عليهم الأودية ناراً ، على ما ذكر في الخبر . ٩) و كقوله : ((قلْ : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت ، إن كنتم صادقين . و لن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم)) . و لو تمنّوه لوقع بهم . فهذا و ما أشبه)) .

نستغرب ان يجعل الباقلاني و أمثاله تحدّي نصارى نجران بالمباهلة ، من أنباء الغيب، و تحدّي يهود المدينة بتمنب الموت ، من النبوءة الغيبية . إنهما عمل ظاهر حاضر .

فهناك ، على زعم الباقلاني **ثماني نبوءات غيبية** في القرآن .

أوّلاً : نبوءة ظهور الإسلام على الدين كلّه

جاء الوعد بظهور الإسلام ((على الدين كله و لو كره المشركون)) في (الفتح ١٨ ، الصف ٩ ، التوبة ٣٤) . فهل في هذا الوعد نبوءة من علم الغيب ، أم إنه أسلوب بياني ؟

مَن يرى في هذا الوعد نبوءة من علم الغيب يصطدم بالتاريخ و بواقع حال العرب والمسلمين . إنى عربى و يؤلمني ما أقول ، لكن الحقيقة أن يعرف الانسان نفسه . فإلى اليوم لم يتغلب الإسلام على المسيحية ، و لا على الهندوكية ، و لا على البوذية . إن الواقع البشرى في الأديان مائل للعيان : فليس في وعد القرآن من نبوءة ! و مَن أصرّ على أنها نبوءة جعل الواقع يكذّبها .

و ليس في قوله ((ليظهره على الدين كله)) وعداً للمستقبل . بل هو أسلوب بياني من باب التعميم في معرض التخصيص . و هذا التخصيص ظاهر من قرينة ((و لو كره المشركون)) ، هو اصطلاح فيه للعرب الذين يخاطبهم .

و نعرف من (أسباب النّزول) إن حقيقة الوعد **تسجيل لواقع يتحقق** في الجزيرة العربية . و جاء هذا التسجيل بعد انتصار جماعة محمد على اليهودية في شمال الحجاز (الفتح ١٨) ، و على المشركين في مكّة (الصف ٩) ، و على المسيحية العربية في مشارف الشام (التوبة ٣٣) . و لا ننسَ ابداً أن الآيات القرآنية كانت تنزل بعد الأحداث لتسجيلها واستخلاص عبرها .

فالوعد بظهور الإسلام ((على الدين كله)) مقصور على الجزيرة العربية . و هو حادث مشهود ، لا غيب موعود .

و ليس فيه من عناصر النبوءة المعجزة شيء : فليس خارقاً للعادة في نشأة الأديان وانتشارها ، و لا تحدّي فيه لغير العرب المشركين ، و لا هو سالم عن المعارضة بسيطرة غيره من الأديان على العالم .

فالوعد تسجيل واقع مشهود في الجزيرة العربية .

ثانياً : استخلاف المسلمين في الأرض

جاء في قوله : ((وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ، ليستخلفنّهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، و ليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، و ليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً)) (النور ٥٥) .

فهل هذا الوعد نبوءة للمستقبل من علم الغيب ؟ أم أنه حادث مشهود يتم في جزيرة العرب ؟

تلك الآية من سورة (النور ٥٥) نزلت في غزوة بني المصطلق ، في شعبان سنة ست هـ ، أي في مطلع العام ٦٢٨ م . و كانت تلك الغزوة بعد هزيمة أحزاب قريش في غزوة الخندق ، شوال سنة خمس هـ أب في آذار عام ٦٢٧ م ، و بين صلح الحديبية في آخر السنة السادسة هـ ، أي في آذار عام ٦٢٨ م .

لقد ذهب الخوف على المصير في فشل مشركي قريش بغزوة الخندق . و ساد الأمن المسلمين الذين يجهزون لحملة الحديبية ، في غزوة سلمية لمكّة بحجة الحج .

و هذا التصميم على اقتحام مكّة ، و الرضى بصلح الحديبية مع صناديد قريش ، دليلان على تصاعد سلطان المسلمين في الحجاز ، حتى سمى القرآن صلح الحديبية « فتحاً مبيناً » (الفتح ١) .

فتلك الظروف التاريخية لا تجعل الوعد بالاستخلاف « في الأرض » ـ أي في الحجاز ـ نبوءة غيبية عن مصير مجهول لا يعلمه إلا الله . **إنها تسجيل واقع** ببلوغ المسلمين قوة النصارى و اليهود في الحجاز . فمن يقتحم مكّة ، و يرضى منها مرغمة بالصلح ، لا يجهل سلطان جماعته و مصيرهم الآخذ في السيطرة على الحجاز .

و كل قائد يأتي بمثل هذا التحريض في أحرج الأوقات على جماعته . فاستخلافهم في الحجاز كاستخلاف أهل الكتاب فيه ، **أمر مشهود** يتم أمام عيونهم .

فليس هذا الوعد ، في واقع الحال ، نبوءة غيبية . و لا يصحّ ذلك لأنه ليس أمراً خارقاً للعادة ، مقروناً بالتحدّي ، سالماً عن المعارضة . فاستخلاف المسلمين في أرض الحجاز ، مثل النصارى و اليهود ، **واقع مشهود** بعد اندحار المشركين في غزوة الخندق ، ورضوخهم الى الصلح في معاهدة الحديبية .

إن أسلوب التعميم و التجريد في التعبير ، بعيداً عن (أسباب النّزول) يوهم الخطأ في تحميل القرآن ما لا يحمله من علم الغيب .

ثالثاً : النبوءة بنصر بدر

قيل : فيها نصان .

النص الأول : « أم يقولون : نحن جمع منتصر ! سيُهزم الجمع و يولون الدبر ! بل **الساعة موعدهم** ، و الساعة أدهى و أمرّ » (القمر ٤٤ ـ ٤٦) .

لا شيء في (أسباب النّزول) ولا في النص ، يجعل من الوعد نبوءة غيبية . « ولما قال أبو جهل يوم بدر « إنّا جمع منتصر » ، نزل : « سيهزم الجمع و يولون الدبر » ، فهُزموا ببدر ، و نصر رسول الله ﷺ عليهم » (الجلالان) . بحسب هذا التحليل ، الوعد تسجيل واقع .

لكن الآية من مكّة ، و لم ينزل بعد الأمر بالجهاد و القتال : فلا تمت الآية في واقع الحال إلى نبوءة عن نصر حربي .

و فاتهم جميعاً الوعد المضروب للهزيمة : « **بل الساعة موعدهم** » . فالنصر الموعود هو في يوم الدين ، حيث تكون الهزيمة في « سقر » (٤٨) .

النص الثاني : « و إذا يعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم » (الأنفال ٧) . و قد وفى لهم بما وعد . فهل في هذا القول علم بالغيب ؟ قال الجلالان : « شاور النبي ﷺ أصحابه و قال: إن الله وعدني إحدى الطائفتين . فوافقوه على قتال النفير ، و كره بعضهم ذلك و قالوا : لم نستعد له » .

نص الوعد لا يحمل معنى « النبوءة » أي علم الغيب : فهو مجهول القصد ، العير أم النفير . وواقع الحال لم يكن يتجه إلى قتال النفير في بدر ، كما يظهر من قصة الغزوة في القرآن و السيرة . كان هدف الغزوة قطع الطريق على قافلة أبي سفيان العائدة من الشام مثقلة بالمال و المتاع . لكن نفير قريش تصدى لهم فنازلهم فنازلوه .

و الوعد « بإحدى الطائفتين » ليس فيه معنى المعجزة ليصح نبوءة : فليس خارقاً للعادة ، لأنه مجهول الهدف ؛ و ليس سالماً عن المعارضة ، فلم يحمل المسلمون القول محمل العلم بالغيب ، فهم يجادلون فيه حتى بعد النصر : « يجادلونك في الحق بعد ما تبيّن » (الأنفال ٦) . فلو كان في الوعد معنى التحدّي لما تلكأ المسلمون عن الخروج الى المعركة : « و إن فريقا من المؤمنين لكارهون » (٥) ، و من شدّة خوفهم كانوا ربهم يستغيثون (٩) . فلم يكن الوعد مقطوعاً كمعجزة للتحدي .

و القرآن نفسه لا يرى في ذلك الوعد غيباً مكشوفاً ، بل بشرى للاطمئنان : « و ما جعله إلا بشرى ، و لتطمئن به قلوبكم ، و ما النصر إلاّ من عند الله » (١٠) . و قد استغل القرآن الحدث كنصر من الله يؤيده ، لا كمعجزة غيبية تشهد له .

فالنص و القرائن كلها ، دلائل على أن ذلك الوعد كان وعد قائد حكيم ، لا نبوءة غيبية معجزة . فليس في القرآن من نبوءة بنصر بدر .

رابعاً : النبوءة بفتح مكّة

جاء بعد فتح الحديبية : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق : لتدخُلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم و مقصّرين ، لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (الفتح ٢٧) هو معاهدة الحديبية .

التفسير الصحيح ، و (أسباب النّزول) تمنع أن يكون في الآية نبوءة غيبية . قال الجلالان : « رأى رسول الله ﷺ **في النوم** ، عام الحديبية ، قبل خروجه ، أنه يدخل مكّة هو و أصحابه و يحلقون و يقصّرون . فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا . فلما خرجوا معه ، وصدهم الكفّار بالحديبية و رجعوا ، و شقّ عليهم ذلك ، و راب بعض المنافقين ، نزلت » . و يقول السيوطي في (أسباب النّزول) : « أخرج الفريابى و عبد بن حميد و البيهقى ، أنه يدخل مكّة و أصحابه آمنين محلقين رؤوسهم و مقصّرين . فلما نُحر الهدْى بالحديبية ، قال أصحابه: **أين رؤياك ، يا رسول الله ؟** فنزلت » .

فأصحاب محمد يشهدون بأن الوعد لم يتم . فليس فيه من نبوءة غيبية . قيل : لقد تحقّق الوعد في العام القابل . و لكن في العام القابل ، دخلوا مكّة بناء على معاهدة الحديبية ، لا بناء على وعد نبوى . و قد تخاذل صناديد قريش أمام قوة المسلمين الزاحفة . فليس في الوعد معنى كشف الغيب ، إنما هو بنص القرآن القاطع « رؤيا » في منام . و النبوءة الغيبية، الخارقة للعادة ، السالمة عن المعارضة ، التى يتحدّى بها كمعجزة له ، لا تكون « رؤيا » في منام !

و ظروف الحال تمنع الإعجاز ، فزمن النبوءة مجهول : فهو تارة قبل الخروج إلى الحديبية ، و تارة في الحديبية ؛ و السورة التى تذكره من بعد الحديبية . و النبوءة المعجزة لا

تكون مجهولة الزمان و المكان ، مجهولة المصير ، يجرى التاريخ بخلافها . فقد « قال أصحابه : أين رؤياك ، يا رسول الله » ؟

فكل القرائن القرآنية و التاريخية تمنع من أن نرى في « رؤيا » المنام نبوءة غيبية . ولو رآي القرآن نفسه فيها أمراً خارقاً للعادة ، لتحدّاهم به ، كلما تحدّوه بمعجزة ! فهذه « الرؤيا » ، مثل « الوعد » بنصر بدر ، كلها أساليب تحريض على الجهاد ، لا أسلوب نبوءة من علم الغيب .

خامساً : الوعيد بهلاك كفّار مكّة

هذا نصه : « قل للذين كفروا : ستُغلبون و تُحشرون الى جهنم ، و بئس المهاد ! قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، و أخرى كافرة ، يرونهم مثليْهم رأى العين . و الله يؤيد بنصره مَن يشاء . إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (آل عمران ١٢ ـ ١٣) .

هذا وعيد بهلاك كفار مكّة ، فهل في ظروف الحال ، أم في تحقيقه ، ما يجعله نبوءة غيبية ؟

الوعيد من بعد نصر بدر الذي تذكره سورة (الأنفال) . و القرآن يعطي على صحة الوعيد برهاناً « العبرة » بنصر بدر . فليس الهلاك المذكور هو موقعة بدر ، إنما هو بنصه القاطع حشر كفّار مكّة في جهنم . و هذا لا يقدر أن يتحققه المسلمون على الأرض ، فليس فيه معنى التحدّي بالإعجاز ، ليكون نبوءة غيبية . و العبرة بنصر بدر **أسقطتها هزيمة أُحد** من بعدها .

ووعيد كفّار مكّة بجهنم **سقط بإسلام أهل مكّة** . و النبوءة الغيبية لكي تكون كذلك ، يجب أن تقترن بالتحقيق . جاء في التوراة عن صحة النبوءة الغيبية : « فإن تكلّم النبي باسم الله ، **و لم يتم كلامه ، و لم يقع** ، فذلك الكلام لم يتكلم به الله » (التثنية ١٨ : ٢٢) . و نبأ لا يتم ، و يعترض ما يمنع تحقيقه ، لا يكون نبوءة غيبية ، انما هو وعيد من باب الترهيب ، لا من باب علم الغيب .

سادساً : دعوة المسلمون الى قتال الفرس و الروم

جاء قوله : « ستُدعون الى قوم أولي بأسٍ شديد تقاتلونهم أو يسلمون » (الفتح ١٦) . هل في هذا النص خبر عن قتال موعود للفرس و الروم ، و الانتصار عليهم ؟

إنه يأتي في سورة (الفتح ١٦) تحريضاً على غزوة خيبر و معاقل اليهود في الشمال، كما يتضح من سياق النص (الفتح ١٥ ـ ١٩) . فظاهر النص أن « القوم أولي البأس الشديد » هم يهود الشمال في معاقلهم . فليس هو نبوءة غيبية ، بل تسجيل واقع الحال .

و قد تكون الآية (الفتح ١٦) من زمن غزوة تبوك ، كما يدل عليه مضمونها ومضمون سورة التوبة (٩٠ ـ ١٠٦) . دعاهم إلى تأديب النصارى العرب الموالين للروم في مشارف الشام . فكانت غزوة مؤتة الفاشلة ، ثم غزوة تبوك المتعسرة التى انتهت بصلح مشروط . و لو كان في التحريض على قتال العرب النصارى في مشارف الشام معنى النبوءة الغيبية ، لما تقاعس الأعراب أهل الغزو عن المسيرة ، فنزل فيهم : « و الأعراب أشد كفراً ونفاقا ، و أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، و الله عليم حكيم » (التوبة ٩٧). فالنبأ أمر مشهود في غزوة تبوك ، لا أمر موعود من علم الغيب .

فليس في الآية . و لا في قرائنها ، معنى دعوة المسلمين الى قتال الفرس و الروم ، والانتصار عليهم . إنهم يحمّلون النص ما لا يحمله ، ليجدوا فيه نبوءة غيبية .

سابعاً : تهديد المتخلفين عن غزوة تبوك

يرون نبوءة غيبية في قوله : « فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول الله ... فإن رجعك الله الى طائفة منهم ، فاستأذنوك للخروج ، فقل : **لن تخرجوا معى أبداً ، و لن تقاتلوا معى عدواً** ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين » أي المتخلّفين عن الغزو (التوبة ٨١ و ٨٣) . قال الباقلاني : « فحق ذلك كله و صدق ، و لم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد » .

لكن فات الباقلاني و أمثاله أن الرسول نفسه لم يخرج الى غزوة البتّة بعد تبوك ، فهي آخر غزوات النبي ، انتقل بعدها الى الرفيق الأعلى . هذا الواقع ينقض معنى النبوءة

الغيبية في الآية ، و يدل على أن محمداً لم يكن يرى فيها كشفاً للغيب ، يجهل معه موته القريب . إن النبأ لا يكون نبوءة إلاّ متى اقترن بالتحقيق ، و هنا يحول موت النبي دون التحقيق .

و النبوءة الغيبية لا تكون مشروطة . و هنا النبوءة مشروطة برجوعه سالماً من غزوة تبوك : « فإن رجعك الله الى طائفة منهم » (٨٣) . و هذا الشرط يرفع معنى النبوءة في الآية . فلو أمهل الله محمداً فغزا بعد تبوك ، فذلك تنفيذ أمر عسكرى ، لا تحقيق نبإٍ غيبي . وهذا أيضاً لم يحصل . إن النبأ الغيبي تحقيقه محتوم ، و غير مشروط .

قل : إنها أوامر عسكرية ، قد تقتضي الظروف تبديلها ، فليس فيها من نبوءات غيبية، كما يتوهمون .

ثامناً : قصّة الروم

يرون نبوءة تاريخية كبرى في قوله : « غلبت الروم في أدنى الأرض ، و هم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل و من بعد ، و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر مَن يشاء و هو العزيز الرحيم ، وَعْدَ الله ، لا يخلف الله وعده ، و لكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ٢ ـ ٦) .

قصة الروم هذه لا تمتّ الى السورة التى تستفتحها بصلة . فلا يُعرف زمانها . ثم إن لها قراءَتين على المعلوم (غَلَبَت) و على المجهول (غُلبت) . و بحسب اختلاف القراءَة قد تعنى الروم و الفرس ، أو الروم و العرب . و آية مجهولة المعنى لا تكون نبأً غيبيّاً .

و (أسباب النّزول) تؤيد ذلك ، قال السيوطي: « أخرج الترمذي عن أبى سعيد قال: **لمّا كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس** فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت (آلم غَلَبت الروم) الى قوله (بنصر الله) يعنى بفتح العين . و أخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه » ـ فعلى القراءَة بالمعلوم أن الآية **تسجيل واقع تاريخي مشهود** ، يتوسّم فيه المسلمون خيراً لهم تجاه المشركين . « و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين و هم بمكّة قبل أن يخرج رسول الله ﷺ فيقولون : الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، و قد غلبتهم المجوس ؛ و أنتم تزعمون أنكم ستغلبونا بالكتاب الذي أُنزل على نبيكم .

فكيف غلب المجوس الروم و هم أهل كتاب ، فسنغلبكم كما غَلَبَ فارس الروم . فأنزل الله (آلم غلبت الروم) . و أخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة و يحيى بن يعمر » ـ واقع الحال قبل الهجرة لا يسمح بمثل هذا الحوار ، فقد ظل المسلمون مغلوبين على أمرهم في مكّة حتى اضطروا إلى الهجرة الى يثرب . مع ذلك يستنتج السيوطي : « و قتادة في الرواية الأولى على قراءة (غَلبت) بالفتح لأنها نزلت يوم غلبهم يوم بدر . و الثانية على قراءَة الضم (غُلبت) فيكون معناه ، و هم من بعد غلبتهم فارس **سيغلبهم المسلمون** ، حتى يصحّ معنى الكلام ، و إلاّ لم يكن له كبير معنى » ـ فكبير المعنى عنده أن المسلمين سيغلبون الروم بعد انتصارهم على الفرس . **و هذه نظرية ثالثة** في معنى الآية .

و نبأ له ثلاثة معانٍ ليس بنبوءة غيبية .

و قد تكون القراءَة على المجهول ، أي انتصار الروم على الفرس بعد هزيمة الروم ، هي الفضلى ، في شبه اجماع . لكن على هذه الحال ، ليس في الخبر معنى النبوءة الغيبية ، « لأنها نزلت يوم غلبهم ، يوم بدر » ، إنها **تسجيل حدث مشهود** عام ٦٢٤ م فرح به المسلمون لنصر الإيمان ، كما فرحوا بنص بدر على مشركي العرب . و التاريخ خير شاهد : فقد بدأت حملة الفرس الظافرة عام ٦١٢ م فاحتلوا سورية سنة ٦١٢ م ، و فلسطين ٦١٤ م ومصر ٦١٨ م . و ظهر هرقل فسار بحملة الثأر الظافرة سنة ٦٢٢ م ؛ و سنة ٦٢٤ م كان طرد الفرس من سوريا ، يوم نصر بدر . و ظل هرقل زاحفاً حتى احتل عاصمة فارس ، واسترجع منها ذخيرة الصليب . فما يسمونه نبوءة في آية الروم ليس سوى واقع تاريخي مشهود .

و هناك نحو **اثنين و عشرين** خبراً من تلك النبوءات المزعومة ، اقتصرنا على أشهرها . و أنت ترى تهافت التحليل لرؤية نبوءة غيبية حيث لا شيء من ذلك .

و القول الفصل ، في باب الإخبار بالغيوب ، أن علم الغيب المجهول معجزة إلهية ، والقرآن ينفي عن محمد كل معجزة منعاً مبدئياً مطلقاً (الإسراء ٥٩) و منعاً فعلياً قاطعاً (الأنعام ٣٥) .

قال الأستاذ دروزة[1] : « أما التأييدات **و الإلهامات الربانية** للنبي ﷺ التي تضمنت أخبارها آية قرآنية عدة ... مثل الذي جاء في سورة (التحريم ٣) فإنها **كما هو ظاهر من**

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٩ ـ ٢٣١ .

نصوصها و روحها لا تدخل في عداد معجزات التحدّي . و بالتالى فإنها ليس من شأنها نقض الموقف السلبي العام الذي تمثله الآيات القرآنية)) .

و فاتهم أيضاً الأسلوب البياني و الصوفي في القرآن : فهو يأتي بالتعميم في موطن التخصيص ، فيأخذ الواقع باطلاق التعبير مدى غير مداه الحقيقى ! و هو ينسب العلل والعوامل في المخلوقات الى العلة الأولى في الوجود ، فينظر من تلك الزاوية الى الحياة الدنيا نظرة صوفية ، لا نظرة واقعية تاريخية . و هذا الأسلوب القرآني المزدوج هو الذي يعطي ((تلك التأييدات و الإلهامات الربانية)) ، في أسلوب عرضها ، صيغة النبوّة الغيبية ، مع أنها ليست من علم الغيب في شيء . فلو فطنوا لأسلوب القرآن لما وهموا .

و كيف فات القوم تصريح القرآن القاطع : ((و ما أعلم الغيب)) (الأنعام ٥٠) . ولم يكشف له الله الغيب ، فهو يشهد على نفسه : ((لو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير ، وما مسّني السوء)) (الأعراف ١٨٨) . بعد هذا الإعلان القرآني الصريح القاطع ، كيف يجوز لهم أن يروا في القرآن نبوءات من علم الغيب ؟! إنهم يكابرون و ينقضون صريح القرآن .

فليست أنباء المستقبل في القرآن نبوءات من علم الغيب . ينقض ذلك نقضاً مبرماً ((الموقف القرآني السلبي من كل معجزة)) . إنما هي من ((متشابه)) القرآن في أسلوبه البياني و الصوفي .

بحث ثان

هل في القصص القرآني نبوءة من علم الغيب ؟

قال الباقلاني ، شيخ المتكلمين في (إعجاز القرآن) ـ و القوم على رأيه الى اليوم ـ ((في جملة وجوه إعجاز القرآن)) ـ : ((ذكر أصحابنا و غيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز : الأول الإخبار بالغيوب ـ و قد رأينا حقيقة أمره ؛ و الثالث بديع نظمه و عجيب تأليفه ـ

و هو الإعجاز حصراً ، و سنفرد له القسم الثاني كله . بقى الثاني : « و الوجه الثاني إنه كان معلوماً في حال النبي ﷺ أنه كان أميّاً لا يكتب و لا يحسن أن يقرأ . و كذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين و أقاصيصهم و أنبائهم و سيرهم . ثم أتى بجملة ما وقع و حدث من عظيمات الأمور ، و مهمات السير ، من حين خلق الله آدم عليه السلام ، الى حين مبعثه » .

فالقصص القرآني عنده وجه ثانٍ من وجوه إعجاز القرآن .

يشبهه أخبار الخلق و التكوين ، و أوصاف اليوم الآخر . و ما نقوله في القصص القرآني ، من حيث فيه نبوءة من علم الغيب ، ينطبق على النوعين الآخرين .

فالباقلاني و مَن لفَّ لفَّه يبنون إعجاز القرآن في قصصه كما في غيره على **أميَّة محمد** ، و هذا يناقض القرآن و التاريخ معاً .

أوّلاً : قصص القرآن كان متداولاً بين العرب قبل القرآن

يقول الأستاذ دروزة[1] : « عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود و نصارى، في بلاد الحجاز و الشام ، و احتكّوا بهم . **و أخذوا عنهم كثيراً من الإفكار و المعارف .** ومنهم من دان باليهودية و النصرانية ، و تضلّع باللغة العبرانية ، **و اطّلع على ما عند اليهود و النصارى** من كتب . و قد عرفوا كذلك ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف و شقاق في الأمور الدينية و المذهبية . و كان لكل ذلك صدى و أثر في نفوسهم و أذهانهم ، على ما بسطناه في كتابنا (عصر النبي و بيئته قبل البعثة) . و قد كان **في مكّة خاصة بعض الجاليات الكتابية** ، يرجع تاريخ سكناها الى ما قبل البعثة ، و شهدت أدوار الدعوة النبوية . ولم تكن بعزلة عنها بطبيعة الحال » ـ فالمعارف الكتابية كانت شائعة بمكّة ، و لا يصح أن يبقى محمد في عزلة عنها ، أو غفلة .

ثانياً : اتصال العرب بأهل الكتاب

يقول دروزة أيضاً [2] : « و لقد أثبتنا بالاستدلالات القرآنية في كتابنا (عصر النبي وبيئته قبل البعثة) أن أهل بيئة النبي ﷺ كانوا **على اتصال بالأمم الكتابية** و غير الكتابية ، عن طريق المستقرين منهم في الحجاز ، و عن طريق الرحلات المستمرة الى البلاد المجاورة. و أن

---

(١) **سيرة النبي** ١ : ٢٩٦ .
(٢) **سيرة النبي** ١ : ٣٧ ـ ٣٩ .

كثيرا من أخبارهم و معارفهم و عقائدهم و مقالاتهم و أحوالهم قد تسربت الى العرب ، وشاهدوا مشاهدها التاريخية و المعاصرة ، و ليس من الطبيعي ، و لا من المعقول **أن يبقى النبي ﷺ في عزلة أو في غفلة عن هذا كله .** حقيقةً قد علَّم الله النبي بوحيه و تنزيله أموراً متنوعة كثيرة كان غافلا عنها هو و قومه . و لكن ذلك لا يقتضي أنه كان غافلاً عن كل ما حوله من أمور ، و ما يدور في بيئته و على ألسنة معاصريه من كتابيين و غير كتابيين ، عرب و غير عرب ، **من أنباء و قصص و ظروف و حالات** ، فإن هذا يناقض طبائع الأشياء » .

ثالثاً : اتصال محمّد نفسه بأهل الكتاب

ثم يستشهد دروزة على اتصال محمد الشخصي بأهل الكتاب : « في سورة (النحل ١٠٣) ، آية تحكي دعوى بعض الكفّار أن شخصاً معيَّناً كان يُعلِّم النبي : (و لقد نعلم إنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ! ـ لسان الذي يُلحدون اليه أعجمي ، و هذا لسان عربى مبين) . والآية تنفي التعليم الذي يجحد بنزول الوحي على محمد ﷺ ، غير أنها لا تنفى **اتصالاً ما بينه و بين أحد أفراد الجالية الأجنبية** كما هو ظاهر . و المتبادر أن الجاحدين لم يكونوا ليقولوا ما قالوه ، لو لم يروا أو يعرفوا **أن النبي ﷺ كان يتردّد على شخص** من أفراد هذه الجالية في مكّة , هو أهل علم و تعليم ديني ، و له وقوف على الكتب السماوية ...

« و في سورة (الفرقان ٤) آية تحكي كذلك دعوى بعض الكفّار أن النبي ﷺ كان يستعين في نظم القرآن بقوم آخرين : (و قال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه ، و أعانه عليه قوم آخرون ! ـ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً) ، و الآية انما تنفي كذلك دعوى الاستعانة ، **ولا تنفى اتصالاً ، أو صحبة النبي ﷺ و فريق من الناس .** كما أن تعبير « قوم آخرين » يُلهم أن المنسوب اليهم **أكثر من واحد** . و بالتالي يسوغ القول إنه غير الشخص الأعجمي المعنى في آية النحل . و الذي يتبادر الى الذهن أيضاً أن الكفّار لم يكونوا ليقولوا ما قالوه مما حكته الآية ، لو لم يروا و يعرفوا أنه كان للنبي ﷺ **حلقة أو رفاق** يجتمعون إليه ، و يجتمع إليهم ، **و يتحدثون في الأمور الدينية .** و ليس من المستبعد ـ إن لم نقل من المرجح ـ أن هذا كان **قبل البعثة ، ثم امتد الى ما بعدها** » .

فمحمد كان على اتصال شخصي بأهل الكتاب من عرب و عجم ـ و اتصاله بالأعاجم يدل على أنه كان يعرف لغات أجنبية غير العربية ، كما أبنّا ذلك في غير موضع . و هذا ليس من الأمية علماً و ديناً في شيء .

رابعاً : تداول الكتاب و الإنجيل معرَّبين بين العرب قبل القرآن

يقول الأستاذ دروزة أيضاً[1] : « و هناك نقطة أخرى متصلة بهذا البحث عن اليهودية و النصرانية العربية ، ثم بالثقافة العربية بوجه عام ، و هي : ما اذا كانت التوراة و الإنجيل في عصر النبي و بيئته **منقولاً الى العربية أم لا ؟**

« إن القرآن يحكي مواقف حجاج و مناظرة دينية بين النبي ﷺ من جهة ، و بين النصارى و اليهود من جهة أخرى ... و القرائن القرآنية تلهمنا من جهة ، و التاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى ، يخبرنا بأن **آلافا مؤلفة من العرب كانوا نصارى** ، و منهم البدو ومنهم الحضر . و استتباعاً لهذا فإن السائغ أن يقال : إنه لا بدَّ من أن يكون بعض أسفار العهد القديم و العهد الجديد ـ **إن لم يكن جميعها ـ قد ترجمت الى العربية قبل الإسلام** ، وضاعت مع ما ضاع من آثار مدونة في غمرات الثورات و الفتن و الحروب . و لعل ما في القرآن من أسماء و كلمات **معربة كثيرة** أو من **تعابير مترجمة** ، متصلة بمحتويات هذه الأسفار ، مما تصح أن تكون قرائن على ذلك . و نرى هذا هو الذي يستقيم مع وجود عشرات ألوف العرب النصارى ، و آلاف الرهبان و القسيسين العرب ، و مئات الكنائس والأديار العربية » .

أجل هذا منطق التاريخ . و القرآن شاهد عدل أيضاً . فهو يميّز أمة عيسى عن جماعة محمد و عن اليهود بأنهم « أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل و هم يسجدون » (آل عمران ١١٣). عرب نصارى يصلون بمكّة، و تلاوة أسفار الكتاب والإنجيل ركن من أركان صلاتهم و قيام الليل: فبأي لغة يتلون الكتاب والإنجيل؟ لا شك أنهم يتلون بلغتهم العربية.

والقرآن يتحدّى اليهود: « قل: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » (آل عمران ٩٣). ينتدبهم إلى تلاوة التوراة أمام عرب المدينة، ألا يدل هذا على أنها كانت مترجمة الى العربية، و أنها تُتلى بالعربية، أولاً للدعاية، ثم ليفهمها العرب المتهّودون أو المنتصرون ؟

خامساً : القرآن « تفصيل الكتاب »

يصرح القرآن عن نفسه بأنه « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) « بلسان عربي مبين » (الشعراء ١٩٥) . و التفصيل بلغته الدرس و التعريب ، كما يظهر من مقالة العرب : « إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، و إنْ كنا عن دراستهم لغافلين » (الأنعام ١٥٦) . غفلوا هم

---

(١) **عصر النبي و بيئته قبل البعثة** ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨ .

عن دراسة التوراة و الإنجيل ، **فدرسهما محمد** : « و كذلك نصرف الآيات ـ و ليقولوا : **درست !** ـ و لنبيّنه لقوم يعلمون » (الأنعام ١٠٥) . فلا ينفي تهمة الدرس ، بل يوضح غايته من درس التوراة و الإنجيل ، و هي تبيان الكتاب للعرب الذين غفلوا عن دراسته أي « تفصيل الكتاب » . و هو يستعلي على المشركين بدرس الكتاب المقدس : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ... أم عندهم الغيب فهم يكتبون » (القلم ٣٧ و ٤٧) ، مما يعني أن محمداً عنده كتاب فيه يدرس ، و منه يكتب الغيب ، بل الكتب المقدسة كلها : « و ما آتيناهم من كتب يدرسونها » (سبأ ٤٤) ، أما هو فقد أُوتي كتباً يدرسها . و ذلك « ليعلمهم الكتاب و الحكمة » أي التوراة و الإنجيل ، كما يردّد بتواتر (البقرة ٢٣١ و١٥١ ، آل عمران ١٦٤ ، الجمعة ٢). فالقرآن بهذا النص القاطع هو تعليم العرب « الكتاب و الحكمة » أي التوراة و الإنجيل . فجاء « تنزيل رب العالمين » في القرآن « من زبر الأولين » (الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٧) ، « بتفصيل الكتاب » لهم أو « تعليمهم الكتاب و الحكمة » . لقد دَرَسَ محمد التوراة و الإنجيل ، ودَرَّسَهما للعرب في القرآن . هذه هي شهادة القرآن القاطعة التي تقضي على القول بأمية محمد ، وتبرهن أن قصص القرآن من الكتاب ، درسه على « مَن عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٣) . فليس فيه من معجزة غيبية . مع العلم أن الدرس و الوحي لا يتعارضان ، و مع العلم أن ما في القصص القرآني بصيغة التلمود ، لا بصيغة الكتاب ، كما كان يفعل أهل الكتاب أنفسهم .

سادساً : سيرة محمد تدل على سعة علمه و اطلاعه

إن إجماع السير النبوية و الحديث يدل على أن محمداً كان قبل دعوته « يتحنّف » شهراً مع قس مكّة ، ابن عمه ، ورقة بن نوفل . و هذا القس النصراني يشهد الحديث الصحيح أنه كان يكتب الكتاب العبراني ، و يترجم الإنجيل الى العربية . و قد قضى محمد في جواره بعد زواجه من السيدة خديجة ، بنت عم ورقة ، مدة خمس عشرة سنة قبل البعثة يحضر كتابة الكتاب و ترجمة الإنجيل . فقصص القرآن و أخبار الخلق و أوصاف اليوم الآخر كان يسمعها من أستاذه ، قس مكّة « النصرانية » .

ناهيك عن رحلتي الشتاء و الصيف ، الى اليمن و الشام ، موطن المسيحية و بعض اليهودية ، في تجارة زوجته السيدة خديجة التى كانت تجارتها تعدل تجارة قريش ، و ما يقتضيه ذلك من سعة اطلاع ، في اتصال دائم مع أهل الكتاب .

يكفي محمداً أن يكون تلميذاً لقس مكّة ، ابن عم زوجته ، حتى يكون عالماً بقصص الأولين ، و أخبار الخلق ، و أوصاف اليوم الآخر . فلم يكن محمد أمياً و لا جاهلاً بها حتى يكون ما جاءَ به ((من زبر الأولين)) ، ((ممن عنده علم الكتاب)) ، معجزاً بالنسبة إلى حالـه أو بيئتـه . و القرآن و الحديث و السيرة شهود عدل .

خاتمة

محمد لا يعلم الغيب ، فهو نبي بلا نبوءة غيبيّة

و فصل الخطاب في ذلك أن التنبؤ المزعوم بالغيب ـ و هو غير الوحي ـ و أخبار الخلق ، والحديث عن الماضين ، و أوصاف اليوم الآخر ، ليست جميعاً وجهاً من وجوه الإعجاز ، كما وهم الباقلاني و من تبعه . يقول الدكتور أحمد بدوي : « غير أن التنبؤ بالغيب و الحديث عن الماضين ـ إن اتُخذا دليلاً على نبوءة الرسول ـ **لم يصلحا برهاناً على إعجاز القرآن** . ذلك أن معظم القرآن ليس تنبؤاً و لا قصصاً . فلو كان الوجه ما ذكر ، لفقد معظم القرآن صفة الإعجاز ، لأن التحدّي وقع بأقصر سورة منه ، و هي لا تحوى من التنبؤ والقصص شيئاً » .

هكذا ثبت لنا من التاريخ الصحيح و القرآن الصريح أنه ليس من إعجاز موضوعي في قصص القرآن و أخبار الخلق فيه ، و أوصاف اليوم الآخر عنده ، و أنه ليس في القرآن من نبوءات غيبيّة تدل على معرفة الغيب « الذي لا يقدر عليه البشر ، لا سبيل لهم إليه » [1].

فبرهان النبوءة الغيبية على أوجهها ،لا وجود له في القرآن . يكفينا تصريحه القاطع عن نبيه : « و لا أعلم الغيب » (الأنعام ٥٠) ، « و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ الخير ، و ما مسَّني السوء » (الأعراف ١٨٨) .

فالقول الفصل : إن محمداً نبي ، بلا نبوءة غيبية ـ و هذا غير الوحي و التنزيل .

---

(١) **من بلاغة القرآن** ، ص ٥٠ .

الفصل الثالث

المعجزة الشخصية

توطئة عامّة

نواحي الإعجاز في الرجل و النبي و الرسول

تلك النواحي الثلاث ، **ثلاثة أنواع من المعجزات** . كل نوع منها ، إن صح حتى الإعجاز ، فهو شهادة إلهية لصاحبها . فلا يكفي أن يكون الرجل ((أسوة حسنة)) حتى نشهد له بمعجزة القداسة في السيرة . ولا يكفي أن يكون ((النبي)) داعية لله ، و مبلغاً ((لرسالات)) ربه حتى نعترف له بمعجزة النبوّة . و لا يكفي أن يكون الرسول مؤسس دين حتى نقرّ له بمعجزة الرسالة . والتاريخ خير شاهد للفصل بين عمل من العبد ، وعمل معجز من قبل الله .

الإعجاز في السيرة هو ما يسمونه في الأديان **معجزة القداسة** . و هي معجزة أفضل من سائر المعجزات الحسية . وهي التى تجعل الرسول مثالاً حياً لرسالته ، و ((أسوة حسنة)) لشريعته . فالبطولة في الدعوة ، والعبقرية في تكوين أمة ، لا تكفيان للشهادة بمعجزة القداسة.

إنشاء أو نشر دين قد يكون ((نبوّة)) تنقل أمة من الشرك الى التوحيد . لكن للنبوّة بالمعنى الحصري صفات و أحوال ذاتية هي الإعجاز في النبوّة الذي يجعلها معجزة من الله ، لا

تخفى معالمها على أحد . فليس كل إنباء عن الله وحياً و تنزيلاً ، و ليست كل ((أنباء الغيب)) نبوّة صحيحة جديدة من الله . فالإعجاز في النبوّة هو معجزة النبوّة .

و الرسول مرآة رسالته في ذاته و في سلوكه و في دعوته . نواحي ((البشرية)) القائمة في كل نبي أو رسول من الناس لا تقلّل من صحة نبوته و رسالته . لكن الإعجاز في الرسالة ، و في طرق تبليغها ، و في أسلوب الدعوة لها ، هو معجزة الرسالة .

ففى ثلاثة أجزاء من هذا الفصل نرى :

الإعجاز في السيرة ، و هو معجزة القداسة .

الإعجاز في النبوّة ، و هو معجزة النبوّة .

الإعجاز في الرسالة ، و هو معجزة الرسالة .

الجزء الأول

الإعجاز في السيرة

توطئة

العبقرية و البشرية في النبي العربي

الظاهرتان الكبيرتان في القرآن ، لوصف النبي العربي، هما العبقرية و « البشرية » . و هاتان الظاهرتان تحدّدان مدى الإعجاز في الشخصية .

في كتابنا (القرآن و الكتاب ٢ : ١٠٤٠) قررنا أن « محمداً ترك أعظم تراث يمكن أن يتركه عظيم : فقد أنشأ من لا شيء **أمةً و ديناً و دولة** تشغل قسماً كبيراً من العالم الى اليوم و إلى ما شاء الله . إن محمداً هو باعث القومية العربية الأول ، و هو محرر العرب الأول ، و هو العامل الأول لوحدة العرب الكبرى ، و هو باني الدولة الدينية العربية الأولى . فيحق للمسلمين أن يتلوا كل يوم ما نزل على النبي : « إن الله و ملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه و سلموا تسليما » .

ثم قرّرنا ميزات هذه العبقرية ، فقلنا : « كانت شخصية محمد بن عبد الله الهاشمى القرشي ، النبي العربي ، **مجموعة عبقريات** مكّنته من تأسيس أمة و دين و دولة من لا شيء.

و هذا لم يجتمع لأحد من عظماء البشرية . كان محمد عبقرية دينية ... و كان محمد عبقرية سياسية ... و كان عبقرية دبلوماسية ... و كان محمد عبقرية عسكرية ... و كان محمد عبقرية إدارية ... و كان محمد عبقرية تشريعية ... و أخيراً كان محمد عبقرية أدبية » (ص ١٠٦٥ ـ ١٠٦٧) .

لكن هذه المجموعة الفريدة من العبقريات كانت مغمورة **بمظاهر** « **بشريته** » يعلنها القرآن في حياته الشخصية ، و حياته الزواجية ، و حياته النبوية ، و حياته الجهادية . فالقرآن يضعنا على **الصراط المستقيم في تقدير شخصية النبي العربي حق قدرها** ، بهذا الإعلان المتواتر : « قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى الى ... » (فصلت ٦ ، الكهف ١١٠) . و اذا طُولب ، كما يُطالب النبيون ، بشيء من علم الغيب أو المعجزة ، يصيح : « قل : « سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولاً » ! (الإسراء ٩٣) .

يقول الأستاذ السمان[١] : « و الذي لا مرية فيه **أن محمداً كان بشراً بكل ما في هذه اللفظة من معنى** ، و بكل ما ينطبق عليها من سنن الكون و ظروف الطبيعة . وُلد كما يولد البشر ! و عاش كما يعيش البشر ! و مات كما يموت البشر . لم يشذّ عن سنن الطبيعة ، **و لم يُقدَّر له أن يمتاز عن مجريات أحوالها .** و ما امتاز به عن البشر ، قد انحصر في تكليف الله إياه مهمة الوحي ، ليكون مبلغاً عن الله و داعياً اليه بإذنه . و لعل ما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ ، **قد وضع النقاط على الحروف** ، و لم يدع مجالاً لذرة واحدة من الشك : « قل إنما أنا بشر مثلكم ! يوحى إليَّ إنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (الكهف ١١٠) . كذلك قوله : « قلْ إنما أنا بشر مثلكم ! يوحى إليَّ إنما إلهكم إله واحد ، فاستقيموا اليه و استغفروه ! وويل للمشركين » ! (فصلت ٦) .

و يقول أيضاً : « ومحمد ـ صلوات الله عليه ـ كان بشراً ككل الرسل : وُلد كما يولد البشر ! و عاش و مات كما يعيشون و يموتون ! و لم تكن الرسالة التى كلفها لتخرجه عن حدود البشرية و طبائعها و سننها ... له امكانيات البشر ، **و ليس له فوقها ذرة واحدة :** « قلْ : لا أملك لنفسى نفعاً و لا ضراً ، إلا ما شاء الله ! و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير و ما مسّني السوء » (الأعراف ١٨٨) ، « قلْ : لا أقول لكم عندي خزائن الله ! و لا أعلم الغيب ! ولا أقول لكم : إنى ملك ، إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليَّ » (الأنعام ٥٠) .

---

(١) محمد عبد الله السمان : **محمد الرسول البشر** ، ص ١٠ ثم ٢٢ .

من يتلو القرآن لا يتمالك من مقابلة **هذه الصورة لمحمد بصورة المسيح** في القرآن : وُلد من أم بتول لم يمسسها بشر ، يكلّم الناس في المهد و كهلاً ، يطّلع على علم الغيب ، ويرتفع في سلطان المعجزة ، بإذن الله ، الى مشاركة الخلق ـ بدون شرك ـ في السلطان على إحياء الموتى ، و في السلطان على الخَلْق : « و اذْ تخلق » (آل عمران ٤٥ ـ ٤٧ ، المائدة ١١٠) . فتلكما العبقرية و « البشرية » عند محمد تحدّان الإِعجاز في سيرته الشخصية، و البيتية ، و النبوية ، و الجهادية .

بحث أوّل

سيرة محمّد الشخصية

نبدأ **بالناحية الايجابية** في شهادة القرآن :

يقول : « نَ ، و القلم و ما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ! و أنَّ لك لأجراً غير ممنون ! **و أنك لعلى خلق عظيم** » (القلم ١ ـ ٤) . أجل إنه لخلق عظيم تحمل اعباء الدعوة بين المشركين ، في سبيل التوحيد .

و يقول : « لقد جاءَكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (التوبة ١٢٨) ، « فبمَا رحمة من الله لِنْتَ لهم : و لو كنت **فظّاً غليظ القلب** لانفضوا من حولك » (آل عمران ١٥٩) . إن غيرة محمد على انقاذ بنى قومه من الشرك ، و حكمهم في الإسلام لله ، جعلته من « أولي العزم » من المرسلين . و إن غيرته على إيلاف المؤمنين تظهر في لينه بمعاملتهم .

فكان سراجاً منيراً في جاهلية العرب : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً و داعياً الى الله بإذنه ، و سراجاً منيراً » (الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦) .

و كان برسالته رحمة : « و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء ١٠٧) ، يكفّهم عن الشرك بدعوته : « و ما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً و نذيراً » (سبأ ٢٨) .

أمّا **الناحية السلبية** التى يشهد لها القرآن فهي :

أوّلاً : حب السيطرة و التمتّع بطيبات الحياة فطرة في الإنسان خضع لها محمد

١ ـ فالقرآن يردعه عن **السيطرة على المؤمنين** : « فذكّر إنما أنت مذكر ! لست عليهم بمصيطر » (الغاشية ٢١ ـ ٢٢) . و يأمره : « و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (الشعراء ٢١٥) ، « و مَن تولّى ، فما أرسلناك عليهم حفيظاً » (النساء ٨٠) ، « و ما جعلناك عليهم حفيظاً ، و ما أنت عليهم بوكيل » (الأنعام ١٠٧) .

٢ ـ و القرآن يردعه عن **الغيرة من سلطان الزعماء و ثرائهم** : « لا تمدَّن عينيك الى ما متّعنا به أزواجاً منهم ! و لا تحزن عليهم ! و اخفض جناحك للمؤمنين ! » (الحجر ٨٨) . فقد كان يريد مثلهم زينة الحياة الدنيا : « و اصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه . و لا تعْدُ عيناك عنهم ، **تريد زينة الحياة الدنيا** » (الكهف ٢٨) .

٣ ـ أجل كان النبي يدعو الى الزهد بالدنيا في سبيل الآخرة ؛ لكنه كان يدعو أيضاً إلى أن يأخذ الانسان نصيبه من الحياة الدنيا . **فدعوة الزهد** في القرآن « أمة وسط » بين الروحانية المفرطة و بين المادية المفرطة . فهو يسير ما بين افراط و تفريط .

لكن **الدعوة القرآنية للتمتّع بطيبات الدنيا لا حدّ لها** : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، و اشكروا الله ، إنْ كنتم إياه تعبدون » (البقرة ١٧٢) ، « يسألونك : ماذا أُحِلّ لهم؟ قلْ: أُحِلَّ لكم الطّيبات » (المائدة ٤) . فالمبدأ العام في الدعوة القرآنية: « اليوم أُحِلَّ لكم الطّيبات » (المائدة ٥) . و يمنّ عليهم أن الله بالإسلام « أيدكم بنصره و رزقكم من الطّيبات » (الأنفال ٢٦) .

و الدعوة القرآنية للتمتع بطيبات الدنيا **تزيد على الدعوة التوراتية** يقول : « يا بني إسرائيل ... كلوا من طيبات ما رزقناكم ، و لا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي » (طه ٨٠ ـ ٨١ ، قابل البقرة ٥٧) ، « و لقد بوأنا بني إسرائيل مُبَوّأ صدق و رزقناهم من الطّيبات » (يونس ٩٣) ، كما « لقد كرمنا بني آدم ... و رزقناهم من الطّيبات » (الإسراء ٧٠) . أجل « و لقد آتينا بني إسرائيل الكتاب و الحكم (الحكمة) و النبوّة ، و رزقناهم من الطّيبات وفضلناهم على العالمين » (الجاثية ١٦) . فقد كرّم الله بني إسرائيل بالكتاب و النبوّة ،

و الطّيبات من الرزق ، و التفضيل على العالمين : فكانوا بذلك مثالاً للمسلمين : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، و لا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون » أي المشركين (الجاثية ١٨) . فالمبدأ العام في القرآن : « يا أيها الرسل ، كلوا من الطّيبات ، و اعملوا صالحاً ، إنى بما تعملون عليم » (المؤمنون ٥١) .

لذلك من أهداف الدعوة القرآنية على لسان النبي الأمّي لأهل الكتاب أنه « يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر **و يحل لهم الطّيبات** ، و يحرّم عليهم الخبائث **و يضع عنهم اصْرهم و الأغلال** التى كانت عليهم » (الأعراف ١٥٧) ، لأنه « بظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيّبات أحلّت لهم » (النساء ١٦٠) . **فالقرآن يزيد على التوراة في تحليل الطّيبات** و زينة الحياة الدنيا ، و يخصها بالمؤمنين يوم القيامة : « قلْ من حَرَّم زينة الله التى أخرج لعباده ، و الطّيبات من الرزق ؟ قلْ : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » (الأعراف ٣٢) . لذلك ختم الدعوة القرآنية بقوله : « اليوم أحلّ لكم الطّيبات » على الإطلاق (المائدة ٥) .

٤ ـ و القرآن يزخر **بمظاهر** « **بشرية** » الرسول العربي :

منها **تبرّم النبي بضعاف المؤمنين** : « عَبَس و تولّى أن جاءَه الأعمى ... ! أما مَن استغنى فأنت له تصدّى ... ! و أمّا مَن جاءَك يسعى و هو يخشى فأنت عنه تلهّى ! » (عبس ١ ـ ١٠) .

و منها **طرد فقراء المؤمنين** بحضرة صناديد قريش : « و لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ! ما عليك من حسابهم من شىء ! و ما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم ، فتكون من الظالمين » (الأنعام ٥٢) . قال الجلالان : كان المشركون طعنوا في حقارة جماعته الأولى و طلبوا منه أن يطردهم ليجالسوه ، و أراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ، فعاتبه ربه هذا العتاب القاسي .

و منها **قهر اليتيم و نهر السائل** : « فأما اليتيم فلا تقهر ! و أما السائل فلا تنهر ! » (الضحى ٩ ـ ١٠) . هل حدث ذلك مرة واحدة أم أكثر ؟

و منها الدعاء و الهزء بعمّه أبي لهبٍ و زوجه : « تبت يدا أبي لهبٍ ، و تبّ ! ما أغنى عنه مالُه و ما كسب : سيصلى ناراً ذات لهب ! و امرأته حمّالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد » (سورة تبّت أو اللَّهَب) .

و منها ما ردّ شتيمة على قائلها : ((إنّا أعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك و انحر ! إنَّ شانئك هو الأبتر !)) (الكوثر كلها) . قال الجلالان : ((نزلت في العاص بن وائل : سمّى النبي ﷺ أبتر ، عند موت ابنه القاسم)) .

٥ ـ و ينقل الأستاذ السمان[1]، عن السيرة و الحديث بعض ((**طبائع و غرائز**)) .

كان أحياناً يغضب و يدعو على المؤمنين : ((اللهم إنما أنا بشر أغضب و آسف ، كما يغضب البشر ! فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه فاجعلها له رحمة)) .

في مفاجأته بمعركة بدر يصلّي و كأنه يتحدّى ربه : ((اللهم إنْ تظهرْ هذه العصابة ، يظهرْ الشرك ، و لا يقمْ لك دين)) !

و في غزوة بئر معونه قُتل نحو سبعين من قرّاء القرآن ، فانفعل كثيراً ، ظل يبدأ صلاة الصبح بضع عشرة ليلة بهذا الدعاء : ((اللهم اشددْ وطأتك على مضر ! اللهمّ عليك ببني لحيان ، و زغب و رعل و ذكوان و عصية ! فإنهم عصوا الله و رسوله)) .

و اعتبر عمر بن الخطاب و زعماء المسلمين صلح الحديبية إهانة لكرامتهم . فأخذ عمر يقول للرسول على مشهد من الناس : لِمَ نعطي الدنية في ديننا ! و حين أمر الرسول بالرحيل ، لزم عمر يردّدها عليه ثلاثا ، فأجابه عند الثالثة : ((ثكلتك أُمك يا عمر ! بدرت رسول الله ثلاث مرات ، و كل ذلك و لا يجيبك)) !

في سرية بنى مرة ، قبل الفتح ، قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس ، بعد نطقه بالشهادة : لا إله إلاّ الله . و بلغ الخبر محمداً ، فقال لأسامة ! و قد قال : لا إله إلاّ الله ؟ فجعل أسامة يقول : انما قالها تعوذاً من القتل . فقال الرسول منفعلاً : أفلا شققت عن قلبه ، فتعلم أصادق أم كاذب ؟ هذه غضبة للحق !

و حين فتح مكّة بعث النبي خالدا بجيش إلى بنى جذيمة بأسفل مكّة . فخافوا و أسلموا. لكن خالدا أسرهم و أمر كل مسلم بقتل أسيره . فاختلف الناس و حدثت مشادّة عظيمة أمام الرسول بين خالد بن الوليد و عبد الرحمان بن عوف . فانفعل محمد انفعالاً شديداً ، و رفع يديه حتى رؤي بياض ابطه ، و هو يقول : اللهم إنى أبرأ إليك ممّا صنع خالد !

---

(١) **محمد الرسول البشر** ، ص ٢٤ ـ ٣٩ .

كان بنو قريظة يبالغون في المؤامرة على الإسلام ، و قد تحالفوا مع احزاب قريش في غزوة الخندق ، و لولا دبلوماسية النبي للتفريق بينهم ، لأطبقوا من خارج و من داخل على المسلمين . فلما ارتحلت الأحزاب غزا محمد قريظة و هو يقول لهم : يا اخوة القردة والخنازير ، و عبدة الطواغيت ، أتشتموني !؟

و بعد غزوة حنين ، فضّل ((المؤلفة قلوبهم)) من قريش بالعطاء ، فقال أحدهم : و اللهِ إن هذه القسمة ما عدل فيها ، و ما أريد بها وجه الله ! فبلغ الخبرالنبي ، فانفعل و أجاب مستنكراً : فمن يعدل ، اذا لم يعدل الله و رسوله ؟! و في رواية أخرى ، قال له رجل من بني تميم : يا رسول الله أعدل ! فقال له الرسول : ويلك ، و من يعدل اذا لم أعدل ؟ قد خبتُ وخسرت إن لم أكن أعدل ! ـ إنها ألوان من الانفعالات و الثورات النفسية ، حين تمسّ الكرامة الشخصية .

و في معركة أُحُد قُتل حمزة عم النبي الذي به و بعمر بن الخطاب أعزّ الله الإسلام . فثار محمد ثورة عارمة ، و جعل يتوعّد بأنه **في سبيل حمزة سوف يمثل بسبعين رجلا منهم**. و نسي قول القرآن : ((و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)) . و مضت **ست سنوات** كاملة لم تهدأ ثورة محمد في نفسه . و جاءَ فتح مكّة ، فأهدر محمد دماء و حشي بن جرب قاتل حمزة . ففرّ إلى الطائف . ثم رجع مسلماً مع وفدهم . لكن ما رآه محمد حتى صاح فيه : ((غيّب وجهك عني)) !

و قبل وفاته قرّر إرسال بعثة لغزو الروم ، و أمر على رأسها الفتى أسامة بن زيد ، فاستاء كبار المهاجرين و الأنصار ، و أخذ نوع من التمرّد يجتاح الجماعة . و كان المرض قد بلغ منه مبلغه . فكابر على نفسه و أتى المسجد و صعد المنبر ، و قد عصب رأسه من شدة الوجع ، و خاطب المسلمين : ((فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ؟ و اللهِ لئن طعنتم في إمارتي أسامة ، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبل . و ايمُ الله ، إن كان للإمارة لخليقا ! و إن ابنه من بعده لخليق للإمارة . و إنْ كان لمن أحب الناس إليَّ)) . فالنبي يثور وهو على فراش الموت لمخالفة أوامره .

و تلك الانفعالات النفسية الطارئة التى تبلغ حدَّ الغليان و الثورة النفسية ، كانت تتحول أحياناً ، بضغط الظروف ، إلى كبتٍ يضيق به صدره ضيقاً شديداً . و هنا القرآن

نفسه شاهد عدل . لقد ضايقه المشركون بتحدّيه المتواصل بآية كالأنبياء الأولين : « فلعلك تارك بعض ما يُوحى إليك ، **و ضائق به صدرك** ، أن يقولوا : لولا أُنزِل عليه كنز ! أو جاءَ معه مَلَك ! إنما أنت نذير ، و الله على كل شيء وكيل » (هود ١٢) .

و في عجزه الدائم عن معجزة كان المعارضون يرشقونه بشتى التهم ، و يُعجزه العجز عن معجزة ، فيستسلم الى الكبت و الضيق : « و لقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ! فسبّح بحمد ربك و كن من الساجدين ، و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (الحجر ٩٧ ـ ٩٩) .

و الصورة الكاملة لخُلق النبي هي الدعوة أولاً « بالحكمة و الموعظة الحسنة » بمكّة حيث كان طريداً شريداً بين بني قومه ، ثم الدعوة بالمدينة ، في حمى المهاجرين و الأنصار ، بالجهاد ، « و الحديد فيه بأس شديد و منافع للناس » (الحديد ٢٥) . و قوله : « و إنك لعلى خلق عظيم » ، « و ما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين » كأنه يقصد بها جماعته لا غيرهم من الناس : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار ، **و ليجدوا فيكم غِلْظة** ، و اعلموا أن الله مع المتقين » (التوبة ١٢٣) . و هو يصور واقع الحال بقوله : « **محمد رسول الله ، و الذين معه ؛ أشداء على الكفّار ، رحماء بينهم !** » (الفتح ٢٩) ، « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً » (الفرقان ٥٢) .

والحديث الذي يصفه خير وصف هو: إنه « نبي الملحمة » ! وإنه « نبي المرحمة » ! و كلاهما يتعارضان .

ثانياً : أزمات محمد النفسيّة

عقد الأستاذ دروزة في (سيرة الرسول) فصلاً قيماً في « **الأزمات النبوية النفسية** » (١ : ٢٢٦ ـ ٢٧٥) نقتطف منه بعض ما يلي :

١ ـ إن **الأزمة النفسية الأولى** كانت في لقاء الوحي و في فتوره ، حيث حاول الانتحار مرتين بعد رؤيا غار حرّاء ، كما نقل البخاري عن عائشة (١ : ٣) : « رجع بها رسول الله **يرجف فؤاده** فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملوني ، زملوني ! فزملوه حتى ذهب عنه الروع » .

و روى الطبري أن الروع لم يذهب ، بل فكر بالانتحار ، فقد نقل عن ابن الزبير: « قال : قلتُ إن الأبعد ـ يعنى نفسه ـ لشاعر أو مجنون ! لا تحدَّث بها عني قريش أبداً .

لأعمدنَّ الى حالق من الجبل ، فلأطرحنَّ نفسي منه ، فلأقتلنّها . فلأستريحنّ ! قال : **فخرجتُ أريد ذلك** . حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله و أنا جبريل » [1] .

اطمئن الرسول ، لكن سرعان ما عاودته فكرة الانتحار عند فتور الوحي . يتابع البخاري حديث عائشة (١ : ٤) : « **ثم لم ينشب أن توفي ورقة و فتر الوحي** » . كان ورقة ، قس مكّة ، سنده في طريق النبوّة . و ها الأستاذ و السند يموت . « و لقد قيل : إن النبي ضاق ضيقاً شديداً بانقطاع الوحي عنه . **و إنه كان يهيم على وجهه في الصحراء** يناجي ربه . و بلغ به الأمر مرة **أن همَّ بإلقاء نفسه من قمة جبل شاهق .** و قد انتهت هذه المحنة بنزول سورة (الضحى) التى تصف هذه الأزمة النفسية » [2] .

٢ ـ إن **الأزمة النفسية الثانية** كانت في انفعاله المتواصل من عدم إيمان بني قومه برسالته : « فإن الله يُضل مَن يشاء و يَهدي من يشاء : **فلا تذهبْ نفسك عليهم حسرات** . إن الله عليم بما تصنعون » (فاطر ٨) . قال دروزة في تعليقه [3] : « و تلهم إنها نزلت في وقت اشتد فيه الحزن والغم على النبي ﷺ بسبب موقف الجحود الذي يقفه قومه من دعوته ».

و هذه الأزمة تتجدد في العهد الثاني بمكّة : « لعلك باخع نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ! وما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدَث إلاَّ كانوا عنه معرضين ! » (الشعراء ٣ و ٥) . علّق عليها دروزة[4] : « و مما لا ريب فيه أنها نزلت في ظرف اشتد فيه حزن النبي و همّه من **مواقف التكذيب و الإعراض** ، و هذا ممّا احتوته الآيات صراحة » .

و دامت هذه الأزمة الى العهد الثالث بمكّة : « فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » (الكهف ٦) . قال دروزة [5] : « و الآية مثل آية الشعراء الثالثة. و تكرار الخطاب المماثل في فترتين متباعدتين يدل دون ريب على تكرار الظروف ، وبالتالى على **تكرار الأزمة** من جراء موقف الجاحدين » .

---

(١) نقله دروزة في (**القرآن المجيد**) ، ص ٢١ .
(٢) محمد صبيح : **عن القرآن** ، ص ٤٠ .
(٣) **سيرة الرسول** ١ : ٢٧٦ .
(٤) **سيرة الرسول** ١ : ٢٧٧ .
(٥) **سيرة الرسول** ١ : ٢٧٨ .

و قد يتدخل الوحي ، في تلك الحال ، حيناً لتسليته : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ! » (طه ١ ـ ٢) ، و حيناً لاحراجه و تعجيزه في يأسه : « إنك لا تُسمع الموتى ! ولا تُسمع الصمّ الدعاء ! إذا ولّوا مدبرين . و ما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ، إنْ تُسمع إلاّ مَن يؤمن بآياتنا ، فهم مسلمون » (النمل ٨٠ ـ ٨١) .

٣ ـ إن **الأزمة النفسية الثالثة** كانت في تضايقه من استهزاء المشركين المتواصل : « كانوا به يستهزئون » (٦ : ٥ و ١٠ ، ١١ : ٨ ، ١٥ : ١١ ، ١٦ : ٣٤ ، ٢١ : ٤١ ، ٢٦ : ٦ ، ٣٦ : ٣٠ ، ٣٩ : ٤٨ ، ٤٠ : ٨٣ ، ٤٣ : ٧ ، ٤٥ : ٣٣ ، ٤٦ : ٢٦) . يستهزئون من شخصيته الكريمة : « و إذا رأوك ، إنْ يتّخذونك إلاّ هزواً : أهذا الذي بعث الله رسولاً ! » (الفرقان ٤١) . و يستهزئون بدعوته : « و إذا رآك الذين كفروا ، إنْ يتّخذونك إلاّ هزواً : أهذا الذي يذكر آلهتكم » ! (الأنبياء ٣٦) . فيضيق صدراً بهذا التهكّم والاستهزاء: « **و لقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون** » (الحجر ٩٧) . و يحزن : « فلا يحزنك قولهم : إنا نعلم ما يُسرون و ما يعلنون » (يس ٧٦) . يحزن حزناً متواصلاً : « قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون » ! (الأنعام ٣٣) . فتأتيه تعزية و تسلية : « إنّا كفيناك المستهزئين » (الحجر ٩٥) . لكن سرعان ما يعود الهزء و السخرية في المدينة ، بأسلوب أدهى ، مع المنافقين : « و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ! و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنّا معكم ، إنما نحن مستهزئون » ! (البقرة ١٤) . و تدوم الحال مع المنافقين في الهزء والسخرية إلى آخر العهد بالمدينة : « يحذر المنافقون أن تُنزّل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . قل : استهزئوا ، ان الله مخرج ما تحذرون ! و لئن سألتهم ، ليقولُنَّ : إنما كنا نخوض و نلعب : قلْ : **أبالله و آياته و رسوله كنتم تستهزئون ؟** » (التوبة ٦٤ ـ ٦٥) . و تأتي هذه الصورة في موقفهم من التنزيل : « و اذا ما أُنزلت سورة ، فمنهم مَن يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً و هم يستبشرون ، و أما الذين في قلوبهم مرض ، فزادتهم رجساً على رجسهم و ماتوا و هم كافرون ! أوَلا يرون أنهم يُفتنون **في كل عام مرة أو مرتين** » ؟ ! (التوبة ١٢٤ ـ ١٢٦) . هذه إشارة الى أنه كان ينزل بالمدينة في كل عام سورة أو سورتان ، فكان ذلك مناسبة لفتنتهم في العام مرة أو مرتين . و هذه السخرية بمناسبة التنزيل كانت تصيب محمداً في الصميم . و تتراكم الأزمات في نفس النبي .

٤ ـ إن **الأزمة النفسية الرابعة** ، كانت في موقف أقاربه من دعوته . فهو يصف موقفهم منه بقوله : « و هم ينهون عنه ! و ينأون عنه ! » (الأنعام ٢٦) ، أي بعصبيتهم

القومية يحمونه ، و بسبب شركهم يبتعدون عنه . و في (أسباب النّزول) للسيوطي : لإنها نزلت في عمومته ، **و كانوا عشرة** : فكانوا أشد الناس معه في العلانية ، و أشد الناس عليه في السر ، و هذا الموقف كان يؤلمه جداً لتأثيره السيّيء على الناس . و بما أنه دام حتى فتح مكّة ، فإن مرارة النبي من عشيرته كان متواصلاً لا ينتهي . و ذات مرة جاءَه الأمر: « وأنذر عشيرتك الأقربين ... فإن عصوك ، فقل : إنى برىء مما تعملون » ! (الشعراء ٢١٤ ـ ٢١٦) . فدعاهم الى وليمة أولى ، ثم الى وليمة أخرى ، فما أفلح في دعوتهم . فدعاهم جهاراً الى جبل الصفا ، فعطّل الدعوة عمه أبو جهل ، و ناوأه عمّه أبو لهب . فتوسل بعمه العباس ، و عمّته صفية ، فما نجح . فخلف ذلك في نفسه يأساً عظيماً ، زاده الوحي مرارة بتعجيزه : « إنك لا تهدي من أحببت ، و لكن الله يهدي من يشاء ، و هو أعلم المهتدين » (القصص ٥٦) ، « إن تحرص على هُداهم فإن الله لا يهدي من يضل » (النحل ٣٧) . وهذا الموقف يجمع الى الألم الذاتي ، الفشل الاجتماعي المشهود . قال دروزة [1] : « و إنه لمن الطبيعى أن يثير هذا الموقف السلبي في نفس النبي ﷺ **أزمات حادة من حين لآخر** . فقد عُرفتْ بيئة النبي و عصره بالتضامن أو العصبية العائلية . و من المعقول أن ينظر الناس إلى موقف أقاربه الأدنين منها ، و أن يكون لهذا الموقف أثر فيهم . و أن يتخذ الزعماء موقفهم حجة للانصراف و المكابرة ، أو وسيلة للدعاء بين عامة الناس ضدها » . و قد دامت هذه الأزمة نحو عشرين عاماً ، حتى فتح مكّة .

٥ ـ إن **الأزمة النفسية الخامسة** كانت في غيرة محمد وجماعته من سلطان المعارضين و ثروتهم من مال و بنين . فكانوا يستعلون عليهم : « و اذا تُتلى عليهم آياتنا بيّنات ، قال الذين كفروا للذين آمنوا : أي الفريقين خيرٌ مقاماً وَ أحسن نديّاً ؟ (مريم ٧٣) . و هذا الاعتداد بمقامهم و نديّهم يجعلهم يستكبرون على الدعوة : « و قالوا : نحن أكثر أموالاً و أولاًداً ! و ما نحن بمعذّبين » (سبأ ٣٥) . و كان هذا الاستعلاء على الدعوة سبباً في صد الناس عنها و سبباً لمرارة دائمة في نفس محمد ، قال يصفها على لسان موسى من فرعون : « و قال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون و ملأه زينة و أموالاً في الحياة الدنيا ! ربنا ، ليضلوا عن سبيلك ! **ربنا اطمس على أموالهم ! و اشدد على قلوبهم !** فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (يونس

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٨٥ .

٨٨) . و يتجمع مع الألم الغيرة من حال المشركين في الثروة : « و لا تمدّنَّ عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه و رزق ربك خير و أبقى ! نحن نرزقك و العاقبة للتقوى » (طه ١٣١ ـ ١٣٢) . و عاد النبي الى فتنته و أزمته ، فعاد الوحي الى تأديبه : « لا تمدّنَّ عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم ، و لا تحزن عليهم ، و اخفض جناحك للمؤمنين » (الحجر ٨٨) . و هذا الموقف النبوي ليس من الإِعجاز في الشخصية و القداسة.

٦ ـ إن **الأزمة النفسية السادسة** كانت ، عكس السابقة ، في تبرّم النبي بجماعته من الفقراء ، عند أنفة المشركين من مجالسته وهم معه . فيأتيه التحذير و التأديب : « و اخفض جناحك للمؤمنين » (الحجر ٨٨) . لكنه يعود لمثلها ، فيعود الوحي الى التنبيه و الترهيب : « و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » (الشعراء ٢١٥) . و ينص القرآن على تضايق محمد بأتعس المؤمنين كالأعمى و اليتيم و السائل: « عبس و تولّى ، أن جاءَه الأعمى ... » (عَبس ١ ـ ٢) ، « أما اليتيم فلا تقهرْ ! و أما السائل فلا تنهر ! » (الضحى ٩ ـ ١٠) . و قد تشتد الأزمة بالنبي فيطرد المؤمنين من مجلسه : « و لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ! ما عليك من حسابهم من شيء ! و ما من حسابك عليهم من شيء ! **فتطردهم ، فتكون من الظالمين !** » (الأنعام ٥٢) . فيأمره الوحي بالصبر عليهم : « و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ! و لا تعْدُ عيناك عنهم **تريد زينة الحياة الدنيا !** و لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا و اتّبع هواه ، وكان أمره فُرُطاً » (الكهف ٢٨) . فكأن موقف النبي في ذلك مظاهرة للكافرين ، فيردعه الوحي ردعاً جميلاً : « و ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ، إلاّ رحمةً من ربك : **فلا تكونَنَّ ظهيراً للكافرين !** و لا يصدُّنك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك ! و ادعُ إلى ربك **و لا تكونَنَّ من المشركين !** » (القصص ٨٦ ـ ٨٧) .

و قد علّق دروزة [١] على هذه الأزمة المتواصلة بقوله : « و نعتقد أن آيات الأنعام (٥٢ ـ ٥٣) والكهف (٢٨ ـ ٣٠) والإسراء (٧٣ ـ ٧٦) والقصص (٨٥ ـ ٨٨) ... تنطوي على مشاهد من أزمات النبي ﷺ النفسية . إذ يصحّ أن يُقال في صدد آيات (الأنعام و الكهف) إن النبي إذا كان خطر على باله **أن يهمل الفقراء و المساكين من المسلمين ، أو**

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٨٢ .

يصرفهم عنه ، حينما احتج الزعماء و طلبوا إقصاءَهم عنه ليجلسوا اليه و يتحدثوا معه ، فإنما كان هذا في **ساعة من ساعات أزماته النفسية** ، و منبعثاً عن **حزنه الشديد لتمسك الزعماء بجحودهم و معارضتهم** و متابعة الناس لهم ، و عن أمله في انحياز المعتدلين الى صفه . و إذ يصح أن يقال هذا كذلك في صدد آيات (الإسراء و القصص) ، و ما يمكن أن يكون قد خطر على باله من التساهل و الاستجابة لبعض مقترحات هؤلاء الزعماء » .

و هذا أيضاً من الإعجاز في الشخصية النبوية .

٧ ـ إن **الأزمة النفسية السابعة** كانت مزدوجة متواصلة طول مدة الدعوة . كانت أولاً في تحدّي المشركين له بمعجزة ، نحو خمس و عشرين مرة صريحة ، غير الضمنية ، طول العهد بمكة . وكان جوابه العجز الدائم عن معجزة، والتهرّب من مواجهتهم، والقنوط من نجاح دعوته . و كانوا يقولون : « لن نؤمن حتى نُؤتى مثل ما أُوتي رسل الله » (الأنعام ١٢٤) . و إذا لم يأتيهم بآية كالأنبياء الأولين ، « قالوا : أضغاث أحلام ! بل افتراه ! بل هو شاعر ! فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (الأنبياء ٥) . فدعاهم مراراً الى الانتظار ، وانتظر معهم طويلاً فما جاءَت المعجزة ، حتى امتنعوا عن الإيمان به : « و ما منع الناس أن يؤمنوا ... إلاّ أن تأتيهم سُنّة الأولين » (الكهف ٥٥) . أخيراً تحقق أن المعجزات منعت عنه منعاً مبدئياً مطلقاً : « و ما منعنا أن نرسل بالآيات ، إلا أن كذب بها الأولون » (الإسراء ٥٩) فكاد النبي و المؤمنون أن ييأسوا : « و لو أن قرآناً سُيّرت به الجبال ! أو قطعت به الأرض ! أو كُلِّمَ به الموتى ! ـ بل الأمر الله جميعاً ! **أفلم ييأس الذين آمنوا** أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » (الرعد ٣١) . أما المشركون فيئسوا و كفروا : « و يقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قل: كفى بالله شهيداً بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب » (الرعد ٤٣) . آيته الوحيدة شهادة أولي العلم من أهل الكتاب .

و هاجر مع جماعته الى المدينة ، فلقيه هناك تحدّ أكثر ايلاماً ، مناورات المنافقين واستهزاؤهم من أول العهد (البقرة ١٤) حتى آخره (التوبة ٦٤ ـ ٦٥) .

فكلها **أزمات نفسية متواترة متراكمة** تهدّ الجبال هدّاً . فصمد النبي لها . **إنها البطولة** في معركة الصمود . لكنها ، إن دلت على شيء ، فهي تدلّ على « **بشرية** » محمد في شخصيته . و ما ظهر فيها من انفعالات و ثورات نفسية ، و عزم حيناً على الأنتحار ، و حيناً

على الهجرة ، كل هذا لا يدلّ على إعجاز في الشخصية . فالإعجاز في الشخصية يقتضي السكينة النفسية في المحنة ، و الصمود حتى الاستشهاد .

ثالثاً : الذنب و الاستغفار

إن الرسول مثال لأمته و للبشرية جمعاء بقداسة السيرة . و قداسة السيرة قد تأتلف مع الهفوات البشرية العابرة . لكنها لا تنسجم مع الاقرار المتواتر بالذنب ، ومع الأمر المتواتر بالاستغفار .

ظاهرة كبرى في القرآن هي **شعور محمد بالذنب** . كان يشعر بالذنب في أول أمره : ((ألم نشرح لك صدرك ، **ووضعنا عنك وزرك** ، الذي أنقض ظهرك)) (الشرح ١) . ووزر ينقض الظهر ليس بالصغير و لا بالحقير ! فسّره الزمخشري : ((و الوزر الذي أنقض ظهره مثل لما كان يثقل على رسول الله و يغمه من فرطاته قبل النبوّة)) . و قال البيضاوى: ((ووضعنا عنك وزرك ، أي **عبأك الثقيل** الذي انقض ظهرك : و هو ما ثقل عليه من فرطاته قبل البعثة)) .

و في أوج النبوّة و الرسالة يزداد الشعور بالذنب ، يُقال له : ((إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر)) (الفتح ١) . فإن الذنوب لا تنتهي . جاءَ في تفسير ابن عباس : ((لكي يغفر لك الله **ما سلف من ذنوبك قبل الوحي** ، (و ما تأخر) **ما يكون بعد الوحي الى الموت**)) . قال الزمخشري : ((يريد جميع ما فرط منك ، و عن مقاتل : **ما تقدم في الجاهلية وما بعدها**. و قيل: **ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد**)). و يجمع الجلالان الآيتين في صورة واحدة تكشف عن نفسية النبي العربي : ((ووضعنا عنك وزرك الذي أثقل ظهرك. وهو كقوله: ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر)) . وهذا الشعور الدائم بالاثم يدل على ضمير حي ، لكنه ، لا يدل على إعجاز في الشخصية القدْسية .

و هناك **صورة قاتمة** ، حضور الشياطين و همزاتهم للنبي ، ((قلْ : ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين ، و أعوذ بك ، ربِّ ، أن يحضرون)) ! (المؤمنون ٩٧ ـ ٩٨) . إن الأمر بالاستعاذة هو للنبي نفسه : ((قلْ)) . و الاستعاذة دليل الأمر الواقع . و هو يفرض هذه الاستعاذة خصوصا في قراءَة القرآن ، خوفاً من التبديل فيه : ((فإذا قرأت القرآن ، فاستعذ

بالله من الشيطان الرجيم ... و إذا بدّلنا آية مكان آية ، و الله أعلم بما ينزل ، قالوا : إنما أنت مفتر ! » (النحل ٩٨ و ١٠١) . و يظهر أن الشيطان يحضر التنزيل و يدسّ فيه : « و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي ، إلاّ اذا تمنّى (قرأ) **ألقى الشيطان في أمنيته !** فينسخ الله **ما يلقى الشيطان** ثم يُحكم الله آياته ، و الله عليم حكيم » (الحج ٥٢) . و حضور الشيطان قد يكون في أحداث السيرة : « خذ العفو ، و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين : **و إمّا ينزَغَنَّك من الشيطان نزْغ** ، فاستعذ بالله إنه سميع عليم » (الأعراف ١٩٩ ـ ٢٠٠) أي « يصرفك عمّا أمرت به صارف » من الشيطان (الجلالان) . و قد تكون ملاحقة الشياطين في كل أمر : « و لا تستوي الحسنة و لا السيئة : ادفع بالتى هي أحسن ، فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم . و ما يُلقّاها ، إلا الذين صبروا ، و ما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم . و إمّا ينزغنَّك من الشيطان نزْغ فاستعذ بالله ، انه هو السميع العليم » (فصلت ٣٤ ـ ٣٦) . أي « **يصرفك عن الخصلة و غيرها من الخير صارف** » (الجلالان) . قيل : و كان محمد يصلي كل يوم قبل النوم المعوذتين ليبعد نزغ الشيطان و همزاته . فهذا الهلع الدائم من حضور الشياطين و همزاتهم في السيرة و الدعوة ، صورة لا توحي بالسلطان عليهم و لا هي دليل على إعجاز الشخصية القدْسية .

و يأتي الأمر المتواتر للنبي بالاستغفار ، فيدلّ دلالة قاطعة على وقوع الذنوب في سيرة الرسول ، **و أن العصمة من الخطيئة أسطورة** . فالله يأمر محمداً بالاستغفار من ذنبه مرارا : « فاصبرْ إن وعد الله حق ، **و استغفر لذنبك** و سبّح بحمد ربك بالعشي و الأبكار » (غافر ٥٥) . و بما أن الاستغفار و التسبيح مطلوبان كل يوم صباحَ مساءَ ، فهذا يدل على الذنب الممكن كل يوم ! و الرسول و المؤمنون سواءٌ في الذنب و الاستغفار : « و استغفر لذنبك ، و للمؤمنين و المؤمنات » (محمد ١٩) . علق الأستاذ صبحى الصالح [1] : « من المعلوم **أن العفو لا يكون إلاّ عن ذنب ، كما أن المغفرة ، إلاّ بعد ذنب** . و قد صرّحت الآية بهذا في سورة الفتح : إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخر » .

ويختم القرآن الدعوة والسيرة ، في ذروة النصر والفتح بالأمر الدائم بالاستغفار: « إذا جاء نصر الله و الفتح ، و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً : فسبّحْ بحمد ربك

---

(١) **مباحث في علوم القرآن** ، ص ٧٤ ، مستنداً إلى **تفسير المنار** ١٠ : ٤٦٥ .

و استغفره ، إنه كان توّاباً » (سورة النصر) . إن محمداً يؤمر بالاستغفار حتى في نصر الله و الفتح ، لأن فيهما ما يستوجب الاستغفار من الذنوب .

فلم يكن محمد معصوماً من الذنوب في سيرته و تأدية رسالته . و عصمة الرسل إنما هي في الوحي و التنزيل ، لا في السيرة و لا في السريرة ، لا في القيام بالدعوة ولا في تأدية الرسالة . و من عصمه الله في هذا فقد عصمه فوق عصمة الرسل . و هذه العصمة في السيرة لم ينلها محمد بنص القرآن القاطع ، كما مرَّ بنا .

يقول الأستاذ عبد الله السمان [1] : « و الفترة التى قضاها محمد ﷺ نبياً رسولاً ، كان فيها بجانب النبوّة و الرسالة بشراً ، **لم يتخلَّ عنه جانب واحد من جوانب البشرية كلها .** كان مرتبطاً بالوحي حين يتكلّم ـ فحسب ـ أمّا حين لا يتكلّم الوحي ، فله تفكيره و له رأيه ، وبجانب ذلك آراء و تفكيرات أتباعه ، يستشيرهم و يعتد بآرائهم فيمَا لا رأي للوحى فيه .

« **و من البلاهة المركزة** أن يُصر بعض البسطاء من المسلمين ، **و من كتاب السيرة، على أن محمداً كان معصوماً خلال فترة نبوته و رسالته من كلّ كبيرة و صغيرة** ، لأن كل حركة و سكنة ، و قول و فعل منه ، انما كان بوحي . و ليس **لهؤلاء البلهاء** من حجة سوى قوله تعالى : « و ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » ... و يجهل هؤلاء أو يتجاهلون أن المقصود من هاتين الآيتين أن الرسول منزّه عن الهوى ، و أن ما يتلوه على الناس من قرآن ، ليس من تأليفه ، و انما جاءَ به الوحي من عند الله ...

« إن محمداً طولب بالاستغفار من ذنبه ، كما طولبت أمته أيضاً بالاستغفار من ذنوبها. **و في ذلك أكثر من آية** . و ليس هناك ما يدعو الى الخلط و التأويل الفاسد (كما يقول بعضهم : ان المقصود بأمر الاستغفار أمة محمد ، و ليس محمداً نفسه) ...

« في القرآن صور **من عتاب الله لمحمد** ، و ليس العتاب إلاّ نتيجة لمجانبة الصواب و ارتكاب الخطإ . و ليس من المعقول مجاراة أولئك المغالين الذين يحرصون ـ بل يُصرّون ـ على أن يضفوا على شخصية محمد هالة من التقديس الذي يأباه محمد نفسه ، لأنه في غنى عنه . **و ليست عظمة الشخصية في أن تكون معصومة من الخطإ ...** (ثم ينقل بعض نماذج من صور العتاب لمحمد) .

---

(١) **محمد الرسول البشر** ، ص ٥٦ ـ ٧٠ .

« هذه بعض نماذج من صور العتاب لمحمد ، في كتاب الله عزّ وجلّ ، حتى يتبين لنا أن **العصمة من الزلل و الخطإ** إنما هي لله وحده ...

« و محمد كان بشراً قبل أن يكون رسولاً . ثم صار بشراً رسولاً . و لم تكن صفة النبوّة و الرسالة لتحول دون طبيعته البشرية ، أو تحول بينه و بين **الانحراف في السلوك الشخصي** ، في ما هو بعيد عن نطاق الوحي . فهو معصوم حين يتدخل الوحي ـ لأن الله هو الموجه ، و العصمة له وحده ـ **و هو غير معصوم حين لا يتدخل الوحي** ، لأنه بشر ، والبشر ليست العصمة واجبة بالنسبة إليهم ...

« و لذلك كان ـ كما جاءَ في صحيح مسلم و غيره ـ **يستغفر الله في اليوم و الليلة مائة مرة .** و كان من دعائه ، كما ورد في الصحيح : « اللهم اغفر لى خطإي و جهلي ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لى هزلي و جدّي ، و خطإي و عمدي ، **و كل ذلك عندي** » .

و هكذا فإن محمداً ، خارج نطاق الوحي ، ليس معصوماً من الخطإ ، و ليس معصوماً من الخطيئة . و برهان ذلك عتاب الله مراراً له ، و الأمر المتواتر بالاستغفار من الذنوب .

و كم تكون عظمة الشخصية كبيرة ، إذا كانت معصومة من الذنب ، الذي لم يسلم منه بشر ، و لا نبي و لا رسول . و هذه العصمة المعجزة في السيرة لم ينلها سوى السيد المسيح: « و جعلنى مباركاً أينما كنت ... و السلام عليَّ يوم ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حياً » (مريم ٣١ ـ ٣٣) . انها سيرة مباركة في كل زمان و مكان ، و تستحق سلام الله عليها في كل الأحوال من المهد الى اللحد ، و من الأرض الى السماء . إن روح القدس كان يؤيد السيد المسيح في الوحي ، و في السيرة، و في الدعوة ، « يسير معه دائماً » ، « لا يفارقه ساعة » . فهذا التأييد هو مصدر العصمة من الخطيئة و الخطإ عند السيد المسيح .

عصمة في الوحي ، و عصمة من الخطإ في السلوك ، و عصمة من الإثم ، هذا هو الإعجاز المطلق في الشخصية النبوية عند المسيح . أما محمد فليس من إعجاز في سيرته الشخصية يجعلها معجزة رسالته و دعوته . إننا لا ننكر إعجازاً في سيرة النبي الشخصية ، لكننا نستنكر أن يكون هذا الإعجاز معجزة إلهية .

بحث ثان

سيرة محمّد البيتية

كان النبي العربي « أسوة حسنة » لأمته في الجهاد . فهل كان أيضاً « أسوة حسنة » لأمته في تحقيق شريعة القرآن الزواجية ؟ إن القرآن نفسه عدل في طغيان « بشريته » على الشريعة في سيرته البيتية .

أوّلاً : استباحة شريعة القرآن الزواجية

كانت إباحة تعدّد الزوجات قائمة في جاهلية العرب . و جاء القرآن فحصر عدد الزوجات الحرائر بأربع معاً ، و ترك الزواج من الإماء بلا حدّ : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث و رباع ، فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم » (النساء ٣)، « و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ، و لو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة » (النساء ١٢٩) . فالعدول عن الواحدة حتى الأربع معاً مشروط بالعدل بينهن ، في النفقة و المبيت (أى العلاقات الجنسية) ، و على قدر المستطاع في الحب ، لكن هذا مستحيل ، فيجب تلافي خطره .

و جرى القرآن في هذا التحديد حتى الأربع معاً ، على سنن أهل الكتاب الذين انتهوا في التلمود الى هذا الحصر . و كان النصارى من بني إسرائيل في الحجاز على هذه الشريعة، فجاء : « يريد الله ليبيّن لكم و يهديكم سنن الذين من قبلكم ، و يتوب عليكم و الله عليم حكيم » (النساء ٢٦) . فهذا الحصر بأربع معاً ، حكمة من علم الله .

١ ـ القرآن يُبيح لمحمّد شريعة الزواج فيه

ظل محمد على زوجة واحدة طالما السيدة خديجة ، و ابن عمها أستاذه ورقة بن نوفل، قس مكّة ، على قيد الحياة .

فلمّا توفيت الحاضنة تزوج محمد في وقت قصير ، من الهجرة الى غزوة الخندق ، من أربع معاً على التوالي : سودة بنت زمعة ثم عائشة بنت أبي بكر ثم أُمّ سلمة بنت أبى أُميّة المخزومية ثم حفصة بنت عمر . عند هذا الحد كان على شريعة القرآن .

و جاءَت غزوة الخندق فزلزل المسلمون زلزالاً عظيماً . و لمّا فشلت الحملة و تنفّس المسلمون الصعداء **تزوج محمد الخامسة** ، زينب بنت جحش ، مطلّقة متبناه زيد . فكان الزلزال في الجماعة و في بيت النبي أعظم ، لأن هذا الزواج من خامسة نقض لشريعة القرآن، و نسخ لشرعة التبني ، ممّا جعل اليهود يرددون: « تزوج محمد حليلة ابنه بالتبني » . فجاء القرآن أولاً يمنع نبيه من كل زواج بعدها : « لا يحلّ لك النساء من بعد ، و لا أن تبدّل بهنّ من أزواج ، **و لو أعجبك حسنهنَّ** ، إلاّ ما ملكت يمينك . و كان الله على كل شيء رقيباً » (الأحزاب ٥٢) . لكن الضجة الكبرى في الجماعة لم تهدأ حتى نزل التهديد بالقتل : « لئن لم ينتهِ المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ، و المرجفون في المدينة ، لنغرينّك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلاً ، ملعونين ، أين ما ثُقفوا أُخذوا و قُتّلوا تقتيلاً » (الأحزاب ٦٠ ـ ٦١) .

و مع تقدّم الغزو و الفتح و السلطان ، تزوج محمد أيضاً « جويرية بنت الحارث المصطلقية ، ثم أُمّ حبيبة ، رملة أخت أبي سفيان ، ثم صفية بنت حيي الخيبرية ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، ثم فاطمة بنت سريج ، ثم زينب بنت خزيمة ، ثم هند بنت زيد ، ثم أسماء بنت النعمان ، ثم هبلة بنت قيس ، أخت الأشعث ، ثم أسماء بنت سبأ » . **فهذه عشر نساء** أُخر ، غير **الخمس الأولى** ، و غير السيدة خديجة المتوفاة .

نقل الواحدى : « و المجمع عليه أنه تزوج **أربع عشرة** ، التسع التى مات عنهنّ ، وتزوج أيضاً خديجة و زينب بنت خزيمة و ريحانة ، و متن عنده » . أمّا الإماء ، أو ملك اليمين ، فلا نعرف له إلا ريحانة القرظية ، و مريم القبطية . فيكون المجموع ست عشرة زوجة .

نزلت **التحلة الكاملة من شرعة الزواج القرآنية** : « يا أيها النبي ، إنّا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، و ما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك ، و بنات عمك ، و بنات عماتك ، و بنات خالك ، و بنات خالاتك ، اللاتى هاجرن معك ، **و امرأة مؤمنة** ـ إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستنكحها ـ خالصة لك من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم و ما ملكت إيمانهم ، لكيلا يكون عليك حرج . و كان الله غفوراً رحيماً » (الأحزاب ٥٠) .

السبب في هذه **التحلة المطلقة** هو رفع الحرج عن محمد من الشريعة القرآنية ، و من الحاجة الشخصية. و ذكر الغفران و الرحمة إشارة الى أن تلك الزيجات كانت ضد الشريعة.

وضعوا آية التحلة الكاملة في سورة (الأحزاب ٥٠) ، قبل آية المنع (٥٢) فخلقت للقوم مشكلاً في الناسخ و المنسوخ ، حيث هنا يأتي الناسخ (٥٠) قبل المنسوخ (٥٢) . لكن هذا دليل على أن المنع نزل قبل التحلة . و هذه لم تأتِ إلاّ في آخر حياة النبي بحسب الحديث عن عائشة : ((ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ له النساء)) أي ما شاء بدون قيد ولا حد من شريعة القرآن ، و بحسب حديث عائشة و أم سلمة معاً : ((**لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء مَن شاء** ، إلا ذات محرم)) .

و الاسوة الحسنة في سيرة محمد الزواجية نراها في شماتة اليهود ، بعد زلزال جماعته و مشاكل حريمه . قال عمر بن عفرة : ((لما قالت اليهود : **(ما لمحمد شغل إلاّ التزوج)** فحسدوه على ذلك ، فأنزل الله: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله))). فكثرة النساء على قيد الشريعة القرآنية فضل من الله على نبيه ، لرفع الحرج عنه . إن القرآن نفسه أباح لمحمد شريعة الزواج فيه ، مع أن النبي مثال لشريعته و أمته ، و ((أسوة حسنة)).

٢ ـ ميزات محمّد في شريعة الزواج القرآنية

الميزة الأولى هي إحلال نسيباته كلهن له ، و إن زاد العدد على الأربع .

الميزة الثانية هي الإباحة في العدد بلا قيد و لا حد ، كما في قوله : ((و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ... خالصة لك من دون المؤمنين)) . فيحق لكل مسلمة غير ذات محرم أن تهب نفسها للنبي ، فإن فعلت فهي خالصة له من دون المسلمين ، و التنكير دليل الإطلاق و التعدد . في (أسباب النّزول) للسيوطي ، أن أُم شريك الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ **و كانت جميلة** فقبلها . فقالت عائشة : (ما في امرأة تهب نفسها لرجل خير) ، فنزلت الآية فلما نزلت قالت عائشة : (**إن الله يُسرع لك في هواك**))) .

الميزة الثالثة هي تحلة النكاح لمحمد ، بلفظ الهبة ، من غير صداق ، مع أنه لا يحل الزواج في شريعة القرآن إلا بولي و شهود و صداق أي مهر .

الميزة الرابعة هي التخيير في المضاجعة و الطلاق : ((تُرجىء من تشاء منهنّ ، وتؤوى إليك مَن تشاء)) (الأحزاب ٥١) . فسّره الزمخشري : ((تؤخر و تضم ، يعنى تترك مضاجعة من تشاء منهنّ ، و تضاجع من تشاء ، أو تطلّق من تشاء ، و تمسك مَن تشاء ؛ أو لا تقسم لأيهنّ

شئت ، و تقسم لمن شئت ، أو تترك تزوّج من شئت من نساء أمتك ، و تتزوّج من شئت)) . فلا جناح على النبي ١) في الطلاق ٢) و في المضاجعة ٣) و في القسمة بين نسائه ٤) وفي التزوج بمن يشاء من نساء أمته غير ذات محرم . لقد أعفى القرآن محمداً من شرعة العدل بين نسائه . قال الجلالان : ((و الله يعلم ما في قلوبكم من أمر النساء و الميل الى بعضهنّ . و انما خيَّرناك فيهنّ **تيسيراً عليك في كلٍ ممّا أردت**)) .

الميزة الخامسة هي التخيير في إرجاع المعزولة : ((و من ابتغيت ممن عزلت ، فلا جناح عليك)) (الأحزاب ٥١) . فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة أيضاً : ((**أرى ربك يُسارع لك في هواك**)) ! أخرجه الشيخان ، كما جاء في (أسباب النزول) للسيوطي .

الميزة السادسة هي الاستئذان قبل الدخول الى بيوت النبي ، بدون الاستئناس الى حديث بعد الطعام (الأحزاب ٥٣) . و هذه عادة الملوك و الأمراء ، و قد أخذ محمد يقتدي بهم في معاملة أمته .

الميزة السابعة هي الحجاب على نسائه : ((و إذا سألتموهن متاعاً ، فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلك أطهر لقلوبكم و لقلوبهنّ)) (الأحزاب ٥٣) . أليس في هذا شك من طهارة قلوب ((أُمهات)) المؤمنين ؟ إن (اسباب نزول) آية الحجاب كثيرة . منها ما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت : ((كنت آكل مع النبي ﷺ في قصب ، فمرّ عمر بن الخطاب فدعاه . فأكل ، فأصابت إصبعه إصبعى فقال: (أوّاه ، لو أطاع فيكنَّ ما رأتكن عين) فنزلت آية الحجاب . و عن ابن عباس : قال له عمر ، يا رسول الله لو اتخذت حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء ، و ذلك أطهر لقلوبهن . فنزلت آية الحجاب)) . و فرض الحجاب على نساء الملوك و الأمراء عادة شرقية اقتبسها النبي لأمهات المؤمنين في معاملة أمته .

الميزة الثامنة هي تحريم الزواج من نساء النبي من بعده : ((و ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، و لا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً. إن ذلكم كان عند الله عظيماً)) (الأحزاب ٥٣) .

جاء في (أسباب النّزول) للسيوطي عن ابن عباس : ((إن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ فكلّمها ، و هو ابن عمها . فقال النبي ﷺ : (لا تقومنَّ هذا المقام بعد يومك هذا) !

فقال : (يا رسول الله ، إنها ابنة عمي ! و الله ما قلت منكراً ، و لا قالت لي !) قال النبي ﷺ (قد عرفت ذلك : إنه ليس أحد أغير من الله . **و أنه ليس أحد أغير منى .)** فمضى و هو يقول : يمنعني من كلام ابنة عمي . لأتزوجنها من بعده . فأنزل الله الآية) .

فلا يحق لمطلقة النبي أن يتزوجها أحد . و لا يحق لأرملة النبي ـ حتى و لو كانت صبية مثل عائشة ـ أن ينكحها أحد . لقد منع نكاح أزواجه من بعده ، كما منعه التلمود بحق نساء ملوكهم من بعدهم ، و كما كانت عادة الملكات و الأميرات في الشرق .

إذا كان من تحرير للمرأة في الإسلام ، فيجب أن يبدأ ((بأمهات)) المؤمنين . لكن ماذا نرى ؟ لا حرج على محمد في عدد الزوجات . و لا حرج عليه في نكاح نسيباته كلهنّ . و لا حرج عليه في كل ((امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبي)) . و لا حرج عليه في شروط عقد النكاح . و لا حرج عليه في العدل بين نسائه . و لا حرج عليه في الطلاق . و لا حرج عليه في العزل و الارجاع .

بل الحرج كل الحرج على نسائه في الحجاب ، و في المعاطاة مع الناس ، و في القناعة بما يقسم لهنّ ، و في الظهور و الزينة ، و في الزواج من بعده .

و الحرج كل الحرج على المسلمين في قيود النكاح ، و شروط الطلاق ؛ و بالنسبة إلى النبي ، في نكاح أزواجه من بعده ، مطلّقات كنّ أم أرامل ، و في نكاح كل من وهبت نفسها للنبي ، و في الاستئذان لدخول بيوته ، و في الاستعجال بالخروج منها متى قضيت الحاجة ، و في عدم إيذاء النبي بحديث في حوادث نسائه .

إن مقام النبوّة لا يُقيد بالقيود المفروضة بالقرآن على المسلمين . فقد انتهت السيرة النبوية بالتحلة المطلقة من شريعة الزواج القرآنية . مع أنه بحسب الفطرة في كل دين ، يكون النبي مثالاً حياً لشريعته و أمته . فهل بتلك الميزات في شرعة الزواج كان محمد ((أسوة حسنة)) ؟

٣ ـ أسباب تعدّد الزوجات في سيرة محمد

يُقال : لتعدّد الزوجات في حياة محمد أسباب وجيهة :

هناك أسباب **سياسية** ظاهرة ، كما في زواجه من بنت أبي بكرٍ ، و من بنت عمر ، و من بنات زعماء القبائل . هذا أمر لا مراء فيه .

و هناك أسباب **انسانية** واضحة ، كما في زواجه من سودة بنت زمعة ، أو السيدة القرظية التى فضّلت أن تبقى ملك يمينه . هذا أيضاً لا مراء فيه .

و هناك سبب آخر أقوى ، على زعمنا ، وهو **شهوة الولد** . يقول الأستاذ دروزة [1]: « روايات السيرة المتعددة ، التى بلغت مبلغ اليقين تخبر أن النبي ﷺ قد رُزق أولاًداً ذكوراً من السيدة خديجة ر . زوجه الأولى ، و من أمته مارية ر . و لكنهم لم يعمّروا إلاّ قليلاً . وقد رُوي أن النبي ﷺ التاع أشدّ اللوعة عندما مات إبراهيم بن مارية في يثرب . و روح السورة (الكوثر) تُلهم أن تعيير النبي ﷺ (بالأبتر) قد حزَّ في نفسه كثيراً . و قد يكون في هذا ما يدل على أن عدم تعمير أبنائه الذكور كان شديد الأثر فيه . و لقد ذكر بعض الكتّاب أن ممّا يمكن أن يخطر بالبال أن يكون زواج النبي ﷺ بعائشة و صفية و جويرية و ميمونة و مارية رضى الله عنهنّ ، **و كلهنّ فتيات** (بينما هو قد تخطى الخمسين) بسائق **الرغبة في الأولاد الذكور** . و لا يخلو هذا من بعض الوجاهة فيما نرى » .

لكن تلك الأسباب الوجيهة لا تكفى لتخطّي النبي حدود الشريعة القرآنية ، أو لقيام شرعة للمسلمين و شرعة أخرى لمحمد في النكاح . فكيف يكون بذلك « أسوة حسنة » لأمته ؟

و هناك **سببان آخران** لتعدّد الزوجات يصرّح بهما القرآن .

فالقرآن صريح ، بنصه القاطع ، بأن **الهوى و الجمال** من أسباب تعدد الزوجات: « لا يحلّ لك النساء من بعد ، و لا أن تبدّل بهن من أزواج ، و لو أعجبك حسنهنّ » (الأحزاب ٥٢) ، « و تقديره : **مفروضاً اعجابك بهنّ** » (الزمخشري) .

و هذا التصريح بحسن النساء سبباً للزواج ، يأتي في قصة زواجه من زينب بنت جحش ، بعد أن كان عنده أربع نساء معاً ، و لم تنزل التحلّة المطلقة بعد . علّق الزمخشري على قوله : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه . فإن قلت : ما الذي أخفى في نفسه ؟ قلت : **تعلّق قلبه بها** . و عن عائشة ر. لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أُوحي اليه ، لكتم هذه الآية. و (الواو) في (و تخفي و تخشى) للحال . أي تقول لزيد (امسك عليك زوجك) مخفياً في نفسك إرادة أن لا يمسكها ، و تخفى خاشياً قالة الناس ... (و الله أحق أن تخشاه) **حتى لا تفعل مثل**

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٨٩ .

ذلك » . فالهوى و الجمال كانا سبب زواجه من زينب بنت جحش ، الذي جعله يتخطى شريعة القرآن ، قبل نزول التحلة المطلقة ، و كان سبباً في إبطال التبنّي ، العادة الرحيمة القائمة في كل الشرائع عند جميع الشعوب (الأحزاب ٣٧) .

و السبب الآخر لهذين التجاوزين كان **رفع الحرج عن محمد** ، الحرج الشرعي و الحرج الشخصي ، و الحرج الاجتماعي ، في تحليل النساء له بلا حد و لا قيد : « قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم و ما ملكت أيمانهم ، **لكي لا يكون عليك حرج** . و كان الله غفوراً رحيماً » (الأحزاب ٥٠) . ففى التحلة المطلقة الشاملة كان السبب الأول رفع الحرج عن النبي ، و السبب الثاني المغفرة للنبي لأنه تعدّى العدد المفروض ، و الرحمة به : « و كان الله غفوراً رحيماً » . فذكر الغفران عند إباحة النساء له ، دليل على أنه في زواجه من زينب ، وفي تعدد الزوجات ، كان ما يستوجب الغفران ، قبل التحلة .

و يؤيد هذا كله كما نقل الصحيحان و كما جاء في (أسباب النّزول) قول عائشة في زواج الهبة : « **إن الله يُسرع لك في هواك** » ، و قول عائشة أيضاً لمّا نزلت التحلة من الشريعة القرآنية في النكاح : « أرى ربك يُسارع لك في هواك » .

فتعدد الزوجات في حياة محمد لأسباب سياسية و انسانية و شخصية ، لا يمنع أن يكون أيضاً سببه الهوى و الجمال ، بنص القرآن القاطع : « و لو أعجبك حسنهنَّ » .

ثانياً : من المشاكل التى نشأت عن استجابة الشريعة القرآنية

نقول : « إستباحة الشريعة القرآنية » ، لأننا لا نعلم بالتدقيق زمن نزول آية التحلة المطلقة (الأحزاب ٥٠) . و الظاهر إنها مقحمة على سورة (الأحزاب) من أواخر النزول و حياة الرسول : أولاً بسبب نصّها الذي يحمل التحلة الشاملة : « يا أيها النبي **إنّا أحللنا لك أزواجك** اللاتي آتيت أجورهن » ، مما يدل على أنهنَّ كنّ قبل هذه التحلة غير حلال ، و نكاحهنَّ كان استباحة للشريعة القرآنية ، ثانياً لأنها ناسخة لآية المنع التى نزلت بعد الزوجة الخامسة ، زينب بنت جحش ، و الآية تابعة لها في النسق (الأحزاب ٥٢) . و هذا من غريب الناسخ والمنسوخ في القرآن كما جاء في (الإتقان ٢ : ٢٤) للسيوطي : « ليس في القرآن ناسخ إلاّ و المنسوخ قبله في الترتيب ، إلا في آيتين ، آية العدد في (البقرة) و قوله: (لا

يحل لك النساء من بعد) » . يدل أيضاً على اقحامها حديث عائشة ثم حديث عائشة و حفصة: « ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ له النساء » ، ممّا يدل على أن التحلة كانت من أواخر النزول و حياة الرسول . قال دروزة[1] : «و قد ذكرت روايات السيرة أن النبي ﷺ كان يجمع في عصمته حين نزول الآيات (الأحزاب ٥٠ ـ ٥٢) تسع زوجات بعقد » . **والمسألة الضخمة** إن محمداً ، الاسوة الحسنة لأمته ، قد استباح شريعة القرآن و عاش أزمة ضمير حادة ، في زيجاته كلها ، بعد الأربع الشرعيات ، حتى نزلت آية التحلة في آخر حياته ، ومعها الغفران .

فالاستباحة الأولى كانت في زواجه من زينب بنت جحش ، الزوج الخامسة . كان من نتائجها و مشاكلها آية المنع : « لا يحل لك النساء من بعد » ؛ لكن النبي استحلهنَّ . كذلك كان إبطال عادة التبنّي ، و فيه رفع رحمة انسانية من الشريعة القرآنية ، بخلاف عادة العالمين وشرائعهم . ثم «حديث الإفك » بحق عائشة ، كما سيأتي بيانه ، و أنفة ريحانة القرظية من الزواج حرّة بمحمد . فبعد تصفية بني قريظة من المدينة ، «اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة ، إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة ... و قد كان رسول الله ﷺ عرض عليها أن يتزوجها و يضرب عليها الحجاب . فقالت : يا رسول الله ، بل تتركني في ملكك ، فهو أخف علي و عليك . فتركها » [2].

و الاستباحة الثانية لشريعة الزواج القرآنية ، بعد غزوة بني المصطلق ، في زواجه من جويرية بنت الحارث المصطلقية ، سيّد قومه . قالت عائشة : « و كانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه . فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها على باب حجرتي ، فكرهتها ، و عرفت **أن النبي ﷺ سيرى منها ما رأيت** . فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه . و قد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك . فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ـ أو لابن عمّه ـ فكاتبته على نفسي . فجئتُك استعينك على كتابتي . قال : فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : و ما هو ، يا رسول الله ؟ قال : أقضي عنك كتابتك ، و أتزوجك . قالت : نعم يا رسول الله . قال : قد

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٧١ .
(٢) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٢٥٦ .

فعلت)) [1] . أجل لهذا الزواج سبب انسانى ، و هو الرفع من كرامة السيدة المسبيّة . لكن حديث عائشة قاطع بأن سبب الزواج الحقيقي الهوى و الجمال . لكن ذلك خلّف الكره في نفس عائشة .

و الاستباحة الثالثة كانت في زواج محمد من صفية الخيبرية . بعد صلح الحديبية مع قريش غزا محمد معاقل اليهود في الشمال . فكانت غزوة خيبر في آذار ٦٢٨ م و كان من غنائمها صفية بنت حيي الخيبرية التى قتل ((أباها و زوجها و قومها)) ، ((أعرس بها ﷺ في خيبر أو ببعض الطريق)) . كان لهذا الزواج مسحة انسانية ، التخفيف عن سيّدة قومها . لكن ما نظن محمداً بغافل عن خلْق مثل هذه اليهودية حتى يوقن أن زواجه ((ممن قتل أباها وزوجها و قومها)) يخفف عنها . و ما ظن ذلك الصحابة ، فإنه لما أعرس محمد بها ، ((بات أبو أيوب ، خالد بن زيد ، أخو بني النجار ، متوشّحاً سيفه ، يحرس رسول الله ﷺ و يطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله ﷺ ، فلما رأى مكانه قال : ما لك يا أبا أيوب ؟ قال : يا رسول الله **خفت عليك من هذه المرأة** ، و كانت امرأة قد قتلت أباها و زوجها و قومها ، و كانت حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك)) [2] . إنما هي عادة الملوك الغزاة ، حين الظفر بخصومهم ، أن يتزوجوا من نسائهم ، دليل السيطرة و الاستذلال الكامل . و نعرف من السيرة أن الهوى والجمال كان لهما دور في القصة : ((و لما افتتح رسول الله ﷺ القَموص حصن بنى أبي الحُقيق ، أُتي رسول الله ﷺ بصفيّة بنت حيي بن أخطب ، و بأخرى معها ... فلما رآها (الأخرى) رسول الله ﷺ قال : أغْربوا (أبعدوا) عني هذه الشيطانة . و أمر بصفية فحيزت خلفه ، و ألقى عليها رداءَه . فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه)) [3].

و الاستباحة الرابعة كانت زواجه من أُم حبيبة ، رملة أخت أبي سفيان ، زعيم مكّة ، و زوجة عبد الله بن جحش الذي توفي على المسيحية في الحبشة . في هذا الوقت رجع المسلمون الباقون من الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالبٍ ، و معهم أُم حبيبة . فتزوجها محمد أيضاً ليرتبط مع أخيها أبي سفيان برباط المصاهرة ، كما فعل مع أبي بكرٍ و عمر ، توكيداً

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٣٠٧ .
(٢) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٣٥٤ .
(٣) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٣٥٠ .

لصلح الحديبية و تسهيلا لفتح مكّة . هنا السبب السياسي ظاهر . لكن هل فيه ما يبيح لمثال أمته استباحة شريعة القرآن ؟ و زواجان يقعان في فترة وجيزة ، في ختام غزوة خيبر !

و الاستباحة الخامسة كانت نكاح ميمونة الهلالية ، وقعت عمرة القضاء سنة تسع ، أي ٦٢٩ م تنفيذا لمعاهدة الحديبية . ففى هذه العمرة تزوج محمد ميمونة بنت الحارث الهلالية، أخت زوجة العباس عمّه ، و خالة خالد بن الوليد . و تولّى العباس نفسه إنكاحه إياها. فارتبط النبي بالمصاهرة مع جناحى مكّة ، بنى أمية و بنى هاشم . فكان ذلك الزواج حافزاً لخالد بن الوليد أنْ يسلم ، فأسلم و أهدى محمداً أفراسا له . و تبعه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ، حارس الكعبة . و قد أسلم بإسلام هؤلاء كثيرون من مكّة . فبات حزب محمد قوياً فيها . و بات فتح مكّة ميسوراً سياسياً . و الدافع السياسي لزواج محمد من ميمونة ظاهر . لكن كان فيه نصيب أيضاً للهوى و الجمال ، ((و يقال إنها هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ . و ذلك أن خطبة النبي ﷺ **انتهت اليها و هي على بعيرها .** فقالت : البعير و ما عليه لله و لرسوله . فأنزل الله تعالى و تبارك : و امرأة مؤمنة ، إن وهبت نفسها للنبي ... [1]

لكن **هذه البدعة** بزواج الهبة أثارت حفيظة عائشة . فأحلها الوحي القرآني للنبي بتحلة مطلقة لكل ((امرأة مؤمنة ، إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستنكحها ، خالصة لك من دون المؤمنين)) (الأحزاب ٥٠) . قال دروزة[2] في تبرير هذه البدعة : إنها ((تنطوى على صورة من صور زواج النبي ﷺ الخاصة . فهو ، فوق أنه كان يخطب نساءَه ويمهرهنّ جرياً على العادة المعروفة ، كان بعض النساء المؤمنات **يعرضن أنفسهن عليه هبة .** و مما لا ريب فيه إن هذا إنما كان قصد التشرّف بالصلة به و الحرص على نيل **الكرامة العليا** في الزوجية النبوية . و قد أباح الله له الاستجابة لمن شاء منهن ، تقديراً لهذه الرغبة في نيل شرف هذه الزوجية الكريمة)) .

لكن لماذا يُستثنى النبي عن أمته بزواج الهبة ، و هو ((الاسوة الحسنة)) لهم ؟ و لماذا هذه الاباحة المطلقة لكل ((امرأة مؤمنة)) و ما هذا التسلّط على نساء المسلمين : ((خالصة لك من دون المؤمنين)) ؟ و لماذا هذه الإباحة بالهبة من قيود الشريعة القرآنية ؟ و لماذا جعل زواج الهبة

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٩٦ .
(٢) **سيرة الرسول** ١ : ٧٤ .

للنبي مرهونا بمشيئته ، ((إن أراد أن يستنكحها)) ، لا بأمر الله و شريعته ، مما يجعل رغبة محمد فوق شريعة الله ؟ أليست ((الكرامة العليا)) المذكورة ، في احترام النبي لشريعته ، وفرض احترامها على النساء المسلمات ، لا تحرّرهن من قيودها بزواج الهبة له ؟

لذلك من الحق أن يقال : مهما كانت الأسباب وجيهة في تعدّد زوجات محمد ، على خلاف الشريعة القرآنية ، فتلك الزيجات براهين ناطقة على أن ((بشرية)) النبي تحدّ كثيراً من إعجاز الشخصية النبوية .

ثالثاً : المآسي الناجمة عن تعدد زوجات النبي

بدأت هذه المآسي ببدء استباحة محمد للشريعة القرآنية و المأساة تجرّ المأساة . فتظهر هذه **الصورة القاتمة** في حياة محمد الزوجية . و هي ، على رأينا ، أخف وطأة من **أزمة الضمير** التى قامت في وجدانه حتى نزول التحلة المطلقة ، في أواخر حياة النبي ، فوضعت حداً للمآسي النفسية و البيتية و الشرعية .

المأساة الأولى في نكاح زينب بنت جحش ، الزوجة الخامسة .

و هذه المأساة لها وجوه عديدة . الوجه الشرعي في تخطى حدود الشريعة القرآنية . ومنه أيضاً اللجوء إلى إبطال عادة التبنّي . يقول دروزة [1] : ((هذه الآيات (الأحزاب ٣٦ ـ ٤٠) نزلت على ما أجمعت عليه الروايات في صدد زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش ر.، مطلّقة دعيّه أو متبنّاه زيد بن حارثة ر . و لقد روى بعض الرواة أن النبي ﷺ مال إلى زينب بعد زواجها من زيد **لِمَا رآه من مفاتنها** ، و أنها شعرت بذلك فأخت تكايد زوجها . و أن هذا شعر بالأمر فأراد تطليقها ليتسنّى للنبي ﷺ أن يتزوجها ... و لقد كانت الرواية موضوع نقد و نقاش قديماً و حديثاً . فاستبعدها بعض المفسرين القديمين و استنكروها و قالوا إنها مدسوسة)) . إذا راجعنا الزمخشري و الجلالين نرى أنها غير مدسوسة . لكن الأستاذ دروزة يأتي بتفسير جديد للقصّة : ((في الآيات تعليل صريح بأن **تزوج النبي ﷺ مطلقة متبناه** هو لإبطال تقليد حرمه زواج المتبنّي بمطلقة المتبنَّى ، و رفع الحرج عن المؤمنين في تزوّج

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٧٨ .

مطلّقات أدعيائهم أو أبنائهم بالتبنّي . و نعتقد أن هذا التعليل هو مفتاح الحادثة . فقد كانت العادة قوية راسخة و لم يجرؤ ـ على ما يبدو ـ أحد على نقضها ، بعد أن عابت آيات (الأحزاب ٤ ـ ٦) عادة التبنّي و أمرت بإبطالها . فألهم الله النبي ﷺ أن يقوم على إبطال هذه العادة بنفسه في زينب ... و العتاب الربّاني في الآيات مصبوب على تردّده في الإقدام على تنفيذ ما ألهم الله خشية انتقاد الناس و حياءً منهم)) .

إنّما تحليل الأستاذ و تعليله ينقضان صريح القرآن كما فسره الزمخشري . و الأستاذ يقلب حقيقة النص السبب مسبَّباً ، و المسبّب سبباً . إن إبطال عادة التبنّي كان سبيلاً للحادث ، لا سبباً له ، كما نقلوا و نقلنا على لسان عائشة : ((إن ربك يسارع لك في هواك)) ! و هل في إبطال عادة التبنّي المعمول بها في عوائد الدنيا و شرائعها كلها من عبقرية في التشريع ؟ هل من بطولة في النبوّة أن يقوم محمد ((على إبطال هذه العادة بنفسه ، و لم يجرؤ أحد على نقضها)) ؟ و فات الأستاذ أنه ينظر الى الفرع ، من دون الأصل . و الأصل ليس إبطال عادة التبنّي ، بقدر ما هو التعدّي على حدود الشريعة القرآنية بالاقتصار على أربع نساء معاً .

هذان العاملان سبّبا لمحمد **أزمة ضمير** دامت حتى نزلت التحلة الكبرى و معها الغفران . و ذلك أيضاً لأن سبب الزواج من زينب بنت جحش كان في الحقيقة و الواقع الهوى و الجمال ، كما في القرآن و الحديث و السيرة . يكفي شاهداً تحريم النساء عليه من بعدها .

أخيراً الوجه الاجتماعي في الجماعة . فقد زُلزل المسلمون زلزالاً عظيماً أكثر زلزال غزوة الأحزاب . فهدّد النبي باللعن من يخوض في الأمر : ((إن الذين يؤذون الله و رسوله لعنهم الله في الدنيا و الآخرة ، و أعدَّ لهم عذاباً مهيناً)) (الأحزاب ٥٧) . فلم تنتهِ الأزمة . حينئذٍ هدَّد بالنفي و القتل (الأحزاب ٦٠ ـ ٦١) ، فهدأت الضجة الكبرى ، و عاد الرسول الى المؤالفة و المسايرة (الأحزاب ٦٩ ـ ٧١) .

المأساة الثانية: ((حديث الإفك)) بحق عائشة

عند رجوع القوم من غزوة بني المصطلق ، تخلّفت السيدة عائشة عن المعسكر لحاجة، و قدمت الى المدينة مع صفوان بن المعطّل السلمي . فحامت الشبهة حول عائشة ـ وإن كانت فوق الشبهات . لكن ظروف الحال جعلت للشبهة مخرج صدق .

جاءَ في (السمط الثمين ، ص ٣٩) عن عائشة أنهنَّ كنَّ في بيت النبي **حزبين** : حزب عائشة ، و منه حفصة و سودة ، و حزب زينب بنت جحش و منه أمّ سلمة و سائر الأزواج . و كبر حزب زينب بانضمام فاطمة بنت النبي اليه ، مع عليّ نفسه ، و انضمام المنافقين و على رأسهم زعيم يثرب عبد الله بن أبى بن سلول . و جرى ((حديث الإفك)) يشنّع على عائشة .

روت السيرة لابن هشام (٣ : ٣١٢) عن عائشة : ((و كان كبْر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول ، في رجال من الخزرج ، مع الذي قال مسطح و حمنة بنت جحش . و ذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ . و لم تكن من نسائه امرأة تناصيني (تساويني) في المنزلة عند غيرها . فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلاّ خيراً ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادّني لأختها . فشقيت بذلك)) . واعتزلت عند أبيها .

فتنة في بيت النبي . فتنة بين محمد و أحب نسائه اليه . فتنة بين المسلمين . و كادت تقع الواقعة بين الأوس و الخزرج .

و كانت تلك الحادثة السبب البعيد لحرب أهلية في الإسلام بين العلويين أهل البيت ، وبين سائر المسلمين ، قاتلت فيها عائشة عليّاً و هي على ظهر بعير في صفّين . و هذا أدى الى الانقسام في الإسلام الى شيعة و سنّة .

المأساة الثالثة : ((حديث المغافير)) ، و تحلّة القسم

جاء في سورة (التحريم ٢) : ((قد فرض الله لكم تحلّة إيمانكم))

قال عبد المتعال الصعيدى[1]: ((نزلت هذه السورة في ما كان من عائشة و حفصة حين شرب النبي ﷺ عسلاً عند زينب بنت جحش . فتواطأتا و قالتا له : إنّا نشمّ منك رائحة المغافير . و ريحُه كريهة منكرة ، فلما سمع منها ذلك **حرَّم العسل على** نفسه . فنزلت هذه السورة لعتابه على تحريم العسل الذي أُحل له ، ابتغاء مرضاة أزواجه . و ذكر أنه **شرع لهم أن يتحلّلوا من إيمانهم بالكفّارة . ليتحلّل من يمينه** و يعود الى شرب العسل ؛ و تهديد نسائه

---

(١) **النظم الفني في القرآن** ، ص ٣٢٠ .

بطلاقهنَّ إن لم يتبن عن هذه الغيرة فيما بينهنّ . ثم أمر النبي ﷺ بمجاهدة الكفّار و المنافقين لئلا تشغله تلك الأمور من نسائه عنها)) .

هكذا جاء ((حديث المغافير)) من عائشة و حفصة ، انتقاماً لحديث الإفك من جماعة زينب بنت جحش . ففى سورة (النور) نزلت براءَة عائشة من ((حديث الإفك)) ؛ و في سورة (التحريم) نزلت خيانة عائشة و حفصة لسر النبي في حديث المغافير . و يتحلّل محمد من يمينه بتشريع تحلة اليمين بالكفّارة .

المأساة الرابعة : شهر الهجر لنسائه ، أو شهر العسل في قصة مارية

أهدى مقوقس مصر لمحمد جارية حسناء اسمها مارية القبطية . و كان لابد من شهر عسل معها ، علَّ الله يرزقه منها ولداً . أخرج الطبراني عن أبي هريرة قال : ((خلا رسول الله ﷺ بمارية سريته في بيت حفصة . فجاءَت فوجدتها معه . فقالت : يا رسول الله ، في بيتي ، دون بيوت نسائك . قال : فإنها حرام عليَّ أن أمسّها ، يا حفصة ، **و اكتمي هذا عليّ** . فخرجت حتى أتت عائشة فأخبرتها . فأنزل الله ((تحلة الإيمان)) ليستحل هو سريته . لكن الفتنة نجمت في بيته ، و تحولت الى مأساة ، بسبب اعتزاله نساءه شهراً . قال دروزة[1]: ((وخلاصة الرأي الأقرب الى الصحة من غيره من أسباب نزول الآيات ، أن النبي ﷺ كان يطيل المكث عند زوجته زينب و يشرب عسلاً ، فتواطأت عائشة و حفصة على الكيد لها ، واتفقتا على أن تقولا له : إن رائحته رائحة مغافير .. ففشا الحديث . فغضب النبي ﷺ وحلف أن لا يقرب زوجاته شهراً و هجرهنّ ، حتى قيل إنه طلقهنّ . و هناك رواية تذكر أن النبي ﷺ اجتمع بمارية في بيت حفصة . فلما علمت استرضاها بيمين أن لا يقرب مارية ، واستكتمها الخبر . و لكنها أفشته لعائشة . و مهما يكن من أمر الروايات ، فالآيات تحتوي **صورة حادث بيتي** وقع بين النبي ﷺ و بعض زوجاته . و أنه وقع **بسبب الغيرة النسائية** ، و أن اثنتين كانتا فيه متآمرتين . و أن هذا آلمه و حزَّ في نفسه حتى همَّ بتطليق نسائه ، ثم أوحى الله اليه بالآيات التى اكتفى فيها بالتنديد و الانذار)) .

فالروايات تخلط بين حديث العسل ، و حديث مارية . لكن قصة مارية أصحّ الروايات لأن أكل العسل لا يقتضى يميناً و لا سراً مصوناً ، و لا تنزيلاً لتحلة اليمين . فشهر العسل مع

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٨٥ .

مارية سبّب شهر هجران لنسائه ، أو طلاق ، تحولت فيه الأزمة البيتية الى مأساة . و هذه ليست صورة مثالية للحياة الزوجية في بيت النبي . و كان من معالمها تحليل القسم بالكفّارة الشخصية . و متى كانت تحلة القسم بيد صاحبه ، فأية حرمة أو قدسية تبقى للقسم بين الناس؟

المأساة الخامسة : التهديد بالطلاق لنسائه ، بسبب تصرفاتهنّ

اشتدّ التحزّب و الفتنة في بيت النبي ، حتى صارا مأساة عائلية . فلم يكن لمحمد من سيطرة على نسائه إلا بتهديدهنّ بالطلاق : « عسى ربه ، إن طلّقكنّ ، أن يبدّله **أزواجاً خيراً منكن** ، مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ، ثيّبات و أبكاراً » (التحريم ٥) . هذا تعريض صريح « بأُمهات المؤمنين » الاسوة الحسنة لنساء المسلمين .

هل كانت تقع فاحشة في بيت النبي ؟ يقول : « يا نساء النبي مَنْ يأتِ منكنَّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب ضعفين » (الأحزاب ٣٠) .

هل كان بعض نسائه تتوغل بالحديث مع الرجال ؟ يقول : « يا نساء النبي لستنّ كأحدٍ من النساء ، إن اتقيتنَّ فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً » (الأحزاب ٣٢) .

و كانت نساء محمد كسائر بنات حوّاء يحببن التبرّج أي « اظهار النساء محاسنهنّ للرجال » (الجلالان) . فقال : « وقرْن في بيوتكن **و لا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى** » (الأحزاب ٣٣) .

لهذه المشاكل كان يهدّدهن بالطلاق ليحل السلام و الفضيلة في بيته . فتلك التصرفات كانت سبب مأساة متواصلة .

المأساة السادسة : هل الإِعجاز الجنسي دليل النبوّة ؟

يقول دروزة[1] أيضاً : « قد ذكرت الروايات أن النبي ﷺ كان يجمع في عصمته حين نزول الآيات (الأحزاب ٥٠ ـ ٥٢) **تسع زوجات بعقد** ، ست منهنّ قرشيات ، و ثلاث غير قرشيات . أما الاماء أو ملك اليمين فكان له منهن اثنتان .

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٧١ ـ ٧٢ .

« و مهما يكن من أمر فآيات (الأحزاب) استهدفت : ١) استثناء النبي ﷺ من التحديد الذي ورد في سورة (النساء ٣) ؛ ٢) تحريم زواج جديد عليه ؛ ٣) تنظيم علاقاته الزوجية ، أو صلاته الجنسية بأزواجه .

« و النقطة الأخيرة مستلهمة من مضمون الآية (٥١) ، إذ تكاد توحى بأنها تتضمّن تعليماً للنبي ﷺ بأن **يتّصل جنسيّاً في وقت واحد بأربع من أزواجه** ، ويغيّر في هذا الاتصال ... بل تكاد تقول : « إن هذا القصد ظاهر في مضمون الآية ظهوراً قوياً » . و يأتي الحديث فيزيد على التفسير ؛ قال القاضي عياض في (الشفاء) عن ميزة النبي في قدرته الخارقة على الجماع الجنسي : « و قد رُوينا عن أنس أنه ﷺ كان يدور على نسائه **في الساعة ، من الليل و النهار ، و هن احدى عشرة .** و قال أنس : كنا نتحدث أنه أعطي قوة **ثلاثين رجلاً** ـ خرّجه النسائي . و روى نحوه عن أبي رافع عن طاوس : **قوة أربعين رجلاً في الجماع** . و في حديث أنس عنه عليه السلام : فُضلت على النساء بأربع : السخاء ، والشجاعة ، **و كثرة الجماع** ، و البطش » . و جاء في السنن : **أحب شيء اليّ من دنياكم العطور و النساء** ، و جُعلتْ قرة عيني في الصلاة » .

فميزات محمد من شريعة الزواج القرآنية كانت مصدر مشاكل و مآسٍ . و هكذا فإن القرآن و الحديث و السيرة تجمع كلها و تقطع بأن حياة محمد البيتية و العائليةً و الزوجية لا تحمل براهين الإعجاز في الشخصية النبوية ، بل دلائل جازمة على « بشرية » النبي فيها .

بحث ثالث

سيرة محمد النبوية

إن العصمة النبوية في تلقّي الوحي و التنزيل تقتضى العصمة في البلاغ و التبليغ ؛ لكنها لا تقتضي العصمة في السلوك حين التنزيل و حين التبليغ . هذا ما نراه في حياة محمد قبل البعثة ، و في حياته النبوية بعد البعثة .

أولاً : حياة محمد قبل النبوّة : « وجدك ضالا فهدى »

لم يولد محمد ، مثل المسيح ، على الهدى و النبوّة .

لم يقطع القرآن بحق المسيح **أنه ولد نبيّاً** : « قال (في مهده) : إني عبد الله آتاني الكتاب و جعلني نبيّاً » (مريم ٣٠) ، و عاش نبيّاً رسولاً في طفولته كما في كهولته: « وإذا قال الله : يا عيسى ، ابن مريم ، اذكر نعمتي عليك و على والدتك إذ أيدتك بروح القدس : تكلّم الناس في المهد و كهلاً ، و اذ علمتك الكتاب و الحكمة ، و التوراة و الإنجيل » (المائدة ١١٠ ، قابل آل عمران ٤٥ ـ ٤٦) . و هذه ميزة استعلى بها المسيح على الأنبياء والمرسلين أجمعين .

و يقطع القرآن و الحديث و السيرة **بأن محمداً اهتدى إلى النبوّة كهلاً** في سنّ الأربعين ، بعد خمس عشرة سنة من زواجه بخديجة بنت خويلد ، ابنة عم ورقة بن نوفل قس مكّة .

ففي القرآن إشارة الى ما قبل البعثة في قوله : « قلْ : لو شاء الله ما تلوته عليكم و لا أدراكم به : فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون » (يونس ١٦) ، فإنه « لم يكن يعلم من نبوته شيئاً قبل نزول الوحي عليه » (دروزة) .

و التصريح الصريح عن حال محمد قبل البعثة قوله : « ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى » ؟ (الضحى ٦ ـ ٨) .

علّق عليها دروزة[1] بقوله : « إن آيات سورة الضحى (٦ ـ ٨) من أقوى و أوضح النصوص القرآنية في **نشأة النبي ﷺ و حياته الى مبدإ الوحي** ، إذ تقرّر الآيتان الأولى والثالثة ١) ما هو من البدائه المعروفة اليوم من أن النبي كان **يتيماً** ، و أنه نشأ في حضانة رحيمة من جدّه ثم من عمه أبي طالبٍ ... استمرت حتى انقلبت الى حماية قوية من عمه كما يدل معنى « الايواء » . ٢) أنه كان **فقيراً فأغناه الله** و أخبار السيرة التى لا اختلاف في جوهرها و لا تناقض تذكر ظروف ذلك على ما هو معروف من صلة السيدة خديجة بنت خويلد ر. عن طريق عمله لها في التجارة ، و اقترانه بها نتيجة لهذه الصلة ... هذه الصلة التى كانت فاتحة عهد جديد ، بل **حادثاً حاسماً في حياة السيد الرسول ﷺ** كان له أكبر الأثر في الاتجاه النهائي الذي اتجه اليه . و تهيأت به نفسه و قواه الروحية لتلقى الرسالة العظمى

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٨ ـ ٣٠ .

و النهوض بها ، **إذا أغناه الله عن الضرب في الأرض في سبيل الرزق** ، فاستطاع أن يتمتع في جانب السيدة بالحياة العائلية الهنيئة من جهة ، و أن يتفرّغ من جهة أخرى بنفسه و قلبه وفكره و روحه للتدبر في ملكوت الله و آلائه ، و القيام **برياضاته أو اعتكافاته** الروحية ، فارغ القلب من هموم المعيشة و ضروراتها)) ـ على مثال معلمه ورقة بن نوفل قس مكّة الحنيف ((النصراني)).

((أما الآية الثانية أي ((**وجدك ضالاً فهدى**)) فإنها تقرّر فيما نعتقد حالة ذات خطورة و دلالة كبيرتين في صدد نشأة النبي ﷺ الروحية . و لقد قال المفسرون : إن الآية تحتوي اشارة الى حادث **تيهان** وقع للنبي ﷺ في طفولته أو في احدى رحلاته ، و رووا في ذلك روايات . كما قالوا إنها تعني أنه كان **غافلاً عن الشريعة** التى لا تتقرّر إلا بالوحي الرباني . أو إنه كان **حائراً** في أسلوب العبادة لله . و نفوا عنه على أي حال أن يكون ضالاً أي مندمجاً في العقائد و التقاليد الشركية . و النفس لا تطمئن الى رواية **تيهان النبي** ﷺ مضموناً وسنداً، بل إنها ليست متسقة مع ما تضمنته الآية مِن مَنَّ الله على النبي ﷺ بأعظم أفضاله عليه. وتفسير ضال ((بحائر)) يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة في الطريق التى يجب أن يُسار فيها الى الله و عبادته على أفضل وجه . **و هو المعنى الذي نراه .** و يعضد ذلك جملة : ((ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان ، و لكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء مَن عبادنا ، وإنك لتُهدى الى صراط مستقيم)) (الشورى ٥٢) .

نقول : إن آية الضحى (٧) و آية الشورى (٥٢) **تدلان على هدايتين** لمحمد قبل بعثته : **الهداية الأولى** من ضلال الشرك الى التوحيد الكتابي ، تلك الهداية المقرونة بزواجه من السيدة خديجة ، ابنة عم ورقة بن نوفل قس مكّة ، و هو الذي أشار عليها، على حدّ قول السيرة، بذلك الزواج إيلافا لهدايته. **والهداية الثانية** التي تشير اليها آيتا (الشورى ١٥ و ٥٢) كانت الى الإيمان بالكتاب نفسه ؛ و إلى الانضمام في سلك النصارى المسلمين : ((و أمرتُ أن أكون من المسلمين و أن أتلو القرآن)) (النمل ٩١ ـ ٩٢) ، و الى الدعوة للإيمان بالكتاب **على طريقة موسى و عيسى معاً** : ((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ و ما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى أن أقيموا الدين و لا تتفرقوا فيه ... و قل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، و أمرتُ لأعدِل بينكم)) (الشورى ١٣ ـ ١٥) .

ففي آية الضحى (٧) هداية الى التوحيد الكتابي ، في كنف خديجة وورقة .

و في آية الشورى (٥٢) هداية الى تبليغ التوحيد الكتابي على طريقة موسى وعيسى معاً ، و هذا ما يسميه الهداية الى ملّة إبراهيم « قلْ : إنني هداني ربي الى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ، ملّة إبراهيم حنيفاً ، و ما كان من المشركين » (الأنعام ١٦١) .

لاحظ اقتران التعابير الثلاثة : الصراط المستقيم ، و الدين القيّم ، و ملّة إبراهيم . وكلها صفات الإسلام « النصراني » الذي أُمِر محمد بأن ينضم إيه ، و يتلو مع أصحابه النصارى من بني إسرائيل قرآن الكتاب: « و أمرت أن اكون من المسلمين و أن أتلو القرآن » (النمل ٩١ ـ ٩٢) فالمسلمون موجودون قبل محمد ، وهو ينضم اليهم و يتلو معهم « القرآن » قبل القرآن العربي . و ما القرآن العربي سوى نسخة عن « القرآن » الذي معهم : « و شهد شاهد من بني إسرائيل (النصارى) **على مثله** » (الأحقاف ١٠) .

فالهداية الثانية كانت الى النبوّة ، نبوّة التبليغ : فهو دُعي « ليعلمهم الكتاب و الحكمة » أي التوراة و الإنجيل (البقرة ١٢٩ و ١٥١ ، آل عمران ١٦٤ ، الجمعة ٢) ، كما تعلمها المسيح من الله (آل عمران ٤٨ ، المائدة ١١٠) .

ثانياً : حياة محمّد النبوية : الأزمات الإيمانية العشر

يظهر القرآن المكي تأديباً لمحمد في التوحيد ، قبل أمته . فإن محمداً قد انتابته في دعوته **أزمات إيمانية** خانقة ، تدل عليها **ظواهر** قرآنية غريبة .

ففى القرآن المكي ظواهر غريبة مريبة في تحذير النبي من الشرك ، و تهديده في ترك التوحيد ، و تحريضه على الاستقامة ، و أمره بالاستغفار من ذنبه .

الظاهرة الأولى هي تحذير محمد المتواصل من الانزلاق الى الشرك . فمنذ سورة (القلم) يُقال له : « فلا تطع المكذبين : ودّوا لو تُدهِن فيُدهنون » (٨ ـ ٩) ـ و لا تحذير بدون سبب و يتواتر التحذير : « فلا تدعُ مع الله إلها آخر » (الشعراء ٢١٣ ، القصص ٨٨).

الظاهرة الثانية هي تهديد النبي من ترك التوحيد و الميل الى الشرك : « فلا تكونَّ ظهيراً لكافرين ، و لا يصدُّنك عن آيات الله بعد إذ أُنزِلت إليك ، و ادعُ إلى ربك ، و لا تكونَّ من المشركين »! (القصص ٨٦ ـ ٨٧) . و تتنوع التهديدات في سورة (الأنعام) : « و لا

تكوننَّ من المشركين » ! (١٤) ، « فلا تكوننَّ من الجاهلين » (٣٥) ، « و الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق : فلا تكوننَّ من الممترين » (١١٤) . و التهديد لمحمد صريح : « لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ، و لتكوننَّ من الخاسرين » (الزمر ٦٥) ؛ وسببه صريح : « فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء » (هود ١٠٩) .

الظاهرة الثالثة هي الأمر بالاستغفار من ذنبه : « و استغفر لذنبك » (غافر ٥٥ ، محمد ١٩) . و دام هذا الأمر بالاستغفار لذنبه ، حتى آخر سورة نزلت في المدينة : « فسبح بحمد ربك ، و استغفره إنه كان توّاباً » (النصر) . و التحذيرات و التهديدات المتواترة تدل على أن الذنب الأكبر كان في شكه من صحة التوحيد : « فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء » (هود ١٠٩) .

الظاهرة الرابعة هي في دعوة محمد الى الاستقامة في دعوة التوحيد : « فاستقم كما أُمرتَ ، و من تاب معك » (هود ١١٢) ، « فلذلك فادعُ، و استقم كما أُمرت » (الشورى ١٥) .

و هكذا نرى أن القرآن نزل لتثبيت محمد في التوحيد الكتابي قبل أمته : « و كلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرسل **ما نثبت به فؤادك !** و جاءَك في هذه الحق و موعظة و ذكرى للمؤمنين » (هود ١٢٠) ، « فاستقم كما أمرتَ ، و من تاب معك » (هود ١١٢) .

ثم إن تلك التحذيرات المتواترة ، و تلك التهديدات المتواصلة ، توضح معنى الازمات الإيمانية التى كان يقاسيها النبي من حين الى حين ، بطريقة متواترة في « أم مسائل الإسلام جميعا : في التوحيد » .

١ ـ الأزمة الإيمانية الأولى كانت في قصة الغرانيق ، من سورة النجم ، و هي أول سورة أعلنها محمد في مكّة .

ففى (أسباب نزول) الآية (٥٢) من سورة الحج ، « أخرج ابن أبي حاتم و ابن جرير (الطبري) و ابن المنذر ، من طريق بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : قرأ النبي ﷺ بمكّة (النجم) فلمّا بلغ : « أفرأيتم اللات و العزّى و مناة الثالة الأخرى ... » ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى ، و ان شفاعتهن لتُرتجى » . فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا

بخبر قبل اليوم ، فسجد ، فسجدوا ، فنزلت : « و ما أنزلنا من قبلك من رسول و لا نبي ، إلا إذا تمنى (قرأ) ألقى الشيطان في أمنيته (قراءَته) ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته » (الحج ٥٢) .

و قصة الغرانيق التى يحاول بعضهم انكارها ثابتة بالحديث و القرآن و النص نفسه . قال الأستاذ حسين هيكل[١] : « حديث الغرانيق أورده ابن سعد في طبقاته الكبرى ، و الطبري في تاريخ الرسل و الملوك ؛ و أورده كثيرون من المفسرين المسلمين و كتاب السيرة ، و أخذ به جماعته المستشرقين » . قال الحافظ بن حجر : « **كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً ؛** مع أن لها **طريقين صحيحين** مرسلين أخرجهما ابن جرير الطبري » . و للقصة في القرآن سند مبدئي أولاً في آية (الحج ٥٢) التى لا تفهم بدون القصة ، و ثانياً في آية (الزمر ٤٥) : « و إذا هم يستبشرون » . جاء عنها في (أسباب النّزول) للسيوطي : « أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها نزلت في قراءة النبي ﷺ (النجم) عند الكعبة ، وفرحهم عند ذكر الآلهة » . و القصة أيضاً سند واقعى في كل التحذيرات من الشرك ، و التهديدات من عاقبته ، التى تتواتر في القرآن . أخيراً نص الآية المبتور يدل عليها : فإن فعل (أفرأيتم) يتعدى الى مفعولين ، و لا يتم المعنى بدونهما كليهما ؛ و المشهود أن المفعول الأول مذكور ، « اللات والعزى و مناة الثالثة الأخرى » ، بينما الثاني محذوف (عن الجلالين) ؛ فالجواب ساقط ، كما يظهر ، و لا يسد مسده شيء في النص . فإجماع القرآن و الحديث و السيرة برهان على صحة قصة الغرانيق . و قد ختموا الرواية هكذا : « جلس محمد في بيته ، حتى اذا أمسى أتاه جبريل ، فعرض عليه النبي سورة النجم (و فيها قصة الغرانيق) فقال جبريل : أَوَجئتك بهاتين الكلمتين ؟ قال محمد : **قلتُ على الله ما لم يقلْ** » **!**

٢ ـ الأزمة الإيمانية الثانية : التحذير المتواتر من الشرك .

وقعت الأزمة ما بين سورتي (الإسراء) و (القصص) . و هذه الأزمة لا تنسجم مع آية الإسراء فالمعراج . يُقال للنبي : « و ما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب ، إلا رحمة من ربك : فلا تكونَّ ظهيراً للكافرين ! و لا يصدُّنك عن آيات الله بعد إذا أنزلت إليك ! و ادعُ

---

(١) **حياة محمد** ـ الفصل السادس

إلى ربك **و لا تكوننَّ من المشركين ! و لا تدعُ مع الله إلهاً آخر !** لا إله إلاّ هو » (القصص ٨٦ ـ ٨٨) . تحذير صارخ ، و لا تحذير إلاّ من واقع !

و يعود القرآن الى التحذير نفسه في (الإسراء) : « لا تجعلْ مع الله إلهاً آخر ، فتقعد مذموماً مخذولاً » ! (٢٢) . و يكرّر : « و لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحوراً » (٣٩) . و تعطي السورة سببين لهذه الفتنة . الأول نزغ الشيطان في نفس الانسان: « و قلْ لعبادي يقولوا التى هي أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً » (٥٣) . يظهر أن الشيطان يتدخل في الوحي ، و في نفس النبي ، تسهيلاً لفتنة محمد عمّا يوحى اليه : « و ان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ! و إذاً لا تخذوك خليلاً ! و لولا أن ثبتناك **لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً !** إذاً لأذقناك ضعف الحياة و ضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (٧٣ ـ ٧٥) . إن الإشارة صريحة : لقد كاد محمد يركن الى المشركين شيئاً قليلاً .

علق على ذلك الأستاذ دروزة[1] : « سورة القصص تأتي في الترتيب قبل سورة الإسراء ، و يُلمح في الآيات شيء مما جاء في آيات (الإسراء) بصراحة أكثر ، إذ احتوت أمر للنبي ﷺ بأن يشهد الله على المهتدي من الضال ، و تنبيهاً له بأن لا يُظاهر و لا يُوادّ الكافرين ، و بأن لا يدعهم يصدّونه عما أنزل الله اليه ، و بأن لا يأتي بأي شيء فيه أي معنى من معانى **اشراك أحد غير الله ، مع الله .** و يُلهم هذا أن النبي ﷺ كان يختلج في نفسه مسايرة الزعماء شيئاً ما ، رغبة في كسبهم الى صفه » .

إن آيات (القصص) و (الإسراء) تُلهم أكثر من المسايرة : إن حملتهما المتواصلة مصبوبة على جعله مع الله إلهاً آخر ! و لا تحذير إلاّ من أمر محتمل الوقوع ! إنه التحذير المتواتر لمحمد نفسه من الشرك !

٣ ـ الأزمة الإيمانية الثالثة : التردّد بين التوحيد العربي و التوحيد « النصراني » .

كان همّ محمد الأكبر « إيلاف قريش » لدعوته . فنزل « لإيلاف قريش ... فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع ، و أمنهم من خوف » . « رب البيت » إما هو إله

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ١٩٧ .

التوحيد ، و إما هو إله الشرك . و حاشا للقرآن و النبي أن يدعوا لشرك. فكان « رب البيت » بالكعبة إله التوحيد . و هذه شهادة قرآنية على التوحيد القائم في كعبة مكّة . و بما أنه ليس عند العرب من توحيد فلسفي مستقل ، و بما أن اليهودية كانت بعيدة عن مكّة ، فالتوحيد العربي الملتزم في الكعبة كان توحيداً مسيحياً . وهبه كان عربيّاً مستقلاً . ففى سورة (قريش) يظهر تأييد القرآن لتوحيد قومه .

لكن القرآن كان دعوة « نصرانية » . فنزل التصحيح : « إنما أُمرتُ أن أعبد ربّ هذه البلدة ... و أُمرتُ أن أكون من المسلمين » (النمل ٩١) . إن « المسلمين » موجودون بمكّة قبل محمد ، و هو يُؤمر بالانضمام اليهم . و نعرف أنهم كانوا النصارى من بني إسرائيل (الصف ١٤ ، الأعراف ١٥٩) . فالآية دليل على **صراع في نفس النبي بين التوحيد العربي** (لعله المسيحي) **و بين التوحيد « النصراني » الإسلامي .** و الآية شهادة قرآنية أيضاً على أنتشار التوحيد العربي (لعله المسيحي) في مكّة . و هذا الصراع دام حتى نزول قوله: « إن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحداً » ! و أنه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبداً ! قل : إنما أدعو ربّي ، و لا أشرك به أحداً ! ... قلْ : إنى لن يُجيرني من الله أحد ، و لن أجد من دونه ملتحداً » (الجن ١٨ ـ ٢٢) .

٤ ـ الأزمة الإيمانية الرابعة : فتنة النبي عمّا يُوحى اليه

لقد مر بنا قوله : « و إن **كادوا ليَفتنونك** عن الذي أوحينا إليك ، **لتفتري علينا** غيره ، و اذاً لاتّخذونكَ خليلاً ! و لولا ان ثبّتناك ، **لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً** (الإسراء ٧٣ ـ ٧٤) . التصريح واضح : لقد كادوا يفتنون النبي عمّا يُوحى اليه ، و كاد محمد ان يركن اليهم شيئا قليلا .

و نعرف من قصة الغرانيق أن ذلك وقع له ، و اعترف محمد بذلك : « قلتُ على الله ما لم يقلْ » !

و تأتي **آية التبديل في التنزيل** فتزيد الأمر بياناً : « و إذا بدَّلنا آية مكان آية ـ و الله أعلم بما ينزل ـ قالوا : إنما أنت مفترٍ ! » (النحل ١٠١) . فالتبديل في آي القرآن وقع لمحمد ، بنص القرآن القاطع ، و إن كان ذلك بأمر الوحي نفسه . و الحادث مشهود ، لذلك شنّع الكافرون على النبي . و هذا التبديل في آي القرآن يسبب فتنةً للناس و أزمة إيمانية لمحمد نفسه.

٥ ـ الأزمة الإيمانية الخامسة : الشك من التنزيل القرآني نفسه

إن فتنة محمد عن الوحي المُنزل اليه وصلت في منتصف العهد الثاني بمكّة الى ذروتها ، حتى بلغت الشك من التنزيل القرآني نفسه : ((**فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك** ، فاسأل الذين يقرأُون الكتاب من قبلك : لقد جاءَك الحق من ربك ، فلا تكونَنَّ من الممترين ! ولا تكونَنَّ من الذين **كذَّبوا بآيات الله** ، فتكونَنَّ من الخاسرين)) (يونس ٩٤ ـ ٩٥) .

هذه صورة قاتمة مؤلمة في الحياة النبوية ، نشاهد فيها ذروة الصراع في نفس محمد بين الإيمان و الشرك ، في ((الشك ... و المرية ... و التكذيب بآيات الله)) . أيشكّ نبي بما يُوحى إليه ؟ أجل التصريح مشروط ، لكن التنويه بإمكان الشك في نفس النبي من وحيه ، دليل أزمة إيمانية يعانيها محمد في ما يوحى اليه .

و في هذه الحالة القصوى من الصراع الوجداني مع الوحي نفسه ، يحيل القرآن محمداً ، على عادته ، الى أساتذته من أهل الكتاب ، ليطمئنوه على صحة الوحي و الإسلام . و يظهر فضل ((أولي العلم قائماً بالقسط)) ـ أي علماء النصارى من بني إسرائيل و من تنصّر معهم من العرب مثل ورقة بن نوفل ، قس مكّة ـ على محمد ، بإرشاده الى ((الحق)) و نشله من المرية و الشك . فلا يحيله القرآن الى المعجزة ، بل إلى علماء النصارى ، ومحمد يكتفى بذلك و يفخر به على أخصامه : ((و يقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! قل : كفى بالله شهيداً بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب)) (الرعد ٤٣) .

التجأ اليهم و اطمأن ، فخرج على الناس بهذا البلاغ المبطن بالتحذير : ((قلْ : يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، و لكن أعبد الله الذي يتوفاكم ! **و أُمرتُ أن أكون من المؤمنين !** و أنْ أقمْ وجهك للدين حنيفاً ، و لا تكونَنَّ من المشركين ! ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك و لا يضرّك، فإن فعلت فإنك اذاً من الظالمين)) (يونس ١٠٤ ـ ١٠٦) . فمن هم ((المؤمنون)) الذين أُمر بالانضمام اليهم ؟ إنهم النصارى من بني إسرائيل كما تشهد كل قرائن القرآن . فالصراع قائم في نفس محمد بين النصرانية والمسيحية و الشرك العربي . أخيراً وحيه يأمره بالانضمام الى النصارى ((المؤمنين)) ، ((المسلمين)) من قبله .

و أزمة الشك من التنزيل القرآني تزول عنه **بالدرس لدى أساتذته** : ((و كذلك نصرّف الآيات ـ و ليقولوا : درستَ ! ـ و لنبيّنه لقوم يعلمون . اتّبع ما أوحى إليك من ربك، لا إله إلاّ هو ، و أعرض عن المشركين)) (الأنعام ١٠٥ ـ ١٠٦) . فدرس و اطمأن لدى ((قوم يعلمون))، و تبرَّأ من ((الذين لا يعلمون)) أي من المشركين ، و طلع على الناس بفعل الإيمان و التوبة : ((و اذا جاءَك الذين يؤمنون بآياتنا ! فقلْ : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه مَن عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده و أصلح فإنه غفور رحيم، و كذلك نفصّل الآيات ، و لِتَستبنَ سبيل المجرمين . قلْ : إنى نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ! قلْ : لا أتّبع أهواءَكم ! قد ضللتُ إذاً و ما أنا من المهتدين !)) (الأنعام ٥٤ ــ ٥٦) . بالدرس لدى ((الراسخين في العلم)) صار على بينة من ربه : ((قل : إنى على **بيّنة** من ربي و كذبتم به !)) (الأنعام ٥٧) ، و ليس بالمعجزة : ((ما عندي ما تستعجلون به ... قل : لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني و بينكم)) (الأنعام ٥٧ ـ ٥٨) . فالأزمات الإيمانية تنتاب النبي من داخل و من خارج .

٦ ـ الأزمة الإيمانية السادسة : الفتنة بترك بعض الوحي القرآني

في صراع محمد النفساني بين الإيمان و الشرك ، تراكمت عليه أزمة جديدة يصفها بقوله : ((**فلعلّك تارك بعض ما يُوحى إليك** ، و ضائق به صدرك ! أن يقولوا : لولا أُنزل عليه كنز ! أو جاء معه مَلَك ! ـ **إنما أنت نذير !** و الله على كل شيء وكيل)) (هود ١٢) . لقد بلغت أزمة الإيمان في نفس محمداً حداً أوشك فيه أن يترك بعض ما يُوحى اليه !

و سبب الفتنة الجديدة عجز محمد عن معجزة تؤيده في دعوته . فيجيب القرآن على لسانه : ((ما عندي ما تستعجلون به)) . ثم يحدّد له معنى نبوته ورسالته: ((إنما أنت نذير)) ! و ما على النذير اجتراح المعجزة لصحة النبوّة و الدعوة .

فشهادته على صحة رسالته ، ليست المعجزة ، بل شهادة أساتذته له ، الذين هم على بيّنة من ربهم في كتابهم : ((أفمن كان على بيّنة من ربه ـ و يتلوه شاهد منه ، و من قبله كتاب موسى إماماً و رحمة ـ **أولئك يؤمنون به !** و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ! **فلا تك في مريةَ منه** ، إنه الحق من ربك ، و لكن أكثر الناس لا يؤمنون)) (هود ١٧) . وقوله : ((و يتلوه شاهد منه)) هو مثل قوله : ((و شهد شاهد من بني إسرائيل **على مثله**)) (الأحقاف ١٠) . فإنذ شاهداً من بني إسرائيل النصارى ، ((مَن عنده علْم الكتاب)) (الرعد ٤٣) يتلو

على محمد « مثل » القرآن العربي ، فما عليه أن يترك بعض ما يُوحى إليه ! و يُؤمَر : « فلا تك في مرية منه » ! أي من هذا الوحي القرآني ، النصراني . و يثؤمر أيضاً : « فلا تك في مرية مِمّا يعبد هؤلاء : ما يعبدون إلاّ كما يعبد آباؤهم من قبل ، و إنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » (هود ١٠٩) . فلا سبيل الى الشك في الوحي ، و ترك بعضه ، و لا الى الشك في الشرك ! لذلك « **فاستقم كما أمرت و مَن تاب معك** » **!** (هود ١١٢)، بسبب هذا الأمر كان محمد يقول: « شيبتني هود » ! لقد شاب محمد في صراع الإيمان .

٧ ـ الأزمة الإيمانية الدائمة : عجز محمد عن معجزة تشهد له

القرآن المكي صراع قائم دائم بين النبي العربي و المشركين من بني قومه على صحة نبوّته ، التى لا تؤيّدها في نظرهم ـ كما في نظر أهل الكتاب جميعاً ـ إلاّ المعجزة . و قد رأينا مع الأستاذ دروزة [1] « موقف القرآن السلبي » من كل معجزة تشهد لمحمد . قال: « وقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآني من تحدّيهم ، و أخذوا يطالبون النبي ﷺ بالمعجزات و الآيات ، برهاناً على صدق دعواه أولاً ، ثم أخذوا يدعمون مطالبهم بتحدٍّ آخر ، و هو **سُنّة الأنبياء السابقين** الذين جاؤوا بالآيات و المعجزات . و قد تكرَّر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم ، كثيراً ، حتى حكي القرآن المكي عنهم **نحو خمس وعشرين مرة صريحة** ، عدا ما حكي عنهم من التحدّي الضمني ، و من التحدّي بالإتيان بالعذاب و استعجاله و السؤال عنه » .

و هذا التحدّي الدائم بالمعجزة ، دليلاً على صحة النبوّة و الدعوة ـ يقابله عجز محمد الدائم عن كل معجزة تشهد له ـ هما سبب أزمة إيمانية في نفسه لا تنتهي ! و يتردّد صداها في القرآن المكي كله . فقد منعت عنه المعجزة منعاً مبدئياً مطلقاً (الإسراء ٥٩) و منعاً واقعياً شاملاً (الإسراء ٩٣) ، حتى اضطر الى الاقرار الصريح البسيط : « ما عندي ما تستعجلون به ... لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني و بينكم » (الأنعام ٥٧ ـ ٥٨) . فالتحديات المتواصلة بالمعجزة ، و التصريحات المتواصلة بالعجز عنها ، أزمة إيمانية متواصلة في ضمير النبي العربي .

في خضم هذا الصراع النفساني الدائم ، من العجز القائم عن معجزة تشهد له ، يُفهم معنى تحدّي محمد للمشركين بإعجاز القرآن (الإسراء ٨٨ ، يونس ٣٨ ، هود ١٣) . إنه تحدٍّ

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

بهداه للمشركين (القصص ٤٩) . و القرآن نفسه لا يرى في إعجاز القرآن معجزة له : فهو يصرّح بأن المعجزة مُنعت على محمد منعاً مبدئياً (الإسراء ٥٩) في السورة عينها التى يعلن فيها التحدّي بإعجاز القرآن (الإسراء ٨٨) الذي يعقّب عليه بإعلان العجز الواقعي المطلق (الإسراء ٩٠ ـ ٩٣) . فهذه المحاصرة بالمنع المبدئي و الامتناع الواقعي برهان على أن القرآن نفسه لا يرى في إعجازه معجزة إلهية له . و لو رأى محمد في إعجاز القرآن معجزة له لكان هو أول المؤمنين من دون شك في التنزيل (يونس ٩٤) ، و من دون محاولة لترك بعض ما يُوحى اليه (هود ١٢) و من دون مرية في الوحي القرآني (هود ١٧) ومن دون مرية في ما يعبد أولئك المشركون (هود ١٠٩) .

إن أزمات محمد الإيمانية برهان قاطع على أن إعجاز القرآن ليس معجزة له .

٨ ـ الأزمة الإيمانية الثامنة : حث النبي على الاستقامة في الدين .

في آخر العهد الثاني بمكّة ، بعد تلك الأزمات الإيمانية المتلاحقة المتراكمة ، أخذ القرآن يحث محمداً على الاستقامة في الدين بطريقة سافرة : « إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق ، **فاعبد الله مخلصاً له الدين** » (الزمر ٢) . و تكرار هذا الأمر ، في هذه الفترة ، يحمل في طياته معنى الشك و الريبة في الإخلاص للدين : « ألا لله الدين الخالص ! و الذين اتّخذوا من دونه أولياء ـ ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا الى الله زلفى ـ إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون » (الزمر ٣) . و نشعر بخوف النبي في شكّه : « قلْ : إنى أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ! و أمرت أن أكون أول المسلمين . قلْ : إنى أخاف ، إن عصيت ربى ، عذاب يوم عظيم ! قلْ : الله أعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه » ! (الزمر ١١ ـ ١٥) .

إن الإستقامة في الإخلاص للاسلام « النصراني » تعوز النبي ، فيقال له : « فلذلك فأدع و استقم كما أُمرت ، و لا تتبع أهواءَهم ! و قلْ : آمنت بما أنزل الله من كتاب ! وأمرتُ لأعدل بينكم ! » (الشورى ١٥) .

و الاستقامة عينها تعوز جماعة محمد في هذه الفترة : « قلْ : إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، **فاستقيموا له ، و استغفروه !** وويل للمشركين » ! (فصلت ٦) . و الحثّ على الاستقامة و الإخلاص يشمل النبي و جماعته معاً : « فاستقم كما أُمرت ، و مَن تاب معك ! و لا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . و لا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسّكم النار »

(هود ١١٢ ـ ١١٣) . « الذين ظلموا » كناية متواترة عن المشركين و عن اليهود : فهل انضم اليهود الى المشركين في فتنة النبي عن دعوته ، منذ العهد المكي ؟

إن حثّ القرآن المتواتر على الاستقامة و الإخلاص ، في آخر العهد الثاني بمكّة ، دليل على أن أزمة الإيمان قد بلغت ذروتها في نفس محمد و جماعته ، حتى اضطر الى الهجرة الشخصية الى الطائف . علق الزمخشري على (هود ١١٢): « عن ابن عباس: « ما نزلت على رسول الله آية كانت أشد و لا أشق عليه من هذه الآية . و لهذا كان يقول : **(شيّبتني هود)** . قيل : ما الذي شيّبك فيها ؟ قال : (فاستقم كما أُمرت) ! ثم قال : **أفتقر الى الله بصحة العزم** » **!**

إن الافتقار المشهود للاستقامة و الإخلاص في الدين الذي يدعو اليه ليس من الإِعجاز في الشخصية النبوية .

٩ ـ الأزمة الإيمانية التاسعة : التبديل في آي القرآن

بعد الهجرة الشخصية الخاطفة الفاشلة الى الطائف ، قضى محمد السنتين الأخيرتين بمكّة في أزمة إيمانية عاتية ، نجم عنها ارتداد بعض جماعته عن الإسلام .

جاء في سورة (النحل ٩٨ ـ ١٠١) : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ... و إذا بدَّلنا آية مكان آية ـ و الله أعلم بما ينزل ـ قالوا : إنما أنت مفترٍ » !

إن تبديل آية بآية في تنزيل القرآن أمر واقع ، بشهادة هذا النص القاطع . أما اقتران التبديل بالاستعاذة من الشيطان في تلاوة القرآن ، فهو يوحي بأن التبديل في القرآن كان يوسوسه الشيطان ! أإلى هذا الحد يصل سلطانه ؟ و لهذا شاهد في سورة (الحج ٥٢) .

و هذا التبديل اطلع عليه المسلمون و المشركون : فشنّع المشركون على النبي ، وحمل ذلك بعض المسلمين على الارتداد على الإسلام ! علّق على ذلك السيد دروزة [1]: « إننا نرجح أن حادث الارتداد الذي أشارت اليه الآيات (النحل ١٠٦ ـ ١٠٩) كان بسبب و ظروف ما حكته الآيات التي سبقت هذه الآيات **من تبديل آية بآية** . و روح الآيات ، ومضمونها في الجملة ، يلهم أنها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن ، و يُلهم أنه أوحي للنبي ﷺ

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

ببعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى ، فلما تلا الجديدة و أهمل الأولى ، استغل زعماء الكفّار ذلك ، فأخذوا يشنّعون عليه ، و يهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً ، وينسبون اليه الإفتراء و التعلّم من الشخص الأجنبي المعيّن . و لعلّهم قالوا : إن الشيطان هو الذي يوسوس له و يلقى عليه ، لا الملاك ؛ و أن التبديل دليل ذلك . و توسلوا بالاغراء ، إلى جانب الاستغلال و التهويش . و كان من نتيجة ذلك **ان ارتدّ بعضهم** نتيجة لهذه الدعاية واستحباباً لمنافع الدنيا معاً » . فكانت تلك الرِدة صدمة لمحمد ، زادته أزمة على أزمة .

١٠ ـ الأزمة الإيمانية العاشرة : المحو في آي القرآن

تدوم الأزمات الإيمانية في ضمير محمد حتى آخر العهد بمكّة . فبعد أزمة التبديل ، تأتي أزمة المحو في آي القرآن : « يمحو الله ما يشاء و يثبت . و عنده أُم الكتاب » أي أصله (الرعد ٣٩) . فهل كان القرآن العربي المُنزل بحاجة الى تنقيح ليطابق أصله ، « أم الكتاب » ؟ و الحدث أمر واقع ، بنص القرآن القاطع . و لنا شاهد من الحديث الذي يروي بأن محمداً كان يُراجع جبريل كل سنة في نص القرآن ، و في آخر العهد بالمدينة مرتين في السنة .

و تلك الحالة أوقعت اليأس في نفس جماعته : « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً » (الرعد ٣١) .

و الأزمة الإيمانية ، و الفتنة الناجمة عنها ، ظلّتا قائمتين مدة العهد الأخير بمكّة كله ، من سورة (النحل) الى سورة (العنكبوت) ، و هي من آخر ما نزل بمكّة : « أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا : آمنّا ، و هم لا يُفتنون ؟ و لقد فتنّا الذين من قبلهم ، فليعلمنَّ الله الذين صدقوا ، و ليعلمنَّ الكاذبين » (العنكبوت ٢ ـ ٣) .

و حالات الأزمة الإيمانية ، و الفتنة عن الإسلام ، و اليأس من الدعوة بمكّة ، عجلت كلها بمفاوضات الهجرة الى المدينة .

تلك **الأزمات الإيمانية العشر** أوصلت النبي و جماعته ، في آخر العهد بمكّة ، الى حالة اليأس (الرعد ٣١) حتى جاءَهم الفرج بالهجرة الى المدينة .

ان تلك الأزمات الإيمانية المتلاحقة التى أوصلت محمداً وجماعته الى اليأس والهجرة، لا عهد لنا بمثلها في سيرة الأنبياء الأولين . فهي لا تدلّ على إعجاز في الشخصية النبوية ، بلغ حدّ المعجزة الإلهية التى تشهد له .

بحث رابع

سيرة محمّد الجهادية

كانت الهجرة النبوية الى المدينة ثورة و انقلاباً : انقلاباً في الرسول ، و انقلاباً في الرسالة ، و انقلاباً في طريقة الدعوة و انقلاباً في الإسلام كله .

و الانقلاب الأكبر في طريقة الدعوة . كانت « بالحكمة و الموعظة الحسنة » مثل سائر النبيّين ، فصارت بالجهاد ، و « بالحديد الذي فيه بأس شديد و منافع للناس » (الحديد ٢٥) . يقول محمد صبيح[١] : « و كانت مهمة النبي ، و هو يهاجر ، واضحة : **و هي أن يكره قريشا على الإسلام بحدّ السيف** ، بعد أن بذل لها النصح ثلاثة عشر عاماً ، فلم تزدهم إلاّ عتواً » .

و الجهاد حوّل الدين الى دولة دينية . يقول عمر فرّوخ : « كان للهجرة قيمة خاصة في تاريخ الإسلام : لقد كانت حداً فاصلاً بين عهد كان فيه الإسلام **دعوة** دينية ، يحميها نفر قليلون مستضعفون ، و بين عهد أصبح الإسلام فيه **دولة قوية مرهوبة** » ؟

أوّلاً : شريعة الجهاد و الحرب

شريعة الجهاد و القتال تملأ القرآن المدني كله . « و الآيات القرآنية في موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ **نصف القرآن المدني .** و في هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية في العهد المدني ، **أو أهمها** » [٢].

---

(١) **عن القرآن** ، ص ٦٢ .
(٢) **العرب و الإسلام** ، ص ٤٢ .

و انقضت السيرة النبوية في العهد المدني كله في الجهاد و القتال و الحروب . « ويكفيك أن تعلم مثلاً أن عدد الغزوات و السرايا و البعوث قد بلغ **خمساً و ستين** ، قاد النبي ﷺ منها بنفسه **سبعاً و عشرين** ، و كل ذلك في نحو **عشر سنين** ـ لتقدر خطورة الدور الذي كان للجهاد في هذا العهد ، و تفهم حكمة ما شغل موضوعه ذلك الحيّز الكبير من القرآن » [1].

« و الآيات في هذا الموضوع على نوعين : نوع تضمّن دعوة عامة الى الجهاد بالنفس و المال ... و ما كان من **أزمات حادة** في سبيل ذلك . و نوع ثانٍ أُشير فيه الى **وقائع الجهاد النبوي** البارزة و ما كان فيها ، و من الجدير بالتنبيه أن آيات النوع الثاني قد **نزلت بعد الوقائع** : ممّا يسّوغ القول **إن الوقائع قد كانت بأمر النبي ﷺ و رأيه و بدون وحى قرآني** ، كما هو شأن أكثر أحداث السيرة النبوية » .

و صار الجهاد ركناً من أركان الإسلام : « كتب عليكم القتال ، و هو كره لكم » (البقرة ٢١٦) ، كما كان الصوم : « كتب عليكم الصيام » (البقرة ١٨٣) . و جعْل الجهاد المقدس ركناً من أركان الدين ، هو الذي صبغ الإسلام القرآني بصبغته الحربية ، سواء في الدفاع عن الدين ، أم في الهجوم لنشر الإسلام .

و في الواقع يقسم القرآن المدني الى عهدين : عهد الدفاع بالسلاح عن الإسلام ، مدة خمس سنوات نزل فيه اثنتا عشرة سورة ، و عهد الهجوم بالسلاح لفرض الإسلام على الحجاز و الجزيرة ، مدة خمس سنوات ، نزل فيه أيضاً اثنتا عشرة سورة . فلم يكن الجهاد في حد ذاته لحماية الإسلام و الدفاع عنه فقط ؛ بل تطور في العهد الثاني المدني ، بعد صلح الحديبية ، الى حرب أهلية لفرض الإسلام بالقوة على العرب . و هذه هي **الصورة الرهيبة** التى ينقلها التاريخ القرآني للسيرة النبوية في المدينة : نبي يقاتل عشيرته و قومه ليفرض عليهم دينه بالسيف فرضاً ـ و لا محاباة في سبيل الله .

و قد تطوّرت شرعة الجهاد بسرعة فائقة : بدأ بالإذن بالقتال : « أُذِنَ للذين يقاتلون ، بأنهم ظُلموا ـ و إن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ ، إلاّ أن يقولوا : ربنا الله ! و لولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامع و بيَع و صلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ! و لَيَنصرنَّ الله من ينصره ـ إن الله لقوى عزيز » (الحج ٣٩

---

(١) دروزة : **سيرة الرسول** ٢ : ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

ـ ٤٠) . فالقتال مشروع لسببين . الأول لردّ الظلم ، و الانتقام من أهل مكّة الذين ألجأوهم إلى الهجرة . الثاني لبناء الدين . و لولا الجهاد لهدمت بيوت الدين و العبادة ! فحماية الدين بالقوة تحمل في أكنافها إرادة فرضه و قيامه بالقوة .

و منذ السورة المدنية الأولى يعلن الشرعة في صورتها الكاملة : « **كتب عليكم القتال،** و هو كره لكم ! و عسى أن تكرهوا شيئاً و هو خير لكم ، و عسى أن تحبوا شيئاً و هو شر لكم ، و الله يعلم و أنتم لا تعلمون » (البقرة ٢١٦) . فالقتال فريضة دينية مكتوبة ، و هي خير لهم .

و فلسفة القتال في سبيل الدين أن الفتنة فيه أشد من القتل : « و قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، **و اقتلوهم حيث ثقفتموهم** ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، **و الفتنة أشد من القتل** » (البقرة ١٩٠ ـ ١٩١) . إن تبرير القتال برد الفتنة يرفع الحرية الدينية. ولا ينفع مع هذه الفلسفة الدينية الحربية قوله: « لا إكراه في الدين ، قد تبيّن الرشد من الغيّ » (البقرة ٢٥٦) . إن الحرية الدينية و القتال في سبيل الدين ضدان لا يجتمعان . فغاية الجهاد منع الفتنة عن الدين ، و فرض الدين كله لله : « قل للذين كفروا ، إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف ؛ و إن يعودوا فقد مضت سُنّة الأولين : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، **و يكون الدين كله لله** » (الأنفال ٣٨ ـ ٣٩) .

و صوفية الجهاد مزدوجة . إنها أولاً شراء الحياة الدنيا بالآخرة : « فليقاتِلْ في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة : و من يقاتل في سبيل الله فيُقْتَلْ أو يَغلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (النساء ٧٤) . و إنها ثانياً فتح و مغانم و منافع : « إنا أنزلنا الحديد فيه بأس شديد و منافع للناس » (الحديد ٢٥) ، « و أثابهم فتحاً قريباً ، و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً . **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ، فعجّلَ لكم هذه ، و كفَّ أيدي الناس عنكم ، و لتكون آية للمؤمنين » (الفتح ١٨ ـ ٢٠) . إن الفتح و المغانم الكثيرة آية من عزّة الله و حكمته للمؤمنين . فالذين يدّعون أن المغانم ليست الهدف الثاني للجهاد ، فقد ظلموا أنفسهم و ظلموا علمهم بالقرآن .

و منذ صلح الحديبية ، الحدّ الفاصل بين عهد الدفاع و عهد الهجوم ، لم يعد الجهاد لرد العدوان ، بل لفرض الإسلام : « قل للمخلفين من الاعراب : ستدعون الى قوم أولي بأسٍ شديد **تقاتلونهم أو يسلمون** » (الفتح ١٦) . لقد ظهرت أخيراً غاية الجهاد الأولى : « هو

الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ، و كفى بالله شهيداً » (الفتح ٢٨) . إن معنى الجهاد كله لإظهار الإسلام « على الدين كله » ، و هو شهادة الله بصحة الإسلام . هذه الغاية المزدوجة ، **الظهور والشهادة ، هي شريعة الجهاد و فلسفته وصوفيته.** و لذلك يركز الدعوة في العهد الأخير عليها ، فيكرر : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ، ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون » ! (الصف ٩) . و يختم حياته الجهادية بقوله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون » (التوبة ٣٣) . فالجهاد كان لإظهار الإسلام على الدين كله ، على كره من الجميع ؛ و هو آية محمد الكبرى (الفتح ٢٨)

لذلك فالذين يدّعون أن الجهاد إنما كان للدفاع فقط ، فهم يتجاهلون أو يجهلون صريح القرآن و تطوّر شريعة الجهاد . لقد تطوّرت شريعة الجهاد من الدفاع الى الهجوم: « **تقاتلونهم أو يسلمون** » (الفتح ١٦) ، « **ليظهره على الدين كله** » (الفتح ٢٨ ، الصف ٩ ، التوبة ٣٣) .

إن غاية الهجرة النبوية الى المدينة ، و جمع الأنصار و المهاجرين ، إنما كانت لفرض الإسلام بالسيف على أهل مكّة و العرب : « و كانت مهمة النبي ، و هو يهاجر واضحة : **و هي أن يكره قريشاً (و من ورائها العرب) على الإسلام بالسيف** » [1].

هذه هي شريعة الجهاد و الحرب في القرآن . و كل أطوارها تنقض المبدأ الموقوت الذي وضع حين الضعف : « لا اكراه في الدين » (البقرة ٢٥٦) . إن شريعة القتال القرآنية هي عين الاكراه في الدين و تؤيدها **شِرْعة قتل المرتد** عن الإسلام : « و مَن يرتدِدْ منكم عن دينه فيمتْ و هو كافر » (البقرة ٢١٧) .

فشريعة الجهاد القرآنية صورة عن « نبي الملحمة » . هل يفرض الله دينه على الناس فرضاً ؟ و إذا كان ذلك ، فماذا يبقى الحرية الانسانية ؟ و ماذا يكون من مبدإ التكليف ، و من مبدإ الجزاء ؟ فهل في شريعة الجهاد القرآنية صورة كاملة للإعجاز في الشخصية النبوية ؟

---

(١) محمد صبيح : **عن القرآن** ، ص ٦٢ .

ثانياً : صدى شريعة الجهاد في نفوس المسلمين

إن أهوال شريعة الجهاد القرآنية تظهر آثارها في نفوس المسلمين أنفسهم .

الأثر الأول هو الكره الذي رافق الشريعة منذ سَنّها : « كتب عليكم القتال و هو كره لكم » (البقرة ٢١٦) . إن العرب الذين كانوا يعيشون على الغزو و السّبي كانوا أول من استفظع شريعة الجهاد و القتال ، و تقبّلوها مرغمين .

الأثر الثاني و هو الخوف منها : « فلما كُتب عليهم القتال ، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، **أو أشد خشية** . و قالوا : **ربنا لِمَ كتبت علينا القتال ؟** لولا أخّرتنا إلى أجل قريب ؟ » (النساء ٧٧) . لقد نزلت عليهم شريعة القتال نزول الصاعقة ! و حال الناس المنافقين كانت أشد هلعاً : « و يقول الذين آمنوا : لولا نُزِّلت سورة ! فإذا أُنزِلت سورة محكمة، **و ذكر فيها القتال**، رأيت الذين في قلوبهم مرض **ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت** » (محمد ٢٠) صورة قرآنية رائعة لأهوال شريعة الجهاد في نفوس العرب والمسلمين عينهم.

الأثر الثالث كان استفظاع الحرب الأهلية بسبب الدين ! يقول في تهيئة فتح مكّة : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تّتخذوا آباءَكم و إخوانكم أولياء ، إن استحبوا الكفر عن الإيمان ، و من يتولّهم منكم فأولئك هو الظالمون . قلْ : إن كان آباؤكم و أبناؤكم و اخوانكم و أزواجكم وعشيرتكم و أموال اقترفتموها ، و تجارة تخشون كسادها ، و مساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله و رسوله و جهاد في سبيله ، فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره ، و الله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة ٢٣ ـ ٢٤) .

علق عليه دروزة[1] : « المتبادر أن النهي الشديد الوارد في الآيات موجه الى **المهاجرين** ، و أن الآيات نزلت قُبيل الفتح المكي ... و الآيات تدلّنا على أن بعض المسلمين المهاجرين **كانوا يقاسون أزمات نفسية في اضطرارهم الى الوقوف من ذوي قرباهم موقف العداء** ، و أن بعضهم كان رغم اخلاصه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستشعار لصلة الرحم ... إذ كان لبعض المهاجرين آباء أو أبناء ما يزالون كفاراً في مكّة مندمجين مع أهلها في موقف العداء من النبي و المسلمين و آبائهم و أبنائهم المهاجرين معه » .

---

(١) **سيرة الرسول** ٢ : ٢٤٩ .

و في هذا الموقف المدني من الآباء و الأبناء تطور جديد لموقف القرآن المكي منهم في حسن المعاشرة و الصحبة و البر بهم (لقمان ١٤ ـ ١٥ ، العنكبوت ٨) . فالإسلام يقطع الصلة ما بين لآباء و الأبناء ، إن استحبوا الكفر على الإيمان ؛ و يوجب قتالهم لإظهار دين الله عليهم . و في هذا كل أهوال الحرب الأهلية بسبب الدين !

إن السيرة النبوية في المدينة كانت حرباً أهلية بسبب الدين : فهل في واقع الحال كما يشهد القرآن من إعجاز في الشخصية النبوية ؟

ثالثاً : استباحة الحرمات بسبب شريعة الجهاد

١ ـ من الحرمات عند العرب كان القتال في الشهر الحرام ، و القتال عند المسجد الحرام . فبدأ بالنهي عن القتال فيهما إلاّ إذا بدأهم المشركون : « و لا تقاتلوهم عند **المسجد الحرام** حتى يقاتلوكم فيه ؛ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ... » (البقرة ١٩١)؛ « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، و الحرمات قصاص : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (البقرة ١٩٤) . تُباح الحرمات قصاصاً لمقابلة العدوان بمثله . إنها الشريعة التوراتية ، العين بالعين ، و السن بالسن !

لكنْ تطورت الشريعة الى **الاستباحة المطلقة** في سبيل إعلاء الإسلام : « يسألونك عن الشهر الحرام : قتال فيه ؟ = قلْ : قتال فيه كبير ! و صدٌّ عن سبيل الله ، و كفر به والمسجد الحرام ، و اخراجُ أهله منه ، أكبر عند الله ، و الفتنة أكبر من القتل » ! (البقرة ٢١٧) . يستبيح القتال في الشهر الحرام ، و عند المسجد الحرام لثلاثة أسباب : الصدّ عن الإسلام ، و إرغام المسلمين على الهجرة ، و محاولة فتنتهم عن دينهم .

٢ ـ و من الحرمات عند العرب و غير العرب حفظ العهود في عدم الاقتتال . **فنزلت البراءَة من العهد مع المشركين :** « **براءَة** من الله و رسوله الى الذين عاهدتم من المشركين (١) : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، و اعلموا أنكم غير معجزي الله و أن الله مخزي الكافرين (٢) ــ **و أذان** من الله و رسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين و رسوله : فإن تبتم فهو خير لكم ؛ و إن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليمٍ (٣) إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً و لم

يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم ، إن الله يحب المتّقين (٤) ـ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم و احصروهم و اقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » (٥) (التوبة) .

يرتبك المفسرون ارتباكاً عظيماً في فهم هذه الآيات . و هذا الارتباك ناجم عن التعارض القائم بين البراءَة و بين الأذان في حق المشركين المعاهدين . وفاتهم أن « الأذان يوم الحج الأكبر » يقطع البراءَة المطلقة من المشركين حتى المعاهدين منهم . و القرينة الحاسمة هي الأشهر الأربعة الحرم في الآية الثانية و الخامسة . فالأذان مقحم على شريعة البراءَة المطلقة من المشركين . و ما جاءَ في الأذان من الأمر بالوفاء مع المشركين المعاهدين الى مدتهم ، نسخة في البراءَة المطلقة من المشركين حتى المعاهدين منهم . **و سياق البراءَة هو هذا :** « براءَة من الله و رسوله الى الذين عاهدتم من المشركين : فسيحوا في الأرض **أربعة أشهر** ، و اعلموا أنكم غير معجزي الله ، و أن الله مخزي الكافرين . فإذا انسلخ **الأشهر الحرم** فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم ، و احصروهم و اقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .

تلك البراءَة التى **تنقض العهد بعدم الاعتداء** هي **آية السيف** (التوبة ٥) في القرآن.

قال النحاس في (الناسخ و المنسوخ ، ص ٢٦٥) : « **نسخ بهذه مايـة و ثلاثـة عشر موضعاً** في القرآن . و قال ابن حزم : **نسخ بهذه الآية مايـة وأربـع عشرة آيـة ، في ثمـان وأربعين سورة** » . و نقل (الإتقان ٢ : ٢٤) للسيوطي : « قال ابن العربي ، **كل ما في القرآن من الصفح عن الكفّار و التولّي و الإعراض و الكف عنهم منسوخ بآية السيف** » **!** إن القرآن شرع قتال المشركين العرب حتى يُسلموا ؛ و في براءَة شرع نقض العهد مع المشركين المعاهدين أنفسهم و فرض قتالهم كسائر المشركين العرب حتى يسلموا . و بهذه الشريعة ـ البراءَة ، مع تحريم المسجد الحرام على المشركين (التوبة ٢٨) دانت العرب للاسلام عنوة و اقتداراً .

٣ ـ و كان صلح الحديبية مع مشركي مكّة **أن لا يمنع من البيت الحرام أحد .** فجاءَت سورة براءَة بتحريم البيت الحرام على المشركين أجمعين : « يا أيها الذين آمنوا ،

إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (التوبة ٢٨) . قال النحاس في (الناسخ و المنسوخ ، ص ١٦٥) : « قال أبو جعفر : الآية ناسخة لما كان رسول الله صالح عليه المشركين أن لا يمنع من البيت أحد » .

ففى العرْف الدولي ، هل يكفي فارق الدين لنقض المعاهدات ؟

٤ ـ و بعد نصر بدر ووقوع الأسرى من المشركين في قبضة المسلمين نزل قوله : « **ما كان لنبي أن يكون له أسرى** حتى يثخن في الأرض : تريدون عرض الدنيا ، و الله يريد الآخرة ، و الله عزيز حكيم ! لولا كتاب من الله سبَقَ ، لمسّكم في ما أخذتم عذاب عظيم ! فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً ، و اتقوا الله إن الله غفور رحيم » (الأنفال ٦٧ ـ ٦٩) .

جاءَ في الزمخشري و البيضاوى على الآية (٤) من سورة (محمد) : « **كانت الشريعة الأولى في الإسلام : قتل الأسرى .** ثم عدلها فخير قومه بين قتل الأسير أو المن أو الفداء ».

و في (أسباب النّزول) للسيوطي ، بمناسبة أسرى بدر : « استشار النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر . فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضربْ اعناقهم ! فأعرض عنه. فقام أبو بكر فقال : نرى أن تعفو عنهم و أن تقبل الفداء ، فعفا عنهم و قبل منهم الفداء . فقال عمر (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) **فنزل القرآن بقول عمر** ؛ و أنزل الله : لولا كتاب من الله سبق ... » بمقالة أبي بكرٍ . قال الجلالان : « و قوله : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) منسوخ بقوله : (فإمّا منّاً بعدُ و إمّا فداءً) .

لقد تطورت شريعة الأسرى من الاستباحة الى المن أو الفداء .

٥ ـ و هناك حالة ثالثة واردة غير المَنّ أو الفداء: هي **استرقاق الأسرى**. قال: « فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإمَّا منّاً بعد ، و إمّا فداءً ، حتى تضع الحرب أوزارها » (محمد ٤) .

علق دروزة [١] : « قد احتوت تقريراً لمبدإ تشريعي عام : إذا جعل أمر الأسرى للنبي ﷺ بعد أن تنتهي المعركة ، فإما أن يسرّحهم عفواً و منّاً بدون فداء ، و إمّا أن يستوفي منهم الفدية و يسرّحهم . و مما يُلفت النظر أنه ليس في هذا المبدإ استرقاق للأسرى . مع أن

---

(١) **سيرة الرسول** ٢ : ٢٥٤ .

بعض الروايات ذكرت أن النبي ﷺ ذهب الى **استرقاق سبى هوزان و أنه استرقّ سبي بني قريظة و باعه .** و عدم احتواء المبدإ القرآني تشريع الاسترقاق يجعلنا نتوقف في التسليم بالروايات ، إلاّ أن يكون ما ذكرته ـ إذا صحّت ـ كان قبل نزول الآية ، و من قبيل الاجتهاد المستمدّ من العرف العام السائد في عصر النبي و في مختلف البيئات . أو من قبيل التفسير النبوي لِمَا سكتت عنه الآية ، و هو مصير الذين لا يُطلق سراحهم منّاً و لا يفتدون أنفسهم » .

و فات الأستاذ أن استرقاق سبي هوزان كان بعد غزوة حنين و بعد سورة (محمد أو القتال) بزمن بعيد .

٦ ـ و ظل القرآن كله يمنع الجدال إلا بالتي هي أحسن مع أهل الكتاب ـ إلا الذين ظلموا منهم أي اليهود ـ حتى آخر العهد بالمدينة . و في آخر سورة نزلت قبل (براءَة) أو في زمنها ، (المائدة) كان النصارى أهل « المودة » حتى النهاية . و إذا بالقرآن كله يُختتم بالأمر بقتال النصارى مع أهل الكتاب « حتى يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون » (براءَة ٢٩) . أجل لا يشرع عليهم القتال أو الإسلام مثل المشركين ؛ إنما يشرع عليهم القتال حتى الخضوع لدولة الإسلام ، كي « لا يجتمع في جزيرة العرب دينان » [١]. لكن بهذه الآية الأخيرة نسخ القرآن كله في المعاملة « بالتى هي أحسن » أي الأمر المتواتر : « و قولوا : آمنَّا بالذي أنزل الينا و أنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد ، و نحن له مسلمون » (العنكبوت ٤٦) أي التنزيل واحد و الاله واحد و الإسلام واحد ـ مع أهل « المودّة » حتى النهاية (المائدة ٨٢) . و على هذه الآية ، من دون القرآن كله ، سار التاريخ الإسلامي كله .

فهل في استباحة الحرمات ، بسبب شريعة الجهاد ، إِعجاز في الشخصية النبوية ؟

رابعاً : الاغتيالات السياسية ، نتيجة شريعة الجهاد

بالهجرة الى المدينة تحول الدين الى دولة دينية ! يقول عمر فرّوخ [٢]: « **الإسلام دولة** ، في المدينة أصبح الإسلام ديناً و دولة معاً . فبدأت قواعد الدولة الإسلامية بالرسوخ . و أخذ الرسول يهتم بالأسس الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و العلمية التى يجب أن تقوم عليها الدولة » .

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٣٦٨ .
(٢) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٦٦ .

و الدولة الدينية لها سياسة ، و السياسة قد تطغى عليها . و قد تقتضي سياسة الدولة ما لا يقتضيه الدين و النبوّة و القداسة ، من الاغتيالات السياسية . جاء في الحديث : ((**اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله**)) **!**

من تلك الاغتيالات و القتل ما تروي السيرة لابن هشام :

١ ـ غزوة عبد الله بن رواحة لقتل اليُسير بن رزام الذي كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله.

٢ ـ غزوة عبد الله بن عتيك خيبر لاغتيال أبي رافع بن أبي الحقيق[١].

٣ ـ بُعْثُ رسول الله عبد الله بن أُنيس لقتل خالد بن سفيان بن نُبَيح الهذلي ، الذي كان بنخلة أو بعزنة يجمع لرسول الله الناس ليغزوه ، فقتله [٢].

٤ ـ بُعْثُ عبد الله بن أبي حدر لقتل رفاعة بن قيس الجشمي الذي نزل بالغابة يجمع قيساً على حرب رسول الله . قال : ((نفحته بسهمي ، فاحتززت رأسه و جئت برأسه أحمله معي)) [٣].

٥ ـ بُعْثُ عمرو بن أُمية الضمرى لاغتيال أبي سفيان بن حرب في مكّة ، بحبيب بن عدى و أصحابه . فعرفه القوم . فنجا ، وفي طريقه قتل قرشياً لحق بهم ؛ ثم بكريا بالغار [٤].

٦ ـ ((نجم نفاق أبى عفك ، حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد الصامت ـ وهجا الرسول ، و هو ابن مائة و عشرين سنة ! ـ **فقال رسول الله : مَن لى بهذا الخبيث ؟** فخرج سالم بن عمير فقتله)) [٥].

٧ ـ ((فلما قُتل أبو عفك ، نافقت عصماء بن مروان ، فقالت شعراً تعيب الإسلام وأهله . فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك : **ألا آخذ لي من ابنة مروان ؟** فسمع ذلك

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٦٧ .
(٢) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٦٧ .
(٣) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٦٨ .
(٤) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٨٢ .
(٥) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٨٤ .

عمير بن عدي الخطمي ، و هو عنده ، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها . ثم أصبح مع رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى قد قتلتُها ! فقال : نصرت الله و رسوله، يا عُمير ! ... **و أسلم ، يوم قُتلت ابنة مروان ، رجال من بني خطمة** ، لما رأوه من عز الإسلام » ! [1].

٨ ـ « أصاب رسول الله في غزوة عبداً يقال له يسار . فجعله في لقاح له كانت ترعى في ناحية الجماء (أو الحمى) . فقدم على رسول الله نفر من قيس قبّة ، قبيلة من بُجيلة ، قد استوبئوا و طحلوا ، فقال لهم رسول الله : لو خرجتم الى اللقاح فشربتم من ألبانها و أبوالها . فخرجوا إليها . فلمّا صحّوا عدوا على راعي رسول الله فذبحوه و غرزوا الشوك في عينيه ، و استاقوا اللقاح . فبعث رسول الله في آثارهم كرْز ابن جابر فلحقهم فأتى بهم رسول الله ﷺ **فقطع أيديهم و أرجلهم و سمل أعينهم** » [2] .

٩ ـ جاء في (أسباب نزول) الآية : « و إذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » (الأنفال ٣١) ـ « أخرج بن جرير ابن سعيد بن جبير قال : **قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً** عقبة بن أبى معيط و طُعَيْمة ابن عدي والنضر بن الحارث (ثلاثة من الأسرى) . و كان المقداد أسر النضر ؛ فلمّا أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيري ! فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول ! وفيه نزلت الآية » . و لما أمر عليّ بن أبي طالبٍ ـ أو عاصم بن ثابت ـ بقتل عقبة ، قال عقبة : فمن للصبية ، يا محمد ؟ قال : النار » !

١٠ ـ و كان عند رسول الله **أسيران من بدر** : أبو عزة الجمحى و معاوية بن المغيرة ؛ و قد مَنَّ عليهما . فلمّا كانت هزيمة أحد ، قال أبو عزة للنبي : أقلني ! فقال رسول الله : اضربْ عنقه ، يا زبير ! فضرب عنقه . و أرسل في إثر معاوية بن المغيرة قوماً فقتلوه [3].

١١ ـ و كان كعب بن الأشرف ، من بني النضير اليهود ، قد خشي تفوق محمد ، بعد بدر « فخرج حتى قدم مكّة ، و جعل يحرّض على رسول الله ، و ينشد الأشعار ، و يبكي

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٨٧ .
(٢) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٢٩٠ .
(٣) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ١١٠ .

أصحاب القليب من قريش ... و رجع الى المدينة ، فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهن ! فقال رسول الله : مَن لى بابن الأشرف ؟ فتصدّى له أبو نائلة سلْكان ابن سلامة ، **أخو كعب من الرضاعة** ، في نفر ، و قد ((مشى معهم رسول الله الى بقيع الفرقد ثم وجّههم فقال : **انطلقوا على اسم الله ، اللهمّ أعنهم**)) . و رجع . فقصدوا خيبر في الليل ، و احتالوا على كعب فأخرجوه من داره ، و تماشوا معه بعيداً عن الحصن ، و ضربوه ضربة رجل واحد . ورجعوا الى محمد ((وهو قائم يصلي. فسلمنا عليه، فخرج الينا. فأخبرناه بقتل عدو الله)) [1].

و هكذا قتلت الأوس ، بأمر محمد ، كعب بن الأشرف حليف الخزرج .

١٢ ـ فاستأذن الخزرج الرسول في قتل سلاّم بن أبي الحقيق ، حليف الأوس . فأذن لهم . و أمّر عليهم في قتله عبد الله بن عتيك . ففعلوا .

١٣ ـ و قال رسول الله : ((من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه ! فوثب محيصة ابن مسعود على ابن سنينة ، رجل من تجار يهود كان يلابسهم و يبايعهم ، فقتله ! فلامه أخوه . فقال لأخيه : **و اللهِ لقد أمرنى بقتله مَن لو أمرني بقتلك لضربتُ عنقك**)) **!**

١٤ ـ و تفاقم نفاق ابن أُبَي ، زعيم المدينة . ((فخطب رسول الله ﷺ الناس فقال : **من لى بمن يؤذينى ؟** و يجمع في بيته مَن يُؤذيني ؟)) . و اختلف الأوس و الخزرج في قتله فئتين . فأنقذه اختلافهم من القتل [2].

١٥ ـ قبل فتح مكّة ، ((كان رسول الله ﷺ قد عهد الى امرائه من المسلمين ، حين أمرهم أن يدخلوا مكّة ، أن لا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم ، إلا أنه قد عهد في نفر سمّاهم **أمر بقتلهم و إن وُجدوا تحت أستار الكعبة !** منهم : عبد الله بن سعد لأنه كان قد أسلم و كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتدّ مشركاً راجعاً الى قريش. و كانت له قينتان ، فرتني وصاحبتها. **و كانتا تغنّيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر بقتلهما معه .** و الحويرث بن نُقَيذ بن وهب بن قصي ، **و كان ممن يؤذيه بمكّة .** و سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، و كانت سارة ممن يؤذيه بمكّة . و عكرمة بن أبي جهل)) ـ ابن عمّه .[3]

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٥٤ .
(٢) السيوطي : **أسباب نزول الآية ٨٧ من سورة النساء** .
(٣) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٥١ ـ ٥٢ .

« و كتب بجيْر بن زهير بن أبى سلمى الى أخيه كعب يخبره **أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكّة ممن كان يهجوه و يؤذيه** ، و أن مَن بقى من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه . فإن كانت لك في نفسك حاجة فطرْ الى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءَه تائباً . وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك في الأرض » [1]. فنظم قصيدته (بانت سعاد) و جاء مسلماً ليسلم .

- فأين هذا كله من عفو المسيح لصالبيه ، و هو على الصليب ، على ما يرويه الإنجيل : « يا أبتاه اغفر لهم ، فإنهم لا يدركون ما يفعلون » ! فأين الإِعجاز في الشخصية النبوية ؟

خامساً : الشبهات على شريعة الجهاد في القرآن

كانت الهجرة الى المدينة ، و ما تبعها من شريعة الجهاد و القتال ، انقلاباً في الرسول و الرسالة ، و انقلاباً في الدعوة و الدين .

١ - انقلاب النبوّة الى إمارة

لقد لاحظ المؤرخون المسلمون الانقلاب العميق في سيرة النبي العربي ، بعد الهجرة الى المدينة . قال حسين هيكل[2] . « هنا يبدأ الدور السياسي ... و هذا الدور من حياة الرسول **لم يسبقه اليه نبي أو رسول .** فقد كان عيسى ، و كان موسى ، و كان من سبقهما من الأنبياء ، يقفون عند الدعوة الدينية يبلّغونها للناس من طريق الجدل ، و من طريق المعجزة . ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة و ذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية ، و بالدفاع عن حرية إيمان الناس بها ... **و كذلك أمر سائر الأديان في شرق العالم و غربه .** فأما محمد فقد أراد الله أن يتمّ نشر الإسلام و انتصار كلمة الحق على يديه ، و أن يكون الرسول و السياسي و المجاهد و الفاتح » .

هذه الظاهرة الفريدة ، في تاريخ النبوّة و الدين ، تعنى انقلاب النبوّة الى إمارة . فالنبوّة تأسيس دين ، لا تكوين دولة ! و النبوّة رسالة السماء ، لا سياسة الدنيا !

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ١٤٤ .
(٢) **حياة محمد** ، ص ١٩٠ .

لكن تلك الظاهرة الغريبة في تاريخ الأديان تنبع ، بحسب ابن خلدون ، من واقع الأمة العربية في الحجاز . قال : « **إن العرب لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينية** ، من نبوّة ، أو ولاية ، أو أثر عظيم من الدين على الجملة . و السبب في ذلك أنهم لخُلُق التوحش الذي فيهم ، أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة ، وبُعد الهمه و المنافسة في الرئاسة » [١].

و هذه الثنائية ، في دمج الدين بالدولة ، أصيلة في المجتمع العربي ، لذلك انتهى اليها الإسلام في تأسيسه : « فالديانة **في المجتمع العربي البدائي** كان يعبر عنها ، كما كانت تنظم ، بطريقة سياسية ، لعدم وجود شكل آخر للتعبير عنها و تنظيمها . و بالعكس كانت الديانة وحدها هي التى تُعدّ أساس كل حكومة عند العرب الذين كان كل تصوّر للسلطة السياسية غريباً عنهم » [٢].

و الشهادات من السيرة النبوية على تحويل النبوّة إلى إمارة كثيرة . فقد رأى الأنصار و المعارضون في المدينة ، منذ مطلع العهد بالمدينة ، في محمد ، **ملكاً أكثر منه نبيّاً .**

فهذا زعيم المعارضة في المدينة ، عبد الله بن أُبَيّ العوفى « رأى أن محمداً قد استلبه الملْك » [٣] . و شاع بين الناس قول ابن أُبَيّ. فقال سعد ، أحد سادة المدينة ، للرسول : « يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءَنا الله بك ، و إنّا لننظم له الخرز لنتوّجه . فوالله إنه **ليرى أن قد سلبته ملكاً** [٤]**!** » هذا رأى الأنصار .

و تلك كانت نظرة اليهود الى محمد . لمّا أسلم عبد الله بن سلام ، قال له اليهود: « ما تكون النبوّة في العرب ، **و لكن صاحبك ملك** » **!** [٥] و ظلّ هذا رأي اليهود حتى النهاية . ففى غزوة خيبر رأت صفية بنت حيي بن أخطب في منامها ان قمراً وقع في حجرها . فعرضت رؤياها على زوجها . فقال : « ما هذا إلاّ أنك تمنّين **ملك الحجاز محمداً !** فلطم وجهها لطمة خضر عينيها منها » [٦].

---

(١) **المقدمة** ـ نشر دار الكتاب اللبنانى ، ص ٢٦٩ .
(٢) كتاب : **العرب في التاريخ** ، ص ٥٤ و ٥٧ .
(٣) **السيرة** ، لابن هشام ٢ : ٢٣٤ .
(٤) **السيرة** ، لابن هشام ٢ : ٢٣٨ .
(٥) **السيرة** ، لابن هشام ٢ : ٢٤٠ .
(٦) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٣٥٠ .

و هذا كان أيضاً رأي زعماء المشركين في مكّة . في فتح مكّة انضم العباس عم النبي الى المسلمين . و جاء بأمر محمد يفاوض أبا سفيان بن حرب زعيم مكّة على فتحها بدون حرب . أمره بالشهادة لله ، فتشهد . و أمره بالشهادة للنبي ، فأجاب أبو سفيان : ((أمّا هذه ، والله فإنَّ في النفس منها حتى الآن شيئاً ! فقال له العباس : ويحك ، أسلم و اشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله **قبل أن تُضرب عنقك !** قال : فشهد شهادة الحق فأسلم ... ثم قال أبو سفيان للعباس : **لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً !** قال : يا أبا سفيان إنها النبوّة ! قال : نعم اذن)) [1].

و بعد فتح مكّة ، ظل المكيّون الذين أسلموا بالفتح على هذا الرأي . هرب من وجه محمد صفوان بن أثمية ، سيد قومه . فاستأمنه عُمير بن وهب لدى النبي ، و خرج في طلبه ((و قال له : هذا أمان من رسول الله ﷺ . قال : ويحك ! اغرب عني ، فلا تكلمني . قال : أي صفوان ، فداك أبي و أمي ! أفضل الناس ، و أبرّ الناس ، و أحلم الناس ، و خير الناس ! ابن عمك ، عزّه عزّك ، و شرفه شرفك ، **و ملكه ملكك**)) ! فرجع معه مسلماً [2].

و في معركة حنين ، ((لمّا انهزم الناس ، رأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة مكّة ، الهزيمة ، تكلّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن . فقال أبو سفيان ابن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! و صرّح جبلة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم ! فقال له صفوان بن أمية : اسكتْ ! فضَّ الله فاك ! **فوالله لأن يربّني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربّني رجل من هوزان**)) [3] !

فالرأي العام المعاصر للسيرة النبوية ، رأى في محمد ملكاً أكثر منه نبيّاً .

و في القرآن نفسه نرى أن النبي العربي اتخذ في سيرته مظاهر الإمارة و الملك . فقد أخذ يقتفي في المدينة آثار الملوك الأنبياء من بني إسرائيل ، حتى حسده اليهود و عيّروه ، فنزل : ((أم يحسدون الناس (أي محمداً) على ما آتاهم الله من فضله ! فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة ، و آتيناهم ملكاً عظيماً !)) (النساء ٥٤) . فسره الجلالان : ((**فضل الله : النبوّة**

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٤٦ ـ ٤٧ .
(٢) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٦٠ .
(٣) **السيرة** ، لابن هشام ٤ : ٨٦ .

و كثرة النساء ! و كانت كثرة النساء من مظاهر الإمارة و الملك . فمثال محمد النبوّة والملك العظيم ، و ذلك بنص القرآن القاطع .

و قد أباح القرآن لمحمد ما فرض على المسلمين (النساء ٣ مع الأحزاب ٥٠) لئلا يكون على النبي حرج ، « سُنّة اللهِ في الذين خلوا من قبل » (الأحزاب ٣٨) . قال الجلالان: « سُنّة اللهِ في الذين خلوا من الأنبياء أن لا حرج عليهم في ذلك ، **توسعة لهم في النكاح** »!

و من مظاهر السلطان كثرة الأسرى و الغنائم . و قد كان محمد يَعلم أنه « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض » ! فأباح له الأسرى و الغنائم ، من دون الأنبياء : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » (الأنفال ٦٧ ـ ٦٩) .

و سلك محمد في مكّة مسلك عيسى في النبوّة فكان يدعو الى الزهد في الدنيا . و لكن بالهجرة الى المدينة أخذ يسلك مسلك الملوك الأنبياء ، فشرع القرآن له و للمؤمنين : « اليوم أحلَّ لكم الطّيبات » (المائدة ٥) .

و اقتضت مظاهر النبوّة و السلطان أن يخاطبه الناس كما يخاطبون الملوك بالغضّ من أصواتهم في حضرته : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله و رسوله ، و اتقوا الله ... لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ! و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ... إنَّ الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ... **و اعلموا أن فيكم رسول الله** » ! (الحجرات ١ ـ ٧) . قال الجلالان : « لا تقدّموا : لا تتقدّموا بقول أو فعل بدون اذن . نزلت في مجادلة أبي بكرٍ و عمر عند النبي ﷺ . و نزل في من يرفع صوته عند النبي ﷺ » .

و من مظاهر السلطان و المُلك أن تحترم الرعية نساء النبي « كأمهاتهم » (الأحزاب ٦) ، « و لا أن ينكحوا أزواجه من بعده أبداً » (الأحزاب ٥٣) ـ كما كانت عادة الملوك ! و لا أن يستأنسوا الحديث معهنّ ! « و إذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب » (الأحزاب ٥٣) . بذلك تقضي طهارة القلب و ضرورة الملك .

و بلغت الحرمة التى يطلبها النبي لنفسه أن أمرهم القرآن بتقديم « صدقة » قبل مقابلته (المجادلة ١٢) . لكنه نسخها لمّا استثقل الجماعة ذلك : « أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقة » ؟! (المجادلة ١٣) .

أجل لقد كانت الهجرة انقلاباً في الرسول ، فتحولت النبوّة إلى إمارة ، بشهادة القرآن و السيرة .

٢ ـ انقلاب الرسالة الى دولة

بيعة العقبة الثانية كانت **معاهدة عسكرية** ، قبل الهجرة : « بايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة **على حرب الأحمر و الأسود من الناس ...** صائحاً : **الدم الدم ! والهدم الهدم !** » [١] . و القرآن المدني صورة لهذه البيعة العسكرية . فكانت الهجرة ، و تحقيق أهدافها بشريعة الجهاد ، انقلاباً في الدين الى دولة ، و في الرسالة الى سياسة حربية .

قال الإمام حسن البنّا ، مرشد الإخوان المسلمين في مصر : « الإسلام دين و دولة ... و إنه تعرّض **لشؤون الحياة الدنيوية العملية بأكثر مما تعرَّض للأعمال التعبدية ... إن الدين جزء من نظام الإسلام** ، و الإسلام ينظمه كما ينظّمه كما ينظم الدنيا ... و مَن ظن أن الإسلام لا يعرض للسياسة وأن السياسة ليست من مباحثه فقد ظلم نفسه و ظلم علمه بهذا الإسلام . وجميل قول الإمام الغزالي : « إن الشريعة أصل و الملك حارس ، و ما لا أصل له فمهدوم ، و ما لا حارس له فضائع » [٢].

و يقول عمر فرّوخ [٣] : « كان الإسلام في مكّة **دعوة دينية** فصار في المدينة **دولة دينية** » . ثم يقول : « **الإسلام دولة** . في المدينة أصبح الإسلام ديناً **و دولة معاً** . فبدأت قواعد الدولة الإسلامية بالرسوخ . و أخذ الرسول يهتم بالأسس الاجتماعية و السياسية والاقتصادية و العلمية التى يجب أن تقوم عليها الدولة . و سيبرز في الوحي بعد ذلك ناحيتان: **ناحية الجهاد لتثبيت الإسلام و إنشاء الدولة الجديدة ، وناحية التشريع لإدارة هذه الدولة** » .

و التشريع و الجهاد هما القرآن المدني كله ، و كلاهما لإقامة دولة الإسلام . وبتحويل الدعوة الدينية « بالحكمة و الموعظة الحسنة » الى جهاد و تشريع لإقامة الدولة الإسلامية

---

(١) **صحيح البخاري** ٢ : ٢١٧ .
(٢) عن أحمد محمد جمال : **دين و دولة** ـ المقدمة الأولى .
(٣) **العرب و الإسلام** : ص ٤٢ و ٤٣ .

تحوّلت الرسالة الى دولة : « لقد كان الإسلام الى ذلك الوقت عبارة عن دين في دولة . أما في المدينة بعد بدر ، فقد أصبح أكثر من دين دولة : **إنه أصبح الدولة نفسها .** و من هناك ، منذ ذلك الوقت ، خرج الى العالم **قوة حربية سياسية** » [1].

٣ ـ انقلاب الدعوة الدينية الى حرب أهلية

كان أسلوب القرآن كله في مكّة دعوة دينية سمحاء : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، و جادلهم بالتى هي أحسن : إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » (النحل ١٢٥) . و كانت الدعوة بمكّة في وحدة تامة مع أهل الكتاب: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ـ إلا الذين ظلموا منهم (أي اليهود) ـ و قولوا : آمنا بالذي أُنزِل الينا و أُنزِل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد ، و نحن له مسلمون » (العنكبوت ٤٦) . فحتى آخر العهد بمكّة كان التنزيل واحداً ، و الاله واحداً ، و الإسلام واحداً ، بين القرآن و أهل الكتاب النصارى .

و بالهجرة الى المدينة انقلبت الدعوة الدينية الى حرب أهلية .

أولاً مع المشركين . فنزل الإذن بالقتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و ان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلاّ أن يقولوا : ربنا الله » (الحج ٣٩ ـ ٤٠) . قال الزمخشري : « هي أول آية أُذن فيها بالقتال ، **بعدما نهي عنه في نيّف وسبعين آية** » . ثم صار الإذن فريضة و شريعة : « كتب عليكم القتال ، و هو كره لكم » (البقرة ٢١٦) . فالقتال على المسلم واجب إلهي ، لفرض الإسلام و إقامة دولته .

ثانياً مع اليهود أهل الكتاب في ديار العرب . و الحرب الأهلية مع اليهود تعقب الجدال الديني المتواصل معهم في سورة البقرة و آل عمران و النساء و المائدة . قامت الحرب معهم لأنهم كانوا « أول كافر به » (البقرة ٤١) ، و لأنهم « كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون » (البقرة ١٠٠) . فنزل الأمر : « و إمّا تخافنَّ من قوم خيانة فانبذْ اليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » (الأنفال ٥٨) . فنابذهم فريقاً فريقاً حتى قضى على بعض منهم و أجلى بعضاً عن المدينة ، و حتى أخضعهم في الشمال ، كخيبر ووادي القرى .

---

(١) الدكتور فيليب حتي : **تاريخ العرب** ١ : ١٦٢ .

و كانت الحرب الأهلية مع اليهود حرباً دينية و عنصرية معاً لتحرير الجزيرة منهم . تحالف فيها مع النصارى للتنكيل بهم : « فآمنت طائفة من بني إسرائيل (بالمسيح) و كفرت طائفة : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (الصف ١٤) . نزلت بعد فتح الشمال و كمال اخضاع اليهود لسلطان الدولة الإسلامية .

و كان يجرى التنكيل بفريق من اليهود كلما فشل في حملة على مشركي مكّة : كان التنكيل ببني قينقاع ، و كانوا أشجع اليهود ، بعد بدر الأخرى لتهكمهم بالنبي ، كما نقل ابن سعد في (طبقاته) : « يا محمد إنك ترى أنّا قومك ! لا يغرّنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة : **إنّا و الله إنْ حاربناك لتعلمنَّ أنّا نحن الناس** » . و بعد هزيمة أُحد حاصر بني النضير حتى أجلاهم . و بعد حصار غزوة الخندق ، غزا بني قريظة حتى « استُنزلوا من حصونهم فحبسهم رسول الله في دار . ثم خرج الى سوق المدينة فخندق بها خنادق . ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق[1] . و كانت غزوة الشمال الى خيبر ووادي القرى بعد فشل الحملة في الحديبية : « أثابهم فتحاً قريباً ... و مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، و كفّ أيدي الناس عنكم ، و لتكون آية للمؤمنين » (الفتح ١٨ ـ ٢٠) . حتى صار يساوي في العداوة والكفر ما بين اليهود و المشركين (البيّنة ١ ـ ٦ ، المائدة ٨٢) .

ثالثاً مع المسيحيين على حدود الشام و في اليمن ، وهم غير النصارى من بني إسرائيل المقيمين بمكّة و الحجاز . غزاهم النبي لأنهم عرب مسيحيون ، لإقامة الوحدة العربية الشاملة . و فيهم نزلت آية براءَة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر ، و لا يحرمون ما حرم الله و رسوله ، و لا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون » (براءَة ـ التوبة ٢٩) .

و في حرب المشركين واليهود و المسيحيين يردّد : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ، و لو كره المشركون » و اليهود العرب و المسيحيون العرب .

و يُختتم القرآن بهذه الصورة في الحرب الأهلية القائمة : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، في كتاب الله ، يوم خلق السماوات و الأرض . منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيّم ، فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم . **و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة !** و اعلموا أن

---

(١) **السيرة** ، لابن هشام ٣ : ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

الله مع المتّقين » (براءَة ٣٦) . فالحرب الأهلية شاملة طول السنة ، مدى الحياة ، ما عدا الأشهر الحرم الأربعة ، و اذا اقتضى الأمر « قتال فيه (الشهر الحرام) كبير » (البقرة ٢١٧) . على هذه الصورة ينتهي القرآن : « و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

إنها تحويل الدعوة الدينية الى حرب أهلية شاملة .

٤ ـ الرحمان الرحيم ، رب العالمين ، يصير إله الحرب

إن الدعوة المتواصلة ، في القرآن المدني ، للجهاد باسم الله ، تعطى إله القرآن ، مثل إله التوراة ، صورة إله الحرب ! « فالرحمان الرحيم » ، الذي باسمه يستفتح كل سورة ، وباسمه يصلّي كل صلاة يتوارى وصفه الكريم ذلك في القرآن المدني و السيرة النبوية . فقد تبدل التنزيل و النبوّة و صار ، الرحمان الرحيم ، رب العالمين ، إله الجهاد و الغزو و القتال.

لقد صار « رب العالمين » **عدو الكافرين :** « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودّة ، و قد كفروا بما جاءَكم من الحق » (الممتحنة ١) .

و صار « رب العالمين » **رئيس حزب :** « رضى الله عنهم و رضوا عنه : **أولئك حزب الله !** ألا إنّ حزب الله هم المفلحون » (المجادلة ٢٢) . و حزب الله هم الذين يتبعون محمداً من دون العالمين : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ، و لو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (المجادلة ٢٢) ، « انما وليّكم الله و رسوله ... و مَن يتولَّ الله و رسوله و الذين آمنوا ، فإن **حزب الله** هم الغالبون » (المائدة ٥٥ ـ ٥٦) .

و صار الرحمان الرحيم في الجهاد ، خير الماكرين ، لأن « الحرب خدعة » كما يقول الحديث . من مَكْر الله بالمكذبين استدراجهم الى كيده : « و الذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، و أملى لهم إن كيدي متين » (الأعراف ١٨٢ ـ ١٨٣) . و من مكْر الله بهم استباق الخيانة : « فإمّا تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » (الأنفال ٥٨) و الدفاع عن المحاربين المؤمنين (الحج ٣٨) . فالله يحارب مع النبي (الأنفال ٦٤) و يرسل ملائكته يقاتلون مع المسلمين جنوداً لا يرونها (الأنفال ٥٠ ؛ آل عمران ١٢٤ ـ ١٢٥) يمدّهم طوراً بألف من الملائكة مردَفين (الأنفال ٩) ، و طوراً بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين (آل عمران ١٢٤) . و طوراً بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين (آل عمران ١٢٥) . و هكذا « يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين » (الأنفال ٣٠) .

و من مكر الله بسائر الناس ، « حزب الشيطان » (المجادلة ١٩) أن يحتال عليهم بواسطة الشيطان : « و اذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم و قال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم ، فلما تراءَت الفئتان نكص على عقبيه » (الأنفال ٤٨) . فالله يحتال على النبي ليقويه : « يريكهم الله في منامك قليلاً » ! و على المسلمين ليشدّ أزرهم : « و اذ يريكموهم في أعينكم قليلاً » ! و على المشركين ليكيد لهم : « و يقللكم في أعينهم ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » (الأنفال ٤٣ ـ ٤٤) . و يستغلّ الله عناصر الطبيعة لمحالفة المسلمين : « إذ يغشّيكم النعاس أمنةً منه ! و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به » ! (الأنفال ١١) .

و يزيّن الله الجهاد للمؤمنين بالوعد العظيم بالجنة أو بالنصر ؛ فعاقبة الجهاد « احدى الحسنيين » : استشهاد أو شهادة (التوبة ٥٢) . و يحرّض الله على القتال المجاهدين فيعدهم **بالغفران و الجنة** ، مهما كانت حالهم قبل الجهاد ، و مهما كان سلوكهم في الجهاد : « فالذين هاجروا ... **و قاتلوا و قُتِلوا** لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ، و لأدخلنهم جنّات تجري من تحتها الأنهار » (آل عمران ١٩٥) . و ما الجهاد ، في عرْف القرآن ، سوى مبايعة الله على القتال و الجنة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة : يقاتلون في سبيل الله ، فيَقتلون و يُقتلون ... و ذلك هو الفوز العظيم » (التوبة ١١١) .

تلك هي **صورة الله في القرآن المدني :** إن الله ، الرحمان الرحيم ، رب العالمين ، **صار إله الحرب الشاملة الدائمة :** « و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » طول السنة، ما عدا الأشهر الأربعة الحرم ، و مدى الحياة ، فإن « الله قد أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ، و لو كره المشركون ! فقد كان النبي العربي ، في شريعة الجهاد ، و القيام بها ، « بدْعاً من الرسل » (الأحقاف ٩) لأنه كان في رسالة السماء « الرسول و السياسي و المجاهد و الفاتح » .

خاتمة

ليس إعجاز محمّد في السيرة معجزة إلهية

يقول عبد الكريم الخطيب[1] في « مكانة النبي من القرآن و إعجازه » : « إن الكتاب ـ كما يقولون ـ يُقرأ من عنوانه . و الرسول ، في كل أمر ، و لكل أمر ، **هو عنوان الرسالة التى يحملها** ، و هو الوجه الذي يلقى به الناس ، قبل أن يلقاهم من رسالته وجه من وجوهها ، و هو الروح التى تبسط أرواحهم أو تقبضها ، قبل أن يبسطها أو يقبضها من الرسالة مضمون و مفهوم ... و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . إنه يتخير لها من خلقه مَن هو أهل لها ، **و مَن يرى الناس فيه ثمرات الرسالة و نفحاتها** ، قبل ان يسمعوها كلمات وآيات ! فيكون ذلك شاهداً مفصحاً بأقوى دليل لها ، و أعظم برهان على ما تحمل من معالم الحق و معاني الخير و الاحسان ... و إذن فنستطيع أن نقرّر : **أن الرسول نفسه هو معجزة من معجزات القرآن** ، ووجه من وجوه إعجازه ، و دليل من أدلة هذا الإعجاز » .

أجل إن النبي العربي « هو عنوان الرسالة التى يحملها » ؛ **و هو بطل في العبقرية البشرية .** لكن مظاهر سيرة النبي الشخصية و الزوجية و النبوية و الجهادية ، كما يصفها القرآن و الحديث و السيرة ، ليست **معجزة** ذاتية ، و ليست من **الإعجاز** في الشخصية النبوية، و القرآن نفسه ، بتأكيده المتواتر على « بشرية » الرسول يقطع بذلك : « قل إنما أنا بشر **مثلكم** » (فصلت ٦ ؛ الكهف ١١٠) .

هناك حديث مرفوع الى النبي : « إن الله اصطفى من ولْد إبراهيم اسماعيل ؛ واصطفى من ولد اسماعيل مضر ؛ و اصطفى من مضر كنانة ؛ و اصطفى من كنانة قريشاً ؛ و اصطفى من قريش هاشماً ؛ و اصطفاني من بنى هاشم » .

---

(١) **إعجاز القرآن** ـ الكتاب الثاني ص ١٣٣ ـ ١٣٥ .

لكنه حديث مدسوس لأنه ينقض صريح القرآن : « إن الله اصطفى آدم و نوحاً و آل إبراهيم ، و آل عمران على العالمين : ذرّية بعضها من بعض و الله سميع عليم » (آل عمران ٣٣ ـ ٣٤) . بحسب هذا النص القاطع الصريح ، إن اصطفاء الله آدم الى نوح الى إبراهيم الى آل عمران ، الى مريم بنت عمران كان للسيد المسيح ، ذروة الذرية المصطفاة على العالمين . و هو وحده **في شخصيته** آية للعالمين : « و جعلناها و ابنها آية للعالمين » (الأنبياء ٩١) ؛ « و جعلنا ابن مريم و أُمّه آية » (المؤمنون ٥٠) ؛ فهو منذ مولده : « آية للناس » (مريم ٢١) . و لا يقول القرآن في حقّ شخصية نبي من موسى الى محمد ما يقوله في شخصية المسيح المعجزة في ذاتها و في سيرتها التى تستحق سلام الله من المولد الى الرفع الى السماء: « و السلام عليَّ يوم وُلدت ! و يوم أموت ! و يوم أُبعث حيَّاً » (مريم ٣٣).

فليس إِعجاز محمد في السيرة معجزة إلهية شخصية إنها سيرة بطولة ، لا معجزة قداسة .

[Blank Page]

الجزء الثاني

الإعجاز في النبوّة

توطئة

صفة نبوّة محمد و كيفيتها

((يا أيها النبي ، إنّا جعلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً و داعياً إلى الله بإذنه ، و سراجاً منيراً)) (**الأحزاب** ٤٥ ـ ٤٦)

((و قفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم)) ـ و لا يُقفّي القرآن على عيسى بأحد)) (**المائدة** ٤٦)

ليس موضوع دراستنا **صحة نبوءة محمد .** فهذا موضوع خارج إطلاقاً عن أبحاثنا . مع ذلك فإنى أؤمن بأن محمّداً قام برسالته و دعوته بناءً على وحي شخصي له من ملاك الله في رؤيا غار حرّاء .

لقد بحثنا في الفصل السابق مدى الإعجاز في الشخصية النبوية ، في سيرة محمد الشخصية و العائلية و النبوية و الجمادية . و ندرس في هذا الفصل **صفة نبوّة محمد** في القرآن ، **و كيفيتها** بحسب المأثور عنها بما أسموه ((برحاء الوحي)) .

إن النبوّة لها معنيان ، عام و خاص : **بالمعنى العام** ، النبي هو الذي ينبيء عن الله ، و يبلغ الناس كلام الله . **و بالمعنى الخاص** ، النبي هو الذي ينبيء المحجوب ، غيب الخالق وغيب المخلوق . و قد درسنا في بحث سابق هل في القرآن من إخبار عن الغيوب ، ماضية و حاضرة و مستقبلة ؛ و رأينا القرآن يشهد بأن محمداً لا يعلم الغيب : « و لا أعلم الغيب » (الأنعام ٥٠) ، « و لو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرتُ من الخير و ما مسّني السوء » (الأعراف ١٨٨) .

فندرس الآن نبوءة محمد بمعناها العام ، صفتها و كيفيتها

بحث أوّل

معنى نبوءة محمّد بحسب القرآن

في أول سورة أعلنها النبي العربي من القرآن ، سورة النجم [١] ، يكشف كيفية اتصاله بملاك الوحي :

و الـنـجـم اذا هوى	ما ضلّ صاحبكم و لا غوى
و ما ينطق عن الهوى	إنْ هو إلا وحـي يوحـي
علّمه شديد القوى	ذو مِرَّة فاستوى
و هو بالأفق الاعلى	ثم دنا فتدلّى
فكان قاب قوسين أو أدنى	**فأوحى الى عبده ما أوحى**
ما كذب **الفؤاد** ما رأى	أفتمارون على ما يرى ؟

(١) السيوطي : **الإتقان** ١ : ٢٥ .

و لـــقد رآه **نزلة أخرى** عـــــــند سدرة المنتهى ،

عــندها جَــنّة المأوى اذ يــغشى الــسدرة ما يــغشى

ما زاغ البـصر و ما طـغى **لقـد رأى من آيـات ربه الكبـرى**))

(النجم ١ ـ ١٨)

لقد رأى محمد ملاك الوحي **مرتين.** و الملاك نزل إليه ، و لم يصعد محمد بالروح الى الملاك : إنها ((**نزلة أخرى**)) . لذلك ليس في تعابير ((جنة المأوى)) و ((سدرة المنتهى)) تعابير لأماكن في السماء ؛ إنما هي إشارات الى أماكن على الأرض : فقد كانت الرؤية نزلة أولى ، و ((نزلة أخرى)) ، حيث ملاك الوحي ((دنا فتدلّى ، فكان قاب قوسين أو أدنى)) .

و كانت **رؤيا ((بالفؤاد))** ، لا رؤية بالبصر: ((ما كذب الفؤاد ما رأى)) ، و فيها ((ما زاغ البصر و ما طغى)) في رؤياه . و كانت رؤيا عظيمة : ((لقد رأى من آيات ربه الكبرى)) ، اى ملاك الوحي .

و موضوع الرؤيا لم تحدّده السورة ، بل تركته مجملاً مبهماً : ((فأوحى الى عبده ما أوحى)) . و القرآن كله يكشف لنا أن موضوع الرؤيا كان ((**أمراً** له من عند الله ، **لا القرآن السماوي نزل عليه جملة كما يتوهمون** . إن القرآن صريح لا يحتمل تأويلاً : ((حم . والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة ـ إنا كنّا منذرين ـ فيها يُفرق كل **أمر حكيم ، أمراً من عندنا :** إنا كنا مرسلين)) (الدخان ١ ـ ٥) . فتعابير التنزيل كلها في القرآن تشير الى أن ما ((**أنزلناه**)) كان ((أمراً من عندنا : إنا كنا مرسلين)) أي أنزل اليه أمر الله بالرسالة والدعوة ، لا بمضمونها و لا بموضوعها . و كانت تلك الليلة المباركة ((ليلة القدر ... تنزل الملائكة و الروح فيها بإذن ربهم **من كل أمر**)) (سورة القدر) ((فيها يُفرق كل أمر حكيم)) (الدخان) . فالتكرار المتواتر ((إنا أنزلناه)) في سورة الدخان و في سورة القدر ، كان ((أمراً من عندنا)) ، لا القرآن نفسه . فالقرآن الذي نزل في رؤيا غار حرّاء المزدوجة هو الأمر بتلاوة قرآن الكتاب على العرب في ((شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ـ وبيّنات من الهدى و الفرقان)) (البقرة ١٨٥) . في لغة القرآن إن الهدى كناية عن الكتاب ، و الفرقان كناية عن السُنة التى تفصّله . فالقرآن العربي هو ((بيّنات من الهدى و الفرقان)) ، لذلك فهو غير

« القرآن » الذي نزل في « شهر رمضان » . هذا كان « أمراً من عندنا : إنا كنا مرسلين » (الدخان ٥) . و تعبير « القرآن » يعنى قراءَة الكتاب و « تفصيل الكتاب » .

و الشواهد متواترة مترادفة في القرآن على أن « القرآن » الذي نزل في رؤيا غار حرّاء **كان** «**أمراً** » **لا كتاباً** كقوله : « **و أمرتُ** أن أكون من المسلمين و أن أتلو القرآن » معهم (النمل ٩١ ـ ٩٢) و كقوله : « إنما أُمرتُ أن أعبد الله و لا أشرك به ؟ إليه أدعو و إليه مآب » (الرعد ٣٦) . هذا هو موضوع رؤيا غار حرّاء ، في ليلة مباركة ، ليلة القدر ، من شهر رمضان ، حيث كان محمد معتكفاً يصوم و يصلّي على عادة الرهبان ، و على طريقة أستاذه ورقة بن نوفل ، قس مكّة و حنيفها الأكبر في التحنّف و الاعتكاف للصوم و الصلاة .

و تكشف لنا سورة الشورى **موضوع هذا الأمر الرباني** : » و ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ـ أو من وراء حجاب ـ أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه علي حكيم: و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ؛ ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان ، و لكن جعلناه ، نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، و إنك لتُهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله » (٥١ ـ ٥٣) .

إن « روحاً من أمرنا » يعنى روحاً من عالم الأمر أي ملاكاً . و الملاك الرسول « يوحي بإذنه (تعالى) ما يشاء » : فالوحي يأتي مباشرة من الملاك ، لا من الله ؛ لذلك يقول: « و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . و التعبير عن الارسال بالوحي دليل على انها رؤيا في المنام ، لا رؤية في اليقظة . و موضوع هذه الرؤيا صريح : **إنه هداية الى الإيمان بالكتاب ،** لأن الله جعله نوراً يهدي به من يشاء ، و الملاك يؤكد له أنه «يهدي الى صراط مستقيم » . « و قل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » حيث دين إبراهيم و موسى وعيسى الذي شرعه للعرب (الشورى ١٣ و ١٥) .

فرؤيا محمد كانت « أمراً » بالكتاب ، و الانضمام النهائي إلى « المسلمين » من قبله ، و تلاوة «قرآن » الكتاب الذي معهم على العرب . فليس فيها تنزيل كتاب جديد على الإطلاق. هذا هو الواقع القرآني .

و الملاحظة الحاسمة أن القرآن لا يذكر لمحمد من اتصال بملاك الوحي ، إلاّ في هاتين النّزلتين من رؤيا غار حرّاء . و القرآن العربي كله ينتسب الى هذه الرؤيا ، في ليلة مباركة ، هي ليلة القدر ، من شهر رمضان .

فمعنى النبوّة عند محمد ، بنص القرآن القاطع ، هو **الأمر** بالإيمان بالكتاب : « و قل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » (الشورى ١٥) ، و الدعوة له على طريقة « المسلمين » من قبله (النمل ٩١) أي النصارى من بني إسرائيل ، و قسهم الأكبر ورقة بن نوفل ، استاذ محمد ، الذي كاد ينتحر عند وفاة معلمه . إنها نبوّة هداية لدعوة قائمة ، تزعمها و فرضها على العرب .

بحث ثان

صفات النبي محمّد في القرآن

كثيراً ما يصف القرآن محمداً ، و يسميه « **النبي** » و « **الرسول** » و بما أن تعابير الوحي و التنزيل من متشابهات القرآن ، فإنها لا تقطع بمعنى محدود لتعابير « النبي » و « الرسول » . و هذا يُلجئنا الى تحديد معناهما من القرائن القرآنية .

أوّلاً : صفات عامة

الصفة المتواترة إنه **نذير و بشير** بالوعد و الوعيد: « وما أرسلناك إلاَّ مبشراً ونذيراً » (الفرقان ٥٦) ، « إنا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً : و إنْ من أمة ، إلاَّ خلا فيها نذير » (فاطر ٢٤) ـ **فهو نذير مثل كل نذير في كل أمة .**

و يكرر: « قلْ : إنما أنت منذر ، و ما من إله إلاّ الواحد القهار » (ص ٦٥) ، « ألاَّ تعبدوا إلاّ الله ، إنني لكم منه نذير و بشير » (هود ٢) . لذلك يقول : ليس عليه تقديم معجزة لهم لأن المعجزة شيمة الأنبياء الأولين ، أما هو فليس سوى منذر : « و يقول الذين كفروا : لولا أُنزِل عليه آية من ربه ـ إنما أنت منذر ، **و لكل قوم هاد** » (الرعد ٧) . فهو نبي ورسول بصفة منذرٍ هادٍ كما لكل قوم هادٍ ، فهو لا يتميّز عن سائر الهداة من كل قوم . فهو يصف نفسه بميزة كل هادٍ في كل قوم ، لا بصفة النبي في الكتاب ، الذي يؤيد نبوته بمعجزة.

إن محمداً هو نبي و رسول **بصفة الشاهد و الداعي** الى الله : ((يا أيها النبي إنَّا أرسلناك **شاهداً ومبشراً ونذيراً ، و داعياً الى الله بإذنه** ، و سراجاً منيراً)) (الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦) . لاحظ كيف يجمع صفة المبشر و النذير الى صفة **الشاهد فالداعى** الى الله . ولاحظ دقة التعبير : ((و داعياً الى الله **بإذنه**)) ، فهو يدعو الى الله ، ((بإذنه)) لا بكتاب منزل مباشرة من عنده .

فنبوءته شهادة : ((إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)) (الفتح ٨) فهو شاهد كما في كل أمة شاهد عليها : ((و يوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ، و جئنا بك شهيداً على هؤلاء)) . و يضيف : ((و نزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، **و هدى و رحمة و بشرى للمسلمين**)) (النحل ٨٩) . إن ((المسلمين)) في لغة القرآن ليسوا جماعة محمد من العرب ، بل النصارى من بني إسرائيل الذين أمِر بالانضمام اليهم (النحل ٨٩) : فالكتاب الذي ((أُنزل)) عليه هو هدى و بشرى أي توراة و إنجيل للمسلمين ، النصارى من بني إسرائيل ـ و هذا إشارة الى ((لقاء)) الكتاب فلا يكن في مرية من ذلك (السجدة ٢٣) . وتنزيل آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً و نذيراً)) (فصلت ١ ـ ٤) . إنه بشير ونذير ((بتفصيل الكتاب)) الذي فيه تنزيل الرحمان الرحيم .

فنبوءة محمد إنذار ، و ذكر ، و شهادة ، بتفصيل الكتاب القدسي قرآناً عربياً . لذلك فالقرآن العربي هو ((تفصيل الكتاب)) و تصديقه بين العرب (يونس ٣٧) . إنه دعوة الى الله ((بإذنه)) تعالى ، الذي ((شرع)) للعرب دين موسى و عيسى ديناً واحداً (الشورى ١٣).

ثانياً : صفاتٌ ثلاث تصف النبي العربي

١ ـ ((النبي الأمّي))

((الذين يتّبعون الرسول ، النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ... قلْ يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ـ فآمنوا بالله و رسوله ، **النبي الأمّي ، الذي يؤمن بالله و كلمته** (كلماته) و اتّبعوه لعلكم تهتدون . و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون)) (الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٩) .

« الأمّي » اصطلاح قرآني يعنى من « الأميّين » الذين ليس لهم كتاب منزل .

لاحظ أولاً إنها صفة وحيدة فريدة في القرآنّ لا ترد إلاّ في هذا النص . و من أسلوب القرآن تواتر الصفة بشكل مضطرد .

ثانياً إن قصة « النبي الأمّي » تقطع سياق قصص موسى (١٠٢ ـ ١٦١) و الاقحام صريح ظاهر : فقوم موسى يطلبون الى الله : « و اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ، و فى الآخرة ، أنا هدنا إليك » (١٥٦) فيجيب : « سأكتبها للذين يتقون و يؤتون الزكاة و الذين هم بآياتنا يؤمنون ـ الذين يتّبعون الرسول النبي الأمّي » . ففى ختام الآية (١٥٦) الجواب على طلبهم ؛ و لكن لا يعقل أن يجيب الله على سؤال قوم موسى بأن الحسنة لقوم محمد بعد ألفي سنة !

فقصة « النبي الأمّي » مقحمة على السورة و حديث موسى .

يؤيد الاقحام اقحام ثان : « النبي الأمّي الذي يؤمن **بالله و كلمته** » (١٥٨) و هي قراءَة أصح من قراءة « و كلماته » ـ صفة « النبي الأمّي » إيمانه بالله و المسيح كلمة الله : و لا يُعقل أن يرد هذا في جواب الله على سؤال قوم موسى .

و يؤيده اقحام ثالث : « و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون » (١٥٩) ؛ و هو مثل قوله: « فآمنت طائفة من بني إسرائيل (بالمسيح) و كفرت طائفة » (الصف ١٤). فالأمة من قوم موسى الذين يهدون بالحق و به يعدلون هم طائفة من بني إسرائيل التى آمنت بالمسيح . و ما دخل هذا في سياق حديث موسى مع ربّه ؟

و النتيجة الحاسمة لهذا الواقع القرآني أن حديث « النبي الأمّي » دخيل على السورة ، و هذا الاقحام المفضوح دليل على أنه دخيل على القرآن .

و البرهان على ذلك من القرآن نفسه : « النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم **في التوراة و الإنجيل** » ، فهو ينسب الى التوراة و الإنجيل إنهما يقولان بمجيء « النبي » الموعود من « الأميّين » غير أهل الكتاب . مع أن القرآن نفسه يحصر النبوّة في أهل الكتاب من ذرية اسحاق و يعقوب ، و لا يشرك فيها ذرية اسماعيل بن إبراهيم . يقول : « **ووهبنا له اسحاق و يعقوب و جعلنا في ذريته النبوّة و الكتاب** » (العنكبوت ٢٧) . فالنبوّة و الكتاب

محصوران في ذرية إبراهيم من اسحاق و يعقوب ، فهم أهل الكتاب من دون العالمين ، و من دون ذرية إبراهيم من اسماعيل الذين يسميهم لذلك « الأميّين » : « هو الذي بعث في الأميّين رسولا منهم » (الجمعة ٢) ، « و قلْ للذين أوتوا الكتاب و الأميّين : أأسلمتم ؟ » (آل عمران ٢٠) ، و القرآن انما يُسمّي العرب « أميين » لأنهم ليسوا من أهل النبوّة و الكتاب . فكيف يقول « بالنبي الأمّي » من العرب ؟

و صريح آية العنكبوت : « ووهبنا له اسحاق و يعقوب ، و جعلنا في ذريته النبوّة والكتاب » (٢٧) يرفع ما تشابه في تصميم آية الحديد : « و لقد أرسلنا نوحاً و إبراهيم ، وجعلنا في ذريتهما النبوّة و الكتاب » (٢٦) كما يتضح من قرائنها التالية : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » (٢٦) : فلا يقول ذلك عن جماعة محمد ذرية اسماعيل . و يؤيده ما يليه : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، و قفينا بعيسى ابن مريم » (٢٧) . فالنبوّة و الكتاب في ذرية إبراهيم الذين منهم الرسل و عيسى ابن مريم ، فهم أهل « الكتاب و الحكم و النبوّة » (آل عمران ٧٩ ؛ الأنعام ٨٩ ؛ الجاثية ١٦) ، و على محمد نفسه أن « يقتدي بهداهم » (الأنعام ٩٠) .

و ليس في التوراة و الإنجيل ذكر « للنبي الأمي » . و نبوءة التوراة « بالنبي مثل موسى » صريحة ، مهما حاولوا استجلابها لتعني محمداً : « يقيم لك الله الهك نبيّاً من وسطك، من اخوتك ، مثلي ، له تسمعون » (التثنية ١٨ : ١٥) . يقولون إن اخوة إسرائيل هم بنو اسماعيل . و لماذا ليسوا بني مدين بن إبراهيم من قطورة ، زوجه الثانية ؟ و فاتهم التصريح: « **من وسطك** » و هو قرينة حاسمة على معنى « من اخوتك » . فالنبي الموعود هو من « وسط » بني إسرائيل . و القرينة الثانية هي « يقيم **لك** » : فالنبي الموعود يُقام لإسرائيل لا للعرب ، و القرآن « ذكر لك و لقومك » .

و المسيح في الإنجيل يطبّق نبوءة موسى في « النبي » الموعود على نفسه ، لا على غيره . ففى زمن المسيح كان اليهود ينتظرون رجوع « إيليا » . و ظهور « النبي » الموعود، و ظهور المسيح ، كما يتضح من سؤال وفد مجلس السنهدرين ليوحنا المعمدان : « فلِمَ تعمّد إن كنت لست المسيح و لا ايليا و لا النبي » (يوحنا ١ : ٢٥) . و قد صرح المسيح أن إيليا رجع بشخص يوحنا المعمدان (مرقس ٩ : ١٣) . و قد صرح أيضاً لوفد المعمدان أنه هو نفسه

« النبي الموعود » ، بالمعجزات الموعودة التى تظهر على يده و قد أجراها أمام الوفد (متى ١١ : ٢ ـ ٦) . كما صرّح للأحبار و العلماء في هيكل أورشليم : « لو كنتم تصدقون موسى لصدقتموني أنا أيضاً ، **لأنه كتب عنى** » (يوحنا ٥ : ٤٦) .

و هكذا فلا التوراة ، و لا الإنجيل ، و لا القرآن نفسه تذكر « النبي الأمّي » ، سوى القصة الدخيلة على حديث موسى في سورة الأعراف (١٥٦ ـ ١٥٧) .

فلا يسعنا الاستناد الى قوله « النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » لتأليف الكتب و الفصول في استجلاب نصوص التوراة و الإنجيل ، بدون منطق ولا موضوعية و لا فهم صحيح لنصوصها و قرائنها القريبة و البعيدة ، لتؤيد قهراً و زوراً آية دخيلة على القرآن ، ضدّ معطيات التوراة و الإنجيل و القرآن نفسه . و تعبير « النبي الأمّي » متعارض في نفسه : فاصطلاح « الأمي » يعنى أنه من الأمميين الذين ليس لهم كتاب منزل ، و لا عندهم وحى و نبوءة ، فكيف يكون النبي « أميّاً » أي من الأمم ، و كيف يكون « الأمي » نبيّاً ؟

٢ ـ الرسول أحمد

« و اذا قال عيسى ابن مريم : يا بني إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدّقاً لما بين يدّي من التوراة ـ **و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ـ فلما جاءَهم بالبيّنات قالوا : هذا سحر مبين » (الصف ٦) .

نلاحظ أولاً إن القرآن كله لا يذكر للمسيح نبوءة برسول يأتي من بعده . فهذا الجزء من الآية وحيد فريد في القرآن كله . و من أسلوب القرآن التواتر في أخباره .

ثانياً : في حديث **التقفية** بالرسل بعضهم على بعض يختم دائماً بالمسيح و لا يقفّي عليه بأحد ، و ذلك في المواطن الثلاثة الوحيدة :

١) « و لقد آتينا موسى الكتاب ، و قفينا من بعده و بالرسل ، و آتينا عيسى ابن مريم البيّنات و أيدناه بروح القدس : أفكلما جاءَكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم، و فريقاً تقتلون » (البقرة ٨٧) . هذا كل تاريخ النبوّة في إسرائيل .

٢) و قفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، و آتيناه الإنجيل في هدى و نور ، و مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، و هدى و موعظة للمتقين)) (المائدة ٤٦) . قفّى على جميع الرسل بعيسى ، و لم يقفِّ عليه بأحد . و إنجيله ((هدى وموعظة للمتقين)) ، و المتقون اصطلاح كتابي قرآني للمؤمنين من الأمم كالعرب ؛ فهم جماعة محمد من العرب ، و الإنجيل نفسه ((هدى موعظة)) لهم .

٣) ((و لقد أرسلنا نوحاً و إبراهيم و جعلنا في ذريتهما النبوّة و الكتاب (كتاب موسى) فمنهم مهتد و كثير منهم فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا . و قفينا بعيسى ابن مريم و آتيناه الإنجيل)) (الحديد ٢٦ ـ ٢٧) . ففى تاريخ النبوّة و الكتاب لا يقفّي على عيسى بأحد . فهو في عرْف القرآن **خاتمة النبوّة و الكتاب .**

و النتيجة الحاسمة لهذا الواقع القرآني إن قوله : ((و مبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد)) مقحم على الآية . و لو سقط لَمَا شعر أحد بخلل في نظم القرآن المحكم كقولنا : ((و اذ قال عيسى ابن مريم : يا بني إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقاً لما بين يدَيَّ من التوراة . فلما جاءَهم بالبيّنات قالوا: هذا سحر مبين)) . يؤيد هذا التكرار في آية (المائدة ٤٦).

و لقد فلّوا الإنجيل كله فلم يعثروا على نبوءة للمسيح برسول يأتي من بعده . لكنهم وجدوا في وعد المسيح ((بالروح القدس الفارقليط)) لرسله ركيزة متشابهة فتمسكوا بها و قالوا منذ سيرة ابن هشام : ((صفة رسول الله صفحة من الإنجيل : ((مَن أبغضني فقد ابغض الرب و لولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة . و لكن من الآن بطروا و ظنوا أنهم يعزّونني (يقبلونني) و أيضاً للرب . و لكن لا بدَّ من أن تتم الكلمة التى في الناموس : إنهم أبغضوني مجاناً أي باطلاً . فلو قد جاء المُنْحَمنّا ، هذا الذي يرسله الله إليكم **من عند الرب ، روح القدس ، هذا الذي من عند الرب خرج** ، فهو شهيد عليَّ و أنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي . في هذا قلت لكم لكيما لا تشكوا))

و يضيف ابن هشام : ((و المُنْحَمنّا بالسريانية : محمد ! و هو بالرومية البرَقليطس ، صلى الله عليه و سلم)) .

إن البرقليطس أو الفارقليط هو ((روح القدس)) ، و روح القدس في القرآن جبريل ، و في الإنجيل شخصية الهية بسبب مصدره : ((هو الذي من عند الرب خرج)) **فهو على كل حال**

ليس بشراً مثل محمد تنطبق عليه الآية ، كما يتضح من الآيات (يوحنا ١٤ : ١٦ ـ ١٧ ؛ ١٤ : ٢٦ ؛ ١٥ : ٢٦ ؛ ١٦ : ٧ ـ ١١ ؛ ١٦ : ١٣ ـ ١٥) .

و نسى بعضهم أن الفارقليط هو الروح القدس ، بنص الآية القاطع ، و راحوا يتحذلقون في قراءَة التعبير اليوناني قراءة محرفة لم ترد في نسخة من النسخ ، و اختلاف القراءة لا يظهر في النقل العربي ((الفارقليط)) . و هو في الأصل ((المعين)) و بتحريف حرفين من الكلمة تعنى ((المحمود ، المحمّد ، الأحمد)) . و هي قراءَة لا وجود لها في النسخ ـ و لكن مهما كانت القراءَة ، فصفة الفارقليط تمنع منعاً باتاً أن نرى فيه محمداً أو أي بشر رسول لانه ((روح القدس)) و على الأصح : ((الروح القدس)) ، روح الحق الذي من الآب ينبثق (((يوحنا ١٥ : ٢٦) : فمصدره إلهي ، لا مخلوق .

و هكذا فلا الإنجيل يبشر برسول بشر يأتي بعد المسيح ، و لا القرآن نفسه ينسب لعيسى البشرى برسول يأتي من بعده ، إلا في جزء مقحم على آية ، لا مثيل له في متواترات القرآن .

إن هذا الجزء من الآية : ((و مبشراً برسول يأتي من بعدى أسمه أحمد)) هو أيضاً دخيل على الآية و على القرآن كله . إن برهانهم لإعجاز النبوّة المحمدية في التماس البشائر لها في الكتاب ، كما يجدونها للمسيح ، لا أساس له في التوراة و الإنجيل على الإطلاق ، مع كل الكتب و الفصول التى يكتبون . فالكتاب كله ، من التوراة الى النبيّين ، الى الزبور ، الى الحكمة ، الى الإنجيل لا تعرف نبيّاً موعوداً يأتي من غير أهل الكتاب ، على الإطلاق . والقرآن نفسه في **حديث** ((**التقفية**)) على الرسل يقفي على الجميع بالمسيح و لا يقفي عليه بأحد ، فهو في نظره خاتمة النبوّة و الكتاب .

٣ ـ ((خاتَم النبيّين))

((ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، و لكن رسول الله ، و خاتم النبيّين)) (الأحزاب ٤٠) .

للتعبير ((خاتم)) قراءَتان : خاتم (بالكسر) أي ((آخرهم الذي ختمهم . أو خُتموا به ، على قراءَة عاصم (بالفتح))) (البيضاوى) ، ((و خاتم النبيّين : فلا يكون له ابن رجل بعده يكون نبيَّاً ، و في قراءَة بفتح التاء كآلة الختم أي به ختموا)) .

فالتعبير « خاتم النبيّين » متشابه قراءة و معنى ، فلا يصلح أن تقوم عليه قضية و لا عقيدة .

و للتعبير ثلاثة معان : ١) خاتمة الأنبياء ٢) خاتَم ، يختمهم كآلة الختم أي يصدّقهم ٣) « فلا يكون له ابن رجل بعده يكون نبيّاً »

أما معنى : لا ابنَ له يخلفه نبيّاً ، فهو أقربها الى نصّ الآية : « ما كان محمد أبَ أحد من رجالكم » . و هذا يقضي على المعنيين الآخرين

و أما معنى « **خاتمة الأنبياء** » فلا أصل له في القرآن كله .

و أما معنى « خاتَم النبيّين » أي « كآلة الختم » يصدّقهم ، فهو المعنى المتواتر في القرآن : « بل جاءَ بالحق **و صدَّق المرسلين** » (الصافات ٣٧) ، « و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧ قابل يوسف ١١١) ، « مصدّق لما معهم » (٢ : ٨٩ و١٠١) ، « مصدّق لما معكم » (٣ : ٨١) ، « مصدّق الذي بين يديه » (٦ : ٩٢) ، « مصدقاً لما معكم » (٢ : ٤١ ، ٤ : ٤٧) ، « مصدقا لما معهم » (٢ : ٩١) ، « مصدقاً لما بين يديه » (٢ : ٩٧ ؛ ٣ : ٣ ؛ ٥ : ٤٦ مرتين ؛ ٥ : ٤٨ ؛ ٣٥ : ٣١ ؛ ٤٦ : ٣٠) .

فصفة القرآن المتواترة أنه « **كتاب مصدّق** » (الأحقاف ١٢) ؛ و صفة محمد المتواترة أنه « صدق المرسلين » ، وهذا هو المعنى الوحيد للتعبير المتشابه، « خاتم النبيّين ».

فليس في القرآن من تصريح بأن محمداً خاتمة الأنبياء . إنه « خاتمَ النبيّين » أي الذي « صدَّق المرسلين » .

بحث ثالث

نبوءة محمّد هداية و اقتداء

قلنا و نقول : إن تعابير « الوحي » و « التنزيل » من **متشابهات القرآن** ، فلا تقطع بمعنى محدود ، و لا بكيفية معيّنة . فلا يصح أن يُبنى عليها قضية و لا عقيدة . لذلك فتعابير « النبي » و « الرسول » لا تقطع بمعنى محدود .

و تصاريحه مثل قوله : « إنا أوحينا إليك ، كما أوحينا الى نوح و النبيّين من بعده » (النساء ١٦٣) لا تدل على المطابقة في كيفية الوحي ، و لا على المقابلة أو المماثلة ، فإن تصاريح أخرى تقيد معناها ، كقوله : « و إن هذا لفي الصحف الأولى » ؛ « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » .

و تصاريحه مثل قوله : « و إنه لتنزيل رب العالمين ... » لا تقطع بمعنى محدود لقوله : « و إنه لفي زبر الأولين : أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧) ، « بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩) ؛ « يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم ، (الأنعام ٢٠ ؛ البقرة ١٤٦) لأن القرآن العربي له « مثله » عندهم من قبله (الأحقاف ١٠)

فيجب أن نلتمس صفة النبوّة المحمدية من القرائن القرآنية .

عند فتور الوحي ، يعدّد له الله عليه فيقول: « ووجدك ضالاً فهدى » (الضحى ٧). فنبوءته هداية . و هذه الهداية تستمر حتى الفتح المبين ، مع ما تقدم و تأخر من ذنبه : « وليتم نعمته عليك و يهديك صراطا مستقيماً » (الفتح ٢)

و صلاة الفاتحة هي صلاة محمد قبل أمته : « اهدنا الصراط المستقيم » .

و القرآن نفسه ينصّ على أن رؤيا الوحي اليه كانت هداية الى الإيمان بالكتاب والدعوة له بين العرب و العدل به بين أهل الكتاب : « و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان ؟ و لكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا ، وإنك لتُهدى[1] الى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢) ؛ « فلذلك فادعُ و استقم كما أمرتَ ، ولا تتبع أهواءَهم ! و قلْ : آمنت بما أنزل الله من كتاب و أمرتُ لأعدل بينكم » ؛ و هذا العدل هو بإقامة دين موسى و عيسى معا (الشورى ١٥ مع ١٣)

و مما يؤيد أن نبوته هداية الأمر المكرر اليه : « و أمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن » (النمل ٩١ ـ ٩٢) « و أمرتُ أن أكون من المؤمنين » (يونس ١٠٤) ، « و أمرتُ أن أسلم لرب العالمين » (غافر ٦٦) ، « و قلْ : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، و أمرتُ

---

(١) لتهدى قراءَة أصح من « لتَهدى » لأنها تنسجم مع الأمر بالإيمان بالكتاب .

لأن أكون أول المسلمين » (الزمر ١١ ـ ١٢) . في رؤيا غار حرّاء ـ يؤمر محمد بالإيمان بالكتاب ، و بالانضمام الى « المسلمين » الموجودين قبله ، هذه هي الهداية عينها ، كما ينص الحرف عينه : « و إنك لتُهدى الى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢) .

إن نبوءة محمد **مصدرها** وحى في رؤيا حراء ، كما يقول : « و إن اهتديتُ فيما يوحي الي ربّي » (سبأ ٥٠) ، و لكن **موضوعها ليس وحياً جديداً** ، بل إقامة التوراة والإنجيل معاً (المائدة ٦٨) ، على دين موسى و عيسى معاً (الشورى ١٣ على طريقة « المسلمين » الذين أُمر أن ينضم اليهم (النمل ٩١) ، و هو يشهد بالقرآن ، « تفصيل الكتاب » ، مع هؤلاء « المسلمين » النصارى، أولي العلم المقسطين، الراسخين في العلم: « أن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ ١٩ مع ٧) .

إن محمداً ، في رؤيا حراء ، اهتدى الى الإيمان بالكتاب ، و الى إسلام المسلمين من قبله ، النصارى من بني إسرائيل ؛ و هو بالقرآن يدعو الى هذا الإسلام « النصراني » . لذلك يأتيه الأمر المتواتر : « الذين آتيناهم الكتاب و الحكم (الحكمة) و النبوّة ... أولئك الذين هدى الله **فبهداهم اقتده** » (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠) . اهتدى نهائيّاً برؤيا غار حرّاء ، لكن الأمر له أن يقتدي على الدوام بهدى أهل « الكتاب و الحكمة » الذين يقيمون التوراة و الإنجيل معاً ، على دين موسى و عيسى معاً ، و هم النصارى من بني إسرائيل .

و هذا الأمر بالاقتداء المتواصل في دعوته بهدى « المسلمين » من قبله ، برهان أيضاً على أن نبوّة محمد كانت هداية الى إسلام النصارى من بني إسرائيل . يؤيّد ذلك أيضاً هذه **الظاهرة الكبرى المستغربة :** إن القرآن العربي إخبار عن « القرآن » ، **إخبار عن غيره ، لا عن نفسه .** لم ينزل القرآن العربي بعد ، و هو يؤمر منذ مطلعه : « **و رتل القرآن ترتيلاً** » (المزمل ٤) ـ لاحظ التعريف المطلق : « القرآن » . و قد أُمِر في رؤيا حراء أن يكون من المسلمين و أن يتلو معهم « القرآن » (النمل ٩١ ــ ٩٢) . لذلك يستفتح كثيراً من سوره **بالاشارة** الى تلاوة « القرآن » المطلق ، ثم يعلّق عليه بالسورة الورادة : « **ذلك** الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين » من العرب (البقرة ١ ـ ٢) ، « **تلك آيات القرآن و كتاب مبين** ، هدى و بشرى للمؤمنين » (النمل ١ ــ ٢) أي ، بحسب اصطلاحه ، توراة و إنجيل معاً للمؤمنين المسلمين ، أولي العلم المقسطين ؛ « **تلك** آيات الكتاب المبين » (الشعراء ٢ ، القصص ٢) ، « **تلك**

آيات الكتاب الحكيم » (يونس ١) ؛ « **تلك آيات الكتاب و قرآن مبين** » (الحجر ١) ـ لاحظ المقابلة مع (النمل ١ ـ ٢) ـ « تلك آيات الكتاب الحكيم » (لقمان ٢) ؛ « تلك آيات الكتاب » (الرعد ١) .

كلها إشارات الى ما تلا من الكتاب أي قرآن الكتاب ، ثم يليها في سورة القرآن العربي تعليق عليه ، كما يتضح أيضاً من قوله : « تلك آيات الكتاب المبين : إنا أنزلناه . قرآناً عربياً » (يوسف ١ ـ ٢) . **فالقرآن العربي هو غير الكتاب المبين و غير القرآن المبين : إنه إخبار عنه و تعليق عليه .** و قوله : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً يعنى : إنا جعلناه قرآناً عربياً كما يقسم : « و الكتاب المبين : إنا جعلناه قرآناً عربياً » (الزخرف ٢ ـ ٣) .

و التمييز بين القرآن المنزل القرآن العربي الذي يفصله صريح قوله : « تنزيل من الرحمان الرحيم : كتاب ـ فصلت آياته قرآناً عربياً » (فصلت ٢ ـ ٣) ، فهما : « كتاب أحكمت آياته ـ ثم فصّلت من لدن خبير حكيم » (هود ١) . فالقرآن العربي ، **القرآن المفصِّل،** هو إخبار عن القرآن المحكَم، « القرآن العظيم » ، **القرآن المفصَّل.** و كما يستفتح بالاشارة الى « القرآن » المطلق ، في الكتاب الذي مع أهل الكتاب ؛ فهو يستفتح أيضاً بالقسم به على صحة الدعوة بالقرآن العربي : فالتمييز بين القرآن المقسَم به ، و القرآن العربي المقسَم عليه متواتر مترادف ، **و لا يصح أن يكون المقسَم به و المقسَم عليه واحداً :**

« قَ. و القرآنِ المجيدِ ... » (ق ١)

« ص. و القرآنِ ذى الذكر ... » (ص ١)

« يس. و القرآن الحكيم ... » (يس ١ ـ ٢)

فالقرآن الحكيم القرآن ذي الذكر ، القرآن المجيد ، ليس القرآن العربي كما يتضح من القسم به . يتضح أيضاً من القسَم به على حقيقة القرآن العربي :

« و الكتاب المبين : إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً » (الزخرف ٢ ـ ٣)

« و الكتاب المبين : إنا أنزلناه في ليلة مباركة ... **أمراً من عندنا** ، إنا كنا مرسلين » (الدخان ٢ ـ ٥) . إن الضمير المستتر المتواتر في مثل هذه المواطن لا يعني القرآن العربي بل الأمر بالهداية الى قرآن الكتاب ، و تلاوته على العرب .

فالقرآن المشهور المعروف الذي يخبر عنه القرآن العربي هو غيره ، بصريح قوله أيضاً : « و لقد آتيناك سبعاً من المثاني و القرآن العظيم ... كما أنزلناه على المقتسمين **الذين جعلوا القرآن عضين** » (الحجر ٨٧ و ٩٠ ـ ٩١) . فسره الجلالان : « الذين جعلوا **القرآن** أي كتبهم المنزلة عليهم ؛ (عضين) أجزاء ، حيث آمنوا ببعض و كفروا ببعض » .

فالقرآن على الإطلاق هو الكتاب المقدس ؛ و القرآن العربي إنما هو إخبار عنه ودعوة إليه ، لأنه « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) .

و هكذا يتضح لنا، من الواقع القرآني ، إن نبوءة محمد **هداية** الى إسلام « المسلمين » من قبله ، النصارى من بني إسرائيل ، **واقتداء** دائم بهداهم في الكتاب الإمام ، القرآن العظيم، بحسب « المثل » الكريم الذي معهم : « و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » (الأحقاف ١٠) فقد « شرع » الله للعرب دين موسى و عيسى ديناً واحداً (الشورى ١٣) بحسب « مثله » الذي من قبله . فلا جدال في ذلك مع أهل الكتاب النصارى ، لأن الإله واحد و التنزيل واحد و الإسلام واحد معهم (العنكبوت ٤٦) .

بحث رابع

هل القرآن العربي أسلوب جديد في النبوّة و المعجزة

إن المدرسة العصرية في علوم القرآن ثبت لها **موقف القرآن السلبي** من كل معجزة حسية : فلا معجزة حسية في السيرة النبوية و الدعوة القرآنية ، مهما ماحك المماحكون الرجعيون .

و كان ردّ القرآن العربي على تحديهم له بمعجزة « كما أرسل الأولون » (الأنبياء ٥)، العجز المطلق عن كل معجزة حسية ، كما يقرّر : « و ما منع الناس أن يؤمنوا ... إلا أن تأتيهم سُنّة الأولين » (الكهف ٥٥) ، المعجزة التى يشهد بها الله لأنبيائه . لذلك ظلوا دائماً يقولون : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله » (الأنعام ١٢٤) . لكن لمّا أتاهم

محمد بمعجزة « الحديد الذي فيه بأس شديد ، و منافع للناس » (الحديد ٢٥) دخلوا في دين الله أفواجاً (النصر ٢) .

تجاه هذا الواقع القرآني قال الأقدمون بإعجاز القرآن في النظم و البيان معجزة له . وسنرى أمرها بعد حين .

و لعدم اقتناع المدرسة العصرية بصحة إعجاز القرآن و البيان معجزة له ـ و قد حطمها المرحوم فريد وجدي تحطيماً ـ قالوا : ليست المعجزة بلازمة لصحة النبوّة و التنزيل؟ و قالوا مع الأستاذ دروزة [1] :

« و هذه النواحي الايجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة **لحكمة ذلك الموقف السلبي** (من المعجزات) ، بحيث يصح أن يُستلهم منها و أن يقال ـ و قد ألمع الى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً ـ إن حكمة الله اقتضت **أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوّة سيدنا محمد عليه السلام** ، و برهاناً على صحة رسالته ، و صدق دعوته التى جاءت بأسلوب جديد :

« **هو أسلوب لفت النظر الى الكون** و ما فيه من آيات باهرة ، **و البرهنة بها** على وجود الله ، و قدرته الشاملة ، ووحدته ، و استحقاقه وحده للخضوع و العبادة و الاتجاه ، وبطلان الشرك و الوثنية أو سائر العقائد و التقاليد المتناقضة مع هذا الأصل النقي البسيط .

« **ثم أسلوب مخاطبة العقل و القلب** ، في الحث على الفضائل ، و التنفير من الرذائل ، وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى ، و فكرة الحق و العدل فيها .

« و على اعتبار أن الدعوة التى تقوم على تقرير وجود الله و استحقاقه وحده للعبودية، و اتصافه بجميع صفات الكمال ، و على التزام الفضائل ، و اجتناب الفواحش ، **هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة** ، لا تتصل بها في الذات .

« و في هذا ما فيه من وضوح ميزة الرسالة المحمدية و ترشيحها للخلود و التعميم . و آيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات **وقعت و انقضت** . و لكن أسلوب الدعوة القرآنية ـ هذا الذي اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة على بعض أولئك الأنبياء ـ هو

---

(١) **سيرة الرسول** ١ : ٢٢٦ . في هذا البحث تكرار للتقرير ، و استكمال الموضوع و التقدير .

أسلوب خالد حي في كل زمان و مكان ببراهينه و دلائله ، و حيويته و فصاحته و معقوليته وسموه . و لذلك كان و ظل **معجزة النبوّة الخالدة الكبرى** ، من هذه النواحي » .

هذا موجز مواقف المدرسة الحديثة في النبوّة و المعجزة . نقول :

أولاً : ليس هذا الأسلوب القرآني ، « أسلوب لفت النظر الى الكون ... ثم أسلوب مخاطبة العقل و القلب ، في الحث على الفضائل و التنفير من الرذائل » ، **بجديد** . إنه أسلوب الكتاب من قبله . و قد جعله القرآن نفسه في ذلك أيضاً « إمامه » في الهدى و البيان (هود ١٧ ؛ الأحقاف ١٢) . و إنه أسلوب أشعيا في القسم الثاني من نبوءته (ف ٤٠ ـ ٥٥) . إنه أسلوب سفر الامثال في قسمه الأول (ف ١ ـ ٩) ؛ إنه أسلوب سفر ابن سيراخ في كثير من فصوله . إنه خصوصا أسلوب سفر الحكمة ، و الزبور كله . إنه أسلوب الإنجيل ، مع الكشف عن سر الله و الكون و الانسان ، كقوله في خطابه على الجبل : « انظروا الى طيور السماء فإنها لا تزرع و لا تحصد و لا تجمع الى أهراء ، و أبوكم السماوي يقوتها : أفلستم أنتم أفضل منها ؟ ... تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ، إنها لا تتعب و لا تغزل ! و أنا أقول لكم ، إن سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها فإذا كان عشب الحقل ، الذي يكون اليوم ، و يطرح غداً في التنور ، يلبسه الله هكذا ، فكم بالأحرى يلبسكم أنتم ، يا قليلي الإيمان ... » (متى ٦ : ٢٤ ـ ٣٤) .

و قد أوجز بولس الرسول أسلوب لفت النظر الى الكون ، و البرهنة بالخليقة عن خالقها في الهيته و قدرته : « إن ما يُعرف عن الله واضح لهم ، إذا إن الله قد أوضحه لهم : فإن صفاته غير المنظورة ، و لا سيما قدرته الأزلية و الهيته تُبصر منذ خلق العالم مدركة » بمبروءاته . فهم اذن بلا عذر هم الذين استبدلوا حقيقة الله بالباطل ، و اتقوا المخلوق و عبدوه من دون الخالق ، تبارك الى الدهور آمين » (الرسالة الى الرومانيين ١ : ١٨ ـ ٢٨)

فالكتاب و أهله يعرفون أن الله تعالى قد وضع **كتاب الخلق ، قبل كتاب الوحي** ، للكشف به عن نفسه ، و إن كان « ليس كمثله شيء » . فليس أسلوب القرآن بجديد .

ثانياً : إن أسلوب الدعوة القرآنية لم يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة من قبله ببراهينه و دلائله و حيويته و فصاحته و معقوليته و سموه . فالقرآن يشهد ، و هو خير الشاهدين ، ان الكتاب « إمامه » في الهدى و البيان ، « و شهد شاهد من بني إسرائيل على **مثله** » (الأحقاف ١٠ ـ ١٢ قابل هود ١٧) : إن « مثل » القرآن موجود قبله .

ثالثاً : إن البرهنة بكتاب الخلق عن الخالق أسلوب في النبوّة و الكتاب ، و أسلوب كل منطق عند الانسان و علماء الكلام في كل الأديان . و مع ذلك لا يدّعى اصحابه انه تنزيل من الله ، و لا يكفي صدقه للإيمان بوحيه ، فلا بدَّ له من قرين معه يشهد له انه وحى من الله : وهذه هي المعجزة ، سلطان الله المبين .

و الإعجاز في النظم و البيان ((سر محجوب)) ، ((السر الذي حير الناس)) في كل زمان ، فلم يهتدوا فيه الى وجه المعجز في البيان . فلا يصلح في النبوّة و التنزيل للبرهان ، حتى يكون ((معجزة النبوّة الخالدة الكبرى)) .

رابعاً : إن ((آيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت و انقضت)) . لكنها أدت دورها في الشهادة على صحة الرسالة و صدق الدعوة ، عند الذين جاؤوا بها : و مايزل تاريخها الصحيح الصادق خير برهان على ضرورة الإيمان .

خامساً : اقتصار الوحي على لفت النظر الى آيات الكون الباهرة ، هو تنزيل الوحي من ((علو الجهة المنزل منها)) **إلى مرتبة وحي الفطرة .** و ما يدرك بالفطرة ، لا حاجة لنا به الى وحى منسوب الى الله . إن ((الأسلوب الجديد)) في الوحي القرآني يجعله **وحى الفطرة، لا وحي التنزيل .**

سادساً : لو لم يكن عند الله ، جلّ جلاله ، شيء يقوله لنا غير ما في كتاب الخلق ، لما أنزل الينا كتاب الوحي .

يقول السيد قطب[1] : ((فالذهن الإنساني خليق بأن يدع للمجهول (و الغيب) حصته، و إن يحسب له حسابه : لا يدعو الى هذا مجرّد القداسة الدينية ، و لكن يدعو اليه اتساع الآفاق النفسية ، و تفتح نوافذ المعرفة . ((**فالمعقول**)) **في عالم الذهن ، و** ((**المحسوس**)) **في تجارب العلم ، ليسا هما كل** ((**المعروف**)) **في عالم النفس .** و ما العقل الإنساني ـ لا الذهن وحده ـ إلاَّ كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة . و لن يُغلق انسان على نفسه هذه المنافذ إلاّ وفي نفسه ضيق ، و في قواه انحسار ، لا يصلح للحكم في هذه الشئون الكبار . فلندع الذهن يدبر أمور الحياة اليومية الواقعة ، أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة . فأما العقيدة ، فهي في أفقها العالي ، هناك))

---

(١) سيد قطب : **التصوير الفنى في القرآن** ص ١٨٦ .

و هكذا فلا جدّة ، و لا مخالفة ، و لا ميزة ، و لا إعجاز ينفرد به القرآن فيما وصفوه ((أسلوب جديد)) في النبوّة و المعجزة . فقد ((شهد شاهدين من بني إسرائيل على مثله)) ، والكتاب ((إمامه)) في الهدى و البيان (الأحقاف ١٠ ـ ١٢) : ((قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله هو **أهدى منهما** اتّبعه إن كنتم صادقين)) . فالقرآن و الكتاب ، كلاهما في الهدى واحد ؛ فليس القرآن ((أسلوباً جديداً)) في النبوّة و المعجزة .

بحث خامس

كيفية الوحي القرآني ــ ((برحاء الوحي))

إن ((الأسلوب الجديد)) الحق، في الوحي والتنزيل، هو ما أسموه ((**برحاء الوحي**)) ، أي كيفيته و حالاته عند النبي العربي .

و قد نقل لنا السيوطي أقوالهم في حالة الوحي (الإتقان ١ : ٤٥ ـ ٤٦) : ((فصل : وقد ذكر العلماء للوحى **كيفيات** :

((احداهما : أن يأتيه الملاك في مثل صلصلة الجرس ، كما في الصحيح . و في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر : سألت النبي ص هل تحس بالوحي ؟ فقال : أسمع **صلاصل** ثم اسكت عند ذلك ؛ فما روى مرة بوحي إلاَّ ظنت نفسي تقبض ... و في الصحيح ان هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه .

((الثانية : أن يُنفث في روعه الكلام نفثاً ...

((الثالثة : أن يأتيه في صورة الرجل فيكلمه ، كما في الصحيح : ((و أحياناً يتمثل لي الملاك رجلاً فيكلمني فأعى ما يقول)) . زاد أبو عوانه في صحيحه: ((وهو أهونه على)).

((الرابعة : **أن يأتيه الملاك في النوم .**

« الخامسة : أن يكلمه الله إمّا في اليقظة ، كما في ليلة الإسراء ، أو **في النوم** كما في حديث معاذ : « أتاني ربي فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى »...

نقول :

١) إن القرآن كله وحى بالواسطة (الشورى ٥٢) : فلم يكلّم الله محمداً مباشرة أبداً: « قلْ : نزّله روح القدس » (النحل ١٠٢) ، « قلْ : من كان عدواً لجبريل ، فإنه نزل على قلبك بإذن الله » (البقرة ٩٧) .

٢) و ان القرآن وحي ليلي : « حم . و الكتاب المبين إنا أنزلناه في **ليلة مباركة** » (الدخان ١ ـ ٣) ؛ « إنا أنزلناه في **ليلة القدر** » (القدر ١) . لاحظ الإطلاق في التعبير : « أنزلناه » . فلا مجال لجميع الحالات التى يصفون . حتى الإسراء كان ليلاً : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً »! (الإسراء) . حتى البشرى بفتح مكّة ـ كانت رؤيا ليل : « لقد صدق الله رسوله **الرؤيا** بالحق : لتدخُلُنّ المسجد الحرام ، إن شاء الله » (الفتح ٢٧) . حتى البشرى بالنصر في بدر كانت رؤيا منام : « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً » (الأنفال ٤٣) . فالقرآن جملة و تفصيلاً وحي ليلي !

و يذكر السيوطي (الإتقان ١ : ٤٦) من أمثلة الوحي النومي سور الكوثر و الضحى و الشرح ، و آخر سورة البقرة ـ فما صح في بعضه جاز في كله .

٣) و ان القرآن وحي في حالة « البرحاء » و « الإغماء » :

يقول (الإتقان ١ : ٢٣) : « أما **النومي** فمن أمثلته سورة الكوثر ، لما روى مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله ص بين أظهرنا **إذ غفا إغفاءَة** ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: أُنزِلَ عليَّ آنفاً سورة، فقرأ « باسم الله الرحمن الرحيم. إنا اعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك و انحر ، إن شانئك هو الابتر ». و قال الإمام الرافعي في (أماليه) : « فهم فاهمون من الحديث أن السورة **نزلت في تلك الاغفاءَة** ، و قالوا : **من الوحي ما كان يأتيه في النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحي** . قال : و هذا صحيح ، لكن **الأشبه** أن يقال إن القرآن كله نزل في اليقظة ... قال: وورد في بعض الروايات أنه **أغمى عليه**، و قد يحمل ذلك على **الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحي و يُقال لها : برحاء الوحي**.

(قلتُ) الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه ، و هو الذي كنت أميل اليه قبل الوقوف عليه ، والتأويل الأخير (**حال الإغماء**) أصح من الاول (حال النوم) لأن قوله ((أنزل عليَّ آنفاً)) يدفع كونها نزلت قبل ذلك . بل نقول : **نزلت في تلك الحالة (الإغماء)** ، و ليس الاغفاء اغفاء نوم ، بل الحالة التى كانت تعتريه عند الوحي ، فقد ذكر العلماء أنه **كان يُؤخذ عن الدنيا**)) .

يُستدل من ذلك أنّ محمداً كانت تعتريه **حالة الإغماء** ، ففسّروها بحالة صوفية ((أنه كان يؤخذ عن الدنيا)) و سموها ((برحاء الوحي)) .

٤) و ينقلون عن عائشة في **وصف** ((**برحاء الوحي**)) حديثاً قالت : ((كان رسول الله ص إذا نزل عليه الوحي **يغطّ في رأسه و يتربّد وجهه** أي يتغيّر لونه بالجريدة ، و يجد **بَرْدَاً في ثناياه ، و يعرق حتى يتحّدر منه مثل الجمان**)) (الإتقان ١ : ٤٦)

و ينقل الأستاذ دروزة[١] : ((قالت عائشة : (و لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فينفصم عنه ، **و إن جبينه ليتفصد عرقاً**) ... أخبر صفوان بن يعلي : (فإذا بالنبي **محمرّ الوجه يغطّ كذلك ساعة**) ... أخبر زيد بن ثابت (فأنزل الله على رسوله و فخذه على فخذى **فثقلت عليّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذي** ، ثم سُرّي عنه فأنزل الله ((غير أولى الضرر)) .

فما أسموه ((**برحاء الوحي**)) وصفه الشهود بأنه **حالة إغماء** ، من أوصافها: ((محمر الوجه يغط كذلك ساعةً)) ، ((**يغط في رأسه و يتربد وجهه**)) ؛ ((وإن جبينه ليتفصّد عرقاً)) ، ((فثقلت فخذه علي حتى خفت أن تُرض فخذي)) .

يسمّي الأطباء هذا الإغماء **داء الصَرْع .**

و المرض لا يتنافى و النبوّة . لكن من الغريب ان يقرنوا ذلك الداء بحالة الوحي ، ويسموه ((برحاء الوحي)) ، و قد بدأ معه في سن الطفولة لمّا كان معه مرضعه ، و هو دون الخامسة ، و سموا الحادث أسطورة ((شق الصدر)) .

٥) إن ما اسموه ((برحاء الوحي)) كان مرض الإغماء أي داء الصرع الذي اعتراه منذ الصغر . و لعلهم أخذوا الاسم عن الاقدمين الذي كانوا يسمون الصرع ((**المرض الإلهي**)) . يقول العقاد [٢] :

---

(١) **القرآن المجيد** ص ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) **العبقريات الإسلامية** ـ ((**مطلع النور**)) ص ٥٨ ـ دار الاداب ، بيروت .

« كان الغالب على الرائين أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذابة » أو « الصرع » . فيتدفقون بالوعد و الوعيد ، و ينذرون الناس بالويل و الثبور ، و يقولون كلاماً لا يذكرونه و هم مفيقون . فيحسب السامع ان الوثن المعبود يجري هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة و التبصرة . و سمّي الصرع من أجل هذا **بالمرض الإلهي** في الطب القديم » . نجلّ النبي العربي عن مثل ذلك ؛ لكن حالة « المرض الإلهي » واحدة .

و العرب سمّوا صاحب هذا « المرض الإلهي » مَن « به جِنّة » ، فهو في عرْفهم « مجنون أي تسكنه جِنة . و القرآن ينقل شهادتهم و تفسيرهم البسيط البدائي لداء النبي : « أم يقولون : به جِنّة » (٢٣ : ٧١) ، « إن هو إلا رجل بهِ جِنّة » (٢٣ ـ ٢٥) « أم به جنة » (٣٤ : ٨) . فلا ينكر القرآن المرض ، لكن يردّ على تفسيرهم له: « ما بصاحبكم من جِنّة » (٣٤ ـ ٤٦) ، « ما بصاحبهم من جِنّة » (٧ : ١٨٤) .

كان العرب يشاهدون اغماء محمد فينسبونه « للجنون » أي به جِنّة ، « و يقولون : إنه لمجنون » (٦٨ : ٥١) ، « إنك لمجنون » (١٥ : ٦) ، « قالوا : مَجنون و ازدُجر » (٥٤ : ٩) . وبعضهم شك ما بين السحر و « الجنون » : « قالوا: ساحر أو مجنون » (٥١ : ٥٢) ، « وقال: ساحر أو مجنون » (٥١ : ٣٩) . وبعضهم خلط بين الشعر و « الجنون »: « و يقولون : أإنا تاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (٣٧ : ٣٦) . و بعضهم زاد التعلّم من الغير على « الجنون » : « و قالوا : معلّم مجنون » (٤٤ : ١٤) . و بعضهم نسب حاله الى الكهانة أو الجنون (٥٢ : ٢٩) . فيجيبهم دائماً بسماحة و حزم : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن و لا مجنون » (٥٢ : ٢٩) ، « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » (٦٨ : ٢) ، « و ما صاحبكم بمجنون » (٨١ : ٢٢) .

فالقرآن ينفي تفسير حال النبي « بالجنون » ، لكنه لا ينفي مرض الإغماء الذي يشاهدون . ففى تهمة « الجنون » الشعبية دليل على صحة المرض ـ و بما أن التهمة متواترة في القرآن كله ، فهي الدليل على أن حالات الصرع رافقت تنزيل سوره ، فسموها « برحاء الوحي » .

تلك هي كيفية الوحي القرآني بحسب القرآن و الحديث . لكن ذلك المرض لم يمنع العبقرية و البطولة في الدعوة ، و لا الاستبسال و الاستماتة في الرسالة حتى النصر المبين .

خاتمة

« برحاء الوحي » ليست من الإعجاز في النبوّة

إن كيفية الوحي القرآني التى أسموها بسبب مرض النبي الذي رافقها « برحاء الوحي » جعلت النبي العربي « بدْعاً من الرسل » .

فها تاريخ أنبياء الكتاب ، إننا لا نجد فيهم من أوصاف « برحاء الوحي » شيئاً . نكتفي بذكر أقربهم عهداً اليه .

إن السيد المسيح يعلّم الإنجيل أيام السبت في جوامعهم . و يدعو في الساحات والبيوت، على البحر و في البرّ ، في السهل و على الجبل . و لا نلحظ في الإنجيل ، و لا في ما نقلوه في « العهد الجديد » شيئاً من حالات النبي العربي ، من إغماء و صرع و « برحاء الوحي » . لا نراه يخرج عن الفطرة إلاّ مرة واحدة ، في حالة « التجلّي » و هو يناجي الحق سبحانه على قمة جبل الشيخ الفاصل بين لبنان و دمشق : « **تجلّى أمامهم فأضاء وجهه كالشمس ، و صارت ثيابه بيضاء كالنور** » (متى ١٧ : ٢) . هذا هو الإعجاز المطلق في كيفيات النبوّة و حالات الكشف الإلهي .

أجل أن « برحاء الوحي » كما وصفوها لنا ليست من الإعجاز في النبوّة ، و لا هي معجزة لمحمد كما يتوهمون و يوهمون .

الجزء الثالث

الإعجاز في الرسالة

توطئة

ما بين الرسول و الرسالة

« لا إكراه في الدين »
(البقرة ٢٥٦)
« كتب عليكم القتال ، و هو كره لكم »
(البقرة ٢١٦)

الرسول صورة رسالته . و الرسالة صورة رسولها . و سرّ الرسول و الرسالة بخواتيمهما أكثر من مقدماتهما .

إن سورة (البقرة) هي مفترق الطرق بين القرآن المكي و رسوله و القرآن المدني ورسوله . و قد اجتمعتا و افترقا على مبدأين متعارضين ، في سورة واحدة : فمن جهة « لا إكراه في الدين » (البقرة ٢٥٦) ، و من جهة أخرى « كُتب عليكم القتال ، و هو كره لكم » (البقرة

٢١٦) . و يزيد التعارض ظهوراً ، أن مبدأ التسامح في الدين (٢٥٦) و رد في النسق بعد مبدإ القتال في سبيل الدين (٢١٦) .

إن الرسالة المعجزة ليست الرسالة الناجحة مهما كان أسلوبها . إنما الرسالة الإلهية هي التى ترتكز على المعجزة الإلهية ، مهما بدت ظواهرها فاشلة . و قد يكون نجاح الرسالة باستشهاد رسولها شهادة لها .

كانت دعوة النبي العربي في مكّة ((بالحكمة و الموعظة الحسنة)) على طريقة أنبياء الكتاب ، ففشلت لأنهم أعجزوه بمعجزة عجز عنها ؛ و تحداهم بإعجاز قرآنه ، فما أعجزهم ولا هداهم . فهاجر الى المدينة طريداً شريداً ينجو بنفسه متخفّياً ، خيشة الاستشهاد . و نعرف بالمقارنة أن السيد المسيح مشى بدعوته بالمعجزة حتى الاستشهاد ، يحدّد زمانه و يصف كيفيته . فتحول الفشل الظاهرى الى نصر مبين بشهادة الدم التى لا ترد . هاجر محمد الى المدينة ليطلع على الناس بأسلوب جديد في الرسالة و الدين ، هو أسلوب الجهاد و القتال في سبيل الدين ، فكان بذلك ((بدْعاً من الرسل)) على غير ما عوّدنا الله في أنبياء الكتاب . ونحن ندرس هنا هذا الأسلوب الجديد في النبوّة و الدين ، لنرى مدى الإعجاز في الرسالة .

بحث أوّل

الرسالة ما بين الفشل و النجاح

ظاهرة كبرى في الدعوة القرآنية ، ما بين مكّة و المدينة ، هي الفشل في مكّة ؛ والنجاح في المدينة فما هو السر ؟

قامت الدعوة بمكّة على مبدإ و أسلوب . لكن المبدأ فشل ، و الأسلوب فشل .

كان مبدأ الدعوة : ((ادعُ الى سبيل ربك **بالحكمة و الموعظة الحسنة** ، و جادلهم بالتى هي أحسن)) (النحل ١٢٥) . و تلك هي سبيل أنبياء الكتاب .

فالقرآن المكي كله يمشى على هذا المبدإ . و لا يردّ على القوة بمثلها ، لا على عجز، بل عن مبدإ . و عند شدة الاضطهاد الأول حمل جماعته على الهجرة الى الحبشة . و عند شدة المحنة و الأذى عليه هاجر شخصياً الى الطائف . أخيراً دبرالهجرة الكبرى الى يثرب .

و مثله و مثل جماعته في مكّة صورة « عباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هوناً ، و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً ! و الذين يبيتون لربهم سجّداً و قياماً ... واجعلنا للمتقين إماماً » (الفرقان ٦٣ ــ ٧٤) . عباد الرحمان، يسميهم بالمدينة « الراسخين في العلم » أي النصارى من بني إسرائيل . فهم مثال الدعوة السمحاء حتى في الفتنة و الاضطهاد: « ادفع بالتى هي أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون » (المؤمنون ٩٦) ، « و لا تستوي الحسنة و لا السيئة : ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم » (فصلت ٣٤) . هذا المبدأ صورة قرآنية لمبدإ الإنجيل : « من ضربك على خدك الأيمن ، فأدر له الآخر » فاللطف أفعل في الخصم نفسه من العنف .

لكن الدعوة بمبدإ « الحكمة و الموعظة الحسنة » فشل في الرسالة كلها بمكّة . فدبّر الرسول الهجرة الكبرى الى يثرب للفرار من القتل و الاستشهاد ، و تدبير أمر الدعوة بمبدأ آخر ، و أسلوب آخر .

كان أسلوب الدعوة بمكّة إعجاز القرآن في النظم و البيان ، فتحداهم « بسورة مثله » (يونس ٣٨) ، « بعشر سور مثله » (هود ١٣) ، « بمثل هذا القرآن » (الإسراء ٨٨) « بحديث مثله » (الطور ٣٤) .

لكن هذا التحدّي بالإعجاز جاء بعد عجز النبي عن « آية كما أُرسل الأولون » (الأنبياء ٥) ؛ و قرّر : « و ما منع الناس أن يؤمنوا ... إلاّ أن تأتيهم سُنّة الأولين » (الكهف ٥٥) أي المعجزة الحسية . فصرّح أن الناس لم يقبلوا منه التحدّي بإعجاز القرآن . و ظلوا الى آخر العهد بمكّة يتحدونه « بسُنّة الأولين » لأنها من الله « سلطان مبين » على صحة الدعوة و صدق النبوّة .

و النتيجة الحاسمة أن التحدّي بإعجاز القرآن قد فشل في مكّة ، و لم يحمل أهلها على الإيمان بصحة الدعوة ، و لا على تصديق النبوّة .

فقد فشلت الرسالة بمكّة في مبدئها « بالحكمة و الموعظة الحسنة » ، و في أسلوب دعوتها بإعجاز القرآن في النظم و البيان . و على أهل الإعجاز أن لا ينسوا هذا الفشل الذريع الذي

حمل النبي ، بعد المناداة به في مطلع الدعوة بالمدينة « بسورة من مثله » (البقرة ٢٣) ، على السكوت نهائياً عنه ، و التحول الى أسلوب آخر . و كانت الهجرة النهائية الى يثرب ، فصارت « مدينة » الرسول . فكانت هذه الهجرة ثورة و انقلاباً في الرسول و الرسالة ، في الدعوة و الدين .

يقول القرآن المكي على لسان النبي : « ما كنت بدْعاً من الرسل » (الأحقاف ٩) . و نراه في القرآن المدني « بدْعاً من الرسل » . فقد كانت الهجرة الى المدينة هجرة في النبوّة الى السياسة : « هنا يبدأ الدور السياسي ... و هذا الدور من حياة الرسول **لم يسبقه اليه نبي أو رسول .** فقد كان عيسى ، و كان موسى ، و كان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس **من طريق الجدل و من طريق المعجزة ...** فأما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام و انتصار كلمة الحق على يديه ، و أن يكون **الرسول و السياسي و المجاهد و الفاتح** » [1] .

فالنبي صاحب دعوة دينية ، و ليس رجل السياسة ، و لا زعيم دولة . فهو يحمل كلام الله الى الناس ، لا سيف الإسلام للجهاد و الفتح .

كانت الدعوة بمكّة للإيمان بالله و اليوم الآخر ! فصارت بالمدينة الى الإيمان باليوم الحاضر . كان يقول : « و لا تمدَّنَّ عينيك الى ما متّعنا به أزواجاً منهم ، و لا تحزن عليهم » (الحجر ٨٨) ، فصار يقول : « اليوم أحلّ لكم الطّيبات ... يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكم » (المائدة ٥ و ٨٧ ؛ قابل البقرة ١٦٨) . كانت الدعوة بمكّة دينية ، فصارت بالمدينة دنيوية أيضاً ، حتى امتزجت شؤون الروح بشجون الجسد ، و أحوال الدين بأمور الدنيا ، و حاجات الدنيا بميزات الآخرة ، و انقلب الدين الى دولة .

منذ مطلع الدعوة بالمدينة جاءَت شرعة الجهاد القرآنية : « كُتب عليكم القتال و هو كره لكم » (البقرة ٢١٦) . فتحولت الرسالة الدينية الى رسالة دولية ؛ و صار الإسلام دنياً ودولة معاً . و صار محمد « نبي الملحمة » بعد أن كان « نبي المرحمة ». و انتشر الإسلام بالجهاد للدفاع أولاً عن وجوده و كيانه ، ثم للهجوم بالسيف على سائر الجبهات ، فنجحت الدعوة . فالرسالة ما بين مكّة و المدينة قامت على الفشل بمكّة ، و على النجاح بالمدينة . وذلك بسبب فرض الجهاد في الدين ، و القتال على الإيمان .

---

(١) حسين هيكل : **حياة محمد** ص ١٩٠ .

و هو يبرّر نشر الإسلام بالجهاد بقوله : « إنا أنزلنا الحديد (أي السيف) فيه بأس شديد ، و منافع للناس » (الحديد ٢٥) . تقوم لديه منفعة الدين و الدنيا بالسيف . فكان نصر الله و الفتح ، كما يشهد في آخر سورة : « إذا جاءَ نصر الله و الفتح ، و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك ، **و استغفره** إنه كان تواباً » (سورة النصر) . إن فرض الاستغفار ، بعد الفتح ، يفترض أنه فتح مشبوه من حيث الإِعجاز في الرسالة الدينية .

بحث ثان

فرض القتال في الدين

ما زال طول العهد بمكّة ، حتى مطلع العهد بالمدينة يقول : « لا إكراه في الدين » (البقرة ٢٥٦) . لكن منذ مطلع العهد بالمدينة يشرع : « كتب عليكم القتال » (البقرة ٢١٦) ، و ليس القتال ضرورة عابرة ، بل إنه ركن من أركان الإسلام ، نزل من الله لنصرة الله ورسله : « و أنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، و منافع للناس ، و ليعلم الله من ينصره و رسله بالغيب : إن الله قوي عزيز » (الحديد ٢٥) .

تلك نفحة ناشزة لها صدى في التوراة ؛ و جاء الإنجيل فقضى على القتال في الدين . لكن القرآن يعود فيشرع القتال في سبيل الدين ، و تتطور شريعة الجهاد و القتال حتى تملأ الدعوة و السيرة بالمدينة : « و الآيات القرآنية في موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً **يكاد يبلغ نصف القرآن المدني** . و في هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية في العهد المدني أو أهمها »[١].

---

(١) دروزة : **سيرة الرسول** ٢ : ٢٢١ ـ ٢٢٢

بهذا التشريع المتواتر صار الإسلام **دين قتال** ، بدل أن يظل دين سلام كما يؤخذ من اسمه .

و تبرير تشريع القتال في الدين يزيد الأمر حَرَجاً . **فالغاية الأولى** منه **رد الفتنة عن الدين بالقوة :** « و الفتنة أشد من القتل » (البقرة ١٩١) . إن الفتنة تبرر القتل : « و الفتنة أكبر من القتل » (البقرة ٢١٧) . و قامت **الحرب الأهلية** بين العرب « حتى لا تكون فتنة ، و يكون الدين كله لله » (البقرة ١٩٣) . إن الحرب الأهلية مفروضة مشروعة : « و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، و يكون الدين كله لله » (الأنفال ٣٩) . و يتبع ذلك قتل المرتد عن دينه: « و من يرتدْ منكم عن دينه . فيمت و هو كافر » (البقرة ٢١٧).

و الغاية الثانية في دين القتال المغانم الكثيرة : « **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجّلَ لكم هذه ، و كفّ أيدي الناس عنكم ، و لتكون آية للمؤمنين** » (الفتح ٢٠) . فالمغانم الكثيرة التى تجْنى من فريضة الجهاد و شريعة القتال هي آية الله في دينه !

تلك الغاية المزدوجة برهان على أن القتال لم يُشرعْ فقط **للدفاع** عن حرية الدين ، بل فرض لفرض الإسلام بالقوة على العرب : « كانت مهمة النبي ، و هو يهاجر ، واضحة : وهي **أن يكره قريش على الإسلام بحد السيف** ، بعد أن بذل لها النصح ثلاثة عشر عاماً فلم تزد إلا عتواً » [١]. فليس صحيحاً أن « حروب النبي عليه السلام كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلاّ على سبيل المبادرة بالدفاع ، بعد الايقان من نكْث العهد والاصرار على القتال ، و تستوي في ذلك حروبه مع قريش ، و حروبه مع اليهود أو الروم » [٢] . فبعد احتلال مكّة و السيطرة على الحجاز ، ظلت الحروب قائمة : أللدفاع أم للهجوم ؟ و بعد تصفية اليهود بالمدينة ، هل كان غزو اليهود في الشمال للدفاع أم للهجوم ؟ وبعد استضافة المهاجرين بالحبشة ، أكانت غزوة مؤتة ثم تبوك للدفاع أم للهجوم ؟ إن دولة فارس ، و دولة الروم كانتا قائمتين منذ الف سنة قبل الإسلام ، و لم يفكر أحد من الدولتين

---

(١) محمد صبيح : **عن القرآن** ص ٦٢ .
(٢) العقاد : **مطلع النور** ١٣٩ في (العبقريات الإسلامية) .

بغزو الحجاز ، فهل توجيه المسلمين لحرب الروم ثم لحرب الفرس ، بعيداً عن جزيرة العرب، كان للدفاع أم للهجوم لفرض دولة الإسلام في العالم ؟

يقول العقاد [١]: « إن الإسلام إنما يُعاب عليه أن يحارب بالسيف **فكرة** يمكن أن تحارب بالبرهان و الاقناع . و لكن لا يُعاب عليه أن يحارب بالسيف « **سلطة** » تقف في طريقه و تحول بينه و بين اسماع المستعدّين للاصغاء اليه ، لأن السلطة تُزال بالسلطة ، و لا غنى في اخضاعها عن قوة » . و فات الأستاذ أنه لم تقم « سلطة » بالحجاز في وجه الإسلام، بل قام سادة المشركين بمكّة عليه لحماية شركهم و مصالح الحج و منافعه . وهبْ أنهم كانوا سلطة و قوة ، فهل هذا يبرّر في منطق الدين، لا في منطق السياسة ـ قتالهم لحماية الدين منهم و فرض الإسلام عليهم ؟ و بعد خضوعهم بفتح مكّة ، أي سلطة بقيت في الحجاز تقف في وجه الإسلام ؟ لقد ظل القتال مشروعاً و قائماً لفرض الإسلام على الحجاز كله و على الجزيرة كلها « لئلاّ يجتمع في جزيرة العرب دينان » : « قلْ للمخلفين من الاعراب : ستدعون إلى قوم أولي بأسٍ شديد **تقاتلونهم أو يُسلمون** » (الفتح ١٦) . فليس أمام العرب من مهرب : القتال أو الإسلام .

يقول العقاد أيضاً [٢] : إن الإسلام لم يحتكم الى السيف إلاّ في الأحوال التى أجمعت **شرائع الانسان** على تحكيم السيف فيها : فالدولة التى يثور عليها مَن يخالفها بين ظهرانيها ماذا تصنع إن لم تحتكم الى السيف ؟ » إنّما نحن في الدين ، و شريعة الله ، لا في الدولة وشرائع الانسان . و هل جاء الإسلام ديناً أم دولة ، ليحتكم الى السيف في من يخالفه ؟ ففي الاحتكام الى السيف تحول الدين الى دولة ، و النبوّة الى إمارة .

إن فرض القتال في الدين ، لا عهد لنا به في دين . هل هذا هو الإِعجاز في الرسالة الدينية ؟

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.

بحث ثالث

تحويل الدين بالجهاد الى دولة و نظام دنيا

بفرض القتال في الدين ، تحول الدين الى دولة . لذلك يقولون : « **الإسلام دولة .** في المدينة أصبح الإسلام ديناً و دولة معاً . فبدأت **قواعد الدولة الإسلامية** بالرسوخ . و أخذ الرسول يهتم بالأسس الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و العلمية التى يجب أن تقوم عليها الدولة . و سيبرز في الوحي بعد ذلك ناحيتان : ناحية **الجهاد** لتثبيت الإسلام **و انشاء الدولة الجديدة** ؛ و ناحية **التشريع ، لإدارة هذه الدولة** » [1].

و هذا هو القرآن المدني كله : جهاد و تشريع لإقامة دولة دينية . فأين هو الدين الخالص ، كما كان يقول : « ألا لله الدين الخالص » (الزمر ٣) . ففى مكّة كان محمد « مخلصاً له الدين » (الزمر ١١) ، « مخلصاً له ديني » (الزمر ١٤) . و كان يدعو جماعته أن يكونوا « مخلصين له الدين » (٧ : ٢٩ ؛ ١٠ : ٢٢ ؛ ٢٩ : ٦٥ ؛ ٣١ : ٣٢ ؛ ٤٠ : ١٤ و ٦٥ ؛ ٩٨ : ٥) . و في المدينة تحول الدين الى دولة بجهاده و تشريعه : فالقرآن المدني هو قرآن الدولة . ففى المدينة صار الدين **جزءاً من نظام شامل :** « الإسلام دين و دولة ... و إنه **تعرّض لشؤون الحياة الدنيوية العلمية ، بأكثر ممّا تعرّض للأعمال التعبدية ... إن الدين جزء من نظام الإسلام** ، و الإسلام ينظمه **كما ينظم الدنيا** » [2].

و هكذا فالإسلام **نظام دنيا ، و نظام دولة** ، و ما الدين فيها سوى « جزء من الإسلام » . فهل هذا هو الإعجاز في الرسالة الدينية ، عند مَن كان الكتاب « إمامه » في الهدى ؟ (هود ١٧ ؛ الأحقاف ١٢) . هل يُنزل الله كتاباً يهدي الى الدين الحق ، أم الى نظام الدنيا ، و نظام الدولة ؟ و هل تنظيم الدنيا و تنظيم الدولة من الإعجاز في الرسالة الدينية ؟

---

(١) عمر فرّوخ : **العرب و الإسلام** ص ٤٢ .
(٢) الإمام حسن البنّا عند أحمد محمد جمال في « **دين و دولة** » ـ المقدمة الأولى .

بحث رابع

تحويل الدين الى سياسة

إذا كان الجهاد لإنشاء دولة جديدة ، و التشريع القرآني لإدارة هذه الدولة ، كما نقلنا عن السيد عمر فرّوخ ، فهذا يعني تحويل الدعوة الدينية الى دعوة سياسية . فهل هذا ما كان يهدف اليه محمد في مكّة ، فتم له في المدينة ؟ ألا تصدق في ذلك فراسة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة [1]: ((**إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية** ، من نبوّة ، أو ولاية ، أو أثر عظيم من الدين على الجملة . و السبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم ، أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة و الأنفة و بعد الهمة **و المنافسة في الرئاسة**)) .

هل تكون الدعوة القرآنية فترة في **المنافسة على الرئاسة** بمكّة بين بنى أمية و بنى هاشم ؟ كانت حامية قبل مبعث محمد . و كانت سبب المقاومة الكبرى في وجه محمد . وبعده بُعثت في مكامنها و صبغت التاريخ الإسلامي بالدماء . يظهر أنها كانت كذلك في نظر زعماء المشركين ، كما يتضح من قول زعيم مكّة أبي سفيان للعباس عم النبي قبل اسلامه : ((لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيماً)) .

فمهما يكن الأمر ، فإن فرض القتال في النبوّة و الدين كان : انقلاب النبوّة الى إمارة و انقلاب الرسالة الى سياسة و انقلاب الدين الى دولة و انقلاب الدعوة الدينية الى حرب أهلية و انقلاب الإسلام الى نظام دنيا و نظام دولة و انقلاب فكرة الله الرحمان الرحيم الى فكرة الإله الجبّار في القتال ، و بكلمة : انقلاب الدين الى سياسة و دولة . هذا ما فصلناه في فصل ((الإعجاز في الشخصية النبوية)) .

و هكذا ففى تشريع الجهاد ، و فرض القتال في سبيل الدين ، ((من هناك منذ ذلك الوقت خرج (الإسلام) الى العالم **قوة حربية سياسية**)) [2]. فتحولت الدعوة الى سياسة .

فهل هذا من الإعجاز في الرسالة ؟ رسالة دين الله ؟

---

(١) نشر دار الكتاب اللبنانى ص ٢٦٩ .
(٢) حتى : **تاريخ العرب** ١ : ١٦٢ .

بحث خامس

الجهاد أسلوب غريب في الدعوة لدين اللّه

سار محمد على طريقة أنبياء الكتاب العهد بمكّة في الدعوة ((بالحكمة و الموعظة الحسنة)) ، و كان القرآن يقول على لسانه ((ما كنت بدْعاً من الرسل)) . و بالهجرة الى المدينة بدأ أسلوباً غريباً في الدعوة لدين الله بالجهاد ، و تشريع القتال ، ليُظهر الإسلام القرآني على الدين كله ، و لو كره المشركون و الكافرون .

و تشريع الجهاد جعل الإسلام القرآني **دين القتال** ، مهما غلّفنا هذه الشريعة الحربية في الدين بغلافات البيئة ، و ضرورات الحاجة ، و ملزمات الدعوة ، و شروط الشريعة . فكل الموجبات و المفارقات تذوب في الصورة الأخيرة لشريعة القتال ، في اسمها ، ((براءَة)) وفي موضوعها القتال العام الدائم : ((براءَة من الله و من رسوله الى الذين عاهدتم من المشركين : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، و اعلموا أنكم غير معجزي الله ، و أن الله مخزي الكافرين (...) فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)) حتى يسلموا (براءَة ١ و ٢ و ٥) . قال ابن حزم : ((نسخ بهذه الآية ماية و أربع عشرة آية ، في ثمان و أربعين سورةً ! و نقل (الإتقان ٢ : ٢٤) : ((قال ابن العربي : كل ما في القرآن من الصفح عن الكفّار ، و التولّي و الاعراض و الكف عنهم ، منسوخ **بآية السيف**)) .

فآية السيف هي إذن روح القرآن ، و هدفه البعيد الحقيقي ، كما جاء في الحديث عن الرسول : ((أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . **فإذا قالوها عصموا منى دماءَهم و أموالهم** ، إلاّ بحقّها ، و حسابهم على الله)) . و يقول حديث آخر : ((ديني بالسيف و مع السيف و في السيف)) . فلا حرّية بعد للانسان تجاه الإسلام . فآية السيف تنقض مبدأه : ((لا اكراه في الدين)) . فالحديث و القرآن يجعلان الإسلام دين القتال ؛ فليس له شأن في اجتناب القوة كشأن كل دين . و هذا أسلوب غريب في الدعوة لدين الله يرفع الحرية الفطرية عن المشرك بإكراهه في الدين ، و عن المؤمن ، إذ يبيح قتل المرتد . فالإكراه في الدين من روح الجهاد و حرفه .

لقد خلق نظام حياة فريداً في النقل و العقل : **فقد مزج الدين بالدنيا** و فرض صبغها بمظاهر الدين ، فجعل المجتمع الإسلامي ينفرد عن كل مجتمع ، و لا يندمج بأي مجتمع . **وقد دمج الدين بالقومية** ، و خلق قومية دينية فوق القومية العنصرية ، فلا مجال في أرضه لقومية أخرى غير قوميته الدينية . و تسامحه في الوطن الواحد يجعل أبناء دين آخر أبناء جارية ، لا من أبناء ((الست)) ؛ و مواطنين مشبوهين بين المواطنين المسلمين . و بذلك اخضع الدين لتقلبات القومية ، و عرْضةً لصراع الدين و القومية . **و قد حوّل الدين الى دولة دينية** ، ليس منها مَن هو فيها على غير دين . و ليس أبناؤه في دولة غير دولته إلاّ طارئين أو دولة ضمن الدولة . فخضع الدين الى تقلّبات الدولة و كان عرضة لصراع الدين و الدولة . **و قد اصطبغ الدين بالسياسة** ، فكان على المسلم أن يهتم بالسياسة اهتمامه بالدين ؛ و كان الاهتمام بالسياسة من صميم الدين . فخضع الدين لتقلبات السياسة كما شهدنا في التاريخ ، وكما نشهد في الواقع . و كان عرضة لصراع السياسة في نفس كل مؤمن ، و كل مجتمع ، وكل دولة . **و خضع الاجتماع و الاقتصاد للدين ، كما خضع الدين للاجتماع و الاقتصاد .** ومع تطور الحياة و مفاهيم الحياة ، خلق الصراع بين الدين و الاجتماع ، و خلق الصراع بين الدين و الاقتصاد . فتجمّد الاجتماع و الاقتصاد على أحكام الدين كما ظهر في بيئة محدودة ؛ أو تطور الاجتماع و الاقتصاد على حساب أحكام الدين .

فهل هذا كله من الإِعجاز في الرسالة ؟ رسالة دين الله ؟

خاتمة

معجزة « الحديد » هي الإعجاز في الرسالة

آن لنا أن نتساءَل : هل نجحت الرسالة المحمدية و ثبتت نبوتها بإعجاز القرآن أم بسيف الإسلام ؟

شهادة الواقع التاريخي أن الرسالة المحمدية فشلت بمكّة « بالحكمة و الموعظة الحسنة » ، و نجحت في المدينة بشريعة القتال و سيف الإسلام . **و شهادة القرآن المدني كله** أن الدعوة المحمدية **نجحت بالقتال و الفتح .** بعد تحدّي المشركين بمكّة ـ في فترة عابرة ـ بإعجاز القرآن ، نسخ هذا التحدّي في المدينة ، بالناسخ و المنسوخ في أحكام (البقرة ١٠٦) و بالمحكم و المتشابه في أوصافه (آل عمران ٧) . و تحدّي العالمين بمعجزة « الحديد » : « إنا أنزلنا الحديد ، فيه بأس شديد و منافع للناس ، و ليعلم الله مَن ينصره و رسله بالحق » (الحديد ٢٥) . فبدون السيف لا نصرة لله ، و لا نصر لرسوله ، ولا منافع لأتباعه ! فتحول الإسلام ، في رسالة النبي العربي ، من دين السلام ـ كما يعنى اسمه ـ الى دين القتال: « كتب عليكم القتال و هو كره لكم » (البقرة ٢١٦) . و صارت رسالة السلام رسالة الحرب؛ و تحوّل « نبي المرحمة » الى « نبي الملحمة » : « محمد رسول الله ، و الذين معه ، أشداء على الكفّار ، رحماء بينهم » (الفتح ٢٩) .

وشهادة القرآن في ختام الرسالة و الدعوة أن الناس دخلوا في الإسلام « بنصر الله والفتح » : « اذا جاء نصر الله و الفتح ، و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك ، **و استغفره** ، إنه كان توّاباً (سورة النصر) . و الأمر بالاستغفار ، بعد النصر و الفتح ، دليل على أن أسلوب الدعوة بالقوة مشبوه .

فنجاح الرسالة قام **بسيف الإسلام**، لا **بإعجاز القرآن**، و هذا بنص القرآن القاطع في آخر سورة نزلت منه. فلم يكن الإعجاز معجزة محمد والقرآن. فلم تنجح الدعوة القرآنية ((بالحكمة والموعظة الحسنة)) ، كما هو سبيل الدعوة الدينية، بل ((بالحديد الذي فيه بأس شديد و منافع للناس)). و لم تنجح بالمعجزة الحسية، بحسب ((سُنّة الأنبياء الأولين)) . و لم تنجح بالمعجزة الشخصية. و لم تنجح بإعجاز القرآن، بل بشرعة القتال و سيف الإسلام.

فهل هذا هو الإعجاز في الرسالة، رسالة دين الله؟